

العلمانية و النوع و الدولة في الشرق الأوسط

العلمانية و النوع و الدولة في الشرق الأوسط

تأليف نادية العلي
ترجمة مصطفى رياض

497

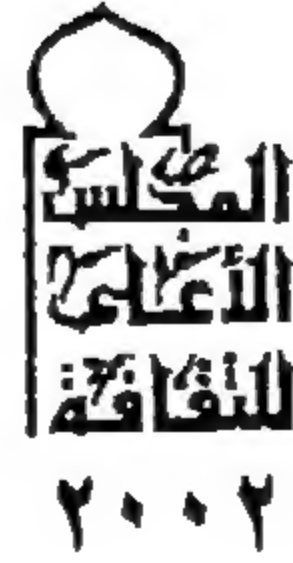
المشروع القومي للترجمة

الحركة النسائية المصرية

العلمانية، والنوع، والدولة في الشرق الأوسط

تأليف: نادية العليّ

ترجمة: مصطفى رياض



المشروع القومي للترجمة

إشراف : جابر عصفور

- العدد : ٤٩٧

- الحركة النسائية المصرية

(العلمانية ، والنوع ، والدولة فى الشرق الأوسط)

- نادىة العلى

- مصطفى رياض

- الطبعة الأولى ٢٠٠٢

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمجلس الأعلى للثقافة

شارع الجبلية بالأويرا - الجزيرة - القاهرة ت ٧٣٥٢٣٩٦ فاكس ٧٣٥٨٠٨٤

El Gabalaya St., Opera House, El Gezira, Cairo

Tel : 7352396 Fax : 7358084 E. Mail : asfour @ onebox. com

تهدف إصدارات المشروع القومي للترجمة إلى تقديم مختلف الاتجاهات والمذاهب الفكرية للقارئ العربي وتعريفه بها ، والأفكار التي تتضمنها هي اجتهادات أصحابها في ثقافتهم ولا تعبر بالضرورة عن رأى المجلس الأعلى للثقافة .

إهداء المؤلفه

إلى أبواى ، داجمار وصديق العلى

مقدمة

يجسدُ الموقفُ المعاصر للنساء في مصر حالة التوتر والصراع التي تميز العديد من مجتمعات البلاد التي خضعت في الماضي للاستعمار ، وتجد النساء المصريات أنفسهن في بؤرة تتزاحم فيها خطابات ومصالح تبدو متناقضة وتستثير ردود أفعالهن، كما أن هذه المجتمعات تشهد صراعات بين القوى يكمن في جوهرها جدل عنيف عن التحديث وصلته بالتأثير الغربي، وبال دفاع عن الثقافة والتقاليد الوطنية "الأصيلة". وقد سجّلت الأعمال الحديثة في المجال الثرى والشامل لدراسات ما بعد الاستعمار بعض الصراعات السياسية التي ارتبطت بعملية إزالة آثار الاستعمار وبناء الدول، وقد أشارت هذه الدراسات تحديداً لظهور نخبة محلية قوية تتجه لإنتاج علاقات لا تتسم بالمساواة بين الطبقات، والجماعات الدينية، وبين الجنسين (Chatterjee, 1993; Hall, 1996a; Kandiyoti, 1991, 1995; Malello, 1996; Prakash, 1995; Rattansi, 1997; Said, 1993; Spivak, 1998) ، وفي كثير من الأحيان تجد النساء أنفسهن في بؤرة الصراع بين مصالح متضاربة وغامضة، وقد تجاذبتهن دعوات التحديث، ومحاولات التحرر، والخطاب البلاغى الوطنى الذى ينادى بـ"الأصالة"، والزحف الإمبريالى المستمر .

وقد وضعت التيارات الإسلامية في السياق المصرى مزيداً من القيود على آفاق الخطاب الجدلى المتداول، وعلى الخيارات المتاحة للنساء. ويصدق ذلك بصفة خاصة على الناشطين الذين يتصدون للدفاع عن القضايا ذات الصلة بالعلاقات بين الجنسين، إلى جانب مختلف أشكال عدم المساواة والظلم في إطار الرؤية التي تقدم "الأمة" في صيغة موحدة معممة، وقد تعرضت الناشطات المصريات اللأى ضرب نشاطهن بجذوره في الشعور الوطنى وحركة الكفاح ضد القوى الاستعمارية لاتهامات معاداة الوطن ومعاداة الدين، وقد تزايدت الاتهامات وخاصة من قبل الحركة الإسلامية والقوى الوطنية، بالتواطؤ مع الإمبريالية الغربية لجلب أفكار وممارسات غريبة ونشرها في .

المجتمع، وقد أدت أسلحة التخويف هذه إلى نشأة مخاوف بين ناشطات الاتجاه النسائي في مصر أسكتت أصوات الكثيرات منهن .

وإنني أمل من خلال دراستي لقطاع محدد، غير أنه يتسم بالتنوع، من مصر في عهد ما بعد الاستعمار، ألا وهو قطاع النشاط النسائي ذي التوجه العلماني، أن أفك التشابك في مواطن التوتر والصراع الذي تتسم به العمليات المعقدة لإزالة آثار الاستعمار، وتستمر في تأثيرها على الثقافة السياسية. ويتشكل النشاط النسائي المعاصر في مصر على أساس من الخوف من التعدي على الأعراف والقيم التي تحتل وضعها في النسيج الوطني، وتحتل قضية الهوية محل الصدارة في ذلك النشاط مثلها في ذلك مثل الكفاح للحصول على حقوق النساء وتحقيق تطلعاتهن. وتخاطر الناشطات العلمانيات خاصة بالكثير فرفضهن للإسلام بوصفه الإطار الوحيد الذي يمكن للكفاح السياسي وبناء الدول أن يتم من خلاله يثير الشكوك حول موقعهن من "التقاليد" و"الأصالة" على الساحة المحلية .

وفي هذا الكتاب، أحاول أن أقدم وصفاً إثنوجرافياً مفصلاً لسياق النشاط النسائي المصري المعاصر، ومحتواه، ومغزاه السياسي. ويعتمد تقديمي لهذا الوصف على تحليلي لمقابلات أجريتها مع عضوات بجمعيات نسائية وناشطات مستقلات، غير أنه من خلال هذا العمل أقدم رؤيتي الخاصة باستحالة تحليل النشاط النسائي دون أن نضعه في سياقه الأعم الذي يحدث من خلاله. وبالتالي، فإنني سأدرس عدداً من العوامل، مثل الدولة المصرية، والدوائر الإسلامية، واليسار السياسي، فضلاً عن المنظمات والبرامج الدولية، وهي عوامل تترك أثرها - بشكل أو آخر - على أنماط النشاط النسائي ومحتواه وخطاباته .

ومن خلال نقد حركة الحداثة في السياق المصري تتوافر لي أداة لفحص الانقسامات ما بين التقليدي والحديث، والمحلي والغربي، وهي الانقسامات التي لا يقتصر ظهورها على الكتابات الأكاديمية عن النساء في الشرق الأوسط، بل يتعداها ليشكل قوة معارضة قوية في الخطاب الثقافي والتاريخي والسياسي في مصر؛ ففي سياق الدراسات التي تتناول الحركات الإسلامية، تزايد الاتجاه لدراسة الانقسام بين "الحديث" في مواجهة "التقليدي". وعلى الرغم من دعوة الإسلاميين للعودة إلى

"الماضى المجيد"، فإنَّ العديد من الكتاب قد أشاروا إلى الطبيعة "الحديثة" و"التحديثة" للاتجاهات الإسلامية (AlAzme, 1993; Ayubi, 1991; Esposito, 1992; Mogh- adam, 1993; Munson, 1998; Paldar, 1996; Sayyid, 1997; Zubalda, 1989, 1993) أن التنافر القوي بين "الحديث" والتقليدي يشكل صعوبة في التصدي لما يتصل بالنساء في الشرق الأوسط، غير أن هناك العديد من الدراسات الحديثة التي قدمت محاولات في هذا الاتجاه (Abu Lughod, 1995b, 1997, 1998b; Badran, 1995; Baron, 1994; Kandlyoti (ed.), 1996; Macleod, 1991; Moghadam, 1993; Nelson, 1996; Paidar, 1996) ولعل ما يشكل صعوبة أكبر في التصدي له هو تصنيف "الغربي" في مقابل "المحلي"، وهو تصنيف تقوم على أساسه حتى بعض الكتابات التي تعارض الانقسام بين "الحديث" و"التقليدي" معارضة واعية.

وإنني أرى أن هذا الكتاب يتعلق بخلطة الانقسام الصارم ما بين الشرق والغرب بقدر ما يتعلق بنشاطات النساء المصريات العلمانيات، والثقافة السياسية التي تقوم عليها، ولذلك فإنني سأصدي لمحاولات فرض تصورات جوهرية وأحادية لتفسير "الخلاف" بين الثقافات، وهو ما يشير إليه بارثا تشارجي (1993) Partha Chatterjee ، بوضوح عندما ينسب لهذه التفسيرات إنتاج الرؤى والنماذج التي وضعها المستعمرون في بادئ الأمر. وفي الوقت ذاته فإنني أمل أن أقدم وصفاً إثنوجرافياً مفصلاً لحركة تعرضت للكثير من التحليلات والتصنيفات من زاوية غلب عليها نزعة التعميم والنظرة البعيدة من عل .

وفي نهاية المطاف فإنَّ هذا الكتاب يقدم محاولة للإسهام في الحركة النسائية المعاصرة بتقديم وصف مفصل عن قطاع عريض من نشاط النساء العلمانيات. وقد تطلعت إلى تقديم زاوية، وإن كانت جزئية أو محدودة، قد تصلح لاستخدام الناشطات المصريات، وربما ساعدتني طبيعة عملي كباحثة في اكتسابي نظرة ثاقبة لمجالات أوسع من الأنشطة والمواقف التي قد تخفى على من يشارك مشاركة كاملة في الأنشطة موضوع الدراسة، ولم تجد حالة التوتر بين الباحثة والناشطة حلاً لها أثناء إعدادي لبحثي، غير أنني واصلت التصدي للنتائج المتضمنة لهذه الحالة أثناء كتابتي لخلاصة نتائجي.

اعتبارات تتعلق بالمفاهيم

بينما تتوافر لدى المعرفة بالجدل الدائر حول إمكانية إطلاق اسم "حركة" على كافة الأشكال المختلفة لأنشطة الناشطات المصريات المعاصرات، فإنني أساند الرأي القائل بأن هناك أشكالاً مختلفة من الحركات النسائية. ولا شك أن بعض الحركات يسهل التعرف عليها على أساس من عملها الجماعي؛ غير أنني على ضوء تحليل مولينو- Mol- (1998 : 223) أرى أن العدد الكبير نسبياً من الجمعيات والشبكات النسائية المصرية فضلاً عن الناشطات المستقلات المصريات يمثلن حركة نسائية .

أما فيما يتصل بمسألة تعريف "الجماعة"، فإن نقطة البدء التي اعتمدت عليها يمكن أن تكون تعريف دون تشاتي Dawn Chatty للجماعة على أساس تكوينها من مجموعة من الأفراد الذين يتفاعلون مع بعضهم البعض على أساس منتظم، وبالتالي "يشكلون الهويات التي يراها كل منهم في أنفسهم وفي الآخرين من الجماعة نفسها" (Chatty & Rabo, 1997 : 223) غير أنني سأقوم بتعديل معيار التفاعل المنتظم بين الأعضاء، على ضوء الغرض من دراستي؛ لأن عضوية الجمعيات النسائية وأنشطتها في مصر قد تتسم بعدم الانتظام، ومع ذلك فهذه الجمعيات تمثل جماعات في نهاية الأمر، وتميز تشاتي بين الجماعات الأولية مثل الأسرة؛ حيث يجرى عامة تفاعل مباشر بين أفراد الأسرة، والجماعات الثانوية حيث "يتصل الأعضاء ببعضهم البعض من خلال علاقات تنظيمية أكثر تعقيداً" (ibid. 9) أضف إلى ذلك، أنها تميز ما بين الجماعات الرسمية وغير الرسمية، فتري أن الجماعات غير الرسمية أكثر استقراراً مع مضي الوقت، وتعتمد على قواعد منصوص عليها على نحو أكبر. غير أن تشاتي تشير إلى التذبذب بين الفئتين بما يتفق ونتائج بحثي. وفي كتابي هذا فإنني أستخدم كلمتي "منظمة" و"جماعة" (بمعنى جماعة رسمية) بالمعنى ذاته، بينما أعني بمصطلح "شبكة"، ذلك الاتحاد - الذي يتراوح في قوته - بين جماعات رسمية وغير رسمية، كما قد أستخدم المصطلح للإشارة إلى الناشطات المستقلات اللاتي يرتبطن على أساس من الأهداف المشتركة، وعادة ما يجرى إنشاء الشبكات لتولى مهام حملات أو مهام خاصة مثل الحملة ضد ختان الإناث في مصر .

وقد استعنت منذ البداية بمعيار اخترت من خلاله المنظمات، والجماعات، والشبكات، والأفراد؛ فقد عزمت أمرى على تسليط الضوء على الناشطات العلمانيات، غير أنني لم أعن بذلك أن أوحى بأن كافة الناشطات علمانيات، أو أن الناشطات الإسلاميات لسن ناشطات، وقد اعتمدت فى قرارى على عدد من الأسباب سأتناولها بتفصيل أكبر فى ما يلى من فصول كتابى؛ فبغض النظر عن مشاركتى فى أنشطة إحدى الجمعيات العلمانية قبل قيامى ببحثى هذا، فإننى قد لاحظت اتجاهاً لتجاهل الدوائر العلمانية فى الدراسات التى أجريت مؤخراً عن مصر، حيث كان الاهتمام يتجه للأنشطة والاتجاهات الإسلامية. أضف إلى ذلك، أن الدوائر العلمانية، إذا ما جرى تناولها فى تلك الدراسات، تُقدم كوحدة لا تميز بها، وكفئة تكاد تكون هامشية تتكون من غير الإسلاميين .

وتتمثل أحد أهدافى من كتابة هذا الكتاب فى طرح إشكالية حول مفهوم "العلمانية". وفى هذا المقام، أكتفى بتقديم تعريف مبدئى يصلح لبداية هذا العمل، ويشير مصطلح "العلمانية" إلى قبول الفصل ما بين الدين والدولة، غير أنه لا يعنى بالضرورة اتخاذ موقف معاد للأديان أو معاد للإسلام. أضف إلى ذلك أن الناشطات العلمانيات لا يؤيدن اتخاذ الشريعة مرجعاً وحيداً وأساسياً للتشريع ، بل إنهن يعتمدن على القانون المدنى واتفاقيات حقوق الإنسان، الصادرة عن الأمم المتحدة، بوصفها أطراً مرجعية لكفاحهن .

ويعود السبب فى استخدامى لمصطلح "النشاط النسائى" women's activism وليس "الاتجاه النسوى" feminism ، أن من قابلت من السيدات يرفضن مصطلح "الاتجاه النسوى" لأسباب عملية وإيديولوجية، فالمصطلح الإنجليزى يثير العداء، وفى بعض الأحيان يثير مشاعر القلق حتى بين الناشطات اللاتى يبدو أنهن قد استقرت فى نفوسهن الصورة السلبية التى تصورُ بها ناشطات الاتجاه النسائى ككارهات للرجال، عدوانيات، ولربما سحاقيات (وفى الأغلب الأعم شهوانيات) وبون ما شك مقلدات للغرب^(١) .

ولا ينبع عزوف الكثير من المصريات عن إعلان ارتباطهن بالحركة النسوية من شيوع صورة سلبية لتلك الحركة فى المجتمع فحسب، وإنما لارتباطها بالاعتقاد بأن تلك

الحركة تشتت الانتباه بعيداً عن "القضايا الكبرى" مثل الإمبريالية، والصراع الطبقي، والصهيونية (Al-Ali, 1997) .

وتميّز السيدات اللائى قابلتهن بصفة عامة ما بين "الحركة النسائية" و"الحركة النسوية"، ويعد مصطلح "الحركة النسوية" حديث الاستخدام ، وترى معظم الناشطات أنه يشير إلى مفهوم الصراع مع النظام الأبوى^(٢)، ولا يشتمل على تحليلات أو نقد لمظاهر عدم المساواة الاقتصادية والسياسية، ويضفن أن الحركة النسائية تعنى الاهتمام بالاستقلال الوطنى، والصراع الطبقي، وغير ذلك من القضايا الاجتماعية والسياسية ، وهناك عدد قليل من السيدات - غير أنه يتجه للزيادة - يرفضن المفهوم العام للحركة النسوية وسبل تقديمها، وهن ينظرن إلى أنفسهن كناشطات نسويات غير أنهن يلتزمن الحذر فى تأكيد أن اتجاههن يشمل كافة أشكال الصراع ضد المظالم الاجتماعية، كما يؤكدن أنهن لسن كارهات للرجال. غير أن هناك جماعة أخرى تصف نفسها بالناشطات النسويات الماركسيات ، ويؤكدن أنهن ماركسيات يحاربن النظام الأبوى، فى مواجهة الناشطات النسائيات اللائى يحاربن النظام الطبقي .

ويتخلل هذه المسميات العامة أصداء لفئات الاتجاه النسوى الغربى من جماعات تختلف فى توجهها ما بين الاهتمام بالمساواة (الجماعات النسائية الليبرالية)، و"الاختلاف" (الجماعات النسائية الراديكالية)، والجماعات التى يمتد اهتمامها بالتصدى لاستغلال النساء فى المجالين السياسى والاقتصادى (الجماعات النسائية الاشتراكية). وتبدو صعوبة الفصل على نحو قاطع بين تلك الفئات الثلاث فى الغرب ، كما يشكل الأمر إشكالية أكبر فى مصر، غير أن المصطلحات لا تخلو من معنى فى الغرب وكذلك فى مصر إذ أن معانيها مشتقة من اتجاهات مشابهة للظلم والاضطهاد الواقع على النساء تتعدى حدود المجتمعات جميعها بشهادة النساء أنفسهن .

ويتمثل الصراع لإزالة العقبات التى تعوق المساواة بين الجنسين (النشاط النسائى فى مجال اكتساب الحقوق) فى الحملات المختلفة لتغيير القوانين القائمة التى تعكس عدم المساواة وتنتجها وتتسبب فى قيامها، كما يستهدف النشاط فى هذا المجال تحسين فرص التعليم والعمل للنساء، وزيادة مشاركتهن السياسية، ويمثل منهج

"حقوق النساء" أهم شكل من أشكال المشاركة النسائية بين الناشطات المصريات المعاصرات؛ إذ يشكل الاهتمام بالتشريعات والحقوق المتساوية في التعليم، ... إلخ، جانباً مهماً من برامج الناشطات ذوات الاتجاه الاشتراكي. غير أن هؤلاء الناشطات ذوات الاتجاه الاشتراكي ما زلن يختلفن عن نظيراتهن الليبراليات في رفضهن لفكرة أن الإصلاحات ستجلب للنساء المساواة؛ فهن ينظرن إلى استغلال النساء كجانب من عدم المساواة الهيكلية التي تضرب بجذورها في الوضع الطبقي، والرأسمالية والإمبريالية .

ولم يجد الاتجاه الغربي الذي تمثله "الناشطات الراديكاليات" ، والذي يجمع بين مواجهة النظام الأبوي، وتأكيد الاختلافات بين الرجال والنساء، ويسلط الضوء على العلاقات الجنسية بوصفها مجالاً تتعرض فيه النساء للاضطهاد وتصل من خلاله للحرر، ولا يمكننا أن نصف الناشطات القلائل اللاتي عالجن هذه المسألة ذات الحساسية الخاصة بأنهن منفصلات عن المجموع، فهن يبدين اهتماماً باستغلال النساء في مجالات أخرى، وقد تزايد اهتمام العديد من الناشطات الليبراليات وذوات الاتجاه الاشتراكي بالمسألة الجنسية، غير أنهن لم يجعلن منها محور الاهتمام، ومما يثير السخرية أن هناك عدة نساء ممن يرفضن مسمى "الناشطات النسائيات" على أساس أنه مصطلح محدود، فهن يتجهن لصحبة نساء أخريات من وسطهن الاجتماعي، ويطلقن العنان للتعبير عن شكواهن من "الرجال" وما يتسبب فيه الرجال من إحباط لهن، وبالتالي فإنهن يؤكدن الاختلافات الجوهرية بين الجنسين في كثير من الأحيان دون ما قصد منهن .

وإذا نحينا بعض الجماعات جانباً، وهي الجماعات التي تحتل موقعها على طرفي مجال النشاط من حيث اهتماماتها بالتأكيد على التراث الليبرالي وبالاقتصاد السياسي الذي يشكل جانباً من اتجاهاتها الاشتراكية، فإن هذه الأفكار لا تلتزم قيوداً تفصل بينها بوضوح؛ فقد أمكنني أن أجد قدراً كبيراً من التداخل وعدم الثبات بين هذه الجماعات وداخلها، وينطبق ذلك أيضاً على أشكال العمل داخل الأنشطة النسائية، ولذلك فإنني سأرصد تنوع الأنشطة النسائية، وذلك من خلال استكشاف مواقف العضوات المنتميات إلى جمعيات والعضوات المستقلات فيما يتصل بقضايا محددة يثار الجدل حولها في المجتمع المصري، بدلاً من الالتزام بالتصنيف الغربي للأنشطة النسائية التي تضع الليبرالية في مواجهة الاشتراكية .

ويتجاهل مصطلح "الأنشطة النسائية" مجموعة متنوعة من أوجه المشاركة التي إن نظرنا إليها منفصلة لا نجدتها تندرج تحت تصنيفات "النشاط السياسي" مثل الأنشطة الخيرية، والرعاية الاجتماعية، والدعوة، ورفع درجة الوعي، وإقامة مجموعات للضغط والتأثير، والنشاط التنموي، ولذلك فإن الطابع المتغير لمجال الأنشطة النسائية هو المبرر للطبيعة المتنوعة للمشاركة النسائية التي تتطور بموجبها بعض الأنشطة التي لا تخضع للتصنيف بوصفها أنشطة سياسية، مثل إجراء البحوث، لتصبح مشاركة سياسية مثل الدعوة لحقوق المرأة أو تكوين جماعات للضغط والتأثير. أضف إلى ذلك أن الجمعيات والناشطات المستقلات قد يشاركن في بعض الأحيان في مختلف أنواع الأنشطة، بعضها لا يتصف بالعمل السياسي والبعض الآخر يميل إلى ذلك اللون من العمل، ولذلك فإنني سأستخدم في كتابي هذا مصطلح "الأنشطة النسائية" لعدم توافر مسمى أفضل ليشير للمجالات المتنوعة والمتشابكة التي تميز الحركة النسائية، وهو مصطلح يشير بصفة خاصة للنساء العاملات في مجال قضايا المرأة والحركة النسائية المصرية^(٣).

خريطة للأنشطة النسائية

تقدم ماكسين مولينو (1998) Maxine Molyneux نموذجاً ثلاثياً في تحليلها للحركات النسائية عبر التاريخ والحضارات، ويصلح هذا النموذج لاستخدامه كتصنيف تحليلي مفيد للأنشطة النسائية، وتقتصر ماكسين مولينو قيام تصنيف من ثلاثة أنماط نموذجية تسير في توازن والمبادئ التنظيمية ومفاهيم السلطة الخاصة بكل منها؛ فالجماعات قد تكون: (١) مستقلة، (٢) مشاركة، (٣) موجهة. وتتصف الجماعات المستقلة بـ"أعمالها المستقلة؛ حيث تنظم النساء أنشطتهن ذاتياً، ويحددن الأشكال الخاصة بتنظيمهن وكفاحهن" (ibid. : 226). وتؤكد ماكسين مولينو أن النشاط النسائي الجماعي المستقل لا يعد نسوياً بالضرورة بمعنى التصدي لـ"المصالح الحقيقية للنوع"، وإنما قد يتجه للقيام بأنشطة متنوعة تساند الجهود الذاتية، ويحقق أهدافاً لا ترتبط مباشرة بقضايا النوع، أو حتى يلغي حقوق النساء، وسأقوم، لأغراض تتصل ببحثي هذا، بوضع حدود لتصنيف مولينو للجماعات المستقلة؛ فأقدم منها ما يعبر عن الاهتمامات النسائية العامة التي قدمتها أنفاً.

وفى بعض الأحيان تتجه الجماعات النسائية لتشكيل تحالفات مع منظمات سياسية أخرى، بينما تحتفظ بأهدافها الخاصة واستقلالها التنظيمي، وتدعو الفئة الثانية من الجمعيات النسائية التي تقيم "روابط مشاركة" مع غيرها من الجماعات إلى التفاوض الدائم حول السلطة، وتقدم مثلاً للسياسات الديمقراطية. ويعد الاعتراف بتنوع المصالح وتضاربها في بعض الأحيان، وقيام الثقة بين الشركاء، والالتزام بإجراءات للمساءلة، عناصر مهمة لتجنب طغيان برامج بعض الشركاء على برامج الشركاء الآخرين (ibid. : 228) .

وتضع مولينو هاتين الفئتين من الجماعات النسائية في مواجهة الفئة الثالثة التي تقوم على أساس من "التعبئة الموجهة"؛ حيث "تفرض السلطة وتتبع المبادرة من الخارج، وتخضع لها الجماعة نفسها، وبالتالي تخضع تلك الجماعات لسيطرة سلطة أعلى عادة ما تكون مؤسسة سياسية أو حكومية، أو كليهما (ibid. : 229) . وفى هذا السياق، تستخدم المؤسسات التي تقوم بتوجيه تلك الجمعيات قضايا النوع، إذا ما أثارتها في المقام الأول، كوسيلة لتحقيق أغراض أخرى. وعبر التاريخ والحضارات ظهرت ثلاثة أنماط من التعبئة الموجهة : (١) فتجرى تعبئة النساء لتحقيق هدف عام مثل الإطاحة بنظام الحكم، أو مساندة حزب من الأحزاب ليتولى الحكم، (٢) أو يعلن التزام عام بمصالح النساء، ولكن من خلال التزام أشمل بالتغيير الاجتماعي، وهو ما تعبر عنه الحركات الوطنية التي تهدف لتحديث المجتمع، وكذلك الحركات الاشتراكية، (٣) أو يجرى تعبئة النساء في سياق قضايا معينة لإلغاء حقوق يتمتعن بها باسم الصراع الجمعي أو الوطني أو الديني (ibid. : 228-31) . وبينما نرى أن الفئات الثلاث المتفرعة من التعبئة الموجهة قد تواجدت في تاريخ الحركة النسائية المصرية، فإننى سألتزم بالفئة الثانية منها ؛ حيث تشمل الأهداف العامة للتغيير الاجتماعي دعم حقوق النساء ، غير أنه لا يُسمح بقيام منظمة مستقلة أو تعريف بديل لهذه الحقوق .

ومن الواضح أن "النماذج" الثلاثة التي قدمتها مولينو تحليلية بحتة، وقد لا توجد على أرض الواقع بالضرورة بتلك الصورة "النقية"؛ ففي كثير من الأحيان تتراوح مواقف الجمعيات النسائية بين الاستقلال والاعتماد على الغير على أساس من عوامل متعددة مثل طبيعة الدولة (أو أنماط السلطة الأخرى كالأحزاب السياسية وسياساتها)

وقدرتها على الاستفادة من الأدوات السياسية والاقتصادية، وأعتقد أننا في حاجة إلى إضافة فئة جديدة تمثلها ظاهرة حديثة ترتبط بتطور المنظمات الدولية مثل الأمم المتحدة ووكالات التمويل الدولية؛ فقد أدت هذه الظاهرة إلى قيام عمليات تعبئة شبة مستقلة وشبه موجهة يشكها التدخل الدولي على الرغم من استقلالها - إلى حد كبير - عن سلطة الدولة والجماعات السياسية داخلها .

المجال الإثنوجرافي

امتدت إقامتي بالقاهرة لمدة ست سنوات ؛ حيث استكملت دراستي ، والتحقت بالعمل قبل أن أبدأ بحثي هذا في ١٩٩٥-١٩٩٦ على مدى أربعة عشر شهراً. وخلال السنوات الست تحولت القاهرة من مجرد محل لبحثي إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير، فقد كوَّنت بها صداقات على مر السنوات، واندمجت في الحياة الاجتماعية المبهرة بالقاهرة. وعندما عدتُ إلى القاهرة في سبتمبر ١٩٩٥ انتابني شعور بالعودة إلى الوطن وإحساس بألفة تبعث الاطمئنان في النفس بعد أن أمضيت عاماً في الغربية بلندن؛ ففي القاهرة أعرف أين أقيم، ومع من، وأين أتسوق، كما أعرف طريقي في شوارع المدينة بون أن أضل (في أغلب الأحوال)، وباختصار فقد كانت المراحل الأولى من عملي الميداني ممهدة تماماً، وهي مراحل عادة ما تتطلب وقتاً طويلاً ومجهوداً كبيراً، وبعد لقاءات ممتدة مع الأصدقاء والمعارف، ومعرفة آخر الأخبار ورواية ما جرى لي في لندن، اندمجت كليةً في عملي .

وقد توافرت لي المعرفة، بحكم عملي في الأنشطة النسائية في مصر من قبل، ببعض الشخصيات المهمة والجمعيات في هذا المجال، غير أنني أمضيت الأسابيع الأولى في محاولة لرسم خريطة للمجال وذلك بالاتصال بالعديد من الأطراف (الباحثين، وكالات التمويل، والناشطات) للتعرف على رؤيتهم للجماعات والأفراد الذين يشكلون أهمية على ساحة النشاط النسائي المعاصر. وخلال هذه المناقشات اتضح لي أن هناك تنوعاً كبيراً في الأنشطة والأطر التنظيمية؛ فهناك الجمعيات الأهلية ذات الهياكل التنظيمية الواضحة وأجهزة اتخاذ القرار، وجماعات أخرى لا تلتزم بهيكل تنظيمي محدد،

وشبكات تقوم بالعمل في قضايا بعينها أو أداء مهام بعينها، ثم تنفض بعد ذلك تعمل بها ناشطات غالباً ما ينتمين لجماعات أو أنشطة أخرى، وهناك لجان نسائية تابعة لأحزاب سياسية، ومنظمات مهنية ومراكز لحقوق الإنسان، وعدد من الناشطات اللاتي يمارسن نشاطهن من خلال عملهن المهني أو يرتبطن ارتباطاً هامشياً بجمعيات معينة، وربما قدمن يد العون في مشروعات محددة .

فإذا ما عدنا إلى فئات مولينو الثلاث، فإننا نجد توجهات سياسية مختلفة في الجمعيات النسائية المستقلة مثل مركز دراسات المرأة الجديدة، ورابطة المرأة العربية، ومركز دراسات المرأة : "معاً"، وجماعة بنت الأرض. وتحتل رابطة المرأة العربية موقعاً في أقصى الطرف الليبرالي من المناهج النسائية، وهي تضم عضوات مهنيات من الطبقة الوسطى تتراوح أعمارهن ما بين الخمسينات والستينات، وتقوم بأنشطة الرعاية الاجتماعية والأنشطة ذات الصلة بحقوق النساء، وقد سجلت الرابطة نفسها^(٤) في وزارة الشؤون الاجتماعية بوصفها جمعية أهلية ، وسأناقش مغزى تلك الخطوة في الفصلين الثاني والخامس. أما الجمعيات الأخرى مثل "معاً" و"المرأة الجديدة" و"بنت الأرض" ؛ فقد تحايلت على القوانين التنظيمية الصارمة التي تربطها بوزارة الشؤون الاجتماعية، وذلك بالتسجيل على أساس أنها شركات غير ربحية أو مراكز للدراسات.

وقد تطورت الجمعيات الثلاث من نشاطات سياسية سابقة؛ فعضوات "بنت الأرض" احتشدن في بادئ الأمر لمعارضة الغزو الإسرائيلي للبنان في عام ١٩٨٢، بينما التزمت العضوات المؤسسات للـ "المرأة الجديدة" و"معاً" بالسياسات الاشتراكية أثناء الحركة الطلابية في السبعينيات. وعلى الرغم من اهتمام عضوات "بنت الأرض" بالقضايا ذات الصلة بالاستقلال الاقتصادي، والإمبريالية، والطائفية الدينية؛ فإن الجمعية تعد أقرب إلى الأنشطة النسائية الليبرالية إذا ما قورنت بـ "المرأة الجديدة" أو "معاً". وتعد "معاً" أكثر الجمعيات تأكيداً على الأيديولوجية الاشتراكية ومنهجها؛ إذ تسلط العضوات الأكبر سناً ، وكذلك الجيل الأصغر الضوء على القضايا ذات الصلة بالاقتصاد السياسي، ويعتبرن أنفسهن ناشطات نسائيات ماركسيات .

ويشار إلى جمعية "المرأة الجديدة" - في كثير من الأحيان - بوصفها أكثر الجمعيات النسائية راديكالية في مصر المعاصرة، وهو ما يحمل معه - كما أشرت من قبل - ارتباطات سلبية تتمثل في تهمة تقليد الغرب والاقتصار على تسليط الضوء على قضية النظام الأبوي، ولا شك أن العضوات ترفضن خضوع قضايا المرأة لقضايا الاستغلال الاقتصادي والاستقلال الوطني، كما أنهن يؤيدن المصطلح الذي ظهر مؤخراً وهو "الحركة النسوية". غير أنهن مع ذلك يتناولن في تحليلاتهن وأنشطتهن تلك المسائل ذات الصلة بالبرامج الوطنية والاشتراكية وعلى الرغم من أن الجمعية تعالج مسألة ذات حساسية ثقافية هي المسألة الجنسية (في سياق الجدل حول ختان الإناث والعنف ضد النساء)، فإنهن لا يساندن الدعوة لانفصال الجنسين، ولا يتبعن البرامج الغربية اتباعاً أعمى، كما سائبت من خلال هذا الكتاب .

وبالإضافة لهذه الجمعيات المستقلة التي تعمل بدرجات متفاوتة في مجالات الدعوة، والبحوث، ومشروعات القاعدة العريضة، توجد جمعيات أهلية تهتم بدور النساء سلباً وإيجاباً في قضايا التنمية، وتجمع هذه الجمعيات مثل جماعة نهوض وتنمية المرأة، ومركز وسائل الاتصالات الملائمة من أجل التنمية، مشروعات التنمية على أرض الواقع من الحملات السياسية، وتختلف عضوات الجمعيات الأهلية من حيث تحليلاتهن الخاصة بعدم المساواة بين الجنسين على نحو يجتمع معه المنهجين الليبرالي والاشتراكي سوياً .

ويمكن أن نضم الجمعيات والناشطات نوات الصلة بالأحزاب السياسية، والمنظمات المهنية، ومنظمات حقوق الإنسان تحت الفئة الثانية من تصنيف مولينو. وفيما يتصل بالمنظمات المهنية فإن أهدافها ومصالحها ذات الصلة بالمهنة قد تطفئ على اهتماماتها بالأنشطة النسائية على الرغم من تمتع بعضها بالاستقلالية. وهناك بعض الجمعيات التي قدمت نشاطاً ملحوظاً، وارتفعت أصوات بعض عضواتها بقوة فيما يتصل بالأوضاع التي تعاني منها النساء، وهي لجنة المرأة في اتحاد المحامين العرب، وجمعية الكاتبات المصريات، ودار المرأة العربية نور، وجمعية السينمائيات، وتختلف إلى حد كبير المناهج الخاصة بعضوات هذه الجمعيات المهنية، وبالتالي لا يمكن تصنيفها بسهولة .

أضف إلى ذلك أن الناشطات اللائى يعملن فى إطار منظمات حقوق الإنسان مثل : مركز الدراسات والمعلومات القانونية لحقوق الإنسان، ومركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، ومركز المساعدة القانونية لحقوق الإنسان يمكن ضمهن تحت مسمى الأنشطة المشاركة؛ إذ أن الإطار العام لنشاطهن ينتمى لبرامج حقوق الإنسان والأطر الخاصة بها. وتشارك كافة الناشطات اللائى ينتمين لمنظمات حقوق الإنسان فى أنشطة تتعلق بتعديل القوانين لاكتساب النساء لحقوقهن، والكثيرات منهن يشاركن فى الوقت ذاته مع جماعات أو شبكات نسائية أخرى، وتتنوع تحيلاتهن فيما يتصل بعدم المساواة بين الجنسين .

وتمثل اللجان النسائية ذات الصلة بالأحزاب السياسية مثل الاتحاد النسائى التقدمى المتفرع من حزب التجمع الاشتراكى، ولجنة المرأة فى الحزب الناصرى، منظمات نسائية مشاركة تشارك عضواتها بدرجات متفاوتة فى الأنشطة النسائية فيما يتخطى حدود السياسات الحزبية. ويختلف بالتالى درجة التوجيه التى يتلقينها من سياسات الحزب ، الأمر الذى يدل على أن الفئات التحليلية ليست إلا أنماطاً مثالية ، وهى تتذبذب فى واقع الأمر، وتتغير بمرور الوقت. وعلى الرغم من أن عضوات الاتحاد النسائى التقدمى يبدن اهتماماً بالمظالم الهيكلية الناتجة عن الانقسامات الطبقية، والعلاقات الرأس مالية، فإن أنشطتهن تقع فى الأساس ما بين أعمال الرعاية الاجتماعية والأنشطة النسائية فى مجال حقوق المرأة، ويمكن أن ننسب هذه الأنشطة أيضاً لعضوات الأمانة العامة للحزب العربى الديموقراطى الناصرى اللائى يسلطن الأضواء على الاستقلال الوطنى والخطر الإمبريالى .

وبالإضافة إلى عضوات الجمعيات المتنوعة التى ذكرتها آنفاً فإن دراستى قد شملت أيضاً بعض المثقفات اللائى لا ينتمين لأية منظمة أو لجنة، بل يعملن مستقلات من خلال مهنتن كمحاميات، وصحفيات، وكاتبات، وأخصائيات فى المجتمع والتنمية. وفى بعض الأحيان فإنهن يشاركن مع جماعات خاصة فى مشروعات بعينها مثل : الحملة ضد ختان الإناث، والمراقبة النسائية لوسائل الإعلام، أو مع لجان التنسيق للمؤتمرات الدولية .

وإذا ما نحينا جانباً المستويات النسبية للاستقلال وحرية الحركة، فإن الجمعيات النسائية المصرية تختلف من ناحية عدد الأعضاء، ووصولها للقاعدة العريضة، واتصالاتها المحلية والدولية. وتتراوح معالم المشاركة السياسية من المشروعات الاجتماعية والتنمية، لرفع درجة الوعي من خلال عقد الندوات، والمؤتمرات، وقاعات الحوار، والبحوث، والدعوة، وإدارة الحملات، وإصدار النشرات، والمجلات والكتب. وتختلف الناشطات داخل الجمعيات نفسها من حيث دوافعهن الخاصة سياسية كانت أو شخصية للقيام بالأنشطة، كما يختلفن من حيث خلفياتهن الأيديولوجية وتوجهاتهن، وأهدافهن المعلنة ومشاركتهن الفعلية في الأنشطة .

ويقدر تنوع الجمعيات والعضوات اللائى ينتمين إليها، فإن ما يجمع بينهن يتمثل فى انتمائهن للطبقة الوسطى، والتزامهن بالحفاظ على الحقوق المدنية والتوسع فيها والحفاظ على مبدأ المساواة أمام القانون، وهن يشتركن فى التوجه العلمانى، والقلق من تزايد التطرف الإسلامى. غير أن مواقفهن الفعلية فى مواجهة مختلف التيارات والخطابات الإسلامية متنوعة بالقدر الذى يتنوع به فهمهن الخاص للعلمانية وتفسيراتهن لها .

مناقشة الولاء لأطراف متعددة

قام نقاد ما بعد الاستعمار ودارسو الأنثروبولوجيا من أتباع الاتجاه النسوى، الذين تناولوا علاقات القوى بين الباحث ومقدم المعلومة فضلاً عن قضية التمثيل representation ، بطرح إشكالية "السعى خلف الآخر" (٢٠ : ١٩٩٤، Visweswaran) ولا يزالون يضيفون لهذه الإشكالية. (Hale, 1991; Harding, 1987; Mohanty, 1988; Patal, 1991; Reinhartz, 1992; Visweswaran, 1994) ، وقد اتخذ نوع جديد من الدراسات النسائية متصل بتيار إزالة آثار الاستعمار الثقافية" (Morsy, Nelson, Saad & Sholkany, 1991) اتجاهات مختلفة. وأحد مظاهر هذا المنهج يتسم بالأساليب المختلفة التى تواجه من خلالها دراسات الإثنوجرافيا موقعهن الاجتماعى المحدد من ناحية الطبقة، واللون، والدين، ... الخ ، وقد أشارت الكثير من دراسات الأنثروبولوجيا إلى أن العمل الميدانى يقع ما بين

السيرة الذاتية والأنثروبولوجيا (Oakley & Callaway (eds.), 1992) وأنه يربط ما بين الخبرة الخاصة ومجالات المعرفة العامة؛ فالعمل الميداني ليس عالم "الآخرين" الذي يتعذر الوصول إليه، بل إنه "العالم الواقع بين أنفسنا والآخرين". (Hastrup, 1992) . وتتناول الكثير من الباحثات في الاتجاه النسوي مفهوم Intersubjectivity أى العلاقة بين الباحث والمجتمع محل بحثه، والعالم السياسى الثقافى الذى ينتمى له كل منهما، والغرض الأساسى لمشروع البحث (2: Sayigh, 1996) ؛ وسأؤجل مناقشة موقفى للفصل الأول، ولكنى فى هذا المقام أود أن ألقى الضوء على بعض المشكلات ومواطن التوتر التى برزت خلال عملى الميدانى .

على الرغم من أن الدراسات النسوية قد أعلنت عن تحديها للفصل التام بين الباحث والناشط (Hulzer, 1986; Reinhartz, 1992; Viszeswaran, 1994) فقد شعرت - فى بعض الأحيان - بالتوتر نظراً لتعاملى مع السيدات اللائى قابلتهن واستجوبتهن على مستويات متعددة، وأحد مصادر هذه التوتر يتصل بوضعى كباحثة، الأمر الذى يعطينى الحق للاتصال بمجموعة متباينة من الناشطات والتحدث إليهن (والتباين فى هذا المقام يتعلق بعضويتهن فى الجمعيات النسائية، وانتماءتهن السياسية، وفى تفسير ما تعنيه الأنشطة النسائية، فضلاً عن الاختلافات فى الشخصية، وأسلوب الحياة، والشبكات الداعمة لهن، وهى اختلافات تؤدي - فى بعض الأحيان - إلى المنافسة وحتى إلى العداء). وفى بعض الأحيان كنت أسعى خلال بحثى للحصول على المعلومات من "النساء الأخريات" الأمر الذى أثار فى نفسى ، فى كثير من الأحيان، شعور بعدم الارتياح؛ فقد شعرت بالتمزق بين رغبتى فى الدخول فى علاقة تسودها المشاعر المتبادلة حيث لا يقتصر إلقاء الأسئلة على وحدى والخوف من أن أنزلق وأتسبب فى حرج ما .

ويعتمد الاهتمام بالعلاقات غير الهرمية والشفافة التى تبدو فى الكتابات عن مناهج البحث ونظرية المعرفة النسوية على "أخلاقيات نسائية يسودها الالتزام والمساواة فى مقابل أخلاقيات العلم التى تقوم على الحياد والانفصال ما بين الباحث وموضوع بحثه" (27: Reinhartz, 1992) وتضع أن أوكلى Ann Oakley -على سبيل المثال - البحث "العلمى" الموضوعى فى علاقة تقابل مع البحوث النسوية التى تتطلب المصارحة والمشاركة وتطوير علاقة تحمل بذور الاستمرار. (61-30: 1981) وقد تعرضت هذه الرؤية

التي تفصل ما بين البحث "الموضوعي" والبحث "النسوي" لانتقادات في السنوات الأخيرة، بينما تبنت الباحثات النسائيات مناهج وأدوات بحث متنوعة. غير أن المنهج الذي التزمت به في بحثي قام على أساس ما استهدفته من تقديم بحث نسائي يهدم الفواصل الجامدة ما بين الباحث ومصدر معلوماته .

وخلال إجرائي لبحثي كنت أحاول إيجاد سبل لتقديم المساعدة؛ فلا أقتصر على الحصول على معلومات، وإنما أضع ما أعرفه في خدمة الأخريات. وقد أفلحت في تحقيق ذلك في حالات محدودة، وبصفة خاصة مع من اقتربت منهن أكثر وأجريت معهن مقابلات أكثر. أما مع معظم الناشطات فقد كنت أجد نفسي في الموقف المعتاد الذي يجرى ما بين السائل والمجيب. وإذا ما استثنيت السيدات اللاتي روين لي سيرة حياتهن، فإن أكثر علاقة شهدت تبادلاً بين الطرفين تطورت مع مركز دراسات المرأة الجديدة؛ حيث أعددت أربع ندوات قدمت فيها عدة مناهج مختلفة لدراسة النوع في العلوم الاجتماعية. وقد شككت هذه العلاقة أحد الأمثلة القليلة التي شعرت أثناءها باندماج النظرية والنشاطات النسوية، وأنتى قادرة على الإسهام في الوقت الذي أقوم فيه ببحثي، ولم تكن معرفتي للكثير من عضوات هذه الجمعية معرفة شخصية واجتماعية على سبيل المصادفة في الأغلب الأعم .

وقد كان تكوين صداقات أكثر الأمور إثارة للسعادة وللإشكال في نفسي؛ فبينما كان وصف آرائي بـ"الغريبة" وسيلة في بعض الأحيان للانتقاص من شأنها؛ فقد كان مدعاة للثقة بي في مواقف أخرى، وشعرت بذلك شعوراً قوياً عند تبادل الحديث مع السيدات اللاتي روين لي سيرة حياتهن واللاتي عقدت معهن صداقات؛ ففي كثير من الأحيان بعد مناقشة أزمة ما أو مشكلة، كنت أشعر بالدهشة لأن صديقتي لم تتحدث في ذلك الأمر مع أحد من قبل، وقد أشركت صديقاتي هؤلاء في مشكلاتي الخاصة، ومنها ما هو شديد الخصوصية الأمر الذي أدى إلى زيادة الشعور بالثقة، وقد أضافت العديد من هذه الصداقات إلى "عالمي" الخاص والشبكة التي تقدم لي الدعم في القاهرة ولا تزال حتى على البعد .

وقد تطلبت الصداقات مع الناشطات من جمعيات مختلفة الكثير من الدبلوماسية والحرص على المشاعر، وفي أحيان كثيرة كانت تثير الشكوك. وقد أدركت مدى

حساسية الموقف عندما أفضت إلى إحدى الناشطات بما يقوله عنى بعضهن من أنني أتوسل بعقد الصداقات مع الجميع للاستفادة منهن جميعاً فى إجراء بحثى، وقد أصابنى شيء من الذهول حينئذ؛ فقد أدركت أن تلك رؤية الناشطة التى حدثتني وربما أخريات، غير أنني أدركت بعد فترة قليلة أن السياق الخاص للأنشطة النسائية، وأعنى بذلك الانقسامات العميقة والطبيعة الشخصية للكثير من الصراعات، تجعل سلوكى يبدو مثيراً للشكوك والشبهات .

عملية البحث

فى خلال أربعة عشر شهراً قضيتها فى إعداد بحثى بالقاهرة (وهى المركز الرئيسى للأنشطة النسائية فى مصر) قمت بمقابلة حوالى ثمانين سيدة، وطرحت عليهن أسئلتى، وينتمى معظمهن إلى جمعية أو شبكة واحدة على الأقل، غير أن هناك قليات يعملن دون الانتماء إلى جهة تنظيمية بعينها. وقد تراوحت المقابلات بين الطابع شبه الرسمى والمناقشات غير الرسمية التى لا تتبع نظاماً محدداً، وقد تمت المقابلات فى أماكن متعددة أذكر منها "مقار" الجمعيات المختلفة، والمقاهى، والمطاعم، وبيوت الناشطات، وفى بيتى. وقد تم ما يقرب من نصف المقابلات فى خلال جلسة واحدة لكل منها. وقد تراوح زمن المقابلة كثيراً (من ساعة إلى أربع ساعات) على أساس عوامل مختلفة منها اهتمام من أقابل بمشروعى، وارتباطات كل منا، وما إذا حدث تألف بيننا. وعندما يحدث التألف مصحوباً باهتمام الطرف الآخر بمشروعى فإن ذلك يؤدي عادة إلى مقابلة أخرى إن لم يكن أكثر، الأمر الذى يؤدي فى بعض الأحيان إلى عقد صلة اجتماعية ممتدة تحل محل مقابلات العمل المنفردة، وقد كان ذلك هو الوضع مع السيدات العشر اللاتى روين لى سيرة حياتهن وقمت بتسجيلها .

وقد أجريت معظم مقابلاتى وتسجيلاتى لسيرة حياة السيدات باللغة الإنجليزية، غير أن بعضها أجرى بالعربية، ثم قام أحد معاونى بترجمته إلى الإنجليزية^(٥). غير أنني أميل لاستخدام اللغة العربية مع الناشطات اللاتى أقابلهن لأول مرة، وذلك كى أقدم نفسى ومشروعى. وقد أظهرت الكثيرات تقديرهن لمحاولتى هذه وعدم لجوئى لافتراض

أنهن يتحدثن الإنجليزية، وكان من لا يتمتع بالطلاقة عند التحدث بالإنجليزية يتحول إلى العربية، غير أن معظمهن كن يتحوان إلى الإنجليزية في مرحلة ما من بحثي، وقد كانت لغتي العربية على الرغم من عدم إجادتي لها أداة مهمة في إقناع الكثيرات بمنحى بعض وقتهن. (Al-Ali & El-Kholy, 1999) .

وإلى جانب قضاء أمتع الأوقات في تسجيل سير الحياة والاندماج في الأحاديث والمقابلات، فقد أمضيت أوقاتاً ممتدة في العديد من المكاتب، والمراكز، وقاعات المؤتمرات أستمع إلى مناقشات ومناظرات وندوات في مناسبات رسمية وغير رسمية. وفي هذه الحالات بالذات كنت ألتزم بدور المراقب، وأحاول جاهدة أن أفهم ما يقال بالعربية، وفي بعض الأحيان أسأل من يجلس بجانبى عن كلمة أو كلمتين مما استعصى على فهمه، وفي تلك المناسبات التي بدا فيها أن الجدل يدور إلى ما لانهاية كنت كثيراً ما أفقد القدرة على المتابعة، وحينئذ كنت أعتمد على مسجل الصوت لأطمئن أن لن يفوتنى جانب مهم من الحوار .

وقد سجلت معظم الأحاديث والمناظرات والمؤتمرات العديدة التي حضرتها فضلاً عن كافة مقابلاتى إلا فى بعض الحالات التي لم يُسمح لى فيها بالتسجيل، وفي هذه الحالات كنت أكتب مذكراتى خلال الجلسة أو بعدها فى أقرب وقت ممكن، وكان نسخ الأشرطة يتم بعد ذلك؛ فإذا كان الحوار الأصيل بالعربية فإن مساعدى يتولى نسخه وترجمته، وقد حاولت فى كتابى هذا أن أحتفظ بروح المقابلة الأصلية عند مقابلاتى للناشطات^(٦). وقد قررت أن أستخدم أسماء مستعارة لأتكم شخصيات من قابلت من السيدات، غير أنني أشير إلى أسماء الناشطات عندما أقتبس من أعمالهن المنشورة بدلاً من الرجوع إلى مقابلاتى معهن. وإلى جانب تكتم شخصيات من قابلت، وخاصة من روين لى سيرة حياتهن، فإن استخدام الأسماء المستعارة يسهل عملية الاختيار الصعبة بين من أقدم منهن ومن أستبعد، الأمر الذى يسمح لى باختيار نص معين لأسباب تتعلق بمحتواه وأهميته دون أن أشعر بحرج استخدام أو استبعاد النصوص المتوفرة لى من الناشطات اللائى قابلتهن .

وعندما قدمت بحثى الأول الذى أقمته على عملى الميدانى فى ندوة بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، لم أكن مستعدة لبعض ردود الأفعال التى صدرت عن السيدات

اللائى أمددتنى بالمعلومات، واللائى حضرن ليستمعن إلى ما سأقوله. وقد عبرت معظمهن عن مساندتهن وموافقتهن على آرائى وتحليلاتى الأساسية. غير أن بعضهن بدا غاضباً، غير أنهن لم يوضحن السبب فى ذلك، وقد أدركت فيما بعد أنني ينبغي أن أحرر نفسى من الالتزام بإرضاء الجميع. غير أنني اكتشفت أيضاً أن بعض الناشطات أردن لأصواتهن أن تُسمع، وقد عبّرن عن عدم رضائهن باقتباسى كلمات لأخريات بدلاً من كلماتهن على الرغم من أنهن قضين وقتاً طويلاً معى يتحدثن عن الموضوع ذاته، وقد حرصت أن أقدم بحثى للسيدات اللائى قابلتهن، واستخدمت كلماتهن فيه لأطلب الإذن منهن بنشره. غير أنني لم أخذ فى الاعتبار ردود أفعال من استبعدت من السيدات. وبعد هذه الحادثة اتضح لى ما كنت أعرفه نظرياً بالفعل؛ إذ تمثل عملية الاختيار نفسها، وأعنى بذلك اتخاذ قرار بشأن الاقتباسات، إشكالية لأنها تتضمن الانتقال من أصوات أخرى. وبما أن العديد من الناشطات أنفقن وقتاً طويلاً وبذلن جهداً فكرياً فى مناقشة العديد من القضايا معى، فإن الأمر لم يعد يقتصر على إحساسى بالمسئولية تجاههن، وإنما امتد ليشمل قدراً من التوقعات من جانبهن .

القراءة النشطة

خلال إجرائى لبحثى - وفى المراحل المبكرة من الكتابة - كان لزاماً على أن أتساءل عما إذا كانت تجاربي السابقة فى مجال الأنشطة النسائية فى مصر قد جعلتنى أقل قدرة على رؤية الأمور ما هو جديد و"غريب" ومتناقض، وقادتنى إلى أن أقدم المؤلف فحسب، وعندما قدمت بحثى الأول فى القاهرة وجهت لى بعض الناشطات اتهاماً بأننى قد تحولت إلى مواطنة مصرية، ويعتمد هذا الاتهام على شعور بأن بحثى يكشف عن رؤية تخلط بين وجهة النظر الخاصة بى ووجهات نظر السيدات اللائى قابلتهن، ويعد هذا مثلاً لفشل الباحث الذى أمضى وقتاً طويلاً فى المجتمع الذى يبحته فى الوقوف على بُعد كاف من موضوع بحثه، وترى الناشطة هبة الخولى التى شاركتنى فى إعداد بحث سابق (1999) أن المشكلة لا تتعلق بافتقارى للـ"مسافة" أو للـ"غرابة"، بل إنها تتعلق بمشكلة أعمق هى الإسراف فى الدرس، وتربط هبة الخولى هذه القضية بمشكلة التوصل إلى المعلومات والحفاظ على مصدرها، ومشكلة الوعي بأن ما يكتب ستقرؤه الناشطات اللائى أمددتنى بالمعلومات، وربما يعارضونه .

وفى البحث الذى أعدته مع هبة الخولى قدمنا إشكالية الموقف "الداخلى" و"الخارجى" من إجراء البحوث. وإننى أتفق مع تقييمها للأمر إلى حد بعيد، فوعى الباحث (وخوفه فى بعض الأحيان) أن ما يكتب سيقروه من أمدته بالمعلومات يُعد أمراً على جانب كبير من الأهمية، وقد وجدت أن نقاط ضعفى كانت ، ولا تزال إلى حد ما ، ترتبط برغبتى فى تحقيق العدل وإرضاء الجميع، ومثل هذه الرغبة لا بد وأن تفشل، غير أنه من الصعب مقاومتها؛ خاصة وأنا أعلم أن السيدات اللائى قابلتهن لن يتوقفن عند قراءة عملى فحسب، بل سيوجهون له النقد أيضاً. (ibid. 1999:27) .

وقد قوبلت مشكلة "المتلقين" أو "القراء" بالتجاهل عامة فى المناقشات التى دارت حول الكتابات الإثنوجرافية والانعكاسية (Clifford & Marcus (eds.), 1986; Geertz, 1988; Strahern, 1976) . غير أننى أتفق مع هبة الخولى على أنه يجب الاهتمام بقضية القراء، أى من نتوجه لهم بالكتابة والمخاطر المتضمنة فى آراء الكاتب وتحليلاته، باعتبارها عاملاً يؤثر فى البحث وعملية الكتابة. ونحن نرى أن هناك قضية مهمة تتصل بالعلاقات المستقبلية بين الباحث ومجتمع بحثه. وذلك لأن دارسى الأنثروبولوجيا الذين ينوون البقاء فى المجتمعات التى يدرسونها سواء أكانوا من أهل تلك المجتمعات أم لا ، يواجهون مخاطر تختلف فى طبيعتها عن تلك التى تواجه الباحثين الذين يعودون إلى بلادهم التى تبعد كثيراً عن المجتمعات التى درسوها .

وفيما يتصل بعملى هذا فإننى أستطيع أن أميز ثلاث مجموعات من القراء : المجموعة الأولى تتكون من الباحثين فى شئون الشرق الأوسط والعاملين فى المؤسسات الغربية، والمجموعة الثانية تتكون من الباحثين المصريين، والثالثة من الناشطات الأمريكيات، وبينما تثير فكرة الباحثين الناقدين لعملى شعوراً بالتوتر فى نفسى، فإن ذلك الشعور يتضاعل إلى جانب مشاعر القلق التى أشعر بها تجاه السيدات اللائى قابلتهن، وأحاول أن أقدم أصواتهن، وهى محاولة تتضمن عمليات اختيار وتحرير وتحليل وتفسير، كما تتضمن الكشف عن صوتى الخاص.

خطة الكتاب

يتناول الفصل الأول من الكتاب صلة بحثي بمنهجى ما بعد الاستعمار وما بعد الاستشراق اللذين اعتمدت عليهما فى دراستى، كما أتناول فى الفصل نفسه المحاولات التى تُبذل لتخطى منهج الاستشراق، وقد أدت بى مناقشة قضية التصورات الجوهرية إلى مناقشة تصور "الغرب" والتفسيرات المرتبطة بالسياق المصرى، ثم أنتقل إلى إقامة الصلة بكيفية تأثير هويتى المزوجة على بحثى وعلاقتى بالسيدات اللائى قابلتهن، ويتطلب تقديم إشكالية حول مفهوم "الهوية" أخذ خطابات متنوعة عن الهوية الوطنية المصرية فى الاعتبار، ويتطرق الأمر لتناول نواحي الارتباط والتوتر بين الشعور الوطنى والاتجاه النسوى، ويختتم الفصل الأول بتحليل لكيفية فهم الناشطات المصريات للـ "غرب" .

وسأقدم سياق الحركة النسائية المصرية المعاصرة فى الفصل الثانى باستعراض لتاريخ الحركة النسائية المصرية من وجهة نظر السيدات اللائى قابلتهن، ويوازى هذا الاستعراض تحليل للعلاقات المتغيرة بين الدولة المصرية (من عهد ناصر إلى عهد مبارك) والحركة النسائية، وفى هذا الجزء سأستكشف دور الدولة وأواصل دراستى لقضية موقف الدولة، من الأنشطة النسائية سواء بالمساندة أو بالإعاقة .

ويعقب تحليلى للسياق السياسى والتاريخى الذى تقع الأنشطة النسائية فى إطاره تقديم لسير حياة بعض الناشطات فى الفصل الثالث، وتكشف سير حياة عشر ناشطات الصلة بين الدوافع والتجارب الشخصية، والتطورات التاريخية التى تؤثر فى محتوى نشاطهن وشكله .

وفى الفصل الرابع أناقش مفهوم العلمانية، وهو مصطلح تعرض لسوء فهم كبير وإساءة لاستخدامه فى سياق الشرق الأوسط والعالم الإسلامى، كما سيتضح من تحليلى فى السياق الأوروبى والأمريكى الشمالى أيضاً، ويلى تحليلى للتصورات الخاطئة هذه ملخص للمناقشات التى دارت حول العلمانية فى سياق مصرى، وسأكشف كيف تنتظر الناشطات المصريات للعلمانية وكيف يسهم فهمهن لها فى تقديم وصف للعلمانية، يسيطر عليه الذكور إلى حد بعيد .

وأنتقل - فى الفصل الخامس - إلى استكشاف قضايا الشكل والمحتوى فى الأنشطة النسائية المعاصرة على نحو تفصيلى، فأتناول الأهداف والأولويات التى أعلنتها الناشطات، وما يقلنه، وما يقمن بتنقيذه فى الممارسة الفعلية، وسأقدم وصفاً لعدة مشروعات، بينما أستعرض فى الوقت ذاته تلك الأنشطة فى تنوعها .

وفى الفصل السادس أتقدم برأى الذى يضع الصراع والجدل داخل الحركة النسائية فى سياقه من الثقافة السياسية العامة بمصر، وسأقوم - من خلال نقطة بداية تتمثل فى إحدى الجمعيات - بفحص بعض نقاط الخلاف الرئيسية بين الناشطات ، وأعد الصلة بينها وبين الثقافة السياسية فى مصر بوجه عام، وأختتم الكتاب بالإشارة إلى أهم القضايا والنتائج التى تبلورت خلال إعدادى له .

الهوامش

(١) هناك وجه للتناقض في هذه المقام؛ إذ إن ناشطات الاتجاه النسوي في الغرب يواجهن - في كثير من الأحيان - عمليات تنميط مشابهة وعداوات في مجتمعاتهن، ولذلك فإن الكثير من السيدات يباعدن ما بين أنفسهن، وهذا الوصف في مختلف أشكال الصراع السياسي من أجل حقوق المرأة، وفي كفاحهن ضد التعريفات الاجتماعية لدور النساء، وضد الاستغلال الجنسي والاقتصادي... وما إلى ذلك. (Kaplan, 1992: 21-2)

(٢) اعتمدت في بحثي على تعريف هايدى هارتمان للنظام الأبوي بوصفه "مجموعة من العلاقات الاجتماعية تعتمد على قاعدة مادية، وتقوم من خلالها علاقات بين الرجال تتسم بالتضامن، وتسمح لهم بالسيطرة على النساء؛ فالنظام الأبوي هو إذن النظام الذي يمارس من خلاله الذكور اضطهادهم للنساء". (1979: 232) غير أنه من المهم أن نؤكد اختلاف أشكال النظام الأبوي عبر التاريخ والحضارات .

(٣) بعض السيدات اللاتي قابلتهن أشرن إلى أنفسهن باستخدام مصطلح "الناشطات" .

(٤) في بعض الأحيان سأشير إلى الجمعيات بالأسماء المختصرة المعروفة بها في مصر .

(٥) استعنت خلال إجرائي لبحثي بعدد من معاونين الذين اقتصروا عملهم على نسخ الأشرطة وترجمة بعض المواد .

(٦) لم أقم بإعادة الصياغة إلا في تلك الحالات التي يصعب فيها فهم المقصود بسبب أخطاء النحو والتركييب .

الفصل الأول

مواجهة إطارات المفاهيم

ما بعد الاستشراق، والدراسات الغربية، وتصوير الذات

عندما أُعملُ النظرُ في مسألة تأثير دراسات ما بعد الاستعمار على ما صدر حديثاً من أعمال عن "الشرق"، وأتدبر في الوقت ذاته إنجازات تلك الدراسات وسقطاتها، فإنَّ كلمات إدوارد سعيد المطمئنة في مقدمته لمؤلفه "الثقافة والإمبريالية" "Culture and Imperialism" (١٩٩٣) تردُّ على خاطري: "لقد ولَّى زمان التقابلات الثنائية التي احتلت موقعا مرموقاً في المشروعين الوطنى والاستعماري" (p. xxviii). ولا شك أن هذا الرأي يمثل نقلة جذرية تختلف عن رؤيته المبكرة عن التاريخ و تقديم الآخر (Orientalism, 1978)؛ حيث سلط سعيد الأضواء على العلاقة ما بين "الغرب" و "ما ليس بالغرب" ليكشف أن العلاقة بينهما اتسمت دوماً بالنزاع والشقاق والانقسام، وهي سمات بدت كنتيجة حتمية ورد فعل للاستعمار؛ وينشأ بالتالى لدينا إحساس بالطمأنينة بل وربما بالارتياح؛ فهل نحن نعيش في عصر جديد حيث تسمح عملية التحرر من الاستعمار سواء في الدول المستعمرة فيما مضى أو المستعمرة بالتصالح والتحرر فضلاً عن اتخاذ الخطوات الضرورية لتخطى التصورات الجوهرية، والطبقية والتقابلات الثنائية؟

غير أن مشاعر الارتياح تذهب دون رجعة عندما أضع كتيبى وأوراقى عن "ما بعد الاستعمار" جانبا، وهي الكتب والأوراق التي تحفل بمفاهيم تبشر بـ "إزالة الحواجز" و"التنوع" و"الهوية المتعددة" و"تداخل الثقافات"؛ إذ أشعر عند قراءة الصحف ومشاهدة التلفزة بأننى أواجه لغةً وواقعاً مختلفين: فهناك معركة القوة الدائرة ما بين الولايات المتحدة والعراق، (أو بالأحرى بين الولايات المتحدة وصادم حسين إذا ما صدقنا ما يقوله المتحدثون الرسميون)، وهناك الضربات الجوية التي يوجهها حلف

شمال الأطلنطي ضد يوجوسلافيا، والاعتداءات الصربية على كوسوفا، والاضطهاد والإذلال المستمرين للفلسطينيين في إسرائيل، وتمضى القائمة لتحوي أمثلة من التدخل الاستعماري، والعنف العرقي، والتحيز القومي، والأصولية الدينية، وهو ما لا تقتصر نتيجته على ظهور لغة "نحن" في مواجهة "هم"، ونظام جديد هرمي التكوين، وإنما يمتد أثره ليقدم جانباً خطيراً - وفي أحيان كثيرة دموياً - من الحركة الاستعمارية وسبل مقاومتها في عصرنا الحالي: عصر "ما بعد الاستعمار".

ولا شك أن مرحلة الاحتلال الاستعماري وحكم القوى الاستعمارية قد ولى، غير أننا ما زلنا نعاني إرثاً من عمليات السيطرة وممارساتها فضلاً عن الاستغلال الاقتصادي، وكلها تدل على وجود حركة استعمارية معاصرة، يُطلق عليها في بعض الأحيان "الاستعمار الجديد". وعلى الرغم من هذا الاكتشاف، بل نتيجة له بالأحرى، فإنني وجدت مصدراً للإلهام (مثلي في ذلك مثل دارسين آخرين من الشباب الذين يقيمون في المستعمرات أو المدن الكبرى، على حد قول راتانسي Rattansi، ١٩٧٧) في دراسات ما بعد الاستعمار، وخاصة في أعمال إدوارد سعيد، وجاياتري سبيفاك Gaya-tri Spivak، وستيوارت هول Stuart Hall، وليلى أبو لغد Lalla Abou-Lughod، فما هو إذن مغزى مفهوم "ما بعد الاستعمار" الذي يرد في تحليلاتنا لعلاقات القوى، وللممثل الثقافي، والسياسة، والرأسمالية في عصر العولمة؟

التحول إلى ما بعد الاستعمار

يشير مفهوم ما بعد الاستعمار مثله مثل مفهوم "ما بعد الحداثة" إلى الشعور بحلول "عصر جديد" فضلاً عن إشارته لمناهج وتحليلات نظرية بعينها. وفي كثير من الأحيان، تتخطى دراسات ما بعد الاستعمار، مثلها في ذلك مثل دراسات ما بعد الحداثة، الحدود المتعارف عليها للعلوم والتخصصات لتقدم "مزيجاً انتقائياً من ما بعد البنيوية، والتحليل النفسي، والنقد النسوي، والماركسية، وما بعد الحداثة نفسها" (Rattansi، ٧٩٩١:١٨٤). ويكشف استعراض البحوث التي تتدارس محتوى أدب "ما بعد الاستعمار" ومناهجه وسياساته أن المصطلح قد استخدم في مرات مختلفة لينطبق على لحظات تاريخية، وأقاليم جغرافية، وهويات ثقافية، وانتماءات سياسية، وأزمات، وأساليب قراءة تتباين جميعها تبايناً كبيراً.

وفى أحيان كثيرة تعرّض غياب تعريف واضح لمصطلح ما بعد الاستعمار، وعدم وضوح الحد ما بين المُستعمِر والمُستعمَر، إلى النقد القائل بأنّ المفهوم وما يقوم عليه من تحليلات يعانى من لبس على المستويين النظرى والسياسى (Sohat, 1992). ويتصل أحد الاعتراضات الأخرى بما يلاحظ على المصطلح من اتجاه تاريخى يسير فى خط مستقيم من الماضى إلى الحاضر؛ فاستخدام كلمة "ما بعد" توحى بوجود ماضٍ قد انقضى، وأصبح فى حكم الفترة الزمنية المنتهية (McClintock, 1992; Sohata, 1992). ويهاجم نقاد آخرون الباحثين فى مجال دراسات ما بعد الاستعمار لتواطئهم مع "النظرية السائدة" الغربية، ولامتداد جذورهم فى معاهد الغرب الأكاديمية، ولاستخدامهم للمصطلحات الشائعة على سبيل مجازاة المستحدث منها، ولبعدهم عن نضال "العالم الثالث" والحقائق المادية على أرضه (Ahmed, 1992; Dirlik, 1992)، ويتخطى النقد الموجّه لشيوع استخدام المنهج ما بعد البنىوى مفهوم متابعة الأحداث وتسويق الدراسات؛ فيزعم ناقدو المنهج أنّ خطاب ما بعد الاستعمار هو ضربٌ من "مذهبة الثقافة" (Dirlik, 1992:347) ، على نحو يتم معه إهمال دور رأس المال فى تشكيل العالم الحديث فى عصر العولمة (Ahmad, 1992; Dirlik 1992).

وقد تمكن عدد من الدارسين الذين اهتموا بأوجه النقد هذه، وحددوا مجالات الإشكالية، ومنهم من ينتمى انتماءً واعياً لمنهج ما بعد الاستعمار، وآخرون يشعرون بالتعاطف مع هذا الاتجاه على أقل تقدير، من مواجهة الكثير من نقاط النقد الأكثر شيوعاً والأشد قسوة؛ فيسلط ستيوارت هول (Stuart Hall (1996 a)، على سبيل المثال، الأضواء على اتصاف فترة ما بعد الاستعمار بقيام عملية عامة تهدف إلى إزالة آثار الاستعمار بين المستعمرين والمستعمرين فى زمن سابق، ولا يعنى هذا تحديد "مرحلة زمنية" تُعكس فيها علاقات القوى على نحو قاطع؛ إذ يتسم عصر ما بعد الاستعمار بسلسلة من الانتقالات، وتعدد العمليات والتطورات التى تتجه نحو إزالة آثار الاستعمار وإزاحة "الغرب" عن الموقع المركزى الذى يحتله، كما يتسم أيضاً من ناحية أخرى حسب ما أشار الكثير من نقاد منهج ما بعد الاستعمار بظهور نخبة محلية قوية، وحالة من الاعتماد "الاستعماري الجديد" على العالم الرأسمالى المتطور (Hall, 1996 a,; Rattansi, 1997; Sal, 1993).

وبدلاً من الاستهانة بالنور المدمر الذي قام به المستعمرون وقوى الاستعمار الجديد، تضرر دراسات ما بعد الاستعمار نية القضاء على الثنائية القديمة للمستعمِر-المستعمَر، وإزالة الخط الفاصل بين ما هو داخل النظام الاستعماري وما هو خارجه، وذلك بتوجيه الانتباه إلى "الأساليب العديدة التي تخطت فيها الحركة الاستعمارية مجرد كونها عاملاً خارجياً مؤثراً في مجتمعات المدن الكبرى" (Hall, 1996 a: 246). وقد نتج عن هذا الاتجاه وحالة "الانتقال عبر الثقافي" إلى المزج ما بين الثقافات التي لم تكن قط قائمة بذاتها أو أصيلة أو "نقية" بالقدر الذي صورت به من قِبَل القوى الاستعمارية في الماضي ومن قِبَل الحركات الوطنية والأصولية في المستعمرات السابقة في الحاضر.

ولكن في الزمن الحاضر نستمع إلى تحذير هول Hall التالي:

ينبغي أن نحفظ بطرفي النقيض في حالة نشطة في الوقت نفسه (المبالغة في التحديد، و الاختلاف؛ التكثيف والانتشار) إذا ما أردنا ألا نقع في فخ التفكيكية اللاهية، أو في خيالات الاختلافات وتأجيل المعنى في مدينة فاضلة مجردة من كافة القوى، وإنه من السهل الوقوع في هذا الفخ لأن جوهر الأشياء قد تم تفكيكه على المستوى النظري، ولذلك فقد تم إبعاده على المستوى السياسي (Ibid: 224).

ولذلك فإنه يتعين على دراسات ما بعد الاستعمار ألا تتصف باللبس السياسي، بل إنها تأخذ في اعتبارها ما تتصف به السياسة من تعقيدات ولبس، ونقلاً عن هول فإن "الشخصيات السياسية ليست ثابتة، ولا تكرر نفسها من موقف تاريخي لآخر أو من ساحة للعداء إلى ساحة أخرى" (المرجع نفسه: ٢٤٤). ويمضي هول في خلافه مع إيللا شوهات Ella Shohat حول نقدها الذي يعرض "التضمين المضاد للسياسة" المصاحب لمشروع ما بعد الاستعمار للقضاء على السياسات المحددة للتقابل الثنائي، إلى حد استخدام كلماتها لدعم حجته:

نتج عن العقود الثلاثة الأخيرة في "العالم الثالث" تطورات معقدة تتسم باللبس السياسي ... [بما في ذلك] إدراك أن المعذبين في الأرض لا يجتمعون على الثورة ... وأنه على الرغم من الأنماط العامة للسيطرة الجغرافية السياسية، تتنوع علاقات القوى في العالم الثالث، وتتناقض بعضها مع البعض. (Shohat, quoted in ibid: 245).

ويستقر في قلب سياسات ما بعد الاستعمار إثارة الشكوك حول مشروع التنوير، وإزاحة "الغرب" عن مركز الصدارة. ومن الأهمية بمكان ألا نرى في منهج ما بعد الاستعمار منظوراً كلياً لتكوين اللحظات التاريخية وحركتها ولتشكيل العالم المعاصر؛ فالعلاقات المادية والرأسمالية العالمية يفترض على أفضل الأحوال ظهورها بمظهر الأعمال الأدبية و التمثيل الثقافي، ولعل بعض ما يعيب دراسات ما بعد الاستعمار يمكن تفسيره بأن على الرغم من الزعم بانتقال هذا المنهج عبر التخصصات، فإن الكثير من هذه الدراسات يقدمها نقاد أدب لا يتواصلون بالقدر الكافي بالتخصصات الأخرى مثل علم الاجتماع، والأنثروبولوجي، والاقتصاد، والعلوم السياسية، أو إذا ما أردنا صياغة الأمر على نحو آخر فإن العديد من علماء الأنثروبولوجي، والاجتماع، والاقتصاد، والعلوم السياسية، لم يقدموا بعد على التعامل مع المعطيات النظرية والمنهجية والسياسية التي ولدتها دراسات ما بعد الاستعمار.

فيما وراء الاستشراق

تشير بعض الأعمال التي تدور حول دراسات ما بعد الاستعمار إلى بدايتها في دراسة إدوارد سعيد المتميزة التي وجّه فيها نقده لحركة الاستشراق، أي لإنتاج المعرفة فيما يتصل بالـ"شرق" وما تقوم عليه هذه المعرفة من علاقات قوى وسياسات. غير أنه كما يلاحظ سعيد نفسه في ما أنتج حديثاً من أعمال، فإن مقاومة نظم التمثيل الاستعماري ومحاولة إزالة آثار الاستعمار من التاريخ والثقافة بدأت منذ فترة طويلة سبقت صدور كتابه عن الاستشراق (١٩٧٨)، وتبدو في أوضح صورة في كتاب فرانتس فانون Frantz Fanon "البشرة السوداء، القناع الأبيض" Black Skin, White Mask (١٩٥٢)، و كتابه "المعذبون في الأرض" The Wretched of the Earth (١٩٦١)، ومع ذلك فإن تأثير كتاب "الاستشراق" وأهميته يبدو واضحاً في الانتشار والحماس اللذين جرى بهما النقل عنه، واستخدام عباراته في غير مواضعها، وتطبيقها، وتقييمها، ونقدها، وتطويرها، وهدمها. وبدلاً من الهجوم على هذا العمل مرة أخرى فإني أود أن أتقدم بحجة مفادها أن نقاد سعيد ومؤيديه لم يقرأوا أو يستوعبوا على نحو كاف النقلة الفكرية والنظرية التي حققها سعيد في مؤلفه "الثقافة والإمبريالية" Culture and Imperi-

alism (١٩٩٣) وهى النقلة التى أبعدته عن تقديم الاختلافات ما بين "الشرق" و"الغرب" من منطلق جوهرى، ومن ثم أدت به إلى رفض المواقف الثنائية ذات الترتيب الهرمى التى تعتمد عليها الحركة الاستعمارية.

ولا شك أن محاولة سعيد تقديم سياسة للتحرر تعتمد على عزف ألحان موازية وإيجاد خليط ثقافى، كبديل عن السياسات الوطنية التى تتسم بالشوفينية واستبعاد الآخر، تعرض نفسها للنقد على أساس من الغموض أو السذاجة (Rattansi,1997:497). ولا تقتصر خطورة تفسير مفهوم الخلط الثقافى بوصفه يمثل تعددية تفتقر إلى الوضوح على مؤلفات سعيد، ولكنه يمثل سمة أساسية فى الكثير من الكتابات فى مجال نقد ما بعد الاستعمار وما بعد الحداثة؛ فعلى الرغم من عدم وضوح السياسات الواقعية التى يوحى بها سعيد فإنه يقدم إطاراً مفيداً وإبداعياً يسمح لسياسات التحرر أن تتطور من خلاله. أضف إلى ذلك أن مؤلفه الثقافة والإمبريالية - بوصفه مدخلاً نظرياً ومنهجياً - يقدم الحل لمشكلتى الجوهريّة والاختزالية اللتين وجه إليهما النقد فى كتابه "الاستشراق"، بينما ساهم هو نفسه حينئذ فى إيجادهما.

وينشط مفهوم الاستشراق بوصفه العمل على تقديم أوجه الخلاف على نحو موحد وإبراز جوهر الخلافات فى منطقة الشرق الأوسط^(١) فضلاً عن شيوعه بين الدارسين الذين تشغلهم أمور المنطقة، غير أن هذا المفهوم يبدو متخفياً على نحو يفوق تخفيه فيما مضى، وفى كثير من الأحيان ينشط من وراء ستار؛ فلا يزال هناك الكثير مما ينبغى لدراسات ما بعد الاستشراق تحقيقه لتتخطى إرثها؛ فهى دراسات تحمل فى طياتها طموحات الانفصال عن المناهج ونماذج الخطاب التى أقامت جوهراً أزلماً، وذلك إما بالإشارة إلى ما هو غريب بعيد أو ما هو محدد فى إطار يقدم تفسيراً أحادياً (يتصل أساساً بالإسلام).

ومن بين مجموعة الدراسات المتنوعة التى تدخل بوعى ذاتى فى عداد دراسات ما بعد الاستشراق، تكشف بعض الأعمال وتقوّض بقدر من النجاح يفوق غيرها، الخطاب الأحادى السلطوى الذى قام عليه فى السابق تجميد صورة "الشرق" وتشويهها، وبينما احتلت عملية تفكيك مفهوم "الشرق" محل الصدارة فى التحليلات الحديثة التى قدمها المؤرخون ونقاد الأدب وعلماء الاجتماع والأنثروبولوجى، فإن هذه العملية لم تشمل

"الغرب" بصفة عامة في حقل الدراسات المعروف باسم "دراسات الشرق الأوسط"، ويمكن القول إن تجسيد "الغرب" والانقسام ما بين الشرق والغرب يُقدِّمان بوصفهما ظاهرتين طبيعيتين، ويمران دون ما اعتراض في الدراسات ذات الصلة بالدول العربية المختلفة في غرب آسيا وشمال أفريقيا بدرجة تفوق تقبلهما في المناطق الأخرى التي يصدر عنها مثل تلك الدراسات، كجنوب شرق آسيا على سبيل المثال.

وهناك العديد من الأسباب التي تفسر القدر الأكبر من النجاح الذي حققته دراسات ما بعد الاستشراق في استهداف الشرق لا الغرب، وتتراوح هذه الأسباب ما بين غياب إشكالية "الغرب" في منظور الدارسين والهيئات العلمية لانشغالهم عن وضع إشكاليات للآخر، إلى الضغوط والعوامل السياسية الجغرافية مثل قيام دولة إسرائيل، ويتمثل أحد أهم العوامل في حقيقة أن منهج ما بعد الاستشراق يضرب بجذوره في دراسات ما بعد البنيوية، ونجد ذلك بالتحديد في تأثير فوكو Foucault الذي انتقل عبر سعيد؛ فقد فرض النقد الموجّه لحركة التنوير وجهة نظر جعلت من الغرب كتلة أحادية؛ فلم يكن الغرب بتنوع خطاباته وأيديولوجياته أو مظاهر الحياة اليومية به موضع فحص، بل إن الأنظار اتجهت إلى مشروع الحداثة وفلسفة التنوير، وأثناء هذه العملية جرى دمج الحداثة مع مفهوم "الفكر الغربى".

وفي مصر - مثل ما هو الحال في الكثير من أنحاء العالم التي خضعت للاستعمار في الزمن الماضي - أثار الوعي بالاستشراق، وهو الأسلوب الذي أتبع لدراسة مصر، تصويراً أو إساءة تصوير للعديد من ردود الأفعال وسخرية في رؤية الكثيرين؛ فمن إحدى الزوايا، أدى ذلك الوعي إلى ظهور إنتاج معرفى أكثر تنظيماً عن "الغرب"، ومن زاوية أخرى - مرتبطة جوهرياً بالزاوية السابقة - برزت على الساحة الدعوة لتأصيل العلوم الاجتماعية على أرض الوطن.

وقد دفعت الحركة لإزالة آثار الاستعمار عن علم الأنثروبولوجى والاهتمام بدراسات ما بعد الاستشراق عدداً متزايداً من الدارسين لتأدية "فروض مدرسية" أو لدراساتهم لـ "أنثروبوجيا معكوسة" (Visweswaran, 1994:102). وبينما لا تزال الدراسات القائمة والشائعة تنظر نظرة الشك لتأدية "الفروض المدرسية" فقد أصبح من الواضح يوماً بعد يوم أن النظرات الثاقبة المتعمقة، والمهارات اللغوية، والدوافع المحركة لعدد

كبير من علماء الأنثروبولوجي المحليين يهدم بعض الأنماط والتعميمات والمفاهيم المغلوطة في مجال الثقافة التي وقعت فيها الدراسات التقليدية السابقة.

ولا يعنى هذا أن "الباحثين المحليين" قادرين على التعامل مع بحوث متعمقة ودقيقة على أساس كونهم "ينتمون للوطن" فحسب؛ فالعديد من علماء الأنثروبولوجي "المحليين" بعيدون كل البعد عن المجتمعات التي شرعوا في دراستها، وذلك لأسباب طبقية أو لانتماءات دينية، أو لخلفياتهم الثقافية أو اتصالاتهم بجماعات ثقافية هامشية، ثم إن هناك العديد من الدارسين "المحليين" المهتمين بالبحوث الوضعية، والذين يحاولون تقديم دراسات كمية، تصنيفية يثبتون من خلالها بأسلوب علمي افتراضاتهم المسبقة التي خططوا لها جيداً. ومع ذلك، فإنني أرى أن هؤلاء الباحثين الذين يكرسون جهودهم من خلال اتجاه نقدي ومتعمق لإجراء بحوثهم في أوطانهم، يمتلكون قدرة أكبر على تقديم بحوث "دقيقة" وعميقة ومتحررة مقارنة بما يقدمه زملاؤهم من "الأجانب"، ولعل هذا يعود إلى صلتهم السابقة بما انطلقت منه بحوثهم، مثل العمل في مجال التنمية أو النشاط النسائي، وربما ارتبطت هذه الصلة بقدر من الانشغال الوجداني، أو الرغبة الملحة في "خدمة الوطن"، أو شعور بالمسئولية قد يتخطى التعاطف الذي قد يشعز به الباحثون من غير أبناء الوطن، ويكمن سبب آخر لاستعدادهم الأفضل في المهارات اللغوية التي تسمح للباحث الأنثروبولوجي "الوطني" من فهم ظلال الكلمات والارتباطات اللغوية التي تظل غير ذات مغزى في كثير من الأحيان للباحث الذي يجد صعوبة في فهم اللغة.^(٢)

ولسوء الحظ، فإن الكثير من الدارسين، سواء أكانوا "غربيين" أم "وطنيين" أم "مزدوجي الجنسية"، والذين انشغلوا بنقد الاستشراق غالباً ما يظلون أسرى الثنائيات التي يحاولون أن يفككوها، ولذلك فإنهم ينتجون بعض التقابلات الثنائية (see, for example, Abdel-Kader 1987; L. Ahmed, 1992; Badran, 1991, 1993, 1995; Kabbani, 1986; Zuhur, 1992) فسواء من منطلق "التقليدي في مواجهة الحديث"، أو "العلماني في مواجهة الديني"، أو "الشرق في مواجهة الغرب"، فإن هذه الأعمال "تبقى نظرتنا مثبتة على آثار هيمنة الخطاب الغربي" (Kandiyoti, 1996:16). ومع ذلك، فإن أكثر صور هذه الورطة تطرفاً يتكشف في ظهور "مدرسة فكرية" جديدة تلقى حالياً انتشاراً واسعاً،

ويتسم هذا الاتجاه بتصوير الإسلاميين على أنهم القوة البديلة الوحيدة للزحف الغربي المتزايد، والتأكيد على تعدد الاتجاهات فيما بينهم (مع توحيد صورة الدوائر العلمانية)، وإدانة النقد النسوي الذي يوجه للمفاهيم الإسلامية الخاصة بوضع المرأة والقائم على تفرده.

وبدون الإخلال بأهمية المد الإسلامي، فإنني أعتقد أن الدارسين أنفسهم شاركوا بهمة ودونما دراية في إسكات تلك الجماعات والأفراد التي عارضت أو صدر عنها ردود أفعال ضد الاتجاه الإسلامي؛ فلم يقتصر الأمر على إحلال قضايا مثل الصحوة الإسلامية و التشدد محل الصدارة في البحوث التي درست المرأة المصرية، بل إن كفاحتها وخبراتها وهويتها أصبحت أيضاً موضع شرح وتفسير في كثير من الأحيان بالإشارة إلى إطار يعمل من خلال انقسامات مبسطة ما بين الإسلامى التقليدى الأصيل من جهة، والتقدمى الحديث الغربى من الجهة الأخرى، وبينما أكدت الكتابات الأحدث أن الاتجاه الإسلامى هو حركة حديثة، فإنها لا تزال إلى حد كبير تلجأ إلى التعميم، وتنشئ انقساماً لصورة "الدين" فى مقابل "العلمانية"، و"الوطنى المحلى" فى مواجهة "الغربى"^(٣).

وبصفة عامة، فإن التصور الأحادى للغرب والفئة المتجانسة للغربيين أجدر بالتفكيك على نحو منظم. ففي سياق دراسات الشرق الأوسط، لا تبدو غير أعمال معدودة (Abu-Lughod, (ed.), 1998; Kandiyoti, 1996; R. Lewis, 1996; Mitchell & Abu-Lughod, 1993; Nelson, 1996; Zubaida, 1994) اهتماماً بهذا المشروع على نحو يقدم تنوع الخطاب النابع عن "الغرب" وتناقضه، فضلاً عن اللقاءات والصراعات المعقدة والمتعددة الأوجه بين دوائر لا متجانسة على "الطرفين"، وإننى أرجو أن يسهم عملى هذا - من خلال تسليط الضوء على الولاء والمصالح والتناقضات المنقسمة، على مستوى الخطاب والممارسة كليهما، لدى الناشطات ذوات الاتجاهات العلمانية فى مصر - فى زعزعة الاتجاهات الجوهرية المرتبطة بعلاقة الشرق بالغرب والصلات القائمة عليها، والوقوف منها موقف التحدى. ولا يصرف ذلك النظر عن أن مصر - مثلها مثل الدول التى خضعت فى الماضى للاستعمار - لا تزال تخضع بصور مختلفة للسياسات الإمبريالية^(٤) التى تبدو فى الحياة اليومية للناس عبر اختلاف الطبقة والنوع والانتماء الدينى ومحل الإقامة،

ولا يمنعنى ذلك من النظر فى بعض الأمور الجوهرية، بل واستخدامها فى سياقات محددة لأغراض سياسية استراتيجية.

الدراسات الغربية: الوجه الآخر للعملة

حل باتمان محل أخيل، ومادونا محل العذراء والطفل، ومايكل جاكسون محل مايكل أنجلو، وحتى النظام العالمى الجديد حل محل الدول القومية. لا شك أن الحاجة تدعو إلى اجتهاد من نوع جديد.^(٥)

لا يزال تشييء الغرب مستمراً فى الدراسات المتعلقة بمصر، الأمر الذى يساهم فى تعزيز موقف الدراسات الغربية كأداة قوية فى يد الثقافة السياسية المصرية المعاصرة^(٦)؛ فالدراسات الغربية مثلها فى ذلك مثل الاستشراق، تعد جانباً من وسيلة سياسية، تستخدم بموجبها التصنيفات الثقافية المتاحة لتحقيق مزايا رمزية "للذات" وللإضرار بالآخر، وتشكل الظروف السياسية ظاهرة الدراسات الغربية سعياً وراء السلطة والنفوذ. ومع ذلك، فإن اقتران الاستشراق بالدراسات الغربية يبعد عن الصحة؛ إذ أثنى أفضل أن أقدم الدراسات الغربية فى مصر المعاصرة بوصفها تمثل نقداً للحدائث فى ظل وعى عميق بالاستشراق وتقوم برد فعل ضده؛ فمن الناحية التاريخية طالما تمتع ما ندعوه بـ "الغرب" بالقوة، وبالتالي توافرت له القدرة على تكوين صور للمجتمعات الغربية وفرض هذه الصور (Carrier (ed.), 1995). وحتى يومنا هذا يتسم الاستشراق والدراسات الغربية كلاهما بأنهما عمليتان متباينتان رغم تشابههما من حيث التوزيع غير العادل للقوى السياسية والاقتصادية.

وتبدو البنية المعاصرة للغرب الإمبريالى المنحل الذى يضع الآخرين موضع الغرباء، فى العديد من السياقات: فى المنتديات اليسارية-القومية والإسلامية، وذلك فى الصحف، والكتب، والندوات، والمناقشات الجامعية، واللقاءات العامة مع المفكرين والفنانين،... إلخ. ونحن فى حاجة إلى التحليل الدقيق للمدى الذى جرى من خلاله إنتاج ضروب الخطاب العام هذه على المستوى الأصغر للاتصالات ما بين الأفراد، غير أنه يمكننا القول بأن الحجج الخاصة بالمؤامرات الغربية ضد المسلمين، وفساد

الحضارة الغربية ونقائصها، والتهديد الذي تمثله الإمبريالية الثقافية تجد صدى عند الكثير من المصريين.^(٧)

فمن الناحية التاريخية، شارك مفكرو ومصالحو القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين فى حماسة المحدثين للتنوير والتقدم التكنولوجى، والوضعية، وفكرة الحقيقة الكاملة. وقد عبر الكثير من المفكرين المصريين عن رؤاهم للنظام القديم؛ فوصفوه بالاعتباطية، ووجدوه محكوماً بالإيمان، وقد حوى مشروعهم البديل التخلص من التقاليد و"التخلف"^(٨).

وقد أُعيد تفسير الإسلام، وطالته يد الإصلاح لإثبات توافقه مع التقدم والعقلانية على أيدى دعاة التحديث مثل محمد عبده وقاسم أمين على سبيل المثال. وفى الوقت ذاته أبدى المحدثون العلمانيون شكوكهم فى صلاحية الإسلام بوصفه كقاعدة للتنظيم السياسى والاجتماعى، وربطوا تقدم مصر بالالتزام بما بلغته الثقافة والحضارة الأوروبية من كفاءة، وروجوا - على وجه الخصوص - للتفكير العلمى بوصفه مفتاح التقدم.

ويبرز تساؤل يتعلق بالسبب الذى يدعو إلى نسبة الفضل إلى المفكرين الأوروبيين لنقدمهم الذاتى فى محاولاتهم للتغلب على الأنظمة الاعتباطية والدينية، بينما يسهل الانتقاص من قدر المصريين على أساس أنهم "مقلدون للغرب" - ولا نجد هذا الرأى بين باحثى أوروبا وشمال أمريكا فحسب، وإنما نجده بين المفكرين المصريين فى زماننا الحاضر؛ فهل يحق لنا أن نتحدث على مستوى كونى عالمى عن صورة العالم على ضوء السيطرة الأوروبية والاضطهاد الاستعمارى؟ ولعل العلاقة بين دعاة التحديث المصريين^(٩) والمفكرين المصريين لم تسر على خط واحد مثلما هو مفترض. وربما التقت خيبة الأمل فى النظام القديم بنقد الذات من ناحية، بينما تم اللقاء والتفاعل مع التنوير الأوروبى من ناحية أخرى، ولا مناص لنا من تصور قيام المفكرين المصريين بعملية انتقائية عند نقلهم ونقدمهم للأفكار الأوروبية التى تدور حول الدولة القومية الحديثة مثلهم فى ذلك مثل الإسلاميين والقوى القومية المحافظة فى موقفهم من التراث والأصالة والقهر الأجنبى (Abu - Lughod, 1998 b)

وإذا ما استشهدنا بالحجة التي قدمها تشاترجي (1993) Chatterjee تقديمًا ناصحاً قوياً فيما يتصل بالقومية الهندية، فإن النخبة القومية استخدمت مفهوم "الاختلاف عن المستعمر" بأساليب متنوعة؛ فـ "الاختلاف عن المستعمر" بمعنى تقديم "الأخر" بوصفه "مختلفاً اختلافاً بيناً، وبالتالي كونه يتَّسم بانحطاط يستعصى على التصحيح" (ibid: 33) هو مفهوم قد نشره البريطانيون من قبل كأسلوب يبرر سياستهم الاستعمارية. أما في هند ما بعد الاستعمار فقد حاولت النخبة الوطنية محو مفهوم "الاختلاف عن المستعمر" في المجال "الظاهري" أو المجال المادي للدولة، واقتصادها، وقوانينها، وإداراتها، مما من شأنه إطلاق دعوة "عالمية نظم الحديثة للسلطة" (ibid: 26). ومع ذلك، ففي النواحي "الداخلية" للثقافة، واللغة، والدين، وحياة الأسرة، فإن المفهوم القائل بوجود فارق جوهري بين ثقافة المستعمر والدولة القومية الناشئة تلقى دفعة قوية (ibid.) ويمكننا أن نجد خطأ موازياً لهذا الاتجاه في مصر؛ حيث شجعت النخبة الوطنية على اعتناق مؤهلات الحداثة فيما يتصل بالمجالات الاقتصادية، والسياسية، والاجتماعية، فيما يتعلق بالمجال العام، وكما سيوضح تفصيلاً في الفصل التالي، فقد مُنحت المرأة حق التصويت، والتعليم، والعمل، وجرى ضمها لعملية الإصلاح والتحديث في مصر في عهد ما بعد الاستعمار. أما فيما يتعلق بدورها وحقوقها داخل المنزل أو الأسرة، فقد سلَّطت الأضواء على ما يفترض أنه يتبع النواحي "الداخلية" للمجتمع، وجرى تضخيم مفهوم "الاختلاف الجوهري" عن ثقافة المستعمر، و"الغرب" على نحو أعم.

لقد كان دمج التنوير وما يقدمه من تقييم للعقلانية، والليبرالية، والديموقراطية، مع الفكر الأوربي أحد أكثر الأخطاء بروزاً وشيوعاً إلى يومنا هذا، غير أن هذه المسألة لم تعالج إلا مؤخراً؛ فالكثير من المثقفين سواء أكانوا في مصر، أم في بريطانيا، أم في الولايات المتحدة، يتعاملون مع التنوير، والمساواة الليبرالية، كما لو كانا سمات أساسية لـ "الغرب"، بينما يجرى تجاهل سلسلة الصراعات التاريخية الشرسة التي لم تتضح نتائجها على نحو كامل كالثورة الفرنسية على سبيل المثال (Zubaida, 1994:7). وقد قدم سامي زبيدة Sami Zubaida إيضاحاً سلساً كشف فيه أن دعائم الديمقراطية الليبرالية أبعد ما تكون عن كونها جوهريّة، وأن "في أنحاء كثيرة من "الغرب"، وخاصة إسبانيا، مُنيت هذه الصراعات بالفشل حتى الزمن الحالي، كما ينبغي أن نأخذ في الاعتبار

انهيار الحقوق والعقائد فى أرجاء أوروبا الغربية تحت وطأة النازية والفاشية" (ibid.). ومن الممكن أن تمتد هذه الرؤية التاريخية لأوروبا والولايات المتحدة فى زماننا المعاصر؛ حيث تتصاعد سيطرة الشركات الكبرى، والصراع الطائفى، والعنصرية، والنازية الجديدة، والأصوليات الدينية.

وقد ساهمت فى عصرنا الحالى الأعوام التى رزحت مصر خلالها تحت مظالم الاستعمار، إلى جانب التجربة المستمرة للسياسات الإمبريالية فى عهد ما بعد الاستعمار، والإحباط الذى نتج عن نسخة من الحداثة لم تؤت ثمارها من تقدم وتححر ورخاء يمضى قدماً فى خط صاعد - فيما يتصل بأزمات مصر الداخلية الاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية؛ فلا يقتصر الأمر على وقوف الإسلاميين والوطنيين المحافظين على جبهة الهجوم على "الغرب"، بل إن قوى المعارضة اليسارية اشتبكت هى الأخرى فى الحملات المعادية للغرب^(١٠). وبينما تستخدم التفسيرات التى توضع لـ "الغرب" لتكوين هويةٍ مصريةٍ "أصيلة"، فإنها تتلقى المعلومات التى تغذيها من خلال إساءة تمثيل "الشرق" وتنميته، وتتوَعَّع الهجمات على الغرب من الجدل الصريح حول الإباحية الجنسية والانحدار الخلقى إلى مستويات متقدمة من النقد الثقافى والسياسى.

ويغيب عن أوجه النقد السليمة، فى كثير من الأحيان للفظاعات التى ارتكبت باسم "التقدم"، ومثال ذلك الحرب العالمية الثانية، وهيروشيما، وتدمير البيئة، وحرب الخليج،... إلخ، أن نقداً مشابهاً واتهامات مماثلة صدرت من داخل ما يجرى تصويره على أنه الغرب الذى يمتلك كل أسباب القوة ووحدة النسيج، وعلى الرغم من الجدة التى يدعيها بعض المفكرين المصريين، فإن القدر الأكبر من نقد الحداثة - أفكار الوضعية العلمية، والتقدم المطرد، وخطاب الهيمنة، والسياسات الإمبريالية - يجرى تقديمها من قِبَل كتاب وباحثين ونشطاء سياسيين فى أوروبا والولايات المتحدة^(١١). وبالتالي فإننا لا نجد مساحة تبدو فيها الخطابات المتناقضة، أو قوى المعارضة، أو صراع القوى، أو حتى نواحي نقد الذات القائمة فى بنية "الغرب" الداخلية.

ومع ذلك، فإن التعميمات التى تُقدَّم فى سياقات محددة، مثل السيمينارات العامة أو الاجتماعات السياسية، والمناقشات فى المقاهى أو فى البيوت بين الأصدقاء، لا تعكس بالضرورة الأساليب المعقدة والمتنوعة التى يدخل من خلالها "الغرب" إلى الحياة

اليومية لمجموعة غير متجانسة من الناس هم المصريون المعاصرون.^(١٢) فما هو شائع على مستوى الخطابات يبدو أكثر تعقيداً مقارنة بمستوى الممارسات؛ فهناك خط مواز للصور السلبية ذات الصلة بالثقافة والسياسة وأساليب الحياة الغربية يعبر عن أشكال متعددة تمجد "الغرب". وفي بعض الأمثلة - مثل إطراء التفكير العلمى باعتباره من سمات "الغرب" - يمكن لنا أن نلاحظ الآثار المتبقية لفروض الحداثة المبكرة، وقد صادفنى هذا المفهوم فى سياقات متعددة، ومثال ذلك حواراتى مع مصريين درسوا بالخارج، أو آباء وأمهات يدرس أبنائهم بالمدرسة الألمانية، أو الناشطات الذين يقبلون على المناهج العلمية لمشاريع بحوثهم ذات الاتجاهات السياسية، كما يسرى فى القاعات الأكاديمية ومراكز البحوث المصرية ما يتخطى روح الوضعية؛ فنجد تفضيلاً "للبحوث السديدة" القائمة على الإحصاءات والتقديرات الكمية وإعراضاً عن "التهويمات" الوصفية.

وقد لاحظت ليلى أبو لغد فى تحليلاتها للهدف من وراء المسلسلات التليفزيونية الأمريكية والمصرية، ومحتواها، واستقبال الجمهور لها، ظهور حركة تحديثية نخبوية تنظر للتطوير والتقدم نظرة مثالية (1997, 1995a). وعند الكشف عن الهوة الواسعة ما بين أسلوب حياة شخصيات هذه المسلسلات واهتماماتهم من ناحية وحياة المشاهدين من ناحية أخرى، لا يقتصر الأمر على المسلسلات الأمريكية مثل الجرى والجميلات، الذى لاقى إقبالاً شعبياً، وإنما نجد - فى كثير من الأحيان - أن الكثير من المسلسلات التليفزيونية المصرية لا تكاد تقيم صلة مع حياة المشاهدين؛ فإذا ما استثنينا المسلسلات التى يتم إنتاجها بهدف التسلية وحده، فإن المسلسلات التليفزيونية المصرية - فى كثير من الأحيان - تقصد إلى توجيه رسالة اجتماعية، وتمضى أبو لغد فتشير إلى أن هناك مجموعة من المهنيين فى مجال صناعة الثقافة، تشغلهم مثل هذه القضايا، وترى هذه المجموعة أن بعض شرائح المجتمع، منها النساء وأهل الريف على سبيل المثال، فى حاجة إلى التنوير: "فمن خلال نقل الخطاب الغربى فيما يتصل بالتطور وتطويعه، يُنصبُّ أعضاء هذه المجموعة من أنفسهم مرشدين للتحديث، ويحملون على عاتقهم مسئولية تكوين المواطن الفاضل الحديث من خلال برامجهم التليفزيونية" (1995a: 191).

وقد تزايدت سيطرة السلع الغربية (الموضات، والأجهزة الكهربائية، والموسيقى، ...إلخ) على النزعة الاستهلاكية، وهي أحد أوجه حركة التحديث في عهد ما بعد الاستعمار، وخاصة النزعة الاستهلاكية لدى الشباب المصري؛ فلكي تكون "شيك" فإن ذلك يعنى أن تتطلع إلى آخر "ما أنتجه الغرب من موضات"، وهي ظاهرة ليست مقصورة على الطبقات العليا من المجتمع المصري، بل إنها منتشرة ما بين الطبقات الوسطى التي عضها الفقر بناه؛ فقد أصبحت محال الرقص الحديث بجوار الجامع الأزهر، ومحال ماكدونالدز، و مجموعة متنوعة من مطاعم الوجبات السريعة التي انتشرت سريعاً، ومحال ألعاب الفيديو، والديسكوهات جانباً من المشهد القاهري، وبينما لا يتاح لغير الطبقة المتوسطة العليا والطبقة العليا شراء السلع الأجنبية، فإن نسخاً معدلة من محلات البييتزا و الهامبورجر اجتذبت جمهوراً عريضاً إليها^(١٣). ونقلاً عن برايان ترنر Bryan Turner فإن "الإيمان النقي سيلحقه الفساد بسبب تينا ترنر Tina Turner ومشروب الكوكا كولا، وليس من جراء الحجج المنطقية، و الفحص المتعقل للافتراضات المسبقة، وتفهم العلمانية الغربية" (Turner, 1994:10).

ويكشف والتر أرمبرست Walter Armbrust ازدواجية النزعة الاستهلاكية التابعة لأسلوب الحياة الغربي في الحياة والثقافة المادية في شرحه المتمتع لثقافة العامة والحدثة في مصر؛ فما يُسمى في حالات معينة وفي رأى بعض الأشخاص "شيك قوى" قد يكون له أيضاً ارتباطات سلبية تشير إلى فقدان الأصالة لدى محدثي النعمة (Armburst, 1996:26-7). غير أنه يوضح أيضاً كيف شملت حركة التحديث المصرية في تاريخها التقنية الغربية، والأساليب العلمية، والسلع الاستهلاكية من زاوية، وكذلك "الأصالة المصرية"، أى التواصل مع الماضي، من زاوية أخرى. وفي السنوات الأخيرة، أصبحت المجموعة المعقدة التي تشكل حركة التحديث المصرية أكثر استقطاباً وأعمق إشكالية، وذلك في سياق التناقص في الحراك الاجتماعي، وزيادة المصاعب الاقتصادية وانتشار البطالة؛ فقد فقدَ التعليم، الذي يُفترض أنه يسد الفجوة "ما بين النظرية الإعلامية الرسمية لما يجب أن تكون عليه حركة التحديث" و الممارسة الاجتماعية (Ibid: 133)، قيمته على نحو كبير فيما يتصل بضمان حياة "حديثة" تتوافر لها سبل الراحة. غير أن النظرة إلى التعليم بوصفه "المخرج الوحيد" لا تزال قائمة بين الكثيرين؛

فالتعليم طرف في علاقة تقابل مع الثروة التي نتجت عن الانفتاح أو التي كونها محدثو النعمة، بوصفه المدخل للتسلق الاجتماعي الحق والسليم من الناحية الأخلاقية.

وقد أضحى واضحاً أن الموقف الرافض للغرب وللإمبريالية متصل بالخطاب عن ماضى مصر، وتكشف النبرة الناصرية والشعارات المعادية للإمبريالية في العناوين الرئيسية للصحف حيناً إلى الماضى يستعيد ذكرى "أيام مصر المجيدة" التي ارتبطت بعهد عبد الناصر (١٩٧٠ - ١٩٥٢)، وقد لاحظت أبو لغد حيناً مماثلاً فيما يتصل بالمسلسلات التليفزيونية التي "تستدعى مرحلة المثل الاشتراكية والرؤية القومية من خلال رموز مثقلة بالارتباطات تعود إلى العهد الناصري، مثل المطربة العظيمة أم كلثوم أو السد العالي بأسوان" (1993b:29)، بينما تُستدعى - في كثير من الأحيان - فترة حكم السادات (١٩٨١ - ١٩٧٠)، التي ارتبطت في أذهان الكثير من المصريين في العصر الحالى بالسياسات الاقتصادية التي أعطت دفعة للاستهلاك الشعبى، وباتفاقية كامب دافيد، والإحساس بالاستسلام، على نحو سلبي، وخاصة على ضوء التطورات الجغرافية السياسية الأخيرة.

وقد عادت المشاعر المعادية لإسرائيل للظهور بعد خيبة الأمل في "عملية السلام"، التي يرى المثقفون المصريون بوجه عام أنها تمت على حساب الفلسطينيين والعرب، وقد زاد النقاش حول "السوق الشرق أوسطية" و"معاهدة الحد من التسلح النووي" في السنوات الأخيرة من رفض عملية "التطبيع" مع إسرائيل، وهي العملية التي شرع فيها السادات، ويتسع المجال للخطاب المعادى للغرب نظراً لصلة إسرائيل الوثيقة به، وخاصة علاقاتها السياسية بالولايات المتحدة، والثقافية بأوروبا و"الحضارة الغربية". ونادراً ما يرد إقرار بالروابط الإقليمية لليهود وخلفياتهم التاريخية والثقافية المشتركة في سياق تقدم فيه الثقافة الإسرائيلية ككل على أنها صهيونية وغربية.

وتوجّه الخطابات المعادية للغرب في مصر في عهد ما بعد الاستعمار بصفة أساسية للولايات المتحدة، ونادراً ما تتناول الاستعمار البريطانى. ولقد شهدت مصر تواجداً إمبريالياً أمريكياً من خلال الدعم المالى والسياسى الأمريكى لإسرائيل، ولذلك نجد أن المشاعر المعادية للغرب تتشابك تشابكاً عميقاً مع الصهيونية؛ فعلى المستوى

الاقتصادي، يسهم اعتماد مصر على الولايات المتحدة^(١٤) والتأثيرات المتنوعة لسياسات التوازن الهيكلي، مثل الانحدار الملموس للاستثمار الحكومي في القطاع العام، وزيادة الأسعار وارتفاع سعر الفائدة، في الإحساس بتواصل الوجود الإمبريالي وتدخله.

وقد تفسر العوامل الجغرافية السياسية انتشار المشاعر المعادية للغرب وحدتها، غير أنه يجب أن يؤخذ في الاعتبار أيضاً الصراعات السياسية الداخلية والتنافس حول الموارد الاقتصادية، والتي يجب أيضاً أخذها في الاعتبار. ومثل ما هو الحال مع الاستشراق، فإن القوة الدافعة للدراسات الغربية القائمة على التعميم والانقسام لا يمكن تفسيرها ببساطة من خلال إساءة الفهم أو عدم الفهم؛ فهي تستغل من قبل الدوائر الإسلامية واليسارية القومية لكسب مزايا رمزية في المواجهة مع الخصوم داخل المشهد السياسي المصري.

ومع ذلك فلا يوجد شك في أن الدوافع الخاصة والسياق الخاص للدراسات الغربية المصرية، يمكن أيضاً أن توضع في إطار اتجاه أوسع يوجد في أنحاء كثيرة من العالم خضعت في الماضي للاستعمار، فضلاً عن تلك الدول التي خضعت للتأثير والتوسع الاستعماري المستمر؛ ففي كثير من الأحيان تقدم الحركات الوطنية بني الوطن إلى جانب شعوب أخرى في صورة موحدة معزولة، وتحتفي بشخصيتها "الأصيلة تحت مسمى القومية - سواء أكان ذلك خلال كفاحها من أجل الاستقلال أم أثناء عملية إزالة آثار الاستعمار، ويجيء تحميل الغرب لمعظم الشرور في العالم موازياً على نحو عام مع التلاحم العاطفي الذي يفتقد لروح النقد مع الجماعة الأولية التي ينتمي لها أبناء الوطن الواحد دون أدنى اهتمام بالواقع الاجتماعي والثقافي والاقتصادي والسياسي داخل الوطن.^(١٥) غير أن قبولنا بمبدأ الانتماء إلى الوطن هذا، كما يرى إدوارد سعيد، "يعني قبولنا بما أفرزته الإمبريالية من انقسامات عرقية، ودينية، وسياسية فرضتها الإمبريالية نفسها". (1993:276)

وقد أدرك فرانتز فانون Franz Fanon خطورة الشوفينية وكراهية الأجانب بوصفهما جانبيين من جوانب الوعي الوطني، وهو يرى أن الاستقلال الوطني سيظل

جامداً وحببياً وراء جدران المظالم القديمة، وأنه سيقوم نظاماً هرمية، ونظماً جديدة من الظلم ما لم لا يتضمن تحويلاً في الوعي الاجتماعي: فـ "التحرر وليس الاستقلال الوطني هو الخيار الجديد" (Fanon, qtd. in Said, 1993:277)، ولذا كان لزاماً على الحركات الاجتماعية التي توجه اهتمامها إلى المظالم الاجتماعية والعقائد الثابتة مثل السلطوية السياسية، والظلم الطبقي، والنظام الأبوي، أن تقاوم طبقة بورجوازية وطنية جديدة، ويرى سعيد أن الحركة النسائية أصبحت بعد الاستقلال أحد أهم الاتجاهات التحررية في العالم الثالث من بين عدد متنوع من الحركات الاجتماعية التي تقاوم النظم الفكرية القديمة الجامدة (ibid: 263)، الأمر الذي يشكل تهديداً للوضع القائم.

ولذلك فلا عجب أن استراتيجية الحصول على قوة رمزية من خلال صناعة صورة لجوهر "الغرب" وفساده يجرى استخدامها على نحو منتظم عند الحديث عن المرأة والحركة النسائية، ومن ثم يجرى ربط صورة المرأة الغربية المنحلة فضلاً عن صورتها كداعية للفكر النسوي الذي يحمل الكراهية للرجال بالنظم الأخلاقية التي تضع القواعد الملزمة، وخاصة فيما يتعلق بدور المرأة، وحقوقها وواجباتها، والعلاقات بين الجنسين في مصر، وقد تردد كثيراً في الكتابات مفهوم النساء بوصفهن "الأمينات على الثقافة الأصيلة"، وسأتناول باختصار هذه النقطة التي كُتِبَ عنها الكثير حتى يومنا هذا لاحقاً في إطار هذا الفصل^(١٦). وسوف أستكشف تفصيلاً قضية استغلال التفسيرات السلبية للغرب للحط من شأن الناشطات المصريات، فضلاً عن استخدام الناشطات بدورهن لتفسيرات تتعلق بالغرب كي يخلعن على كفاحهن ثوب الشرعية.

وإنني أرى أن الناشطات المعاصرات اللائى يتسم اتجاههن بالعلمانية قد أرسين داخلهن على نحو عام الحدود التي يتشكل بموجبها الخطاب المسموح به، ولكن ماذا لدى الناشطات مختلفات التوجه من قول عن "الغرب"؟ أضف إلى ذلك أنني فيما يلي في هذا الفصل وخلال الدراسة الحالية، سأحاول أن أثبت أن هناك بعض النساء اللائى يتخطين خطاب "نحن في مواجهة الآخر"، ويحاولن أن يضعن أنفسهن في إطار نظم للقيم وصراعات سياسية لا تخضع بالضرورة لمفهوم "الغرب" بوصفه "الآخر".

بوابة مصر: تعرضنا للإزاحة في مواجهة الآخر

يقيم التقديم النمطي الحواجز، ويحوّل ما يتسم من الأحوال العادية بالمرودة في واقع الأمر إلى حالة من الجمود في ظل نظام سائد للقيم لا يعترف بتلك المرودة والطبيعية، وتنطبق تلك العملية على الكثير من التعريفات التي تُقدّم لـ "الغرب" فضلاً عن بعض التصنيفات مثل ما يدعى بـ "النسوية الغربية"، وهي تعريفات وتصنيفات تسعى "لزيادة حدة الشعور بذاتها بالتهويل في الاختلافات والمبالغة في المسافات بين ما هو أقرب إليها وما هو أبعد عنها" على حد قول إدوارد سعيد منذ عشرين عاماً خلت (Said, 1978:55)؛ فالواقع العربي أمر مختلق دوماً حسبما تدعو الحاجة. ومع ذلك فالاستشراق والدراسات الغربية هما ظاهرتان لا تشكلان طرفي نقيض، بل إنهما يمثلان عمليتين تاريخيتين محددتين، يقومان على أساس من علاقات قوى مختلفة. أضف إلى ذلك، أن حركة الدراسات الغربية تكشف عن درجة أكبر من التناقض بين ألوان الخطاب والممارسات الاجتماعية السائدة إذا ما قورنت بالاستشراق، وقد حل إلى حد كبير محل المفهوم المبكر لكـ "غرب" بوصفه مصدر التقدم والحدثة مفهوما للغرب بوصفه مصدر تلوث وإفساد. غير أننا نلاحظ أن الانتماء لما هو "عربي" يفتح الكثير من الأبواب في بعض الدوائر والمواقف الخاصة، واسمحوا لي أن أحاول توضيح تلك النقطة من خلال حكاية صغيرة:

اعتدت السفر من وقت لآخر أثناء إقامتي التي امتدت لسبع سنوات في مصر، وذلك لزيارة والديّ في ألمانيا أو لزيارة أصدقاء لي في بلاد أخرى. ولا أكاد أذكر من المرات العديدة التي عدت فيها من سفري إلى القاهرة، مرة واحدة خلت من مشاعر القلق وانعدام الأمان، بحيث إنني كنت أتساءل عما إذا كنت قد "ارتكبت جرمًا". وبالطبع كنت أعرف أن اختياري من بين غيري من المسافرين، وأغلبهم من الألمان الذين كانوا يتوجهون إلى نقطة الجوازات دون ما تأخير، لا يتعدى كونه إجراء رسمياً، وعملية بسيطة تهدف إلى مراجعة "ملفي" في الكومبيوتر. وبالطبع، كنت أعرف أن اسمي العربي هو السبب، وهو اسم يثير الشكوك بين "إخواني العرب".

وعادة ما كان الحوار عند نقطة الجوازات يمضي كالاتي: في البداية يلقاني ضابط الجوازات بالتحية الإنجليزية "هالو" (وفي أغلب الأحيان يصحبها بابتسامة)

وبعد أن يتفحص جوازي جيداً (متصفحاً أوراقه ومراجعاً أختام آخر سفر وآخر وصول) يأتي السؤال المعتاد: "بتتكلمى عربى؟" أو "أصلاً إيه؟" أما ما يلى ذلك من نغمة الحوار، فإنه يعتمد على إجابتي على هذا السؤال، وكان العديد من الأصدقاء قد نصحوني بادعاء عدم معرفتي بالعربية لأننى "سألتقى معاملة أفضل عند حدود أى بلد عربى إذا ما كنت أجنبية". وما لبثت أن تعلمت أن الموقف أكثر تعقيداً مما يصوره أصدقائى؛ فقد كان الأمر ورطة لا مخرج منها، فإذا ما أجبت بالنفى، وادعيت عدم معرفتى بالعربية، فإن الضابط (وعادة ما يكون رجلاً) سيبتسم ويحاول أن يفهم بأسلوب يتفاوت فى درجة الود، كيف أحمل اسماً عربياً. غير أن هناك من يتسم رد فعلهم إزاء إنكارى معرفة العربية بقدر أكبر من الشك فيواصلون الإصرار على ضرورة معرفتى بالعربية لأننى أحمل اسماً عربياً. وقد كانت هناك مرات حالفتى الظن فيها وأديت دورى بمهارة فلم يبدُ على أننى فهمت السؤال الموجه إلى، ولكن كانت هناك مرات أخرى استسلمت فيها طوعاً وكشفت عن مهاراتي اللغوية، على الرغم من عدم تمكنى التام، أو "كشفت" نفسى عاجلاً أو آجلاً لما شعرت به من تعب أو عدم قدرة على التركيز.

وفى أحيان أخرى كنت أرفض إخفاء مهاراتي اللغوية أو نسبى وكنت أجيب بالعربية. وفى تلك الأحيان أيضاً كنت ألتقى ردود فعل تتراوح ما بين المديح لتمكنى من اللغة (الأمر الذى يصحبه كثير من الأحيان الإحساس بالعجب)، أو سيل من الأسئلة تتسم بالحدة والعداء. وبغض النظر عن المشهد ذاته، تتشابه النتيجة فى كل الأحوال؛ فجواز سفرى يُحتجز، ويُطلب منى الخروج من الصف والانتظار، لتضيق دقائق أحياناً، وفى بعض الأحيان ما يزيد عن الساعة، وفى معظم الأحيان كانت تتوافر لى القدرة على الالتزام بالهدوء؛ فأشعر أننى أفضل حالاً إذا ما تصورت فترة الانتظار والإذلال التى يتحملها الكثيرون وخاصة الفلسطينيين؛ فإذا ما قارنت حالى بهم اتضح لى أننى أسعد حظاً؛ فلم يحدث أن انتظرت لساعات ممتدة ولم يحدث أن مُنعت من دخول مصر.

وقد زاد من تعقيد الأمر أنه لم يقتصر على اسمى العربى، بل امتد إلى نسبتي لأب تعود أصوله إلى العراق، وقد اختلفت ردود الأفعال تجاه "خلفيتى العراقية" تبعاً

للموقف السياسي وعلاقة مصر بالعراق.^(١٧) وقد كانت أسوأ حادثة وصول لمصر بعد شهر من الغزو العراقي للكويت؛ فلماً كنت قد زرت أسرتي في بغداد في يوليو من عام ١٩٩٠، ولم أستطع مغادرة العراق على مدى أسبوعين بعد الغزو، فإن جواز سفري حمل أختاماً لرحلتي إلى العراق تتطابق وفترة الغزو (الذي بدأ في الثاني من أغسطس ١٩٩٠)؛ فلم يقتصر الأمر على طلب الانتظار بل جرى استجوابي لعدة ساعات حول زيارتي للعراق، وقد كان لتأشيرة السفر الخاصة بي بوصفي طالبة، وإبرازي لبطاقتي الدراسية بالجامعة الأمريكية بالقاهرة أثر طيب في تخفيف حدة التوتر والشك، وعندما سُمح لي في نهاية الأمر بالذهاب، والتقطت متاعى وخرجت لألقى الترحاب الحار من أصدقائي المصريين الذين انتظروني بصبر، ما لبثت وأن شعرت بضيق يفوق ما شعرت به عند استجوابي بالمطار، فقد نصحتني صديقتي "منى" ألا أذكر أصلي العراقي؛ لأن الناس جميعهم غاضبون من العراقيين لما فعلوه في الكويت، وبالطبع لم تتجه نيتي إلى النزول إلى شوارع القاهرة وأنا أحمل لافتة كتبت عليها "أنا عراقية"، غير أن تصوري الحاجة إلى إخفاء هويتي العراقية كانت محزنة ومفرزة. ولم يكن لهذه الحادثة مثيل فيما يتصل بدرجة الشك الذي ووجهت به و بحدة الموقف. وفي العديد من المرات الأخرى، لم يزد الأمر عن الروتين المعتاد، وهو أحد السخافات التي تضطر - في بعض الأحيان - إلى أن نمر بها.

إذا ما كنت قد أمضيت بعض الوقت في الكتابة عن مطار القاهرة، فلأنني أرى أن المطار، والهيئة المنظمة له، وقواعد العمل به يمثل صورة لبعض التناقضات في مصر في عهد ما بعد الاستعمار؛ فبغض النظر عن ادعاءات الأصالة، والهجمات الشرسة التي يتعرض لها "الغرب" لإفساد البلد وتدميره، واستدعاء "الأخوة العربية" بحماسة، فإن بوابة مصر أكثر ترحيباً بالأوروبيين والأمريكيين منها بجيران مصر من الأفارقة أو الأشقاء العرب.

وغالباً ما يكون الزوار القادمون من "الغرب" سائحون يساعدون على إيجاد عمالة وينفقون من أموالهم. وتشجع الحكومة والقطاعات المختلفة من صناعة السياحة المصرية، وتسعى لاستجلاب موجات من السائحين الغربيين لتدعيم الاقتصاد، ولقد كان لهجمات المتطرفين الإسلاميين في السنوات الأخيرة أثرها؛ لأنها - في واقع الأمر - لم

تكن مجرد التعبير عن مواقف معادية للكفرة الفاسدين المفسدين، وإنما لأنها وجهة ضربة للدولة في موقع حساس يرتبط باستمرارها في الوجود.

ولا يقتصر الحصول على ذلك الوضع المتميز على السائحين "الغربيين" عند دخول مصر، وإنما يمتد لرجال الأعمال، والعاملين في مجال التنمية، ومسؤولي الأمم المتحدة، وموظفي السفارات، وحتى الطلاب الأجانب المفلسين. أما فيما يتعلق بالباحثين الأجانب، فقد تزايدت صعوبة حصولهم على تصريحات رسمية للبحث في مصر، وقد نتج عن هذا أن الكثير من الباحثين يتجنبون ببساطة التقدم بطلب للحصول على تصريح، ويبدو التناقض عندما نرى أنه بينما يمثل التصريح الرسمي للبحث عقبة في وجه الباحث، فإن معظم الباحثين الأوروبيين أو الأمريكيين تسهل عليهم مقابلة كبار المفكرين والفنانين والسياسيين المصريين، ذلك في حين أن الباحثين المصريين يتعين عليهم اللجوء إلى "الواسطة" أو الانضواء تحت جناح الباحثين الغربيين. غير أنه في السنوات الأخيرة حدث تغيير في الموقف من الصحفيين والباحثين الغربيين، وخاصة بين العاملين في الجمعيات الأهلية، ونشطاء حقوق الإنسان وقضايا المرأة والمعارضة السياسية، الذين يتزايد شعورهم بأن الباحثين والصحفيين الأجانب يتسمون بالسذاجة السياسية ويتجهون للاستغلال.

صور تقديم الذات

وهناك سبب آخر دعانى لرواية حادثة المطار؛ فهي تشير إلى بعض "صعوبات" الانتقال ما بين عالمين أو أكثر (Visweswaran, 1994:119)؛ إذ تتضمن مناقشة هويتي أثناء إتمام إجراءات الجوازات مزيجاً من العشوائية والتحايل؛ إذ تجسد "طقوس المرور" في مطار القاهرة اللبس، وعمليات الإحلال، وحالات البدايات المستقرة في جوهر تفسير الذات وتقديمها؛ ففي مناسبات معدودة تملكنى شعور قوى تجاه أحد جانبي شخصيتي؛ ففي خلال حرب الخليج - على سبيل المثال - شعرت بالفعل أنني عراقية، غير أنه في أغلب الأحوال، بينما كنت أتخذ طريقى إلى خارج المطار كنت أودى دور الألمانية أو العراقية، وقد استمرت هذه المناورات خلال إعدادى لبحثى، وسأنتقل لفحص قضايا "التهميش" و "تحديد المواقف" من خلاله.

فمن خلال "عملي الميداني" الفعلي حين كنت أستكشف الطبقات والعناصر المختلفة لهويات الناشطات المصريات، تكشف لي أن "الهوية" الوحيدة التي تجرى مناقشتها هي هويتي، وفي بعض الأحيان شعرت بعدم الارتياح لما وجدته من أسلوب بعض النساء تجاهي كعراقية، ولذلك فأنا "طيبة" و"موثوق بها"، على أساس من اسمي والدماء التي تجرى في عروقي، وجنسية والدي الأصلية. وفي كثير من الأحيان ذكرني ذلك بالمواقف والحالات التي أسىء معاملتي فيها؛ لأنني أحمل اسماً عربياً أيضاً، وقد صارحتني بذلك إحدى السيدات الناصريات التي لعنت في مناسبات عديدة المؤامرات الغربية والباحثين الغربيين الضالعين فيها، وذلك عندما سألتها عن السبب الذي جعلها تتحدث إلي: "لكنك عراقية، لم أكن لأتحدث إليك لو كنت مجرد امرأة غربية".

وقد أعطت بالفعل تجربة المطار التي قدمتها بعض المؤشرات حول كيفية تسييس تفسيرات الهوية؛ فمغزى أن أكون "عراقية" و"ألمانية" اختلف كثيراً ما بين خبرتي بمطار القاهرة وسياق بحثي الفعلي؛ فقد أصبح العراق بين معظم الناشطات المصريات، فضلاً عن اليساريين والإسلاميين، رمزاً لمقاومة العدوان والظلم الإمبريالي، وهناك آخرون يرون في العراقيين ضحايا لحكوماتهم وللهيمنة الأمريكية. وفي بعض الأحيان، تحل النظرة العامة لشخصي بوصفي "عربية" محل انتسابي الخاص للعراق؛ ففي حالات معدودة، أسمع من يقول "أنت مننا"، وهو تعبير قد يعنى أنني "مصرية"، غير أن ذلك لا يخص "خلفيتي" الخاصة، وإنما يتعلق بوصف قائم على مشاركتي في نضال الناشطات المصريات للحصول على حقوقهن، وبينما كنت أشعر في كثير من الأحيان بعدم الارتياح تجاه ما يراه الآخرون في هويتي على أساس من عناصر أولية من الدماء والإرث، فإنني أعتز كثيراً بتلك اللحظات التي أصبحت فيها أحمل "الجنسية المصرية الشرفية".

وفي مواقف محددة، مثل المناقشات التي تدور حول الحركات النسوية الغربية، والتعليم الذي تلقيته في الجامعة الأمريكية بالقاهرة، ونشأتي في ألمانيا، فضلاً عن المناقشات التي تدور حول الشذوذ الجنسي والعلاقات الجنسية بوجه عام، فإنني أنتسب لـ "الغرب". وفي أحيان أخرى، كنت أشعر أن نسبتي لـ "الغرب" تستخدم كوسيلة سهلة لهدم رأيي، إذا صادف وكان مخالفاً، أما كوني "ألمانية" فلم يظهر في

تلك الإشارات عدا في سياق يسخر من اهتمامى بعلامات الترقيم، والتزامى النظام. وعند استخدام الإشارة إلى كونى "ألمانية" فإنه يكون لها ارتباطات إيجابية إذا ما قورنت بالمصطلح العام "غربى".

ونظراً لاسمى وأصلى فإن أغلب المصريين الذين قابلتهم أثناء إقامتى افترضوا أنى مسلمة. غير أن هويتى الدينية (أنحدر من أب مسلم شيعى، وأم كاثوليكية) لم تناقش بين النساء العلمانيات اللاتى أجريت معهن مقابلات. وفى سياق بحثى، كان لأصلى العربى واتجاهى السياسى أهمية تفوق انتمائى الدينى.

وفى خط مواز للإشارات المتنوعة لـ "هويتى" - ومع ذلك فى غير تناغم دائم معها - شعرت مراراً بالوصلة ما بين وضعى كعراقية-ألمانية، أو عربية-غربية، وغالباً ما تمر الهويات المركبة بصراعات عنيفة ما بين عالمين أو أكثر. وتذكر فى هذا الصدد وصف ناصر حسين لهويات عهد ما بعد الاستعمار: "إن الوصلة دالة تفتقر إلى الوضوح، فهى تصل وتفصل فى الوقت ذاته، وهى تمثل الانتماء وعدم الانتماء فى الوقت ذاته، بل إن أغرب ما فى أزواج الكلمات التى تظهر الوصلة فى وسطها يتمثل فى أن المعنى غير قابل للاستقرار فى إحدى الكلمتين بل يقتصر فهمه على متابعة الحركة" (1990:10)

وينتج عن محاولة تتبع معانى المصطلحات ما بين التحالفات المتغيرة شعور بأن الفرد "يولد مرات عديدة كوصلة لا ككيان ثابت" (Trinh, 1991:159)؛ فكونى عراقية-ألمانية يوحى بأن الأمر يتخطى كونه مجرد خط أكاديمى سرت فيه من قبيل المصادفة؛ إذ إن مادة كتابى تتصل بهذا "الموقف القائم على الاختلاط" (Visweswaran, 1994). أضف إلى ذلك، أن الصراع ما بين دورى كباحثة ودورى كناشطة سياسية فى مصر زاد من إحساسى بصعوبة الانتقال ما بين "الحديث نيابة عن" و"الحديث بالأصالة عن نفسى". (Abu Lughod, 1991:143)

وتقدم روزمارى صايغ Rosemary Sayigh ظاهرة الخلط فى صورة إشكالية؛ فتبحث فى آثار التعرض الممتد لثقافة معينة، وتقول "ربما تبعث ظاهرة الخلط، على الرغم من قدرتها على الإثراء الثقافى، تبنياً على مستوى غير كامل من الوعى

لأخلاقيات المجتمع موضع الدراسة، وبينما يعزز ذلك من التجاوب، فإنه قد يقطع الطريق على بعض الأسئلة والاستفسارات" (1996:146). وإننى أرى أن الأهمية لا تقتصر على الإقرار بالموقعية الخاصة بنا، التى تقوم على مكونات شخصياتنا، وافتراضاتنا المسبقة، واتجاهاتنا السياسية التى نجلبها من بيوتنا، ولكننا يجب أن نقر أيضاً - وفقاً لما جاء به لينديسفارن Lindisfarne (١٩٩٧) وصايغ (١٩٩٦) - أن المجتمع الذى نبحثه سيؤثر على أساليب رؤيتنا للعالم؛ فعلى سبيل المثال تشرح لينديسفارن كيف شكل عملها الميدانى فى سوريا "صوتها السياسى" وهويتها، وهو ما يأتى موازياً من نواحٍ عديدة لتجربتي فى القاهرة.

فقد نما وتطور التزامى السياسى بالحركة النسائية، وكذلك تطورت محاولاتي مواجهة الوصف الذى يجرد "العرب" و"المسلمين" من الأدمية فى وسائل الإعلام الغربية، بينما كنت أقيم بالقاهرة وأجرى بها بحثى، كما أصبحت بعد ذلك أثناء عملى الميدانى الأخير أكثر حساسية تجاه التعميمات فيما يخص "الغرب"، وأصبحت أيضاً تشكل جانباً من عملى البحثى، وقد ساعدنى عملى على تفهم بعض التعقيدات والمشكلات ذات الصلة بالنشاط النسائى فى مصر، ووجدت أننى كنت أجهل بعضاً من هذه المشكلات عندما بدأت بحثى منذ عامين؛ فلم تكن الأسس المادية لمعظم ما يبدو أنه صراع أيديولوجى، ولا الطبيعة الشخصية للصراع ما بين الجماعات المختلفة، ولا تأثير المجتمع الدولى، واضحاً أمامى فى بادئ الأمر، وقد دعانى ذلك لإعادة النظر فى مفهوم "العلمانية" وهو مفهوم كنت قد قدمت له تعريفاً قبل أن أبدأ فعلياً فى العمل فى بحثى. (١٨)

وبينما تواصل اكتسابى لفهم أعمق - ولدراية أكبر، وفى كثير من الأحيان لتعاطف مع موضوع بحثى - بدأت أفحص حدود موقفى بقدر أكبر من النقد؛ فقد تخففت من الحاجة الملحة التى كنت أشعر بها من قبل على الدوام لأظهر "عروبتي" أو بالأحرى هويتي "غير الغربية"، بفضل لقاءتى ومقابلاتى مع الناشطات المصريات، فضلاً عن أصدقائى المصريين ومعارفى خلال العام الذى أجريت فيه بحثى الميدانى، بل إننى على العكس استثرت فى نفسى المصالحة مع "صوتى السياسى"؛ فالخلط - كما ذكرت من قبل - لم يكن فى كثير من الأحيان مفتاح الأمر وحده، غير أننى أدركت أن

هويتي و صوتي السياسي لا يتصلان مباشرة بموقف تفصل طرفيه وصلة. ولذلك أجدني - دون ما رغبة مني في السقوط في شرك العالمية أو الإنسانية الساخنة - أعتنق مجموعة من القيم تتصل بحقوق الإنسان، وحق المرأة في المساواة، وحرية التعبير، والعدالة الاجتماعية، وهي قيم أرفض أن أتخلي عنها في مقابل الاحتفاظ بـ"الأصالة".

استعادة الهوية/ الشفاء من الهوية

وبما أنني قد أشرت بالفعل إلى كلمة "الهوية" الساحرة، أود الآن أن أفحص باختصار ما تعنيه لعملي؛ فقبل أن أبدأ بحثي بين الناشطات المصريات في القاهرة، كنت قد كثفت اهتمامي بمفهوم "الهوية" بوصفه مفهوماً أساسياً في مشروعى، وقد افترضت على أساس من ملاحظاتي خلال فترة دراستي وعملي في مصر، وخبراتي التي اكتسبتها أثناء مشاركتي في إحدى التنظيمات النسائية، فضلاً عن قراءاتي، أن النشاط النسائي يتسم بالنضال من أجل الحصول على هويتين: هوية النوع، وهوية الوطن. وقد تمثل أحد أهم أهدافي الرئيسية في فهم العلاقات المعقدة ما بين تحرير المرأة وكفاح ما بعد الاستعمار لإحراز الاستقلال في مصر المعاصرة.

وقد تركت اتصالاتي وجهودي النظرية في مجال "الهوية" مفاهيم غائمة في نفسي حول ما لا تكونه الهوية (فهى لا تتصف بالثبات والجمود ولا تلخص في جوهر). وقد رأيت أن هذا التصور منطقي على المستوى الشخصي، غير أنه بدا وكأنه لا يتسق والنضال الشرس لشعوب تحارب من أجل "هويتها" و"أصالتها". وعندما بدأت عملي الميداني، تراءى أمام عيني على الدوام ذلك المفهوم الغائم، المحير الذي يستعصى إلى حد كبير على الشرح، بل وحجب رؤيتي؛ فقد استقر في عقلي على الدوام غير أنه منعنى فعلياً من أن أرى وأسمع؛ فلما وانتنتى الشجاعة على تنحيته جانباً وأضع حدوداً للمفهوم الذي بحثته بعناية، تمكنت عندئذ من وضع قدمي على طريق تفهم القضايا والاتجاهات، والمشكلات، والمناظرات، ثم اتضح لي فيما بعد أن كل شيء يمكن أن يرتبط بالهوية بصورة ما؛ فهناك سيرة النساء اللاتي تؤثر التغييرات السياسية على حياتهن الشخصية، والمناظرات التي تدور حول تعريف للحركة النسائية، والجهد الذي

تبذله الناشطات فى مجال الأولويات والقضايا (مثل الأمية، والرعاية الصحية، والتوعية بالحقوق القانونية، والحماية من العنف المنزلى)، وعلاقات التحالف والتنافس مع الجماعات والمنظمات المحلية والدولية، والجدل حول الدين والعلمانية، فضلاً عن علاقات الصداقة، وأسلوب الحياة وما إلى ذلك، ولذلك لم أتوصل إلى هذه المعلومات أو النظرة المتعمقة مادمت أطرح أسئلتى فى إطار من مفهوم "الهوية" الذى كان بمثابة عصابة تحجب عنى الرؤية.

وهناك العديد من الأخطار التى تكتنف المفاهيم العامة مثل الهوية؛ لأن هذه المفاهيم يسهل استخدامها وإساءة استخدامها بهدف تجسيد المفهوم فى الواقع، وتحويله إلى جوهر واستبعاد ما عداه. ومع ذلك، فلا يزال هذا المفهوم نشطاً بوصفه مصطلحاً أساسياً فى الحركات الثقافية والسياسية، وأداة محورية للتعلم الذاتى من التجربة فى العلوم الاجتماعية. وعلى الرغم من أن الهوية وضعت موضع الشك، وطُرحت كإشكالية، وتعرضت للتفكيك، فإنها لم تستبدل بمفهوم جديد، بل إنها شغلت المفكرين بوصفها تقف عند الحدود، وتعمل بقوة الإلغاء فى تلك الفترة التى تقع ما بين التخلي عن أفكار قديمة واستقبال أخرى جديدة، وهى بذلك تمثل مفهوماً لا يخضع للقديم فى فهمه، ولا مفر من تواجده مع ذلك للتعامل الفكرى مع بعض القضايا" (Hall, 1996 b:2)، أى أنه يتعين علينا أن نناقش الهوية على أرض الواقع. وانطلاقاً من إدراكى لهذا الأمر فإننى أوافق على التقديم الفكرى لمفهوم الحرية الذى وضعه ستيوارت هول، فهو يراها فى حالة متحولة، دائمة التشكل، تمر بعملية تغير وتحول مستمرة، وتجد مستقرها فى ما يطرأ من أحداث، وتخضع للعمليات التاريخية الراديكالية، وتعد علاقة تتضاعف ما بين القائم والمختلف من الخطابات والممارسات والمواقف التى تتداخل وتناصب بعضها البعض العداء فى كثير من الأحيان.

إن المناقشات التى تدور حول "الهوية المصرية" تذخر بالمفاهيم الجوهرية كما سآبين فى ما يلى من هذا الفصل، وسأقوم بداية باستعراض المناقشات التى تدور حول القومية والشخصية القومية عامة فى مصر على وجه الخصوص، وأعرض للخطابات والمواقف المتنوعة فى هذه القضية.

الاتجاهات القومية والهويات القومية في مصر

تتناول معظم الدراسات الكلاسيكية حول الكتابات القومية ظاهرة القوميات بوصفها ذات بعد أحادي أو عالمي (B. Anderson,1983; Gellner,1983; b; Kedourie 1970 ; Kohn,1955 A. Smith 1976, 1971) وقد تعرض مفهوم "القومية" في شكله المفرد للنقد من مواقع مختلفة، وخاصة في حقل دراسات ما بعد الاستعمار (Sedgwick,1992 Radhakrishnan,1991 chatterjee,1989 Bhaba,1990) وتعرف "الاتجاهات القومية" بأنها مشروعات سياسية تعلن حقها في الأرض، أو في تمثيل سياسي مستقل لجماعة عرقية أو دينية.

وبينما ارتبطت الحركات القومية في كثير من الأحيان بنضال الجماعات العرقية من أجل حصولها على حكم ذاتي، فإن المشروعات القومية تعبر في الأغلب عن مصالح الطبقات المظلومة في مواجهة الاستعمار والإمبريالية. ولذلك فمن الصعب أن نرى هذه الحركات، وقد نبعت من جوهر عرقى أو كنتيجة دائمة لعمليات عرقية. أضف إلى ذلك أن العمليات الاجتماعية الاقتصادية والسياسية، حسب ما يرى سامي زبيدة -Sami Zu-baida، التي ارتبطت بتاريخ طويل مع الحكومات المركزية بعثت الإحساس بـ "الوحدة الوطنية" والتجانس العرقى (Zubaida, 1989; referred to in Yuval-Davis, 1997:16). غير أنه بناء على ما أشارت إليه نيرا يوفال- دافيس Nira Yuval-Davis حين تقول: "توجد صلة جوهرية ما بين المشروعين العرقى والقومى"، فقد يكونا مختلفين في المدى غير أن كليهما يمثل "المجتمعات المتخيلة" التي أشار إليها أندرسون (Anderson (1997:16).

وقد تتعايش قوميات مختلفة في بلد واحد أو تنتقل عبر تاريخ نضالها الوطنى، ومصر مثال على ذلك؛ فقد تبادلت مصطلحات "مسلم" و"عربى" و"مصرى" المواقع بوصفها حاملة لـ "الهوية الأصيلة"، والانتماء الوطنى عبر التاريخ المصرى. وفى الإمكان التعرف على ثلاثة مفاهيم مختلفة للتضامن الاجتماعى: الوطنية الإقليمية القائمة على أرض الوطن، والإحساس بالتفرد على أساس من الوحدة الجغرافية والتاريخية، والقومية اللغوية-العرقية المشتقة من الاشتراك فى لغة واحدة و/أو أصول عرقية واحدة مع الأمة العربية (القوم)، والإحساس بالانتماء الدينى على نحو يُنظر معه

إلى الانتماء للجماعة الدينية (الأمة) بوصفها موضع الولاء المطلق (Jankowski, 1986 a: 193) ويشكل عنصر الانتماء إلى الأمة لتحقيق التضامن تناقضاً؛ إذ إنه يشير ضمناً على المستوى التقليدي لمجتمع متعدد الأوطان متعدد الأعراق يعارض مفهوم القوم والوطن. ومع ذلك فإن التيار الإسلامى المتزايد فى مصر يضع إطاراً دينياً للخطاب القومى محاولاً أن يوجد دولة إسلامية.

ولم يشكل إعادة التوجّه إلى العالم العربى إبّان حكم عبد الناصر - وما نتج عنه من إحساس بالتوحد العربى المتنامى - المشاعر الأعمق فى الهوية المصرية وهى تلك المشاعر التى جالت فى نفوس الكثير من المصريين ذوى الصوت المسموع (Jankowski, 1997)؛ فالهوية العربية لم تحل محل الهوية المصرية، بل إنها صارت مكملتها لها. ومثلما هو الحال مع الجوانب المكملّة الأخرى، فقد اتسمت بإصدارها قدراً كبيراً من الضجيج؛ فى مجال دفاع مصر عن نفسها، أو تقديم صورة عظيمة لها، والتعبير عما تتمتع بها من مزايا اقتصادية، وقيادة ثقافية (Jankowski, 1986 a:201).

وقد تضاعفت القومية العربية تدريجياً فى فترتى حكم السادات ومبارك، ومع ذلك، فإنّ العاطفة المتزايدة النمو تجاه الأمة الإسلامية وتوسيع نطاق الأمة (أمة المؤمنين) خارج حدود الوطن يجرى ربطه فى كثير من الأحيان بالتوحد من العالم العربى المسلم، وبينما يمثل الاتجاه نحو أمة إسلامية دون شك أكثر العناصر وضوحاً وصراحة للتضامن الجماعى فى مصر فى يومنا هذا، فإنّنى أعتقد أنّ أغلبية المصريين يعبرون عن مشاعرهم الوطنية من زاوية كيان مصر الجغرافى وإنجازاتها الحضارية.

ومثلما هو الحال مع القوميات، فإنّ الهويات القومية ليست كيانات ثابتة؛ فالأمر لا يقتصر على التنقلات التى تتعرض لها هذه الهويات فى التاريخ الوطنى، وإنّما يمتد ذلك إلى تفسيراتها التى تتعدد بتعدد الجماعات داخل الوطن الواحد. وفى مصر استمر التذبذب ما بين الأسس العلمانية والدينية للهوية الوطنية، بالإضافة إلى السؤال الذى لم يجد إجابة حول انتماء مصر الثقافى والسياسى، وكما تشير بث بارون Beth Baron فإنّ البريطانيين حاولوا أن ينكروا وجود الجنسية المصرية، وذلك عندما كتب اللورد كرومر، المندوب السامى البريطانى، عام ١٨٩٠، أنّه "لا وجود لما يُسمى بالجنسية المصرية". غير أنّ المصريين أنفسهم يمكنهم أن يلجأوا دائماً للاختيار من

بين تاريخ تعددت طبقاته ويختاروا أصولاً ورموزاً فرعونية، وقبطية، وإسلامية (أو مزيجاً منها) من أجل إقامة هويتهم "المصرية" (Baron, 1993:244). وقد حاولت الحركة الوطنية المصرية في فترة ما قبل ١٩٢٣ (تاريخ استقلال مصر) أن توجّد هوية وطنية علمانية ترفع شعار الدين لله والوطن للجميع، والوطنية ديننا، الأمر الذي يرتبط بمبدأ الوطنية والمواطنة بغض النظر عن المعتقد الديني (Vatikiotis, 1983:254).

غير أن بعض الاتجاهات في المجتمع المصري، وخاصة الإخوان المسلمين، تحولوا بأفكارهم بعيداً عن بناء هوية وطنية علمانية و مجتمع سياسي؛ فهم يرون أن شخصية مصر الوطنية لا يمكن أن تنفصل عن الإسلام، وقد أصر أنصار المجتمع السياسي الديني على تطبيق الشريعة، مارين مرور الكرام على حقوق غير المسلمين وواجباتهم في الدولة الإسلامية (ibid.: 256-7).

وقد أنهى النظام العسكري الذي أمسك بزمام السلطة عام ١٩٥٢ الجدل حول طبيعة المجتمع الوطني، وذلك بقهره الوطنيين العلمانيين والدينيين. ومع ذلك، فإن مفهوم "الهوية العربية" الذي نص عليه دستور ١٩٥٦ إبّان حكم عبد الناصر كان قد بدأ في البروز منذ الثلاثينيات، ومع ذلك، ففي عهد السادات انتقل الضوء بعيداً عن التوحد مع القومية العربية لينتقل إلى الوطنية المصرية، وخاصة بعد عقد السادات اتفاقات سلام منفصلة مع إسرائيل. وهناك من يرى أن السادات قد زاد الجدل اشتعالاً ما بين الهوية العلمانية والهوية الدينية من خلال تلاعبه المقصود بالدين لتحقيق مكاسب خاصة به. (Phillipp, 1988)

وقد كان أبرز الكتاب الذين تناولوا مسألة الهوية الوطنية المصرية : أحمد لطفى السيد، وطه حسين، وصبحى وحيدة، وحسين مؤنس، وميريت بطرس غالى، وجمال حمدان، وطارق البشرى، وميلاد حنا - قد سلطوا الضوء على جوانب مختلفة من تاريخ مصر لتتبع أصول هذا التاريخ وهويته؛ فيؤكد حمدان - على سبيل المثال - على الاستمرارية التاريخية مع الماضى الفرعونى فضلاً عن "عبقرية المكان" الذى تحتله مصر بوصفها أمرين جوهرين لإحياء الوعى الوطنى المصرى الذى اجتاحتته هويات أكثر عمومية مثل الهوية الإسلامية والهوية العربية، وهو يعرف الهوية الوطنية المصرية فى سياق التقابل ما بين تيارات دينية أيديولوجية من ناحية وعلمانية قومية من جهة

أخرى، تشترك مع "تفاعل حضارى ثقافى للمسلمين والأقباط فى مصر وأد بدوره المناخ التاريخى، والفكرى، والاجتماعى، والنفسى لبلورة المفهوم الوطنى للجماعة السياسية المصرية" (1980:44).

وقد احتلت المناقشات حول علاقة المسلمين بالأقباط، وخاصة مسألة الدور الذى يلعبه الدين فى تعريف الدولة المصرية الوطنية (، فما هو الدور الذى ينبغى إسناده للأقلية القبطية) محل الصدارة فى الكثير من الجدل حول قضية الهوية الوطنية فى مصر (Philipp, 1988). ومن بين المواقف المتعددة حول هذه الموضوع، برز مفهوم التدين - لا بالإشارة إلى دين بعينه - بوصفه جانباً من الهوية الوطنية المصرية. ويشير البشرى (1980) لتلك الاستجابة للقضية فى معرض هجومه على العلمانية الغربية؛ فهو يرى أنها لا صلة لها بالتجربة الوطنية المصرية. وقد أعيد فتح باب الحوار حول قضية هوية مصر الثقافية والسياسية فى السنوات الأخيرة - على ضوء تنامى نشاط الاتجاه الإسلامى، والسخط العام على الحالة الاقتصادية، والإدراك للتدخل الثقافى والسياسى الغربى، وتزايد حدة الصراع الطائفى ما بين المسلمين والأقباط، وفى مجال السياسات الإقليمية (وخاصة حرب الخليج، والسياسات الفلسطينية - الإسرائيلية، والجدل حول السوق الشرق أوسطية).

ويقدم كل من أحمد عبد الله، المتخصص فى العلوم السياسية والناشط فى مجال حقوق الإنسان، وميلاد حنا، أستاذ الهندسة والزعيم اليسارى الذى ينتمى لحزب التجمع، حجة "الهوية المركبة" بقدر كبير من الحماسة. ويُعدُّ ميلاد حنا متحدثاً رسمياً باسم المجتمع القبطى، وأحد المدافعين الأشداء عن الوحدة الوطنية، وكان السادات قد اتهمه بإثارة الفتنة الطائفية، وأمضى عدة سنوات بالسجن؛ ففى كتابه "الأعمدة السبعة للهوية المصرية" (١٩٨٩)، يحلل حنا الهوية المصرية بوصفها تركيباً من أربع طبقات: الفرعونية، والإغريقية-الرومانية، والقبطية، والإسلامية. وهذه "العمد" الأربعة مستقرة فى ثلاث مساحات جغرافية: العالم العربى، والبحر المتوسط، وأفريقيا. وفى وصفه تجتمع هذه الأسس الأربعة لتشكّل مجموع الهوية الوطنية المصرية بأشكال ودرجات متفاوتة.

ويفحص أحمد عبد الله (Abdallah1994) الجدل الدائر حول الهوية الوطنية فى داخل إطار التهديد الواضح بالذوبان فى كيانات أكبر: الإسلامى الوسيط، و العربى

الحديث، والشرق أوسطى المعاصر، وبينما يفسر أحمد عبد الله الهوية المصرية على أساس أنها تركيبة من الفرعونية، والقبطية، والقومية العربية، والأمة الإسلامية، فإنه يرى أن الخلاف حول الهوية الوطنية لا يندلع إلا في أوقات الأزمات والصراعات الاجتماعية-السياسية. وقد هدد نمو التطرف بحثاً عن هوية خالصة مفهوم الهوية المركبة مؤخراً. أضيف إلى ذلك، أن مفهوم الشرق أوسطية المطروح كإطار للهوية بعد حرب الخليج الثانية، والاتفاقات العربية الإسرائيلية أثار دفاعاً حاراً عن الهوية العربية بين المفكرين المصريين، كما أنه يعدد الضغوط المختلفة التي تناقش الهوية القومية وتقيمها:

يتمثل عامل الضغط الأول في العولة التي تمتد لتشمل البوارج الحربية، وقاذفات القنابل (مثل التي دمرت بغداد)، والمسلسلات الأمريكية، فهي أقرب للوطن عن ذي قبل، ومن هنا يبدو أثرها على التعاملات المحلية، ويأتي عامل الضغط الثاني من جيل الشباب المصرى الذى يبدو أنه فقد مثله تحت وطأة المشكلات اليومية، ويشعر أغلبه بالاعتراب، أما الأقلية الملتزمة فإنها تلجأ للتطرف الإسلامى. (Al-Ahram Weekly, 1994)

وما نحتاج إلى إثباته يتمثل في أن الجدل والصراع حول الهوية الوطنية لا يدور في المجالات، والصحف، والكتب، ومناقشات المثقفين فحسب، بل إنها قضية ملحّة ومستمرة يجرى تكوينها، وتأكيدا، وتدور المعارك حولها في حياة المصريين في يومنا هذا؛ فالاختيار لا يتم من خلال الاتجاه السياسى والدينى فحسب، وإنما فيما يتصل بأسلوب الحياة، وانتقاء الملابس، والعلاقات الاجتماعية. وفي كثير من الأحيان تبدو هذه الخيارات متناقضة من منظور أجنبى (الجمع بين "الحجاب" والبنطلون الجينز، على سبيل المثال)، ولكن مع فقدان الحدود الحادة الفاصلة ما بين "الداخلى" و"المظهرى"، فإن الأمر يتطلب ملاحظة دقيقة وحساسية حتى يتوافر الوعى بالتعقيدات وبالطبقات المتباينة التي تدخل في تعريفات "المصرية".

الوطنية، والنوع، والسياسات النسائية

تزايدت مؤخراً المناقشات حول الصلة ما بين الوطنية والاتجاه النسوى في سياقات تاريخية وثقافية متعددة (Kandiyoti, 1991; Moghadam ed.), 1994 a; Mohanty et

(1989; Yuval-Davis & Anthias (eds.), 1992; Parker et al. (eds.), 1991; al. وتشترك التحليلات المختلفة في الدور المحورى الذى تمنحه لدور المرأة فى المشروعات الوطنية. وتقدم يوفال-دافيس وأنتياس خمسة أساليب أساسية لاتجاهات المشاركة الأساسية فى العمليات الوطنية والعرقية والممارسات الحكومية: (أ) بوصفهن منتجات بيولوجيات لأعضاء جدد فى التجمعات العرقية؛ (ب) بوصفهن منتجات للحدود ما بين الجماعات الوطنية والعرقية؛ (ج) بوصفهن مشاركات محورية فى الإنتاج الإيديولوجى للمجموع وكناقلات للثقافة؛ (د) بوصفهن رموزاً للخطاب الإيديولوجى المستخدم فى إطار الاختلافات العرقية/الوطنية؛ (هـ) بوصفهن مشاركات فى الصراع الوطنى، الاقتصادى، السياسى، والعسكرى. (1989:7)

وتختلف الأدوار المتنوعة فى قيمتها تبعاً للظروف الاجتماعية والسياسية الخاصة، وقد يلحقها التغيير عبر مسيرة حياة المرأة. أضف إلى ذلك أنه من الأهمية بمكان أن نأخذ فى الاعتبار أنه لا وجود لفئة واحدة من النساء (أو الرجال) يمكن النظر إليها دون ما إشكاليات بوصفها بؤرة للخطاب العرقى، أو الوطنى، أو المرتبط بالسياسات الحكومية. وتقول يوفال-دافيس "تتطابق الأوضاع الخلافية من حيث العرق والجنس والطبقة والقدرة والاتجاه الجنسى وغير ذلك من صنوف الفئات الاجتماعية مع التمييز بين الجنسين، ولذلك فعلى الرغم من أن مختلف الجهات تعامل النساء وتقدم تفسيراً لهن على أساس من اختلافهن عن الرجال، فإن النساء مثلهن فى ذلك مثل الرجال لا يشكلن فئة ذات دور اجتماعى محدد". (Yuval-Davis, 1997:116)، كما أنه من المهم التأكيد على تناقض ووضع المرأة فى إطار المجموع الوطنى؛ إذ توكل إلى النساء الحفاظ على القيم الثقافية، والتقاليد، ورموز المجتمع،^(٢٠) غير أنهن يُستبعدن - فى كثير من الأحيان - من الهيئة السياسية، ويُحصرن فى موقع من يقع عليه الفعل وليس من يفعل". (ibid.: 47)

ويمكن ملاحظة ذلك التناقض والاختلاف فى موقع النساء فى المجموع الوطنى فى مصر؛ فخلال الكفاح للحصول على الاستقلال، لعب النوع دوراً مهماً فى صياغة الإحساس بالتماسك والترابط، وترى بارون Baron أن تمثيل الأمة كامرأة لم يعن مفهوم الشرف وقيام المواطنين من الذكور بدعم الأمة وحمايتها والدفاع عنها فحسب،

(Baron, 1993:246-7; 1997:121): "تطلع الوطنيون بوصفهم الأمة كامرأة إلى استثارة شعور الحب للأمة، وجذب الشباب الذكور إلى القضية ... فالرجل هو الفاعل، والمتحدث، والمحِب؛ والمرأة هي من يقع عليها الفعل، المصغية، والمحبوبة" (Baron, 1997:121). غير أن النساء لم "يُتخيلن" في كثير من الأحيان كجزء من الأمة، بل أنهن كن يُستخدمن كموضوعات ورموز تجذب حولها المساندة الذكورية. (Baron, 1993:245)

وفي مصر المعاصرة، يلعب الخطاب الوطني دوراً في تقديم "المرأة" بوصفها الدالة النقية التي تقع خارج الحدث التاريخي لما هو "داخلي"، وذلك بالتأكيد على التمايز الداخلي/الخارجي في مواجهة "الأخر" الذي يمثله الغرب، ويرى تشاترجي Chatterjee (1989) أن إيديولوجية السياسات الوطنية تعمل من خلال خصوصياتها بوصفها معياراً لكل ما هو سياسي في حد ذاته، فيجري منح السلطة للـ"مجتمع التخيلي" الوطني بوصفه الوحدة الأصيلة للمجتمع. وبالتالي فإن قضية المرأة تضطر لاتخاذ تعبير وطني كشرط مسبق للنظر إليها سياسياً. ويدلى ر. راداكريشنان برأيه قائلاً: "تبدو قضية المرأة، في مواجهة القمع الذي تتعرض له، مرغمة إما على السعى وراء استقلالها السياسي الانفصالي أو إيجاد رؤية لتشكيل سياسات تعتمد على العلاقات والتكامل دون اللجوء إلى نمط آخر من الشمولية" (1992:78). وإني أرى أن تجربتي مع النساء في مصر المعاصرة توازي ما تضمنته أعمال تشاترجي و راداكريشنان عن الحركة النسائية الهندية، وسأحاول أن أثبت هذا التوازي من خلال كتابي هذا.

وفي كثير من الأحيان راحت المشروعات النسوية التي قامت في إطار مكافحة الاستعمار ضحية قضية التحرر الوطني، وأعيدت النساء للعب أدوارهن المنزلية السابقة عقب الاستقلال. غير أنه كانت هناك نقاط للالتقاء ما بين الكفاح الوطني والكفاح النسائي، خاصة عند ظهور رؤية "حادثة" الأمة، كما برزت قضايا حق النساء في التصويت، والرعاية الاجتماعية والصحة الإنجابية للنساء، لتتحدى المظالم التي تتخفي في رؤية الأمة الواحدة. (Parker et al. (eds.), 1992:7).

ويصعب القول مقدماً ما إذا كان لزاماً على الاتجاهات النسوية أن تجري مفاوضات من خلال الخطابات السياسية الوطنية أو من حولها، كما يصعب تحديد كيفية إجراء مثل هذه المفاوضات. وقد حاولت كوماري جاياواردينا Kumari Jayawarde-

na (1986) توضيح كيف ارتبطت الحركة النسوية والحركة الوطنية في آسيا في القرنين التاسع عشر والعشرين، وهي تصف قيام الحركة على خلفية الصراعات الوطنية التي تستهدف تحقيق الاستقلال السياسى، وتأكيد الهوية الوطنية، وتحديث المجتمع. وترى جاياواردينا فى إشاراتنا لبلاد أخرى (مثل تركيا، ومصر، وأفغانستان) أن الاتجاه الوطنى والاتجاه النسائى اعتادا أن يتلازما فى علاقة تكامل وتوافق وتضامن.

غير أن بث بارون (1993) Beth Baron تقدم عرضاً مقنعاً للأحوال فى مصر فى بداية القرن العشرين عندما كانت العلاقة بين الاتجاه النسائى والشعور الوطنى أكثر توتراً وعرضة للصراعات مما وصفته جاياواردينا فى السياق الهندى، وهى تصف بعض الطقوس الأساسية أثناء حركة الاستقلال مثل الجنازات والمظاهرات، وقد كانت فى الأساس "خبرات ذكورية" (ibid.: 248) وإننى أوافقها على ما ذهبت إليه من أنه "على الرغم من الخطاب البلاغى المرتبط بـ"قضية المرأة" ومشاركتها فى الحركة الوطنية، فإن الإصلاحات فى الكثير من القضايا التى تحمل أهمية خاصة للمدافعين عن النساء ثبت صعوبة معالجتها ما أن وصل الوطنىون إلى سدة الحكم" (ibid.: 252) وتوضح بارون أن هذا التناقض الذى بدا فى حشد النساء فى الصراع الوطنى ثم الفشل فى تحقيق برامجهن عند الاستقلال قد يصبح مفهوماً إذا ما نظرنا إليه من زاوية "الاتجاه النوعى للحركة الوطنية"؛ فقد عززت المصطلحات والعلامات المستخدمة لنشر الشعور الوطنى بعض المعتقدات الدفينة حول النوع، وأكدت مثل النقاء الجنسى، والأخلاق، والأمومة (ibid.)

الناشطات المصرىات: السعى وراء الأصالة

تعرضت الناشطات المصرىات اللائى يمتد جذور نشاطهن فى الحركة الوطنية لخطر الاتهام بوقوفهن ضد الدين وضد الوطن. وفى السنوات الأخيرة تصاعدت الاتهامات ضد الناشطات، وخاصة من قبيل الإسلاميين والمحافظين، وبعض الأصوات الوطنية اليسارية أيضاً بالتواطؤ مع "الإمبريالية الغربية" لاستيراد أفكار وممارسات غريبة ونشرها فى المجتمع. وفى مواجهة هذه الاتهامات التى تبعث الخوف فى النفوس فإن المرء لا يعجب عندما يرى الكثير من الناشطات يستوعبن هذه الاتهامات، ويبادرن

بأنفسهن لمساواة الاتجاه النسائي بالمفهوم الغربي الذي يتسم بالغربة عن سياقهن الاجتماعي والثقافي والسياسي ويؤدي بهن إلى الاغتراب.

وكما سبق وذكرته في مقدمة الكتاب، فإن عدم رغبة الكثير من السيدات المصريات في وصف أنفسهن بالناشطات النسويات لا يقتصر على الصورة السلبية للاتجاه النسائي في المجتمع، وإنما يرتبط أيضاً بالاعتناع بأن هذا الاتجاه يلفت الأنظار بعيداً عن "القضايا الكبرى" مثل الإمبريالية، والصراع الطبقي، والصهيونية (Al-Ali, 1997). ومن هذا المنظور فإن الاتجاه النسوي يفصل ما بين النساء والرجال في كفاحهم المشترك ضد هذه القوى. غير أن الكثير من الناشطات المصريات مشغولات بإنتاج معرفي وبتكوين مواقف ترتبط بالاتجاه النسائي وتبعده عن الفكرة التي ترى فيه شكلاً آخر من أشكال التخلل الغربي.

وتختلف المصطلحات العربية المستخدمة عند معالجة النشاط النسائي حسب النظرة الإيديولوجية والانتماء السياسي؛ إذ يبدو أن المصطلحات جميعها محملة بأثقال من المعاني، وتحدثنا الناشطة في مجال حقوق النساء وحقوق الإنسان، منى ت، عن صعوبة اختيار الكلمات "المناسبة":

توجد كلمات مختلفة تعبر عن الاتجاه النسوي في مصر، ويمثل هذا الأمر إشكالية؛ فـ"تحرير المرأة" مصطلح يحمل ارتباطات سيئة للكثيرين؛ إذ يرتبط عندهم بالإباحية، وخروج النساء من بيوتهن والرجوع في منتصف الليل كي يصبحن أحراراً. وقد كان المصطلح المستخدم في الماضي وهو "الحركة النسائية" معبراً عن النخبة، ولا يفهمه إلا قليلون، وهو المصطلح الذي يستخدمه اليساريون المثقفون وحدهم. وهناك الحيرة ما بين استخدام "نسائية" أو "نسوية"، وحتى كلمة حركة تدفع الناس للالتزام الحذر: "إيه ده؟ ستات في حركة!" الأمر الذي يعطى انطباعاً أن الأمر خاص، وبالتالي فإن الرجال يشعرون باستياء. وأنا أستخدم عادة مصطلح "قضية المرأة". غير أن كافة هذه المصطلحات تحمل ارتباطات بشعة؛ فإذا ما قلت "قضية المرأة" فإنني أتلقى كافة أنواع التعليقات، وإذا استخدمت "وضع المرأة" فإن الهدف هو أن يشعر الناس بالأمان، فالأمر يتصل بوضع النساء، وهو أمر له ارتباطات أقل تهديداً، كما أن "وضع المرأة" يمكن تعريفه في حدود ضيقة. فهو يتناول حقوق المرأة القانونية في الأساس.

ومما يؤسف له أن هذا النص السابق يعكس واقعاً محزناً: فالناشطات يجب أن يكن على أهبة الاستعداد دائماً للدفاع عن أنفسهن في مواجهة عدد كبير من الاتهامات التي تتراوح ما بين كونهن "نساء منحلات" إلى إقدامهن على تقليد "الغرب". وتقع محاولاتهم لإضفاء الشرعية وتقديم التبريرات لرؤاهن ونشاطهن في بؤرة العديد من المجادلات، ويمكن ملاحظتها تسرى في التيارات المختلفة للنشاط النسائي، وتشير الكثير من الناشطات عند تأكدهن للرابطة الوثيقة ما بين بدايات الحركة النسائية و"المشهد الوطني" للموقف الذي يجعل من تحرير المرأة جانباً من الكفاح ضد الاستعمار وضد الإمبريالية، ويمكن تتبع هذا المنظور إلى جذوره في ما يسمى بـ"خطاب التحرير الوطني"؛ حيث ينظر إلى النساء بوصفهن يمثلن "جانباً من الكفاح لإزالة آثار الاستعمار اقتصادياً وسياسياً". (Hatem, 1993 : 42)

وبينما كافحت الناشطات الأوليات (مثل هدى شعراوي) في مواجهة "الغرب" الذي كان يُنظر إليه على أساس أنه يقع خارج نطاق الأمة المصرية (الاستعمار البريطاني)، فإن الصراع المعاصر ضد "الهجمة الثقافية" و"الإمبريالية" يتسم بطبيعة أكثر تعقيداً. وعندما سألت الناشطات عن المعنى الحقيقي للإمبريالية كانت الناشطات المنتميات للمنظمات اليسارية تشرن في كثير من الأحيان للسياسات الأمريكية التي تؤدي إلى اعتماد مصر على الولايات المتحدة وإلى انتشار الرأسمالية، وأشارت الكثيرات لصندوق النقد الدولي والوكالة الأمريكية للتنمية الدولية، والشركات متعددة الجنسيات، وسياسات الخصخصة التي تفرضها الحكومة، كما يُنظر للصهيونية وتطبيع العلاقات مع إسرائيل كجزء من "الهيمنة الغربية"، وترى الكثير من الناشطات أن تزامن تخلي الدولة عن "الاتجاه النسوي الحكومي"^(٢١) وتوقيع معاهدتي كامب دافيد في عهد السادات قد أوجد نقطة لقاء أثرت من خلالها الإمبريالية تأثيراً مباشراً على حياة الناس.

وقد أشارت الكثيرات لـ"الثقافة الغربية" ومحاولتها تدمير الثقافات المحلية في سياق التهديدات الموجهة لمصر. ويجري تقديم النزعة الاستهلاكية، وفقدان الاحترام للأسرة، ووباء الإيدز، وإدمان المخدرات، بوصفها سمات "الحضارة الغربية"، وقد اتضح لي أن المناقشات حول "الغرب" غالباً ما تكشف شعوراً يائساً فيما يتصل

بالطبقات الاجتماعية في مصر؛ فهناك من يعتبر أغنياء الحرب والمصريين ذوي الاتجاهات الغربية (الخواجات) مجرد سياح يجوبون البلاد.

وقد أجابت الكاتبة والناشطة الراحلة لطيفة الزيات عن سؤالى عن خصوصية الثقافة المصرية بما يلى: "هناك الكثير من السمات الخاصة بالثقافة المصرية، وإننى أجيبك بسؤال عن ما الذى تعتبرينه جميلاً فى الثقافة الأمريكية التى تودين أن تجعلى منها الثقافة الوحيدة، هل هو العنصرية؟ الوحدة؟ فقدان العلاقات الإنسانية؟ التكنولوجيا؟"

وقد التزمت سيدات كثيرات بالحرص فى تعميماتهن عن "الغرب"، وأشرن إلى ما يميز السياسات الحكومية عن الشعب، وقد أكدت الكثيرات أنهن يشرن إلى الولايات المتحدة وليس إلى أوروبا عندما يتحدثن عن الإمبريالية، ونادراً ما سمعت الناشطات يشرن إلى السياسات الإمبريالية أو الغزو الثقافى البريطانى، أو الفرنسى، أو الألمانى، وهناك بلدان أوروبية بصفة خاصة مثل هولندا أو النرويج شاركت مشاركة متزايدة فى حركة الجمعيات الأهلية المصرية، وهذه البلدان تتمتع بثقة المصريين بدرجة تفوق ثقتهم فى الولايات المتحدة، وتصاغ معظم المشاعر المعادية للإمبريالية فى إطار اعتماد مصر الاقتصادى على الولايات المتحدة.

وتتوافق التفسيرات والمعانى المختلفة التى تنسب إلى "الغرب" والمفاهيم المختلفة للاتجاه النسائى؛ فهناك من يرفض هذا الاتجاه برمته على أساس أنه "عند استخدام كلمة "ناشطة فى الحركة النسوية" فإن التفسير الغربى يرد على ذهن معظم الناس، والنموذج الغربى هو لسيدات يقفن موقف المعارضة للرجال، ويتمتعن بالقوة ويسعين للسيطرة على العالم، والتحكم فى الرجال"، ولا يُعد التقاء مصطلح الاتجاه النسوى مع الاتجاه الراديكالى، الذى يتميز بخصوصيته، أمراً فريداً فى مصر، وإنما هو اتجاه شائع فى أوروبا والولايات المتحدة كما توضح سوزان فالودى Susan Faludi فى كتابها رد الفعل Backlash؛ ففي شتى أنحاء العالم نقابل نمط كارهات الرجال اللائى يدمرن كل شىء فى طريقهن، ولا يفكرن إلا فى ممارسة السحاق.

غير أننا نجد فى بعض الآراء حداً فاصلاً ما بين الكفاح ضد الظلم الواقع على المرأة، وارتباط ذلك بـ"الغرب"، وتتسائل ليلى ك، إحدى الناشطات الشابات وهى فى الثلاثين من عمرها:

ألا يوجد مفر من اتهامنا بتقليد الغرب عندما نتحدث عن البعد الأبوي؟ ويبدو الأمر وكأن التمرد، والحرية، والكرامة، والوعي حقوق لا تتأتى للمرأة العربية؛ فإذا ما سعينا إليها فهن يقلدن الغرب. إن لدى من العقل ما يوازى خمسمائة امرأة عربية، وبمقدورى أن أصل إلى نتائج على نحو يفضل الغرب؛ فلم نعانى تحت وطأة هذه العقد النفسية؟ إن العلاقات الطباقية فضلاً عن النظام الأبوي يشعرانى بالظلم والاضطهاد كل يوم من أيام حياتى؛ فأنا لست فى حاجة إلى امرأة أمريكية لتخبرنى بذلك. إن البعد الأبوي نشعر به هاهنا على نحو أقوى؛ لأن الغرب فصل الدين عن الدولة، ولكن فى مجتمعاتنا يبقى الوضع أكثر وضوحاً لأسباب تعود إلى ديننا، وتقاليدينا وعاداتنا.

وتسلط ناشطات أخريات الأضواء على الأوجه المختلفة للاتجاه النسوى، وإمكانية تعدد المناهج، ونجد فى آرائهن - فى كثير من الأحيان - تقابلاً ما بين المناهج المصرية و"المناهج الغربية".

أرى أن هناك الكثير من التناقضات فى بلدى، ونحن نمر بها يومياً، فمن ناحية هناك ثقافة شديدة المحافظة، ولعلك تعرفين أن هناك عادات وتقاليد معينة استمرت لسنوات وسنوات، ومن ناحية أخرى هناك النظرة الغربية للأشياء، وربما لا نرى الأشياء مثل ما يراها الغربيون، ولكننا بالتأكيد نرى كيف تؤثر علينا العادات والتقاليد على نحو سلبى، وغالباً ما ينتج عن ذلك مواجهة مع ثقافتنا، وخاصة فى ما يتعلق ببعض القضايا الحساسة. وختان الفتيات إحدى هذا القضايا ... والوضع القانونى للمرأة قضية أخرى ... وكذلك الإجهاض؛ كلها مواجهات، وهناك أمور محددة تفرضها ثقافتنا علينا، ولكننا نرى أنها أمور خاطئة فى حاجة للتصحيح، ومع ذلك لا تتخذ أغلب النساء اللاتى يحاولن أن يصححن هذه الأخطاء المنهج الغربى (دينا م).

ويتبع هذا الرأى المحاولات التى تتم لإثبات "أصالة" النشاط النسائى المصرى، وذلك بالإشارة إلى تاريخه المتصل بالكفاح الوطنى، أو بالإشارة إلى شذوذ بعض الجماعات والشخصيات بسبب "اتجاهها الغربى"، والناشطات اللاتى يفلتن من التشيؤ والانقسامات التى تصاحب اتجاه "الأصالة فى مواجهة الغرب" قليلاً. وقد قالت لى نادية م، وهى إحدى ناشطات الحركة النسائية منذ الخمسينات :

إنى أعمل فى مجال قضايا المرأة؛ لأنه تصادف أن كان ترتيبى الرابع بين أخواتى البنات، ولم أكن مرغوبة؛ وقد شعرت بالظلم منذ أن كنت طفلة صغيرة، وشعرت أننى معرضة لكل أذى، ومن هنا بدأت تجربتى مع الظلم. غير أننى اطلعت على الاتجاه النسائى من خلال اتصالاتى بالناشطات الغربيات، وما يجمع بيننا هو أننا قد خضعنا على الدوام للتعريف من قبل الرجل، وما زلت أشعر بالغضب إذا حاول الآخرون وضع تعريف لى؛ فالشعور بالهوية أمر له أهمية قصوى لكافة البشر، وإننى أكافح كى تستطيع المرأة أن تضع تعريفاً لنفسها؛ فاضطهاد النوع يوازى اضطهاد العرق فى سوءه، إن لم يكن أسوأ. وبالطبع، يمكننى إجراء حوارات مع الناشطات الغربيات، وعلى أى حال فإن الاتجاه النسوى الغربى لا يتسم بالوضوح، وبالتأكيد لا يُعد حركة واحدة، وقد حضرت مؤتمر المرأة فى المكسيك فى ١٩٧٥، وكان هناك الكثير من الناشطات الراديكاليات اللاتى يرفضن الاستماع إلى "مارياتشى" Mariachi؛ لأنهم جميعهم من الرجال، غير أنهم خففن من غلوائهن منذ ذلك الحين، وهناك العديد من الاتجاهات الآن.

ويمثل هذا الصوت استثناء من بين الأصوات التى استمعت إليها، ومع ذلك فقد شعرت أن تجارب المؤتمرات الدولية التى عقدت مؤخراً (المؤتمر الدولى للسكان والتنمية، ١٩٩٤، وملتقى المرأة فى بكين، ١٩٩٥) كان لهما أثر واضح على العديد من الناشطات حول العالم، وفى بعض الحالات، نتج عنهما زيادة فى الوعى بأن هناك العديد من الحركات المختلفة فى أنحاء العالم لكل منها اتجاهاتها ومناهجها الخاصة، وقد صرحت لى العديد من النساء أنهم فوجئن بأنه على الرغم من الاختلافات، فإن أوجه التشابه والتضامن تتخطى الحدود الثقافية.

وسأعود لمناقشة المواقف المختلفة حول المؤتمرات والمنظمات الدولية وتأثيرها على البرامج المحلية بقدر أكبر من التفصيل فى الفصل السادس. وفى الفصل التالى، حيث أنظر فى السياق التاريخى لنشاط المرأة المصرية، وسأقوم باستكشاف بعض الأساليب التى أثرت من خلالها المؤتمرات الدولية على حركة المرأة المعاصرة.

الهوامش

(١) عندما أُشير إلى "الشرق الأوسط" فإنني أتبع الوصف الذي قدمه أيكلمان (Eickelman, 1989). وهناك العديد من المشكلات المرتبطة بالمصطلح؛ لأنه يطلق تعميماً على الشعوب والتجارب والثقافات المختلفة في الإقليم. ومن الناحية السياسية يمثل المصطلح إشكالية على ضوء التطورات الأخيرة، مثل ما يُسمى بعملية السلام، ومناقشة السوق الشرق الأوسطية التي تشمل إسرائيل، وبينما لم تقم شعوب المنطقة بصياغة مصطلح "الشرق الأوسط"؛ إذ إنه يمثل تجربة تاريخية أوروبية، فإنه قد استخدم مترجماً. ولا يقدم مصطلح "العالم العربي" بديلاً كافياً لتبسيطه وتعميمه. أضف إلى ذلك أن إطلاق مصطلح "عربي" يهْمش وجود جماعات عرقية غير عربية في الإقليم.

(٢) وتعد أعمال هانية شلقامي (١٩٩٦، وتحت الطبع)، وإيمان بيبوس (تحت الطبع)، وهبة الخولي (تحت الطبع)، وريم سعيد (١٩٨٨، ١٩٩٧، ١٩٨٨) أمثلة للبحوث الدقيقة المتعمقة التي لا تتطلب تمكناً تاماً من العامية المصرية فحسب، وإنما تتطلب أيضاً معرفة متعمقة سابقة بصناعة القرارات السياسية فضلاً عن تكوين المجتمع موضع الدراسة.

(٣) وفي أغلب الأحوال، تصف هذه الأعمال ارتداء الزي الإسلامي بأنه ظاهرة للحراك الاجتماعي الصاعد في مجالات التعليم، والعمل، والأنشطة العامة. (Ahmed, 1992; El-Guindy, 1981; Karam, 1998; Macleod, 1991, Moghadam, 1993; Zuhur, 1992)

(٤) أنظر Mitchell 1991 لبيان تفصيلي حول أثر وكالات التمويل الأمريكية والدولية على الاقتصاد المصري، والسياسات العامة، وحياة الناس.

(٥) Dr. Abdel Wahab El-Messiry (1996) Secularism and ijthihad, in Al-Waha Oasis, 4th issue. Magazine by the Arab Cultural Association (platform of Islamist students at the American University in Cairo) عادة ما يشير الاجتهاد إلى إعادة تفسير السنة، التي يقدم من خلالها الرسول (صلعم) كيفية تنفيذ التعليمات العامة التي ترد في القرآن. ويستخدم المؤلف المصطلح ليعني به إعادة تعريف العلمانية.

(٦) لا يقتصر الجدل حول "الغرب" وما يعد به من تحديث وما يمثله من تهديد إمبريالي، وما أُشير حوله مؤخراً من أقوال حول ماهيته، على مصر وحدها، ولكننا نجد مثل ذلك في أنحاء الشرق الأوسط بصفة خاصة، وفي عالم ما بعد الاستعمار بصفة عامة (Bhaba, 1994; Bouatta & Cherifati-Merabtine, 1994; Chatterjee, 1986; Nederveen & Parekh, 1995; Papnek, 1994; Spivak, 1988; Tavakoli, 1994). غير أن مؤلفي هذا يسلط الضوء بصفة خاصة على المشهد المصري، وستعكس المناقشات التالية بؤرة الاهتمام هذه.

(٧) يتسم النظام القائم حالياً بالغموض فى خطابه عن الغرب؛ فنادرًا ما يشتبك فى هجوم صريح على "الغرب"، وقد قام قطاع عريض من الكتاب بإعادة تقييم نقدى للعلاقات المصرية الأمريكية فى الصحف المصرية.

(٨) أثناء عهد محمد على (١٨٠٥-١٩٥٨) أصبح نظام التعليم الأوروبى نموذجًا يتبع لإصلاح النظام الدراسى المصرى. واتجه المثقفون من أمثال الشيخ رفاعة الطهطاوى (١٨٠١-١٨٧١) وعلى باشا مبارك (١٨٢٤-١٨٩٣) لنقل المعارف من أوروبا لخدمة الدولة فى عهد محمد على وخلفائه. (Vatikiotis, 1991:121)

(٩) يُعد سلامة موسى (١٨٨٧-١٩٥٨)، وأحمد لطفى السيد (١٨٧٢-١٩٦٣)، ومحمد حسين هيكل (١٨٨٨-١٩٥٦)، وطه حسين (١٨٨٨-١٩٧٣) أشهر العلمانيين الحدائين المصريين. ومن بين جيل العلمانيين الحدائين هناك الكثير الذين ينحدرون من أصول لبنانية مسيحية مثل يعقوب صروف (١٨٥٢-١٩٥٧) أو من خلفية سورية مسيحية مثل شبلى شميل (١٨٦٠-١٩١٧)، وقد ظهرت الأفكار الاشتراكية فى عشرينيات القرن العشرين. (Hourani, 1991; Vatikiotis, 1991)

(١٠) العديد من النقاد الذين وجهوا نقدًا عنيفًا متقدماً ضد "الغرب"، بمفهوم يقدمه كمشروع للحدائنة وكتمجيد لـ "التقدم"، هم بعض المثقفين الماركسيين السابقين (والكثير منهم تلقى تعليمه فى بريطانيا أو الولايات المتحدة)، وقد تحولوا إلى الاتجاه الإسلامى أو أصبحوا متعاطفين مع النشاط والخطاب الإسلامى، ويوصفهم ماركسيين كان نضالهم موجهاً بصفة خاصة ضد الرأسمالية الغربية، أما هجماتهم الحالية فهى أكثر عمومية وشمولاً.

(١١) ولا يعنى هذا أن نقد الحدائنة نبع من "الغرب"، وجرى محاكاة هذا النقد فى مصر على نحو مماثل. ومع ذلك، فإن أغلب المثقفين المصريين الذين أشرت إليهم يعملون بالجامعة الأمريكية بالقاهرة أو تربطهم بها صلة منتظمة، وهم يعلنون دعاوهم فيما يتصل بمعرفتهم بـ "الفكر الغربى" وفهمهم العميق له، غير أنهم ينكرون تشابه حججهم والاتجاهات الخاصة فى فكر ما بعد الحدائنة والفكر النسوى. وفى أغلب الأحوال، يجرى استبعاد النقد النسوى للمظالم الاجتماعية وللخطاب الحدائى المهيمن على أساس أنه صادر عن "نساء يكرهن الرجال، ويسعين لحكم العالم".

(١٢) يشير بحث لىلى أبو لغد عن المسلسلات المصرية (Lila Abu-Lughod, 1995a, 1997)، وبحث والتر أرمبرست عن الثقافة الشعبية فى مصر (Walter Armbrust, 1996) إلى الخلاف ما بين طبقة النخبة والطبقة الوسطى من جهة والثقافات منخفضة الدخل من جهة أخرى. أضف إلى ذلك أن مقالات لىلى أبو لغد تعكس الفجوة ما بين الثقافة الريفية والثقافة الحضرية.

(١٣) فى حادثة وقعت منذ عدة سنوات، ألقى القبض على مائة وخمسين مراهقاً بتهمة الانتماء لـ "جماعة عبدة الشيطان" التى نُسب إليها عبادة الشيطان، ونبش القبور لاستخراج جماجم الموتى، والاستماع للموسيقى الصاخبة، وممارسة الجنس، وتعاطى المخدرات، والاجتماع فى مطاعم ماكدونالدز.

(١٤) تأتى مصر فى المرتبة الثانية بعد إسرائيل فى تلقى المعونة الأمريكية.

(١٥) غالباً ما يُضرب المثل بكتاب الكاتب الإيرانى جلال على أحمد للاتجاه الوطنى المتشدد الذى يدين الغرب إدانة لا هوادة فيها : (Jalal Ali Ahmed. Occidentosis: A Plague from the West (1978)

(١٦) للإطلاع على مناقشة مفصلة لقضية النساء بوصفهن "المحافظات على ثقافة الأمة الأصيلة" راجع Moghadam (ed.) (1994a); Yuval-Davis (1997); and Yuval-Davis & Anthias (eds.) (1989)

(١٧) خلال سنوات سفرى لاحظت أيضاً وجود اختلاف لدى موظفى المطار عن الموقف الرسمى، وخاصة عند تعرض العراق لقنابل الحلفاء، فقد عبر ضابط الأمن الذى يفحص جوازى عن حزنه وغضبه لما يحدث لشعب العراق على الرغم من المشاركة المصرية العسكرية فى الحرب فى صف "قوات التحالف".

(١٨) سناقش فى الفصل الرابع مفهوم "العلمانية" و"الناشطات نوات الاتجاه العلمانى".

(١٩) على الرغم من أن المثقفين - أمثال مصطفى كامل وأحمد لطفى السيد - شجعوا الولاء للوطن المصرى المحدد جغرافياً، فإن المشاعر التقليدية للانتماء للمجتمع الدينى أو العائلى أو القروى أو للحى السكنى سادت بين معظم المصريين فى مطلع القرن. ومع ذلك، فإن الشعور الوطنى المصرى المرتبط بأرض الوطن أصبح الشعور السائد بين المثقفين المصريين وعمامة الشعب بعد الحرب العالمية الأولى. وشهدت بداية الثلاثينات نقلة أخرى مع تزايد أعداد المصريين الذين تعمقت لديهم المشاعر القومية مع العالم العربى من حولهم الأمر الذى وضع الأساس لتصاعد القومية العربية فى مصر فى عهد عبد الناصر. (Jankowski, 1986a: 197; 1997)

(٢٠) لا يُعهد للمرأة بواجب تعليم تقاليد الأمة الأيديولوجية والثقافية الأصيلة ونقلها فحسب، وإنما فى كثير من الأحيان تصبح المرأة رمزاً لهذه التقاليد، وتصف الخطابات والصور الوطنية الوطن مراراً وتكراراً بجسم المرأة الذى يتطلب من المواطنين الذكور الدفاع عنه إذا ما انتهكه الأجانب، ويدافع الرجال عن الوطن مثلما يدافعون عن "الأم التى فقدت أبنائها فى المعركة"، أو عن المحبوبة، أو عن "نساءهم وأطفالهم" أو شرفهم. (Yuval-Davis & Anthias, 1989:10)

(٢١) سناقش الاتجاه النسوى الحكومى فى عهد عبد الناصر وتأثير الانفتاح فى عهد السادات على الحركة النسائية فى الفصل الثانى.

الفصل الثانى

وضع الحركة النسائية المصرية فى سياقها

تتصل حادثة المطار التى أشرت إليها فى الفصل السابق اتصالاً عاماً ببحثى، فالمطار يتخطى كونه مجرد صورة للتناقضات فى مصر فى عهد ما بعد الاستعمار وللأوضاع المبدئية فى تراكيب الهوية؛ لأنه أيضاً بوابة الدولة الوطنية، وتعدّ إجراءات تنظيم السفر والوصول، ومتطلبات تأشيرات الدخول، وختم جوازات السفر، والملفات الشخصية على أجهزة الكمبيوتر كلها من مظاهر التنظيم الحكومى وسلطة الدولة، ولكن كيف "تنتقل" الناشطات داخل "شبهكات علاقات القوى المتصارعة" وعبرها (Rai & Lievesley, 1996:1)، والتى يشار إليها عادة بـ "الدولة"؟ وإلى أى مدى حافظت الجمعيات والمؤسسات النسائية على استقلالها عن الدولة؟ ومن ناحية أخرى، إلى أى مدى تمكنت الدولة (وما يتبعها من دوائر مختلفة) من ضم الحركة إليها؟

تبرز الحاجة إلى المعالجة التاريخية عند تناول هذه المسائل؛ لأن دور الدولة المصرية وعلاقتها بالنشاط النسائى اختلف كثيراً خلال فترات رئاسة عبد الناصر، والسادات، ومبارك. وفى هذا الفصل أود أن أستكشف العلاقة ما بين سياسات الدولة المتغيرة والنشاط النسائى، وسأسلط الضوء بصفة خاصة على الأسلوب الذى تفسر به الناشطات فى أيامنا هذه المراحل التاريخية المختلفة وتحولات الحركة النسائية فى صلتها بالدولة، وقد فضلت ألا أعيد على القارئ تاريخ الحركة النسائية فى مصر وأوثقه له، وهى مهمة قام بها العديد من الدارسين (Ahmed, 1992; Al-Sabaki, 1987; Badran, 1988, 1991, 1993, 1995; Hatem, 1986, 1992; Khalifa, 1973; Nelson, 1986, 1996; Philipp, 1978)، بل سأسلط الضوء على تقديم تفسيرات الناشطات المعاصرات اللائى يكشف تفسيرهن للماضى عن فهمهن للحاضر.

وإذا ما نحينا التحولات التاريخية جانباً، فإنَّ الدولة في أي عصر من العصور لا تمثل وحدة متجانسة. أضف إلى ذلك أننا نجد تنويعات على معنى "حركة المرأة" فيما يتصل بالماضي والحاضر. وفي الجزء الأول من هذا الفصل سأناقش باختصار المداخل التحليلية للدولة، ثم سأتناول بالفحص تفسيرات الناشطات المصريات للحركة النسائية من بداياتها في أوائل القرن العشرين عبر تطورها أثناء رئاسة عبد الناصر، والسادات، ومبارك، ومن ثمَّ أقدم أدلةً على صلة الناشطات المعاصرات بهذا التاريخ.

النساء وسياسات الدولة

عانت الدراسات النسوية عن النوع في الشرق الأوسط وجنوب آسيا حتى وقت قريب من قصر النظر فيما يتصل بدور الدولة، وظلت أسيرة الصور الجوهرية والتي تقف خارج مجرى التاريخ لـ "النساء المسلمات" (1: Kndiyoti (ed)). وفي خط موازٍ لنقص الاهتمام بالدولة في الدراسات السابقة نجد تعريفات عامة تفرض صورة موحدة للدولة في سياق الشرق الأوسط قدمها عدد من الدارسين في مجال السياسة والاجتماع. (Al-Naqlb, 1991; H. Amin, 1978; L. Anderson, 1986, 1987; Badie, 1986; Gell-ner, 1991/1994; Khuri, 1980; Pipes, 1983; Vatikiotis, 1983; Zureik, 1981).

ومن ناحية أخرى نجد أن دراستي سامي زبيدة (1989, 1993) Sami Zubaida لا تقتصر فحسب على تناول سمات "الدولة الوطنية في الشرق الأوسط"، بل إنهما يقدمان دراسة في خصوصيات دول مختلفة تقع في ذلك الإقليم، ويعتمد مشروع زبيدة على الاقتناع بأن تقديم التاريخ الخاص يمكن أن يتم من خلال منظور العمليات الاجتماعية الاقتصادية العامة في صلتها بأوضاع وافتراضات معينة على المستوى الخاص (82-121: 1993). ويتحدى زبيدة بقوة الافتراضات الجوهرية لبعض الدارسين الغربيين فضلاً عن تلك التي تعتنقها بعض الدوائر الإسلامية في ما يتصل بالاختلاف ما بين الدول الغربية والدول الإسلامية، وذلك برفضه الرؤية القائمة على الاستمرارية والحتمية التاريخية، وهو يقدم بديلاً يعتمد على تطورات تاريخية واجتماعية وسياسية محددة، ومظاهر هذه التطورات وتنويعاتها المختلفة، ومحتويات "المجالات السياسية" والصراعات الدائرة بداخلها.

وتنظر الدراسات النسوية الحديثة إلى التحولات التاريخية للدول، والصراعات القائمة ضد سلطة الدولة، وبناء الوطن، والتغير الذي يطرأ على مشروعات الدولة، بوصفها عوامل حاسمة في تحليل موقف المرأة وقضايا النوع بأسلوب أكثر حرصاً على توضيح الاختلافات. (Afshar, 19885; Badran, 1993: Hatem, 1993: Kandiyoti (ed.), 1991, 1995; Karam, 19988; Moghadam (ed.), 1994 a; Yuval-Davis, 1991, 1997) فيتزايد إحلال مفهوم الدولة على أنها تمثل قوة موحدة تتعرض لهجمات القوى الاجتماعية الأخرى مثل القوى الإسلامية والشيوعية والنسوية، بتصوير لمجالات مؤسساتية متعددة وغير متجانسة تربطها علاقات قوى مختلفة، وتقدم احتمالات مختلفة للصراع.

وتسلط دراسة برينجل وواتسون (1992) Pringle and Watson عن أصول علاقة الفكر النسوي الغربي بالدولة الضوء على التغيرات التي تجرى في المناهج النسوية وتنوعها؛ إذ يعارض برينجل وواتسون من منطلق ما بعد - بنيوي الدراسات الاشتراكية والنسوية التي صدرت مؤخراً ، والتي تعترف بالتنوع، والاختلافات، والتناقضات في ما يتصل بـ "الدولة"، وذلك برفض الفرض القائل بأن الدولة تعد من المعطيات الهيكلية؛ "فهي ليست شيئاً أو فاعلاً ، بل هي تعنى فعلياً سلسلة من الساحات أو مجموعة متنوعة من المنتديات التي لا ترتبط بعضها ببعض" (Conneel, 1990; Yuval-Davis, 1997). ومع ذلك، فإن اعتراف برينجل وواتسون النظري بالاختلافات والخصوصيات يعتمد أساساً على الخبرات الأمريكية الشمالية والأوروبية، ولا تشمل النظر في بناء الأوطان وتكوين الدول في الدول التي خضعت للاستعمار في الماضي.

وتقدم شيرين راى (1996) Shirin Rai نقداً على أساس من مذهب ما بعد الاستعمار لمناهج الاتجاه النسوي الغربية تجاه الدولة، وهي تشير إلى أن المناهج الماركسية والبنوية تضرب بجذورها في الظروف الخاصة والأوضاع المادية للحركات النسوية، وتتجه دراسات الاتجاه النسوي في البلاد التي تتمتع بنظم الضمان الاجتماعي ، مثل أستراليا والدول الإسكندنافية، إلى النظر للدولة بوصفها ممولاً محتملاً يمكن أن يستجيب لما فيه مصلحة النساء، خلافاً للناشطات في المجال ذاته في دول ترسخت فيها تقاليد قوية للعمل السياسي القائم على النظام الطبقي مثل ما هو الحال في بريطانيا (p. 6)، وهي تمضي في حجتها فتقول إن الخبرات المحددة للمرأة في "العالم

الثالث^(١) ترتبط بالسياق التاريخي للتدخل الاستعماري وبناء الوطن في فترة ما بعد الاستعمار، وتتصل اتصالاً مباشراً بمواقف المرأة والنشاط النسائي.

وقد ساهم الاتجاه الوطني، وعملية بناء الوطن، والإقليمية (القومية العربية، والأمة الإسلامية)، والصراع حول الشرعية والتكتلات ذات المصالح التي تقوم على استثمار مشاعر الجماهير في تشكيل الدولة في مصر في عهد ما بعد الاستقلال (Ayubi, 1991). وقد انتقل الاهتمام مؤخراً إلى المناقشات التي تدور حول المجتمع المدني وعملية التحول إلى الديمقراطية، (Norton (ed.), 1993; S. Ibrahim (ed.), 1993; S. Ibrahim, 1995; Al-Sayyid, 1993) وفي هذه الدراسات انصبَّ الاهتمام على المؤسسات الإسلامية (Zaki, 1995; 1995). ودورها في نقابات "المجتمع المدني" في مصر (Marty & Appelby (eds.), 1985; Kepel, 1985) (Zaki, 1995; Stowasser (ed.), 1987; Zaki, 1991; Zaki - على سبيل المثال - دراسة يقابل فيها ما بين الضعف العام وعدم الجدوى السياسية التي يرى أنَّها السمة العامة لأغلبية النقابات والقوة العامة التي تتسم بها الجمعيات الإسلامية^(٢)، وقد قام زبيدة بتحليل هذا الاتجاه، وهو يرى أنَّ الجمعيات الإسلامية قد أفادت من المعاملة الخاصة التي حصلت عليها من حيث الترخيص لها بالعمل وتمويلها من قبل بعض المسؤولين الحكوميين.

وتعكس بعض الخصائص المميزة لمصر وغيرها من الدول التي خضعت في الماضي للاستعمار سمات ترتبط بالدول "الضعيفة"، ومن ذلك البيروقراطية الضخمة "المترهلة"، ونقاط الضعف في البنية التحتية الأمر الذي يمنع من تنفيذ سياسات الدولة (Rai, 1966:28-30). ومع ذلك، فإنَّ الفارق ما بين الدول "القوية" و"الضعيفة" طبقاً للملاحظات الأولية للمنظر جونار ميردال (Gunnar Myrdal (1968) وللتطورات التي أدخلها عليها لاحقاً جويل ماجيدال (Joel Magidal (1988)، تمر مرور الكرام على السلطة الأبوية في تكوين أية دولة من الدول (Rai, 1966:30) كما أنَّها تتجاهل تعقيدات صراعات القوى، ومواطن الخلاف، والمفاوضات، والتأثيرات المحتملة التي تضع صياغة للعلاقة ما بين الدولة وحركة المرأة.

وقد تقدم روبرت كونل Robert Connell بصياغة فكرية جديدة، فهو يعرف الدولة بأنها كيان يجسد "نظم النوع"، ويشير إلى الأساليب المتنوعة التي تتشابه من خلالها

الدولة مع علاقات النوع، وهو يرى أن الدولة "قائمة في إطار تلك العلاقات بوصفها تجسيدا للقوى القائمة على النوع. وفي المقابل فإن التحرك النابع عن النوع يشكل قوة عظمى في عملية تشييد الدولة، وذلك في مجالي البناء التاريخي لهياكل الدولة، والسياسات المعاصرة" (1990:519). وربما اتجهت قوة الدولة في مجالي تنظيم علاقات النوع وتشكيلها إلى دعم العلاقات القائمة، ولكنها تملك أيضاً إمكانية زعزعة نظام النوع القائم من خلال الإصلاحات (ibid.: 529-31).

ويحمل الغموض واللبس اللذان تتصف بهما سياسات الدولة معانيً ضمنية للسياسات النسوية التي يجب أن تعمل من خلال الدولة وضدها في الوقت ذاته، ويخاطب كوند على الأخص الدولة الليبرالية الواقعة في إطار الاقتصاد الصناعي الرأسمالي، غير أن تحليله لذلك اللبس الأساسي في بناء الدولة تجاه علاقات النوع يتصل على نحو أوضح بالدول التي خضعت للاستعمار في ماضيها، وتبرز التناقضات - كما يرى كانديوتي - في المشروعات الوطنية التي تعكس في الوقت ذاته صور النساء بوصفهن "ضحايا التخلف الاجتماعي، ورموز الحداثة، وحاملات الأصالة الثقافية" (1991:431). أي أن التوتر ما بين الأشكال المدنية للاتجاه الوطني (الذي يصف المرأة كرمز وحامية للثقافة النقية) يعتبر سمة من سمات تشكيل الدولة في عهد ما بعد الاستعمار. وعلى سبيل المثال، نجد أن الاتجاه الوطني أثناء رئاسة عبد الناصر أشرك المرأة بوصفها عاملاً فاعلاً يتسم بالحداثة في الخطة العامة لإعادة التوزيع والتحديث والتنمية الوطنية. غير أن الدولة في ذات الفترة لم تتحدّد علاقات النوع القائمة داخل الأسرة، ولم تسمح باستقلال المنظمات النسوية في إعلان برامجها، ونجد في داخل حدود المشروعات الوطنية في دول ما بعد الاستعمار أن مقاومة الإمبريالية الثقافية الغربية قد أصبحت مساوية لعلاقات النوع القائمة، الأمر الذي يعنى نتيجة لذلك استمرار السيطرة الأبوية (ibid.: 442).

ويمكن تفسير تغير علاقة الناشطات بالدولة بانكسار الدولة في مصر في عهد ما بعد الاستعمار، وبسياساتها المختلفة التي تبنتها تحت أنظمة حكم مختلفة، وانقساماتها الداخلية، وعلاقاتها بالدوائر الدولية، وتتاثر النساء من عدة اتجاهات؛ إذ إنهن يخضعن لسياسات الدولة (وهي إما مناصرة أو ظالمة لهن)، كما أنهن يحاولن أن

يؤثرن في سياسات الدولة. وفي عملية تعبئة القوى هذه، تشكل الناشطات جانباً من مجتمع مصر المدني.

وبينما أتفق مع ما يقوله محب زكي (1995) Moheb Zaki من أن الناشطات يمثلن جماعة صغيرة داخل المجتمع المدني، فإن فحصه المختصر للجماعات النسوية ومدى فعاليتها يعكس الاتجاه العام الذي يتجاهل المنظمات النسائية. ولا يثير هذا التعامل الدهشة في ضوء التصورات العامة للمجتمع المدني وما تقوم عليه من فلسفات؛ إذ يقوم اتجاه تجاهل دور النساء وإسهاماتهن على الانقسام المفترض ما بين المجالين العام والخاص، وهما مجالان يخضعان لعلاقات النوع أيضاً (Joseph, 1993; Pateman, 1989)، وكما تبين سعاد جوزيف Suad Josphe فإن المجتمع المدني قد حصل على تعريف له واعتراف به بالفعل في مساحة يُعتقد أن المرأة لا محل لها فيها، وهي مساحة المجال العام، وتتسم هذه المساحة بمجموعات من الارتباطات ذات الصلة بالأنشطة الذكورية" (Josphe, 1993:24)، ولذلك فإن الأنشطة النسائية يجرى تجاهلها.

وخلال هذه الفصل سأقوم باستكشاف مشاركة الناشطات ومواقفهن الخاصة في المجتمع المدني، كما سأحاول أن أوضح كيف تستخدم الجماعات المختلفة داخل الحركة النسائية إستراتيجيات مختلفة تجاه الدولة وكيف يقمن بعلاقات مختلفة معها، وتقودني مجموعة القضايا هذه إلى تصنيف تلك الجماعات على أساس من اعترافها بـ"السلطة" وهيكلها التنظيمية.

الماضي في الحاضر: التفسير التاريخي للحركة النسائية المصرية

بدلاً من محاولة إعادة كتابة تاريخ الحركة النسائية المصرية، أو إعادة تفسيرها، فضلت أن أزوج ما بين تفسيرات الناشطات لذلك التاريخ وما تحت أيدينا من الكتابات التي تقدم لنا تلك الحركة، وقد سلط الضوء بصفة خاصة على مواطن الجدل الكبرى ومساحات الخلاف بين الدارسين والناشطات.

وقد تطورت فكرة تناول تاريخ الحركة النسائية من خلال تفسير ذلك التاريخ على ضوء مقابلاتي مع الناشطات اللاتي أُجبن على أسئلتي أثناء قيامي ببحثي هذا،

وقد أثار اهتمامى قدر الإدراك المتوافر لهن بتاريخ الحركة، فقد أصبح من الواضح ارتباط تفسيرات خاصة للمحتوى التاريخي وتطوره بخصوصيات "الخبرة المكوّنة" لكل ناشطة على حدة (وسأعرض بالفحص الدقيق لذلك الارتباط في الفصل التالي). غير أن ذلك الإدراك كان يُستخدم في كثير من الأحيان لإضفاء الشرعية على برامجهن أو للإقلال من شأن الآخرين.

ولا يقتصر النظر في التاريخ على توسيع نطاق الفهم للحركة الحالية، بل إن من المستحيل فعلياً فهم مطالب الحركة، وصراعاتها، وهوياتها، بدون أخذ تاريخها في الاعتبار، وهو تاريخ لا يرتبط فحسب بمحاولة تكوين خطابات جديدة للنوع، ومحاولة تنبيه الوعي النسوي (Nelson, 1998:92)، وإنما هو أيضاً تاريخ يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالصراعات الوطنية، والكفاح ضد الاستعمار، ومشروعات التحديث.

البدايات

تبدأ الكثير من الدراسات التي تتناول الحركة النسائية في مصر تحليلها بالمشاركة النسائية في ثورة ١٩١٩ الوطنية، وما تلاها من صعود للنشاط النسائي المرتبط باسم هدى شعراوى (Ahmed, 1982; Al-Sabaki, 1987; Ghousoub, 1985; Hatem, 1978; Khalifa, 1973; Philipp, 1978). وفي أغلب الأحوال ينسب تطور الأسس الفكرية الإيديولوجية للكفاح المبكر في سبيل حقوق المرأة لمصلحين محدثين مثل محمد عبده، وجمال الدين الأفغانى، وأبرز هؤلاء هو قاسم أمين (Cole, 1981; Haddad, 1984; Marsot, 1978; Tignor, 1996). وتؤكد الدراسات الأحدث أن المشاركة النسائية في ثورة ١٩١٩ التي اتخذت شكل المظاهرات، والإضرابات، والوقوف في وجه المحتل البريطاني في كافة أرجاء مصر، كانت استمراراً وامتداداً للأنشطة النسائية في العقود السابقة (Ahmed, 1992; Badran, 1995; Baron, 1944).

وفي الأغلب الأعم أصبح اسم قاسم أمين - وهو رجل قانون ومحام مصرى خصص كتابين لقضية تحرير المرأة: تحرير المرأة (1899) *The Emancipation of Women*، والمرأة الجديدة (1900) *The New Woman* - مرتبطاً بكونه أول نصير مصرى عربى للمرأة

(Cole, 1981; Haddad, 1984; Nelson, 1996). وقد اتخذت جمعية "المرأة الجديدة" المعاصرة اسمها من عنوان كتابه الشهير^(٣). وعند أخذ الأصوات في عام ١٩٨٦ لم يتفق الأعضاء جميعهن على الأخذ بهذا الاسم، غير أنهن اتفقن على أهمية الكتاب، وقد لخصت بعض العضوات المؤسسات ما يمثله قاسم أمين الذي يحدد بداية الحركة النسائية في مصر ليكون "معلومة معترف بها ومعرفة مشتركة بيننا عندما بدأنا نلتقى"، ومع ذلك فمنذ البداية "أدركنا وأثبتنا، منذ لقاءاتنا الأولى التي ناقشنا فيها تاريخنا، أن الحركة قامت على نشاط المرأة ومنظماتها جنباً إلى جنب مع ظهور الكاتبات والشاعرات مثل ملك حفنى ناصف".

وتوضح ليلي أحمد (1992) Leila Ahmed وبث بارون (1994) Beth Baron، اللتان أعادا دراسة كتابات قاسم أمين، أن الكثير من هؤلاء النساء اللاتي كن نشطات في مجال تحرير المرأة قد نُحِن جانباً، أو سقطت أسمائهن من السجلات التاريخية، وتسلط بث بارون على الأخص في كتاباتها على الناتج الفكري والخلق وعلى التنوع الذي يميز النساء الصحفيات والكاتبات في أوائل القرن العشرين. وتقدم بارون حججاً قوية في مواجهة "نمط إعلاء شأن المفكرين من الرجال على حساب النساء" (1994:4)، وهي تقتبس من ليلي أحمد ما توصلت إليه من أن قاسم أمين لم يكن "رائد الاتجاه النسائي" كما يدعى الكثيرون، بل إنه "سليل كرومر"^(٤) والاستعمار". وتشير ليلي أحمد إلى أن الكثير من أفكار أمين قد أعادت في واقع الأمر تقديم الفكر الاستعماري عن وضع المرأة في المجتمع الإسلامي، وهي تدافع عن رأيها القائل بأن كتابه تحرير المرأة "لم يزد إلا أن دعا لإحلال السيطرة الذكورية الغربية بدلاً من السيطرة الذكورية على الطريقة الإسلامية" (Ahmed, 1992: 1621-3, quoted in Baron, 1994:5).

ولم يقتصر الجدل حول الأصول الفكرية للحركة النسائية المصرية على الباحثين، وإنما امتدت لتشكّل خلافاً بين بعض النشاطات المصريات، فالكثير من النشاطات يؤكدن أهمية الدور الذي لعبه المصلحون الذكور في دفع عجلة التعليم، وهو أول خطوة على طريق التحرير. وتقول أمل ك، وهي باحثة في العقد السابع من عمرها:

للاتجاه النسائي تاريخ ممتد، غير أن كلمة feminism لا وجود لها في اللغة العربية، فالمصطلح المستخدم هو "تحرير المرأة"، وهذا نوع من الاتجاه النسائي يختلف

عن نظيره الغربى، وما جاعنا من الغرب يتمثل فى أنه فى بدايات عصر النهضة العربى فى القرن التاسع عشر بدأت حركة للترجمة قاده بعض الشيوخ الذين زاروا فرنسا.^(٥) تعلم هؤلاء الشيوخ اللغة الفرنسية وقرأوا كثيراً، وقد بدأت فكرة المرأة الحرة عندئذ. وخلال حركة الاستقلال، ارتبطت فكرة التحرر والمجتمع الحر بالأفكار الغربية، وقد رأى الشيوخ نساء متعلمات فى فرنسا وبدأوا فى إدراك أننا فقدنا شيئاً ما فى تاريخنا؛ فالمرأة المتعلمة قادرة على تعليم أبنائها، وبذلك يكتسب رجال المستقبل قدراً أكبر من التعليم، والمرأة المتعلمة تصبح أمّاً أفضل وزوجة أفضل، وهذا هو ما أدركه المصلحون من أمثال محمد عبده وقاسم أمين، وقد تأثر المصلحون بأمر آخر، ألا وهو العلاقة ما بين الجنسين، فالناس يتبادلون الحديث فى فرنسا، وقد أدى كل هذا إلى دفع قضية تعليم البنات قدماً، فما أن تبدأ المرأة فى القراءة حتى تبدأ فى التساؤل، كما تبدأ فى الاعتراض على منعها من الخروج لتنسم الهواء النقى، وقد كانت جذور التحرر الأولى ممتدة فى التعليم، وقد بدأت بعض النساء فى الكتابة تحت أسماء مستعارة.

وتستدعى مناقشة الأحداث السابقة على حركة المرأة التاريخية الإجابة على عدد من الأسئلة ذات الصلة بتعريف الذات والكفاح من أجل الشرعية بين ناشطات اليوم؛ إذ لا يهتم الكثير من الناشطات فى يومنا هذا بمسألة ما إذا كانت الأصول الفكرية لحركة المرأة المصرية يجب تتبعها عند المصلحين أو عند الصحفيات^(٦)؛ فما يثير الاهتمام حالياً هو قضية ما إذا كانت الأصول الفكرية يجب تتبعها إلى مصادر "غربية" أو "وطنية"، فقد شكل اتهام تقليد "الفكر الغربى" - ومن ثمّ خيانة "الثقافة الأصيلة" - تحدياً مستمراً للناشطات المصريات؛ فمنذ بداية الحركة النسائية حتى الآن تعلن دوائر مختلفة معارضتها للكفاح من أجل الحصول على حقوق المرأة (دوائر إسلامية ووطنية - يسارية) وقد شغلت نفسها بتقييم الناشطات على ضوء معيارى "الأصالة" و"التغريب".

وقد استخدمت بعض الباحثات (Ahmed, 1992' Baron, 1994) تصنيفات مشابهة لتصنيفات الإسلاميين والقوى المحافظة الأخرى فى مصر لتحليل الحركة النسائية، وتقدم ليلى أحمد حجتها كما يلى:

لقد برزت توترات خطيرة داخل الخطاب النسوى، وقد أصبح أحد الصوتين المختلفين المعبرين عن اتجاهين مضادين للحركة النسوية هو الصوت المسيطر في مصر والشرق الأوسط العربى على مدى أغلب سنوات القرن، بينما ظل الصوت الثانى صوتاً بديلاً هامشياً حتى العقود الأخيرة من القرن، بل لم يُعترف به عامة بوصفه صوتاً للاتجاه النسوى، وقد رُوِّج الصوت السائد للاتجاه النسوى الذى انضوى تحت الاتجاهات الغربية العلمانية (مع حرصه أن يتم ذلك بصفة عامة على نحو مستتر)، والذى عبر تعبيراً قوياً عن اتجاهات الطبقات العليا، والعليا المتوسطة، والمتوسطة المتوسطة، لاتجاه نسائى يفترض تحبيذ التقدم نحو إيجاد مجتمعات تتبع النمط الغربى. (1992:174).

وتصف ليلى أحمد "الصوت البديل" بالحدز، وبأنه فى نهاية المطاف يقف موقف المعارضة للأساليب الغربية، ساعياً لإيجاد وسيلة للتعبير عن الذاتية النسائية وتأكيد الخطاب الإسلامى الوطنى بلغة الوطن. ومع ذلك، فإن الفصل الحازم ما بين "الصوت الحديث، العلمانى، الذى يدعو للتغريب" من ناحية و"الصوت الإسلامى، المحافظ، المعارض للغرب" من ناحية أخرى يخفى التداخل والتناقضات والتعقيدات التى تتسم بها الخطابات والأنشطة التى تحققت على خلفية من النضال ضد الاستعمار والإمبريالية. وحتى الناشطات الرائدات اللائى تلقين تعليماً فرنسياً وكن ينتمين إلى الطبقات العليا من المجتمع مثل هدى شعراوى لم يدرن ظهورهن للإسلام، وكن يتحركن، وتبدر منهن ردود أفعال فى داخل إطار شبكة معقدة من علاقات التضامن والتحالفات.

وتعبر الناشطات - فى أيامنا هذه - عن وجهات نظر وتفسيرات مختلفة فيما يتصل بالاتجاه "المحلى" أو "الغربى" للحركة التاريخية. وبعض الناشطات يحرصن على الحفاظ على مسافة تبعدهن عن الناشطات الأوليات اللائى ينظرن إليهن بوصفهن مدفوعات بـ"مصالح الطبقة العليا والبرامج الغربية". وهناك أخريات يرين أن الحركة تضرب بجذورها فى الثقافة المحلية، وأن الاتهام بإسرافها فى الاتجاه غرباً لا يقوم عليه دليل، ويمكن أن نجد هذا الاتجاه بادياً أيضاً فى الإصدارات الحديثة عن تاريخ الحركة النسائية (Badran, 1995; Nelson, 1996). وتسلط مارجو بدران على سبيل المثال

الضوء على الآمال الوطنية لهدى شعراوى وسيزا نبراوى، وقد تآتى محاولة تحرير الحركة النسائية المصرية من الاتهام القوى بقيامها بدافع من الغرب، ومن ثم افتقارها إلى الأصالة، على حساب إهمال الطبيعة المعقدة للقاءات الثقافية خلال فترة الاستعمار وبعده.

ويُمكننا الوصول إلى حل للجدل الذى يدور حول "الأجداد فى مواجهة الجدات" (المصلحون الذكور فى مواجهة الصحفيات والكاتبات) والخلفية الثقافية للآباء والأمهات (الاتجاه الغربى فى مواجهة الاتجاه المحلى) من خلال إحلال "زوجين ثنائى الثقافة" محل "الأب أو الأم"، الأمر الذى يسمح بقيام الحركة النسائية على أساس تركيبية من الأفكار، والقيم، والتقاليد. ويسمح أسلوب التفكير البديل فيما يتصل بأصول الحركة النسائية، وبالتالي أى نوع من الكفاح أو الجدل السياسى، بإمكانية اللقاء الثقافى الذى لا يعتمد على مجرد المواجهة واستبعاد الآخر، وإنما على الابتكار والتكامل، وقد قامت بارون بخطوه فى هذا الاتجاه؛ فقد درست اللقاء الثقافى والتركيبية الناتجة من قيم وفكر غربى ومحلى^(٧)، كما أن سيرة درية شفيق لسينثيا نلسون، Cynthia Nelson (1996) تسقط هذا الانقسام؛ فهى تصور حياة امرأة ناضلت للجمع ما بين خلفيتها الثقافية الفرنسية والمصرية، ويشهد نشاطها السياسى وشعرها على الإمكانيات المبتكرة والمجددة لما يوصف فى الكثير من الأحيان بأنه صدام الأضداد، ويتضح من حالة درية شفيق - والكثير من الحالات الأخرى فى أيامنا هذه - أن ما يرى من تعارض المحلى والغربى يتصل بالتوتر والصراع الطبقي بقدر ما يتصل باختلاف الثقافات.^(٨)

وتشكل تعقيدات لقاء المحلى والاستعماري عامة "حلقة مفقودة" فى الدراسات المعاصرة، غير أنها تقدم نقاطاً محورية فى كتاب "إعادة صياغة المرأة: الاتجاه النسوى والحداثة فى الشرق الأوسط" Remaking Women: Feminism and Modernity in the Middle East (1988) الذى صدر حديثاً من تحرير ليلى أبو لغد، وتعلن ليلى أبو لغد عن اهتمامها الخاص "بالتحرك الفعلى النشط للخط الثقافى الاستعماري" الأمر الذى يدعو لفحص مدقق لنقاط الالتقاء ما بين مشروعات الأوروبيين، ومشروعات الشرق أوسطيين، والدور الفعلى للخطاب الأوروبى بين شعوب الشرق الأوسط" (p. 29)؛

فبدلاً من مجرد رفض التقابل ما بين الغربى والشرقى، فإنها ترى أن "عملية التشابك" قد تكون أسلوباً أكثر قوة ونجاحاً للتغلب على التعارض الثنائى وليس للإلحاح على أصالة الفاعلين الاجتماعيين.

وبما أن بحثى يسلط الضوء على الناشطات "نوات الاتجاه العلمانى"، فلا يثير الدهشة أن "المحلى" و"الأصيل" لا يرتبطان بالضرورة بالإسلام حتى وإن اعتبرت الكثيرات من الناشطات أن الدين (الإسلام والمسيحية القبطية) عنصر تدخل فى تركيب الأصالة المصرية، ولم يتشكك فى صحة الانقسام ما بين الغربى مقابل المحلى فى المقام الأول إلا عدد قليل جداً من النساء اللاتى أجريت معهن مقابلاتى، بل إن هذا الانقسام قد أصبح أمراً طبيعياً؛ بمعنى أنه أصبح يشكل ضرباً من الحكمة التقليدية أو الحس السليم. وواقع الأمر أن تفسير العالم من منطلق المحلى فى مقابل الغربى قد أصبح حقيقة لا تقبل النقاش بحيث لا يجرؤ إلا القليل على معارضتها. ومع ذلك، فإن بعض الناشطات اللاتى يحاولن أن يحطمن الخطاب والأطر السائدة يرفضن هذا التصنيف الثنائى تماماً، وتفسر إحدى الناشطات الشابات، وهى فى العقد الخامس من عمرها، الأمر كما يلى:

إن كفاحنا يعود تاريخه لما قبل هدى شعراوى، وأنا لا أودُّ أن أقيده بزمن محدد سواء غربى أو غير غربى؛ فالناس فى كافة أرجاء العالم حاربوا منذ القدم ضد الظلم؛ فإذا ما وضعنا الأمر فى إطار ثنائية انقسام فإن ذلك يجلب ضرراً كبيراً، ويعكس ذلك كيف ينظر الإسلاميون والغرب إلى هذه المسائل وكيف يشكلون هوياتهم؛ فالتفكير الليبرالى العلمانى يُصور على أنه ملك للغرب، ونحن فى حاجة إلى تخطى ذلك الوضع.

ويؤكد هؤلاء الذين يعارضون الانقسام الشائع أن الناشطات واجهن اتهامات مماثلة منذ بداية القرن العشرين، غير أن الاتهامات سارت من سبىء إلى أسوأ، وأصبح السياق يحمل تهديدات أكبر:

أصبح الاتهام بالإسراف فى التغريب أكثر قوة فى يومنا هذا عن ما مضى؛ ففى بداية القرن أصبح التحديث هو مشروع الأمة، ونحن اليوم نرى ارتداداً لهذه العملية؛ فالمشروع الوحيد القائم اليوم هو مشروع الإسلاميين الذى يدعى الأصالة، ولذلك فإننا

نواجه بصعوبة بالغة، وفي الوقت ذاته بتحدٍ أكبر لتطویر لغتنا وجوهر مشروعنا، ويدفعنا ذلك للنظر بعمق أكبر والبحث عن جوهر ما نحاول القيام به.

فإذا ما أخذنا في اعتبارنا الظروف الخاصة لقيام الحركة النسائية، وأعنى بذلك الكفاح ضد قوى الاستعمار البريطاني، فإن احتمال تخطي الانقسامات ما بين المحلي والغربي يتسم بالضعف؛ فلا يقوم احتمال كبير في ظل تجربة الإمبريالية المستمرة في مصر المعاصرة (ولو أنها في صورة غير مباشرة) لتحقيق ذلك التخطي، ولسوء الحظ فإن هذه الانقسامات السائدة قد قدمت لغة قوية تمثلتها معظم الدوائر المختلفة، والمتعارضة في أغلب الأحيان داخل مصر، فضلاً عن الباحثين الذين يكتبون عن مصر، وكما حاولت أن أشرح في الفصل السابق، فإن هذه الانقسامات تخدم غرضاً: فهي تشكل عناصر من الرصيد الرمزي التي تستخدمه الدوائر الإسلامية والقومية لحشد مشاعر الولاء والتأييد، وقد تسبب ذلك في كثير من الأحيان في حالة الناشطات أنهن أخضعن برامجهن لخدمة قضايا عامة مثل التحرر الوطني والصراع الطبقي.

ويبدو الاتجاه لوضع صراع المرأة داخل إطار الصراع الأعم للتحرر الوطني (بما في ذلك التوتر الأصلي الناشئ عن هذا الارتباط) قاسماً مشتركاً مستمراً في تاريخ الحركة النسائية في مصر، وقد عبرت الكاتبة والناشطة الراحلة لطيفة الزيات عن هذه العلاقة بقولها:

مضى تحرير المرأة جنباً إلى جنب مع المساواة بصورة عامة، الأمر الذي وضع كافة القضايا الاجتماعية في الاعتبار ولم يقتصر على قضايا المرأة؛ فلا يمكن للنساء أن يتحررن إلا إذا تحرر الوطن بأكمله، وقد حصلت الناشطات والحركات النسائية المهمة على بعض الحقوق لارتباطهن بالحركة الوطنية لا لسبب آخر؛ فالمرأة التي تربط نفسها بالحركة الوطنية تطلب حقوقاً وقوى مؤثرة، والمرأة التي لا تقدم على ذلك يسهل استبعادها.

وبينما توصل بعض المؤرخين الأوائل إلى نتيجة مؤداها أن "الاتجاه النسوي قد شكل جانباً من محتوى الفكر الوطني" (Hourani, 1962:215, quoted in Philipp, 1978:277) , وأن "النساء أثبتن أنهن لا يترددن في المشاركة في الصراعات السياسية" (Badr, 1968:51)، فقد أصبح "من الواضح للكثير من الناشطات أنه خلال الكفاح الوطني،

وبعده بكل تأكيد، اتسم الاتجاه الوطنى لدى الرجال بطابع أبوى" (Badran, 1988:31). ويوضح فيليب (1978) Philipp أن العلاقة ما بين الحركة الوطنية والاتجاه النسائى لم تكن بأى حال من الأحوال متناغمة وإيجابية كما قد يبدو لأول وهلة. وفى البداية تقبل الوطنيون الذكور نشاط المرأة الوطنى (المظاهرات، والمقاطعات الاقتصادية، الخ). غير أن "بعد عام ١٩١٩، عندما برزت الضغوط الوطنية فى أعقاب صدور الدستور المصرى، لم يرد ذكر لحقوق المرأة السياسية، ولم تناقش مساواتهن بالرجال" (p. 278).

وتتسم الصور التى نراها بعد فترة الاستقلال (بعد عام ١٩٢٣) بالاضطراب؛ فقد ظهرت على الساحة كافة الآراء المرتبطة بتحرير المرأة، ولم يصل الوطنيون إلى إجماع حول هذه القضية، وترى كانديوتى Kandiyoti أن المشروع الوطنى اتسم بالغموض؛ لأنه عبّر عن صوت الحدأة العالمى جنباً إلى جنب مع الاتجاه الرومانسى المضاد للحدأة، والذى يهدف إلى استعادة المجتمع الأصل (Kandiyoti, 1991).

وكما ذكرت من قبل فإن الخطاب والنشاط النسوى خلال الفترة التى شهدت تشكيل دولة ما بعد الاستعمار وحتى إلى النصف الأول من القرن العشرين ارتبطا على نحو متكرر بهدى شعراوى والاتحاد النسائى المصرى.^(٩) غير أن أكثر الأعمال عمقاً فى تاريخ الحركة النسائية فى هذه الفترة يضم مجموعة مختلفة من الأصوات ووجهات النظر؛ إذ تقدم مارجو بدران تحليلاً وافياً عن مولد الاتجاه النسائى المصرى وتطوره كجانب أساسى من تاريخ مصر الحديثة فى كتابها المعنون: "ناشطات الاتجاه النسوى، والإسلام، والأمة: النوع وصياغة مصر الحديثة" *Feminists, Islam, and Nation: Gender and the Making of Modern Egypt* (1995).

وعلى أساس من رأى القائل بأن المرحلة الأولى من النشاط النسائى لم تتخذ سوى الطابع النخبوى والخيرى، فإن خاطر ونلسون (1988) Khater and Nelson يشيران إلى أن الفترة ما بين ١٩٤٥ و ١٩٥٩، وهى الفترة الزمنية التى تعرضت للإهمال فى الكثير من الدراسات (Al-Sabaki, 1987; Berque, 1972; Jayawardena, 1986; Khalifa, 1973)، شهدت نضج الحركة النسائية فى مصر. وتعارض بدران بعض آراء خاطر ونلسون فتؤكد أن اختلاف الإيديولوجية والوعى السياسى كانا يميزان بالفعل الحركة المبكرة. غير أن بحث بدران لا يبدو مقنعاً عندما تتصدى لإثبات أن الحركة المرتبطة

بهدى شعراوى ونبوية موسى تخطب الاتجاه النخبوى. ونقلاً عن بدران نفسها فإن الإحدى عشرة سيدة المؤسسات للاتحاد النسائى المصرى ينتمين لعائلات ثرية من كبار ملاك الأراضى ولثقافة الحریم (Badran, 1995:96). أضف إلى ذلك أن تصفح مجلة "المصرية" L'Egyptienne التى أصدرها الاتحاد النسائى المصرى توضح أن كل من كتب بها إما من النخبة المصرية أو السيدات الأجنيات.

فإذا ما أخذنا فى اعتبارنا البنى الطبقيّة، وتوزيع الثروة، ومدى انتشار القدرة على القراءة فى ذلك الزمن، فإن مسألة الطابع النخبوى للحركة الأولى تبدو غير ذات بال عندما تُطرح للمناقشة، ويشكل اهتمام مارجو بدران بفك الارتباط ما بين بدايات الحركة النسائية والنخبة، جانباً من اتجاه عام ما بين الأكاديميين الذين يكتبون عن الحركة النسائية والناشطات المصريات أنفسهن معاً، ويمكننا أن نلاحظ ضغطاً هائلاً لمنح الاتجاه النسائى اعتماداً جماهيرياً، وتجاهل الطابع النخبوى لمعظمه، وإننا نتساءل عن الأسباب التى جعلت من الصعب وصف بدايات الحركة النسائية المصرية فى ارتباطها بتطلعات البورجوازية الوطنية الناشئة.

غير أن الحاجة تدعو إلى بذل عناية أكبر فى استكشاف حقيقة أن ما بدأ على أنه حركة للمرأة، تتجه للخدمات الاجتماعية وترتبط بالكفاح ضد الاستعمار فى بادئ الأمر على يدى هدى شعراوى، أصبحت أكثر استقلالاً من الأحزاب السياسية الرسمية الذكورية، وأكثر صراحة فيما يتعلق بحقوق المرأة السياسية. ولا ترى بعض الناشطات اليوم انفصلاً جوهرياً ما بين الاتجاه النسائى لدى هدى شعراوى والاتجاه النسائى لنساء الأربعينيات والخمسينيات، وهن يعقدن مقارنة ما بين بدايات الحركة والأنشطة المعاصرة التى تهمل فى رأيهن بعض القضايا الملحة، وتقول ليلى أ ، إحدى العضوات المؤسسات للجماعة اليسارية "معاً":

من الناحية التاريخية، نجد أن النساء استخدمن دائماً مصطلح "الحركة النسائية المصرية"، ومنذ العشرينيات حتى الخمسينيات اصطبغت هذه الحركة بالسياسة، ومثلت وجهة النظر الوطنية للنساء؛ فمن هدى شعراوى إلى إنجي أفلاطون كان شغل النساء الشاغل تطوير القوانين، وإيجاد علاقات اجتماعية واقتصادية وسياسية جديدة، وقد حاولن فى تلك المجالات جميعها أن يتعرفن على التأثير الإيجابى للتغيرات فى وضع المرأة على الوضع بأكمله وعلى المجتمع كله.

ولا تشترك كافة النساء اللاتي أُجريت معهن مقابلات على استمرارية الحركة النسائية حتى منتصف القرن العشرين، وتتفق آراء لناشطات أخريات مع باحثين مختلفين رأوا أن خطاب وأنشطة ناشطات الاتجاه النسائي اتخذت طريقاً مختلفاً في الأربعينيات والخمسينيات. (Ahmed, 1992; Botman, 1987; Khater & Nelson, 1988)

جيل جديد

تلقى الجدل حول ما إذا كانت الحركة النسائية قد توقفت بانتهاء صحف هدى شعراوي: *L'Egyptienne* و"المصرية" في ١٩٤٠، واندلاع الحرب العالمية الثانية، (Badran, 1988) أو إذا كان نشاط درية شفيق ومطبوعاتها أضافت بعداً راديكالياً للحركة (Nelson, 1988)، دفعة جديدة منذ نشر كتاب سينثيا نلسون - Cynthia Nelson, Dor- (1996) *ia Shafik: Egyptian Feminist - A Woman Apart* (درية شفيق: ناشطة مصرية - امرأة فريدة من نوعها) وقد أعلن خاطر ونلسون من قبل عن رأيهما القائل بأن "بنت النيل عبرت عن نقطة انتقال براجماتييه .. من الاتحاد النسائي المصري الذي سبقها، وذلك عن طريق التوجه إلى نساء الطبقة الوسطى ومشكلاتهن" (1988:469).

وقد أنشئت جمعية بنت النيل عام ١٩٤٨ كمبادرة لحركة نسائية مصرية جديدة وقوية هدفها الأساسي إعلان الحقوق السياسية الكاملة للنساء والمطالبة بها، كما شجعت الجمعية برامج محو الأمية، وأعدت حملات لتحسين الخدمات الثقافية والصحية والاجتماعية بين الفقراء، ودعمت من رعاية الأم والطفل (Shafik, 1955:191). وقد ارتبطت حملة الحقوق السياسية للمرأة بالحملة للإصلاحات الاجتماعية (Khater & Nelson, 1988:470) (١٠).

فإذا ما قارنا ما بين بنت النيل والاتحاد النسائي المصري الذي أسسته هدى شعراوي، أمكننا تصنيفهما كهيئتين مستقلتين بمعنى عدم اتصالهما مباشرة أو تلقيهما للتوجيهات من قبل حزب سياسي أو أية دائرة أخرى. ومع ذلك، فإن الاحتكاك ما بين الاتحاد النسائي المصري وحزب الوفد الذي عرضناه سابقاً يبدو لا خطر له بالمقارنة بالمواجهة ما بين درية شفيق والنظام. وقد بدا أن بنت النيل أقل استعداداً

لقبول "السلطة الرسمية" كما شرح مولينو Molyneux فى عرضه (انظر مقدمة الكتاب) وأكثر استقلالاً من الاتحاد النسائى المصرى فى أية فترة من تاريخه، فلم تكن بنت النيل تتمتع باستقلالها عن أى حزب سياسى فحسب، بل إنَّها واجهت الدولة علناً.

فقد اقتحمت درية شفيق يصحبها ألف وخمسمائة امرأة البرلمان قبل قيام ثورة ١٩٥٢ بعام واحد مطالبين بحقوق سياسية كاملة، وتعديلات لقانون الأحوال الشخصية، ومساواة المرأة بالرجل فى الأجور (Nelson, 1996:168-77). وبعد قيام الثورة بوقت قليل خاطبت درية شفيق وزارة الداخلية لإحاطتها علماً أن "بنت النيل" تعيد تنظيم صفوفها كحزب سياسى، وقد حصل ذلك الحزب على موافقة مبدئية (Ibid: 186). وفى عام ١٩٥٤، عندما أعلن النظام العسكرى الجديد عن تشكيل لجنة دستورية لم تشغل المرأة أى مقعد بها، توجهت درية شفيق إلى نقابة الصحافيين حيث بدأت إضراباً عن الطعام استغرق عشرة أيام شاركها فيه عدد من النساء (Ibid: 197). وقد وقعت المواجهة الأخيرة والأكثر مباشرة مع نظام عبد الناصر عام ١٩٥٧ عندما بدأت إضراباً عن الطعام فى السفارة الهندية للاحتجاج على احتلال القوات الإسرائيلية لأراض مصرية وفلسطينية (وما تراه من) "حكم ديكتاتورى تمارسه السلطات المصرية يدفع بالبلاد للإفلاس والفوضى" (Ibid: 238). وقد أنقذ تدخل رئيس الوزراء نهرو درية شفيق من دخول السجن، غير أنَّها أُبقيت رهن الإقامة الجبرية فى منزلها فى الزمالك.

وقد تعرضت درية شفيق خلال ممارستها لنشاطها، فضلاً عن بعد وفاتها، لاتهامات أكثر عنفاً من تلك التى اضطرت هدى شعراوى لتحملها، وترى نلسون أن محتوى النقد والهجوم ومستواهما يرتبطان على نحو مضاد لموقع درية شفيق الذى يتسم بعدم الثبات ويمثل إشكالية:

فمنذ الوقت الذى أسست فيه درية شفيق صحفها فى عام ١٩٤٥ حتى عملها الذى حمل تحدياً كبيراً عام ١٩٥٧ واحتجت من خلاله على النظام السلطوى الذى يرأسه جمال عبد الناصر، نشطت فى إنتاج نقد ثقافى موجّه للأخر (الغرب) فى ذات الوقت الموجّه فيه للداخل (مصر والإسلام) فى مشروع يهدف إلى تفكيك الصور المشوهة والنمطية للنساء الشرقيات فضلاً عن الأطر الأبوية التى تحتضن هذه الصور.

(Nelson, 1988:100)

وبصفة عامة، لا تمثل درية شفيق موضوعاً للجدل بين الناشطات المعاصرات. ومع ذلك، فعند سؤالهن فإنَّ بعضهن انتقد درية شفيق بشدة لصلاتها بالثقافة الفرنسية والطبقات البورجوازية العليا، وفي مقابلة تمت قبل وفاتها بقليل قالت لى الكاتبة والناشطة لطيفة الزيات:

إنَّ درية شفيق يجرى تمجيدها الآن، وأنا أعرف أن نلسون تكتب كتاباً عنها. لقد كانت امرأة أرسقراطية، وكانت تميل بشدة لجذب الأنظار، وكانت منفصلة عني وعن طبقتي، وقد تلقت درية شفيق مبالغ ضخمة من المال من المخابرات الأمريكية لتنتشر مجلتها الفاخرة.

وقد تولت لطيفة الزيات نفسها معارضة توجه درية شفيق ومنهجها بصفتها عضواً في الحركة الشيوعية بمصر في فترة نشاط درية شفيق. وقد نادى بعض النساء مثل إنجي أفلاطون، وثريا أدهم، ولطيفة الزيات، اللائى تبين إيديولوجيات اشتراكية أو شيوعية إلى مزيد من النضال العام لتحقيق المساواة والعدالة الاجتماعية (Botman, 1987; Khater, 1987).

وينتشر رأى لطيفة الزيات بين الكثير من الناشطات اليساريات الراديكاليات في مصر الآن. ومع ذلك، فإنَّ أغلبية جيل الناشطات الجديد قابلن سؤالى عن درية شفيق بعدم الاهتمام، فهناك كثيرات اعترفن بجهلهن إما بنضال درية شفيق أو بالجدل الذى دار حولها، وأكدت أخريات أنَّهن فى انتظار نشر سيرتها؛ لأنَّ ذلك سيساعدهن فى اكتساب نظرة مدققة يفحصن بها نشاطها فضلاً عن إعادة وضعها فى محلها التاريخى.^(١١) ومن بين الجيل الأكبر سناً، اتسم رد فعل القليل بالتعاطف، كما أنَّتى لست حنيناً إلى الماضى :

أعتقد أن مكاسب الناشطات الرائدات ذهبت هباء بين الجيل الجديد، فإذا توجهت لطلاب "إيه.يو.سى"^(١٢) الآن فإنك ستجد أنَّهم لا يعرفون ما الذى كانت تحارب من أجله هذه النساء، ولا أشعر أن بين الشباب حركة من أى نوع يمكن أن تحل محل الحركة السابقة، ولا أدرى لم أندثرت الروح القتالية، وعندما كنت صغيرة كنت أرى صورة درية شفيق، وقد رأيتها فى مرة من المرات فى سيارة يحرسها عدد من الجنود،

وقد بعثت تلك الصورة الإلهام فى نفسى، وقد احترمتها بالفعل واحترمت شجاعته، ولكننا لم نعد نشهد ذلك فى أيامنا هذه. (أمال ك)

وفى كثير من الأحيان جاء التعبير عن الحنين إلى الماضى مرتبطاً بأفاق ثقافية واجتماعية وسياسية أكثر رحابة تسمح بقيام حركة نسائية متعددة الاتجاهات، وقد مهد تعرض الدولة للهجوم والتغيرات المنتظمة على مستوى الحكومة السبيل لظهور مجموعة متنوعة من الأصوات السياسية، وقد كان أبرز هذه الأصوات للقوى اليسارية التى برزت جنباً إلى جنب مع الاتجاهات الإسلامية، وقد ازدهرت جماعة الإخوان المسلمين التى أسسها حسن البنا فى عام ١٩٢٨ ازدهاراً سريعاً، واستغلت وجهة النظر المصرية القائلة بأن الصراع فى فلسطين يمثل حملة صليبية صهيونية إمبريالية جديدة ضد الشعوب الإسلامية، وقد أعلنت جمعية الإخوان المسلمين عن موقفها الإسلامى العام، المعادى للغرب والصهيونية فاجتذبت مساندة متزايدة من الرجال، بينما سعت لزيادة عضوية النساء بها.

وقد اتخذت الحركة النسائية فى فترة الأربعينيات هذه اتجاهات مختلفة: "سيدات الصالونات" الأرسقراطيات اللائى يتجهن للنشاط الخيرى ويلتفنن حول الأميرة شويكار، وبنيت النيل التى تتراأسها درية شفيق، وهى جمعية تجمع ما بين الأعمال الخيرية، ونشر الوعى النسائى، والاحتجاج السياسى، ولجنة الشابات التى أسستها سيزا نبراوى وإنجى أفلاطون لإحياء الاتحاد النسائى المصرى الذى فقد بريقه، وضمت إليها "النساء نوات الاتجاه الشيوعى اللائى منعتهن الحكومة من تأسيس منظمة لهن" (Nelson, 1996:165)، فضلاً عن جمعية الشابات المسلمات التى أنشأتها زينب الغزالى، وعنيت بالرعاية الاجتماعية، وكان توجهها إسلامياً.

وقد حلت فترة من الهدوء بعد مرحلة النشاط النسائى المتحمس والمتنوع فى الأربعينيات حتى منتصف الخمسينيات؛ فقد تراجع النشاط النسائى إبان حكم جمال عبد الناصر كنتيجة لمراقبة الدولة المتشددة للنشاط السياسى وحظرها لأى نوع من المؤسسات المستقلة، وقد احتكرت الدولة قضايا المرأة، وشكلتها فى صيغة قضايا الرعاية الاجتماعية، وخاصة من خلال أنشطة وزارة الشؤون الاجتماعية. ومع ذلك، فقد

جرت تحولات كبيرة فى وضع المرأة خلال حكم عبد الناصر، وذلك نظراً للالتزام العام بالمساواة الاجتماعية، فقد مُنحت المرأة فرصاً وحقوقاً متزايدة فى الحدود التى وضعتها الحكومة.

فترة رئاسة عبد الناصر

إذا ما نظرنا إلى فترة حكم عبد الناصر، فإنَّ البلد شهدت حالة من التقدم والتنمية؛ فبطبيعة الحال، تمتعت المرأة بوضع جيد، وقد كان حصولها على حق الانتخاب والترشيح للانتخابات أمراً فى غاية الأهمية، كما منح عبد الناصر المرأة حق العمل وحققها فى الاستقلال الاقتصادى. وقد التزمت الدولة بتعيين كافة الخريجين، وكان التقدم هو محصلة كل ذلك. ويمكننى أن أطلق على كل ما حدث بعد ذلك "التوابع"، وبالطبع كانت هناك مشكلات، ولكن إذا ما وضعنا النقاط الإيجابية والنقاط السلبية جنباً إلى جنب فإنَّ النقاط الإيجابية سادت فى الحياة اليومية للمرأة: فقد قُبلت عضوية كافة النساء فى الحزب الاشتراكى، وفى كافة المؤسسات، غير أنه لم تكن هناك مؤسسات مستقلة مسموح بها سواء للرجال أم للنساء (ليلى س.).

وقد حلَّ مؤخراً تقييم أكثر إيجابية لعهد عبد الناصر محل الاتجاه فى الدراسات الأكاديمية والخطاب السياسى الذى اقتصر على تعريف النظام الناصرى على أساس من السلطوية وكبت المعارضة المنظمة، وقد أكد العديد من الباحثين أن ثورة مصر فى عام ١٩٥٢ كانت فاتحة عهد جديد للمرأة وذلك بتغييرها للنظام الطبقي وبضمها للنساء فى الدولة الجديدة على المستويات الإيديولوجية، والقانونية، والعملية (Ahmed, 1992; Hatem, 1992, 1994). غير أنَّ التزام عبد الناصر برعاية المرأة كجانب من نضاله الأرحب لتحقيق العدالة الاجتماعية قد بدا متعارضاً لكبته النشاط النسائى، فقد حظر نظام عبد الناصر السلطوى كافة أشكال النشاط السياسى بما فى ذلك المنظمات النسائية، وتصف ليلى أ، ذات الاتجاه الاشتراكى، الشرخ العميق فى الحركة النسائية أثناء الحكم الناصرى:

ضُربت الحركة النسائية في عهد عبد الناصر، وقد كان هناك نساء في مؤسسة الحكم: نساء مهنيات، وكن يمثلن الحاجات النفعية لنظام عبد الناصر، وكان الأمر لا يعدو أنهن نساء يتحدثن عن حقوق المرأة، حقها في التعليم، على سبيل المثال، أو تحرير المرأة. وكن يرددن أن الرجعيين يعارضون تحرير المرأة، وكن يستمعن إلى السلطة أساساً، وقد كان النظام يساند التغيير وكانت النساء تتولى الدعاية للنظام، غير أن النساء لم يكن يُسمح لهن بتنظيم صفوفهن.

ويتفق هذا الوصف للحركة النسائية مع مفهوم مولينو عن التعبئة الموجهة التي بادرت الدولة بإجرائها في مجال قضايا المرأة، وقد وُضعت حتى الجمعيات الخيرية تحت رقابة الدولة الأمر الذي أدى إلى إصدار سلسلة من القوانين تحظر أي نوع من النشاط المستقل. وعلى الرغم من أن العمل التطوعي يتمتع بتاريخ طويل في مصر، فقد جاء عهد عبد الناصر ليسلط عليه الأضواء من خلال الجمعيات الأهلية، والمنظمات التطوعية الخاصة، وجمعيات تنمية المجتمع المحلية، وقد صيغ العديد من القوانين واللوائح، لتصل إلى ذروتها في القانون رقم ٣ لسنة ١٩٦٤ (الذي لا يزال سارياً ليومنا هذا)^(١٣)، من أجل تنظيم ومراقبة الأنشطة المتنوعة التي تقوم بها كافة المنظمات التطوعية، وتتذكر منى ز. التي شاركت في الأعمال الخيرية أثناء حكم عبد الناصر ما يلي:

ازدهرت المؤسسات الخيرية والدينية. وقد كان النظام السياسي مغلقاً، ولذلك فقد كانت أعمال الخير هي المجال الوحيد لمساهمة الناس، وقد خضع كل هذا النشاط لوزارة الشؤون الاجتماعية، وقد كان الأمر مقبولاً طالما لم تشارك تلك المؤسسات في النشاط السياسي، وإنما عملت لصالح دوائرها فحسب، وقد قام نظام عبد الناصر على قيام هيئات تسمح للناس بتكوين جماعات تشعرهم أنهم يملكون القوة، بينما في حقيقة الأمر يسهل السيطرة على تلك الجماعات.

وفي خط موازٍ لغياب المؤسسات النسائية المستقلة، كانت الدولة تضع يدها على قضايا المرأة، فلم يقتصر دستور ١٩٥٦ وتعديله في عام ١٩٦٣ وحدهما على إعلان أن كافة المصريين متساويين بغض النظر عن النوع، بل إن قوانين العمل جرى تغييرها لضمان وظائف بقطاع الدولة لكافة الحاصلين على شهادات الدراسة الثانوية

والدراسة الجامعية بغض النظر عن النوع" (Hatem, 1992:232). أضيف إلى ذلك، أن الدولة منحت النساء في عام ١٩٥٦ حق التصويت والترشيح للوظائف العامة، وقد تم إصلاح النظام التعليمي لزيادة أعداد المقبولين في المدارس الابتدائية والثانوية الأمر الذي كان له أثره في التحاق المرأة في التعليم العالي (Ahmed,1992: 210). وقد أطلقت ميرفت حاتم على التزام الدولة الرسمي القانوني والإيديولوجي بحقوق المرأة "الاتجاه النسوي الحكومي"، ويشير المصطلح أيضاً لسياسات الدولة غير الرسمية وللبرامج التي تحدث تغييرات مهمة في دور المرأة في مجالى الإنتاج والإنجاب (Hatem, 1992:213).

ومع ذلك فقد صحبت الإنجازات الكبيرة للدولة المصرية في مجالات التعليم والتوظيف و الحراك الاجتماعى، والتي أعطت لنظام عبد الناصر صفة التقدمية، الاحتفاظ بقوانين الأحوال الشخصية التي صدرت في عشرينيات وثلاثينيات القرن العشرين، وترى ميرفت حاتم أن:

الاتجاه النسوي للدولة في عهد عبد الناصر أخرج إلى المجتمع نساء مستقلات عن عائلاتهن، غير أنهن معتمدات على الدولة للتوظيف، والخدمات الاجتماعية المهمة مثل التعليم، والصحة، والعناية اليومية، والتمثيل السياسى، وبينما أنشأ الاتجاه النسوي الحكومي نظاماً أبوياً عاماً ووضع تنظيمياً له، فإنه لم يواجه الآراء الشخصية والعائلية الخاصة باعتماد المرأة على الرجل، وهى الآراء التي تأسست على قوانين الأحوال الشخصية والنظام السياسى. (ibid.: 233)

وتنقسم الآراء حول عبد الناصر وحقوق المرأة ما بين الناشطات المعاصرات، فالكثير من النساء اللاتى أجريت معهن حواراً أكدن على إنجازات عبد الناصر فى تحسين وضع المرأة فى سياق تحقيق قدر أكبر من المساواة والعدالة الاجتماعية لكل المصريين. ومع ذلك، فهناك عدة نساء ممن كن فتيات مراهقات أو نساء صغيرات السن إبان عهد عبد الناصر وقفن بقوة ضد فكرة مساواة المرأة فى تلك الفترة:

أخفى الخطاب الناصرى عن المساواة والأخوة قدراً كبيراً من عدم المساواة. وقد كان ذلك هو الجو الذى نشأت فيه. فقد تغيرت قوانين العمل لتتنقل عن الدول الشيوعية، وعند الممارسة الواقعية شعرت أن هناك قدراً كبيراً من النفاق؛ فقد تلقيت تربية تعدننى لأن أكون مستقلة، ولكننى عندما أفكر ملياً وجدتنى مضطرة لمقاومة كل ما نشأت على تعلمه. (شيرين م.)

ويقوى الشعور بوجود النفاق وعدم المساواة التي تتخفى وراء قناع كسمتين من سمات نظام عبد الناصر لدى هؤلاء الناشطات اللاتي لا يرين أن حقوق النساء محدودة بحقهن في التعليم والعمل والمشاركة في عمليات اتخاذ القرار، بل إنهن ينظرن إلى قضايا المرأة في صلتها بقانون الأحوال الشخصية.^(١٤) وفي أيامنا هذه، تتحدى بعض الناشطات "النقاط العمياء" لهؤلاء الذين يستمرون في النظر إلى مشاركة المرأة باعتبارها تحسناً في وضع المرأة الكلي في المجتمع، وقد قالت لى رجان، وهي باحثة وناشطة عاشت خلال عهد عبد الناصر كطالبة ولا تزال تكن له إعجاباً كبيراً:

إن الناصريين هم من يتحدثون عن التطور؛ فهم الذين يرون أنه إن حصلت النساء على حقوقهن في المجال العام، فإنهن سيتمكنون من تغيير ظروفهم داخل المنزل. ولا يقتصر الأمر على الاندماج في النواحي الاقتصادية، فطالما بقيت قوانين الأحوال الشخصية التي تميز ما بين الرجل والمرأة فإن المرأة تظل في وضع أضعف، حتى حقوقى العامة يملك زوجى الحق أن يضع حدوداً لها بإلزامى بيت الطاعة.^(١٥) وتعانى كل النساء العربيات من الفصام، فأنا أتمتع بالمساواة فى العمل بقوة القانون - فلدينا مجموعة قوانين تؤكد على المساواة فى المجال العام - أما فى المنزل فالوضع يختلف. وإنى أرى المشكلة فى النساء اللاتى لا يرين هذا التناقض، وهذا الأمر حساس بسبب الدين، غير أن الأمر يتصل بالتفسير؛ ففى تونس، على سبيل المثال، تم حظر تعدد الزوجات. وما نعيشه لا صلة له بالدين بل بعلاقات القوى.

وبينما لا يعد هذا الرأى نقداً منفرداً، فقد لاحظت خلال لقاءاتى إدراكاً واسع الانتشار ينسب إلى عبد الناصر مساعدة المرأة فى اكتساب بعض القوة الاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية. وتنسب زيادة واضحة لأنشطة المرأة الثقافية والسياسية - فى كثير من الأحيان - للفرص والخيارات الجديدة التى قدمها النظام الناصرى للمرأة، وتعبر سهام أ، وهى تنتمى لجيل رجان نفسه عن موقفها كما يلى:

منحت المرأة فى عهد عبد الناصر حق التصويت والترشيح للانتخابات. وقد استفادت المرأة أيضاً من المجالات الأوسع والتعليم المجانى، وقد حظيت المرأة بالاحترام، ودخلت فى مجالات عديدة نظراً لشيوع الجو العلمانى، وهناك عنصر آخر

مهم ألا وهو الارتباط ما بين وضع المرأة ووضع البلاد؛ فعندما تزدهر البلاد تزداد حقوق المرأة، ونحن لم نرَ وضع المرأة بالسوء الذى هو عليه الآن.

وفى كثير من الأحيان تتم صياغة تقييم لعبد الناصر من خلال مقارنته بمن خلفه، وقد شهدت مصر مؤخراً موجة من الحنين للماضى الناصرى، وقد تزايد إحلال المثقفين لعبارات تحمل الحنين للـ "أيام الأفضل" محل الخطاب البلاغى المرتبط بسياسات السادات المضادة للناصرية، وحتى الناشطين السياسيين، وهم أساساً من الشيوعيين، الذين أدخلوا المعتقلات، وتعرضوا للتعذيب فى عهد عبد الناصر، عبروا عن إعجابهم بعبد الناصر ومساندتهم اللاحقة له.

وقد نُشرت الكثير من المقالات التى تعبر عن آراء ومواقف موالية للناصرية بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لوفاة عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٩٥، وقد توافقت الذكرى مع توقيع اتفاقية أوسلو فى واشنطن، وقد جددت خيبة الأمل فى "عملية السلام"، التى يرى المثقفون المصريون - بوجه عام - أنها قد تمت على حساب الفلسطينيين والعرب، المشاعر المعادية لإسرائيل. وترتبط هذه المشاعر برفض لمعاهدة أوسلو للـ "سلام"، وهى تعيد إلى الأذهان من نواحٍ عديدة معاهدة السادات السابقة مع إسرائيل، والمديح الذى يُغدق على عبد الناصر، الذى لم يتعامل مع "العدو" مثل ما فعل السادات، حتى بعد هزيمته فى حرب ١٩٦٧، وهناك من يرى أن العنصر القومى العربى فى الناصرية يمكن اللجوء إليه لـ "تصحيح عدم التوازن الحالى فى ميزان القوى بين إسرائيل والعرب" (Sid-Ahmed, 1998:8).

ويلعب الممثل الشهير أحمد زكى دور عبد الناصر فى فيلم ناصر ٥٦ الذى أخرجه مخرج ناصرى الاتجاه (وقد عُرض فى عام ١٩٩٦). وقد جرى تصوير الفيلم بالأبيض والأسود، واحتوى على لقطات تسجيلية؛ فنقل آلاف المصريين إلى الأيام المجيدة لتأميم قناة السويس، ولا يمكن أن يُعزى نجاح الفيلم إلى عظمة الفن السينمائى به أو إلى أداء أحمد زكى المتميز - الذى تلقى عليه مديحاً ممن رأوا "عبد الناصر الحقيقى" - وإنما يتعين النظر إليه فى ضوء الإحساس السائد بالحنين لتلك الأيام التى امتد تحدى مصر فيها للبريطانيين والفرنسيين والأمريكيين لرؤيتها الخاصة لضعفها واعتمادها على الغير.

وتوحى إعادة تقييم شخصية عبد الناصر أن قضايا التنمية فى عهد ما بعد الاستعمار والحدائثة يجرى حولها معركة تدور على أرض التراث الناصرى. فقد أصبح عبد الناصر رمزاً للكفاح ضد الاستعمار والـ"حدائثة المستقلة" تقف بحدة فى مقابل اعتماد مصر المعاصرة على الغير. وتحمل الكثير من الناشطات، اللائى كن فى سن صغيرة فى عهد عبد الناصر بما لا يسمح لهم بتذكر الكثير، صورة واضحة لعبد الناصر، وهن يربطن بينه وبين التقدم، والتنمية بون الاستعانة بمساعدة أجنبية، والعلمانية، وقد امتدحت بسمية م. ، وهى عضوة شابة فى جمعية المرأة الجديدة، عبد الناصر، لسياساته تجاه الإخوان المسلمين:

أعتقد أن أحداً لم يحارب الإخوان المسلمين مثمما فعل عبد الناصر، كما لم يعرف أحد غيره كيف يلحق بهم الهزيمة؛ فقد قابل منطقتهم بمنطق علمانى على نحو مستقل، بينما نجد الآن أن الحكومة تشاركهم الأرض التى يقفون عليها ويحاربون بأسلحتهم نفسها،(*) وهذا يمنح الجماعات الإسلامية تفوقاً مباشراً.

وبينما لم يظهر النشاط النسائى المستقل مرة أخرى إلا بحلول بداية السبعينات، مرتبطاً ببدايات عهد السادات، متزامناً مع نشأة سياسات الانفتاح الاقتصادى وتزايد ظهور الحركات الإسلامية، فإن هذا الجيل الجديد من الناشطات اكتسب فى واقع الأمر خبرة فكرية واجتماعية ومهنية فى عهد عبد الناصر.

السادات والانفتاح

خطا عبد الناصر خطوات أبعد ممن وضعوا المشروع التقدمى، سواء أكانوا من مؤيدى الاتجاه النسائى أم من اليساريين؛ فالكثير مما طالبوا به وجد طريقه إلى الإطار الناصرى، وقد كان من المفهوم أن كافة أشكال التعبير السياسى ينبغى أن تتم فى إطار الدولة، وقد أدى ذلك إلى إخراس المعارضة، وقد شعر الناس أن الأمر له

(*) هذه أفكار المؤلفة ، وبنقلها كما هى احتراماً لحق الاختلاف - التحرير .

ما يبرره بسبب المشروع القومي والحرب، ومع مجيء السادات بدأت الهوة الكبيرة تتضح في أكثر من مجال، فعندما رأى الناس أن لا أمل لهم في المشروع القومي، والاقتصادى، والاجتماعى، انهارت الوحدة الظاهرية. ورأى الناس فراغاً سياسياً. وبظهور موجة سياسية، بدأ الناس ينظرون إلى الماضى لعشرين عاماً خلت على الأقل، وبدأوا يتساءلون: كيف تبدأ تنظيمًا خاصاً بك؟ وهذه هى المشكلة الرئيسية للمصريين حتى يومنا هذا. (راندا س)

وقد تضاعل دور الدولة فى عهد السادات كوسيط اجتماعى واقتصادى، وذلك بانسحابها من سياسات المساواة الاجتماعية وتكافؤ الفرص، وبعدم مركزية القرارات الاقتصادية، وبزيادة مشاركة القطاع الخاص. ولم يقتصر الأمر على التخلي عن الكثير من التزامات عبد الناصر الرسمية بالمساواة بين الجنسين، بل تعدى الأمر ذلك، وتسببت سياسات الانفتاح^(١٦) فى زيادة الهوة ما بين الأغنياء والفقراء. غير أنه من ناحية أخرى تحقق فى عهد السادات تعديل قوانين الأحوال الشخصية ليقف بجانب حقوق المرأة. وقد حمل الوعد المبدئى لحكم السادات انفتاحاً يجذب الاستثمار العربى والأجنبى، وقد قُدِّر للاقتصاد المحرر أن يمضى فى خط موازٍ مع تخفيف "كافة السُّمات المقيِّدة للحريات فى الاتجاهات السلطوية للناصرية"، وذلك بأن تمضى مصر فى إعادة تنظيم "الآليات الاجتماعية والاقتصادية التى جرى تطويرها فى عهد عبد الناصر" (Baker, 1997:132). وقد سمح السادات للقطاع الخاص أن يستثمر فى مجال الاقتصاد على أمل أن يؤدي استخدام التكنولوجيا الحديثة وزيادة التمويل إلى تحقيق انتعاش اقتصادى. غير أن هذا النوع من التنمية تجاهل مشكلات عسيرة الحل مثل الفقر، والبطالة، والتناقض الكبير ما بين الأغنياء والفقراء، وعندما انطلق عشرات الآلاف من فقراء المدينة فى الشارع عام ١٩٧٧، للاحتجاج على تخفيض الدعم على الأغذية الأساسية، انضم إليهم الطلاب والعمال الذين تظاهروا ضد سياسات السادات الاقتصادية، وزيادة الاستهلاك، والتأثير الغربى. (Baker, 1980:118)

وقد تأثرت المرأة من نواحٍ مختلفة بسياسات السادات، فقد حلت نسب البطالة العالية وعدم تكافؤ الفرص فى محل العمل^(١٧) محل مشاركتها فى الاقتصاد، تلك المشاركة التى كانت جانباً من "الاتجاه النسوى الحكومى" فى عهد عبد الناصر.

ومن ناحية أخرى، لم تقتصر هجرة العمالة، خاصة إلى دول الخليج، على توفير وضع اقتصادي أفضل للكثير من الأسر وتحسين مستوى معيشتها، وإنما دفعت الكثير من النساء لتولى المهام التي كان الأزواج يقومون بها من قبل (Hatem, 1922:238). وبينما حصلت بعض النساء على الاستقلال الذاتي كنتيجة لهجرة أرباب الأسر من الرجال، فإن بعض الدراسات تشير إلى التأثيرات الاجتماعية والوجدانية السلبية للهجرة على النساء من طبقة العمال (Graham-Brown, 1981; Hatem, 1992).

وترتبط النواحي المختلفة لسياسة الانفتاح التي اتبعتها السادات على المرأة بموقعها الطبقي؛ فلا شك أن المرأة في الطبقتين الوسطى العليا، والعليا قد استفادت بقدر يفوق استفادة المرأة في طبقة العمال^(١٨)، وقد أحدثت سياسة الانفتاح أثراً حاداً في اتجاهين في الوقت نفسه: فقد فتحت الباب لقلّة ممن يحتلون مواقع متميزة للإثراء الفاحش، والفساد من أوسع الأبواب، والنزعة الاستهلاكية الجشعة. ومن ناحية أخرى، عانى الشعب من النتائج الضمنية الأعم للانفتاح من تضخم عالٍ، ونقص مزمن في السلع الأساسية والسكن، وتناقص فرص العمل، وسوء أحوال العمل، وقد زاد من حدة الأمر تخفيض الدولة لاستثماراتها في الخدمات العامة وإيجاد الوظائف.

وقد تزامنت التغييرات الاجتماعية والاقتصادية التي تسبب الانفتاح في إيجادها مع التباعد عن الاتحاد السوفيتي والتقارب مع الولايات المتحدة، وقد تضمن التحالف الوثيق مع الولايات المتحدة على وجه الخصوص ومع "الغرب" عامة التنسيق مع منظمات دولية تقدم "مُثلاً رأسمالية" كصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي (Ayubi, 1991:299). وهناك ناشطات ينتمين إلى الجيل الأكبر سناً والطبقات العليا في المجتمع ينظرن بأسى إلى "الأيام الأفضل":

في عهد السادات، كانت مصر أكثر حداثة عنها الآن. لقد كانت النساء يرتدين الميني جوب، والملابس الزاهية، وكنت أنا نفسي أرتدى هذه الثياب. وفي ذلك الوقت كانت هناك ثلاث فتيات في جامعة القاهرة يرتدين الحجاب. وكن موضع حديث الجميع، وكن لا يفرقن أبداً، وكن نسميهن المتزمتات والمتخلفات. (منال أ.)

وقد كانت أغلب الناشطات اللائى أجريت معهن مقابلات، وخاصة هؤلاء اللائى شاركن في الحركة الطلابية في السبعينيات، مع ذلك يعبرن عن نقد عنيف لسياسات

السادات الاقتصادية والخارجية، وترى الكثيرات أن كامب دافيد وما تلاها من معاهدة للسلام مع إسرائيل هي "خيانة عظمى" ارتكبتها السادات، و"نهاية لشرعية وضع مصر كزعيمة للعالم العربي"، ويتصل وجه آخر من أوجه النقد اللاذع بمناورة السادات مع الدوائر الإسلامية، وهناك اقتناع عام، وخاصة ما بين النساء اللائي ينتمين لحزب التجمع الاشتراكي، بأن تحالف السادات والولايات المتحدة تسبب في قيام حركة الإسلاميين:

أعتقد أن الكثير من الجماعات الإسلامية تلقت تسليحها وتدريبها على أيدي أنور السادات، وجرى تمويلها من قبل المخابرات الأمريكية من أجل محاربة الشيوعيين والناصرين. ويشبه ذلك ما يمكن أن تقوم به إسرائيل من مساعدة في تمويل حماس وإنشائها حتى يتسنى لها مقاطعة فكرة الاستقلال الفلسطيني. إن الدور الأمريكي في دعم الحركات الإسلامية ليس إشاعة، إنه حقيقة، وكلما تناقشت في هذا الأمر مع بعض الأمريكيين، فإنهم يقولون إنهم يودون أن يقيموا اتصالات مع كافة القوى القائمة. (هدى ك.)

ونقلًا عن الكتابات حول هذا الموضوع، فإن تزايد الإحساس بالاغتراب، الناتج عن موجة استيراد الأفكار الجديدة والسلع الاستهلاكية، وما نتج عنها من مساواة الانفتاح بالانحلال (التفسيخ الاجتماعي)، وقد جاء ذكر هذه التأثيرات فضلاً عن التناقضات البعيدة لانعدام المساواة الاجتماعية التي نتجت عن الانفتاح في كثير من الأحيان بوصفها عوامل مهمة لما تلاها من مد إسلامي في السبعينات (El-Guindy, 1981; Hatem, 1992)^(١٩)، وفي بدئ الأمر، تعاون نظام السادات مع الإسلاميين مستخدمًا لغة الدين لكسب المساندة والشرعية، وكذلك لاتخاذ موقف من اليساريين والناصرين.^(٢٠) ومع ذلك، ففي عام ١٩٧٧، بدأ الإسلاميون في التحدي الصريح لسلطة الدولة باغتيالهم وزير الأوقاف الدكتور حسن الذهبي، وقد أدت السياسة التي اتبعتها السادات لاستخدام الجماعات الإسلامية لتحقيق أغراضه في إضعاف القوى اليسارية الشعبية إلى صحوة إسلامية متزايدة جذبت إليها أيضاً المرأة ضمن من جذبت.

وفي فترة لاحقة، وتحت تأثير زوجة الرئيس، جيهان السادات، تم اقتراح تعديلات على قانون الأحوال الشخصية (وهي القوانين التي تحدد علاقات الزواج، والطلاق،

وحضانة الأطفال، ... إلخ). وقد أطلقت هذه التعديلات استراتيجيات من فرعين لتحطيم قوة الإسلاميين وشرعيتهم، ولتحديد خطوط البرنامج الاجتماعي للدولة في تميزه عن برنامج الإسلاميين ليأخذ شكل التعبئة الداخلية والدولية ضدهم. فمن الناحية الداخلية، توقعت الدولة أن التعديلات ستشجع نمو تحالف علماني من الرجال والنساء؛ وعلى الصعيد الدولي، كانت الدولة تأمل أن تستخدم هذا القانون بوصفه إحدى وسائل العلاقات العامة لتحسين صورتها، الأمر الذي يشكل خطوة نحو كسب المزيد من المساندة السياسية والاقتصادية، خاصة من الولايات المتحدة (Hatem, 1992:242).

وقد منح قانون الأحوال الشخصية لعام ١٩٧٩، والذي أُطلق عليه "قانون جيهان"، المرأة حقوقاً قانونية في ما يتصل بالزواج، وتعدد الزوجات، والطلاق، وحضانة الأطفال، وقد صدر بقرار جمهوري جنباً إلى جنب مع قانون آخر أدخل تعديلات على تمثيل المرأة في البرلمان. وقد لعبت جيهان السادات، زوجة الرئيس أنور السادات، دوراً أساسياً في إصدار قانون الأحوال الشخصية لعام ١٩٧٩، وهو القانون الذي أكد ضمن أمور أخرى حق المرأة في الطلاق، ومنحها الحق في السفر دون الحاجة للحصول على إذن زوجها، ورفع سن الزواج من ستة عشر عاماً إلى ثمانية عشر عاماً. وقد أثار القرار الجمهوري صراعات بين النساء اللاتي ينتمين لاتجاهات سياسية مختلفة، ووضعهن في موقف صعب في مواجهة هذا القانون التقدمي، وقد كان واضحاً أن إطلاق "قانون جيهان" على قانون الأحوال الشخصية المعدل قد أسقط الشرعية عنه، وذلك بالإشارة إلى الأسلوب السلطوي والشخصي الذي صدر من خلاله. ومع ذلك، فإن الناشطة سهام ب. تتذكر ما يلي: "لم يرغب أحد منا في إلغاء هذا القانون؛ فقد فضلنا جميعاً أن تتم التغييرات بأسلوب ديمقراطي، غير أن القانون كان إنجازاً عظيماً إذا ما نظرنا إليه في سياق حركة الدولة في ذلك الوقت"، وقد اعترضت سيدة أخرى على ربط اسم السادات بقانون تقدمي:

لقد كان قانون جيهان عنصراً بالغ الصغر في نظام السادات؛ فعندما نتحدث عن السادات، فإننا نتحدث عن سياسة عامة. وإنني أرى أن السادات مسئول عن نمو الاتجاه الإسلامي؛ فقد سلّحهم ودرّبهم، وانتهى الأمر بأن قتلوه. ولقد كانت السياسة العامة في عهد السادات تقف ضد احتمال تحرير المرأة. ومن ناحية أخرى، استطاعت

مدام جيهان أن تصدر قانون الأحوال الشخصية. لقد كان قانوناً جيداً غير أنه لم يستمر؛ فقد تبدل، وما يهم هو: هل كانت المنظمات مسموح بها في عهد السادات؟ ويجب أن نقر بأهمية الحركة الطلابية ضد السادات. ولا يرجع الفضل بتاتاً للسادات لقيام أى منظمات.

ولم تتوافر للمرأة أساساً منظمات مستقلة تمثلها، وكنّ معتمدات على ما للنظام من حاجات خاصة. وقد كان بداية العقد الذى أعلنته الأمم المتحدة للمرأة فى عام ١٩٧٥ سبباً دعا النظام الذى كان يسعى لتقوية روابطه مع حلفائه الجدد، وخاصة الولايات المتحدة، لتشجيع قضايا النوع وعلى الرغم من القوانين التقدمية لعام ١٩٧٩، فإن الدولة لم يتوافر لها برنامج شامل يضمن حقوق المرأة ولم تشجع النشاط النسوى المستقل.

النشاط النسائى فى فترة ما بعد الانفتاح والحالة الراهنة فى عهد مبارك

أدت المواجهة المتزايدة مع الإسلاميين حول تنفيذ الشريعة إلى الضغط على نظام مبارك كى يشرع وينفذ قوانين وسياسات أكثر رجعية تجاه المرأة،(*) وأن يقلل من دعمه لتمثيل المرأة سياسياً. وبينما تستمر القوى الإسلامية فى تكوين دائرة قوية داخل الدولة المصرية^(٢١)؛ فقد تزايدت المطالبة بالتزام الحكومة المصرية باتفاقيات الأمم المتحدة فيما يتصل بحقوق المرأة، ويفرض الاعتماد الاقتصادى على الولايات المتحدة، والمنظمات الدولية المانحة (صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى) على النظام القائم أن يظهر بصورة الملتزم بقيم الديمقراطية وأخلاقياتها، وبحقوق الإنسان وحقوق المرأة، كما يدعو لها "المحسنين" الماليين والسياسيين لمصر.

وهناك العديد من المحللين السياسيين الذين يؤكدون أن الرئيس مبارك انتقل إليه إرث معقد من عهدى عبد الناصر والسادات (Ayubi, 1991; Baker, 1990; McDermott, 1988). وقد اتسم النظام بالغموض وتوجيه رسائل متناقضة فى صراعه مع قوى منافسة داخل مصر المعاصرة، فضلاً عن صراعه مع إرث الماضى.

(*) هذا كلام مخالف للحقيقة والواقع على نحو ما، يلمسه أى مشاهد محايد - التحرير .

وقد اتسمت الأعوام الأولى من حكم مبارك بالبحث عن الاستقرار وتوحيد القوى. وفى عام ١٩٨٥، جرى تعديل قانون الأحوال الشخصية الذى كان محل جدل يتصل بشرعية الدولة، وذلك نتيجة للمعارضة القوية من الإسلاميين الذين رأوا أنه غير إسلامى، ويسقط القانون المعدل الكثير من الحقوق التى حصلت عليها المرأة فى القانون السابق عليه (Bibars, 1987). وقد استخدمت جماعة ضغط نسائية مؤتمر نيروبي عام ١٩٨٥، الذى انتهى معه عقد المرأة، للاحتجاج والضغط على الحكومة لإعادة صياغة القانون، وقد صدر قانون جديد بعد شهرين من إلغاء قانون عام ١٩٧٩، (قبيل انعقاد مؤتمر نيروبي) أعاد بعض مزايا القانون القديم.

وقد ارتبطت عودة النشاط النسائى فى الأساس بالمعركة المستمرة حول قانون الأحوال الشخصية وتناول قضايا محرمة مثل منع الحمل وختان الإناث (Ahmed, 1992:214). ومع ذلك، وفى عام ١٩٨٥، أثناء المناقشة القومية لقانون الأحوال الشخصية، أصبحت الخلافات داخل الحركة أكثر وضوحاً؛ فبينما دافعت نوال السعداوى عن القانون وأدارت حملة للحفاظ عليه، رأى الاتحاد النسائى التقدمى (الذى ينتسب لحزب التجمع اليسارى) أنه يجب إلغاء القانون؛ لأن السادات أصدره على نحو غير دستورى. وفى هذه المناظرة وجدت السيدات اليساريات اللائى عارضن سياسات السادات فى مجالى الانفتاح والتقارب مع إسرائيل أنفسهن يقمن حججهن على الأيسس نفسها التى استخدمها الإسلاميون وشيوخ الأزهر الذين أثارت تعديلات قانون الأحوال الشخصية غضبهم، وقد أظهرت المناظرة بوضوح كبير "استغلال" قضايا المرأة وإخضاعها لمسائل سياسية أكثر عمومية؛ فلم يكن الأمر متصلاً بالمادة الفعلية للقضية، وإنما كان معارضة مشتركة لسياسات السادات العامة.

ويعكس هذا الحدث أيضاً تعدد اتجاهات النساء اللائى يمثلن عقائد وإيديولوجيات سياسية مختلفة والخلافات فيما بينهن، وكذلك اختلاف تفسيراتهن للمحتوى الفعلى لقضايا المرأة، وأسلوب الدعوة لحقوق المرأة. ومع ذلك، فلم يقتصر الأمر على إظهار الناشطات فى انقسام مشابه لانقسام الرجال إيديولوجياً وسياسياً، بل تعداه لإظهار الفجوات القائمة بين التيارات المختلفة للحركة النسائية.

ويمثل قيام تحالف طارئ في حد ذاته، بمناسبة تحدى الوضع الدستوري لقانون الأحوال الشخصية عام ١٩٨٥، خروجاً على الخطاب الوطنى السائد والخطاب الليبرالى التحديثى داخل مصر؛ فقد ركز هذان الخطابان على حقوق المرأة فى المجال العام وحده كجانب من "عملية إيجاد مجتمعات حديثة جديدة" (Hatem, 1993:42). ومع ذلك فإن التصورات السائدة لحقوق المرأة ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بالخطاب الحدائى للمصلحين الأوائل مثل قاسم أمين، وخطاب التنمية الأحدث. وترى ميرفت حاتم أن هذه الخطابات تقبل "المجال العام للمرأة؛ حيث يتوقع منها أن تواصل أنشطتها العامة مثل التعليم، والعمل، وشىء من المشاركة السياسية، خاصة حق الانتخاب" (Ibid.: 40). أما حقوق المرأة فى إطار الأسرة الـ "خاص" فلا يجرى تجاهلها فحسب، بل تُعتبر خارج نطاق الكفاح المشروع لقضية المرأة، وقد بدأت جهات متعددة فى فترة ما بعد الانفتاح تتحدى هذه المسلّمات السابقة عن حقوق المرأة، على الرغم من أنها ما زالت تمثل التفسير الأكثر شيوعاً لحقوق المرأة.

وتعد نوال السعداوى واحدة من أوائل السيدات وأكثرهن عزماً فى تحدى خطابات الحدائى - الوطنية عن المرأة. وقد حصلت مثلها مثل سيدات أخريات من عصرها على "خبرات تكوينية" هامة، بوصفها طالبة طب أولاً، ثم كطبيبة أثناء حكم عبد الناصر، ويشير نشاطها وكتاباتهما إلى ارتباط الموقف الغامض من الإمبريالية والاتجاه الأبوى المحلى. وبعد إصدارها لكتابها "المرأة والجنس" (١٩٧١)، رسّخت من موقفها كناشطة شجاعة وبارزة تدافع عن حقوق المرأة، وتتذكر بعض السيدات اللاتى أجريت معهن مقابلات الضجة التى أثارها كتاب نوال السعداوى ومحاضراتها. وقد شعرت كثيرات أنها ضحية لازدواجية المعايير فى المجتمع، وقد عبرت عزة ل. عن ذلك بقولها:

كنت أستمع إلى محاضراتها فى نقابة الأطباء كل أسبوعين إلى أن طردوها. هل تتخيلى أنهم طردوها لأنها تكتب كتاباً علمياً عن العذرية وختان الإناث، وكان عنوان الكتاب المرأة والجنس. لقد كانت تحاول إنقاذ النساء السانجات والجاهلات. لقد كان كتاباً طبياً وعلمياً. واليوم ترى حولك كل هذه الكتب عن الجنس، وقد صدمت بالفعل منذ عدة أيام، فقد كنت أتجول فى وسط البلد، عند "الأمريكين" فى عماد الدين. وهناك

أمام المقهى كان هناك من يبيع كتب جنس مصورة، ولا أحد يهتم بما يحدث. الإسلاميون لا يقومون بشيء، غير أنهم هددوا نوال لأنها تحاول تمكين النساء.

وتهاجم نوال السعداوى فى كتابها الذى أثار الجدل - وكذلك فى رواياتها - التحكم الأبوى فى الشعور الجنسى للمرأة، وقد جعلت من بعض الموضوعات المحرمة مثل ختان الإناث، والاعتداء والاستغلال الجنسيين قضايا عامة، وبادرت بإيجاد اتجاه نسائى يختلف عن ما سبقه من اتجاهات، وبينما تتباعد معظم الناشطات عن نوال السعداوى فى أيامنا هذه، إماً لأنهن يرينها تسرف فى الاتجاه إلى "الغرب"، أو "النخبوية"، أو "السلطوية"، فهناك القليلات اللاتى لم يظهرن اعترافهن بشجاعتهن، وتأثيرها على عدة أجيال، وورثها الرائد، وقد جاء تعليق سيدات ينتمين إلى أجيال مختلفة كما يلى : "كلنا نقرأ لنوال السعداوى" أو "إن ما تكتبه على رأس قوائم قراءاتنا ومحاضراتنا".

وإلى جانب توسيع أفق الرؤية من المستوى الوطنى إلى مستوى إقليمى يعلوه، ساندت نوال السعداوى جماعة أخرى من الناشطات فى كفاحهن^(٢٢)؛ فقد تأسست جماعة بنت الأرض فى المنصورة فى الدلتا المصرية، وتكوّنت من عدد من السيدات الشابات اللاتى شاركن فى مظاهرات ضد الغزو الإسرائيلى للبنان (١٩٨٢). وبينما تفرقت حركة التضامن الواسعة بعد فترة من الحملات ضد العدوان الإسرائيلى وجمع الأموال لضحايا ذلك العدوان، استمرت عضوات لجنة السيدات فى اجتماعاتهن، ونقلن بؤرة الاهتمام إلى قضايا المرأة، مثل توعية الفتيات المراهقات، وتعليم القراءة والكتابة، والتوعية القانونية، وحقوق المرأة فى الإسلام، إلخ...

وقد أصبح من الواضح من خلال مقابلاتى أنه على الرغم من الشعور بالعرفان بالجميل الذى عبرت عنه بعض السيدات اللاتى ساندتهن نوال السعداوى، فإن هناك إحساس بصعوبة العمل معها على أساس من روح الفريق. والصدام ما بين الأسلوب السلطوى والأسلوب الهرمى فى اتخاذ القرار من ناحية والتطلعات الديموقراطية من ناحية أخرى لا يقتصر على نوال السعداوى وعلاقتها بالناشطات الأصغر سناً، بل إنه يميز العلاقة بين الكثير من الشخصيات الأكبر سناً اللاتى يتميزن بجاذبية شخصية والجيل الجديد.

ووصفة عامة، فإنني وجدت أن الجيل الأصغر سنًا يتجه لإظهار قدر أقل من التقدير لدور نوال السعداوى وإسهاماتها مقارنة بالناشطات الأكبر سنًا. ومع ذلك، فإن ردود الأفعال السلبية المنتشرة التي ارتبطت باسم نوال السعداوى لم تلبث - في كثير من الأحيان - أن فقدت الأساس القائمة عليه عند استفساري عن الصلة الفعلية إما بأعمالها أو بشخصها، فغالبًا كان "ما سمعنا عنها" هو الرد الذي يبرر - في كثير من الأحيان - الآراء المعادية لها. وفيما يلي أحد الأمثلة :

لقد قرأت لنوال السعداوى، غير أن ما قرأته قليل؛ فلم أقرأ إلا تحليلها الاجتماعي للعصر الجاهلي، وأنا لا أحبها، ولا أوافق على كل ما تفعله، هي تتسم بصراحة زائدة تنقلب ضدها. وإنني أكره هذه العدوانية، وهي لا تتحدث إلا عن الجانب الجنسي، وإنني أشعر أن في ذلك بسطحية كبيرة. ولم أقرأ أياً من رواياتها. (نيفين هـ.)

وقد كان عدم توافر المعرفة بين الناشطات الأصغر سنًا بنوال السعداوى أمرًا ملحوظًا للغاية أثناء بحثي. ففي خلال الشهور الأخيرة من عملي الميداني، عادت نوال السعداوى إلى مصر بعد عامين من الإقامة والتدريس بالولايات المتحدة، وقد قدمت نوال السعداوى التفسير التالي لعدم معرفة الجيل الأصغر بها ولشيوع الأفكار الخاطئة حول كتاباتها: "لقد قرأت الحظر على عملي خلال الستينيات والسبعينيات، على الرغم من أن كتيبي لا تزال موجودة، وقد تعرضت للحظر أيضاً في عهدى السادات ومبارك. وقد كنت بالمنفى، ولم يكن لي وجود إعلامي في مصر، وهناك الكثير من الشابات اللاتي لم يقرأن أعمالى قط".

وقد عبرت نوال السعداوى عن غضبها وخيبة أملها أمامي في مناسبات عديدة، وبينما اتجه بعض من غضبها ضد الحكومة والإسلاميين، وهم من تسببوا في منفاها الاختياري، فقد تحدثت كثيراً عن الحركة النسائية الحالية:

نحن نرفض من سبقنا ونبدأ من الصفر؛ فلا يوجد تواصل، ولذلك فلا يوجد لدينا تاريخ. إن الحركة الوطنية لها تاريخ. ولا بد للتاريخ أن يُعرف، فلا بد من وجود صرح. والكل يتحدث عن هدى شعراوى، غير أنهم يخشون ذكر أى شخص آخر، وقد كانت محافظة وموالية للنظام، وكانت بورجوازية للغاية، وهؤلاء هن السيدات اللاتي يحترمنهن

النظام، ولا يوجد لدينا سوى التاريخ الرسمي؛ فلا يوجد تاريخ غير حكومي للمرأة، ومعظم ما كتبت كتبته بالعربية، غير أنني لا أذكر بالاسم إلا إذا سافرت للخارج، فعندما يتحدثون عن "رائدات" الحركة النسوية، فإن اسمي يُذكر. وتعكس تجربة السعداوى نقلة تعبر عن شعور الجيل الأقدم من الناشطات، اللاتي كافحن منذ البداية لحصول المرأة على حقوقها في إطار من الاتجاه الوطني والنضال ضد الإمبريالية، بأن الجيل الأصغر من الناشطات المهنيات قد أبعدهن عن الساحة ويتوازي شعورهن بالإبعاد مع تجربة الكثير من الناشطات الغربيات الأكثر ردايكانية، واللاتي لا يجدن أنفسهن في التيارات النسوية الأحدث. وفي مصر تزامنت نقلة الأجيال مع التحول الجذري للبنية المؤسسية التي قامت الحركة النسائية في إطارها؛ فعندما بدأت نوال السعداوى نشاطها مع جمعية تضامن المرأة العربية في الثمانينيات، كان تنظيمها ذلك واحداً من أولى الجمعيات التي تدعو لحقوق المرأة التي ظهرت على الساحة. وفي الوقت نفسه، نشأت مجموعة من المنظمات المستقلة على هيئة جمعيات ومؤسسات وأعلنت عن برامجها المختلفة، وبعض هذه المنظمات تدافع عن قضية المرأة، بينما يشكل بعضها الآخر كيانات لا سياسية للخدمات، ويرتبط المستوى المرتفع لتخصص النشاط النسائي بالبرامج التي تتأثر باتجاهات المانحين الذين يوجهون عملية التعبئة من خارج حدود مصر. ومع ذلك، فليس من العدل أن نقصر تعريف نشاط الجيل الأحدث على تأثير المانحين الأجانب وبرامجهم. كما تشارك الناشطات الأكبر سناً، بمن فيهن نوال السعداوى في العمل الشاق للحصول على التمويل والموارد.

وقد كانت الأسباب التي دعت وزارة الشؤون الاجتماعية لحظر نشاط جمعية تضامن المرأة العربية موضع الكثير من الجدل. وتتذكر منى حلمي، وهي ابنة نوال السعداوى، الاتهامات التي وُجّهت ضد الجمعية بوصفها عنصراً استمر طوال وجود المنظمة: "لقد اتهمنا بالتفرقة ما بين الرجال والنساء، وبعدم الاهتمام بالقضية الوطنية والوضع الطبقي، وإننا لا نهتم سوى بالجانب الأبوي، كما اتهمنا بالتأثر بالغرب. وقد اتهمونا بأننا إسلاميون، كما اتهمنا بالخروج على الآداب العامة، والفساد الأخلاقي، والتغريب. وقد اتخذ اليساريون والإسلاميون مواقف ضدنا، وقد اتهمونا بعكس ما كنا ندعو إليه في ندواتنا وكتابتنا".

وقد كان هناك من يرى أن الاتجاه النسائي لجمعية تضامن المرأة العربية "شديد الوضوح ويميل للمواجهة، وينتقد المواقف الإسلامية عن النوع بصراحة لا حد لها" (Badran, 1993:142). وترى كثير من السيدات اللاتي أجريت معهن مقابلات، حتى هؤلاء اللاتي اعترضن على حظر الجمعية، أن الأمر لا صلة له بمحتوى ندوات نوال السعداوى، وكتاباتها، وكلماتها، وإنما كان الشكل الفعلي للجمعية هو الذي جعل منها هدفاً سهلاً، وتشير بعض الناشطات إلى نقص مهارات نوال السعداوى الإدارية والتنظيمية، الأمر الذي تسبب في أن يؤخذ هذا النقص ضدها عندما شعرت الحكومة بالتهديد الذي يحمله خطابها.

ومع ذلك، فإن الكثير ممن انتقدوا نوال السعداوى ومنظمتها اختلفوا حول أسلوب حل الجمعية، الأمر الذي أشعل الجدل المستمر حول القانون رقم ٢٣، وأدى إلى تكوين تحالف أطلق عليه: "لجنة تغيير قانون الجمعيات" (D. Sullivan, 1994:35) (٢٣).

وتستمر بعض القوانين، وخاصة قانون الجمعيات رقم ٢٣، الذي صدر في عهد عبد الناصر أول الأمر، منظمة لتأسيس الجماعات التطوعية، والجمعيات، والمنظمات تحت إشراف وزارة الشؤون الاجتماعية، وتلزم هذه القوانين الناشطات بالعمل إما كجماعات غير رسمية أو كمنظمات يجرى تسجيلها رسمياً وتخضع لرقابة وزارة الشؤون الاجتماعية.

ويختلف مستوى الرقابة وفقاً للمناخ السياسي؛ إذ تفرض الساحة الدولية قيوداً على تأثير سلطة الدولة على مؤسسات المجتمع المدني التي تمارس نشاطها من خلال رقابة وزارة الشؤون الاجتماعية، وعلى العشوائية الظاهرية التي يُسمح للمؤسسات للعمل على أساسها، وقد أصبح تأثير المجتمع الدولي أكثر ضغطاً خلال التحضير لمؤتمر الأمم المتحدة الدولي للسكان والتنمية في القاهرة (سبتمبر ١٩٩٤) ومنتدى المرأة الدولي في بكين (سبتمبر ١٩٩٥). وقد شهدت الجمعيات الأهلية المصرية في العام السابق على انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للسكان والتنمية تخفيفاً للتوتر في علاقاتها بالحكومة، وذلك باعتراف الحكومة ودعمها للجنة وطنية من الجمعيات الأهلية لحضور ذلك المؤتمر، وقد انعكس الغموض المستمر لنظام مبارك تجاه حقوق المرأة في اشتعال الجدل المستمر حول قانون ٢٣ خلال التحضير لمنتدى بكين. (٢٤)

وقد قررت الحكومة المصرية فى عام ١٩٩٨ فى إطار من الضغوط المتزايدة للجمعيات الأهلية داخل مصر فضلاً عن المنظمات الدولية المانحة بالخارج اقتراح تغييرات على القانون موضع الجدل. ومع ذلك، فكما يشير بحث عن موقف الجمعيات الأهلية المصرية تجاه مسودة قانون الجمعيات رقم ٣٢، فإن التعديلات المقترحة لم تستهدف سوى "إحكام رقابة الحكومة على المنظمات غير الحكومية، وذلك بسد الثغرات الموجودة فى القانون رقم ٣٢ لعام ١٩٦٤، وامتداد القانون ليشمل ويخلق كافة أشكال العمل المدنى" (٢٥).

وقد أطلق التأثير المتزايد للوكالات والأجهزة الدولية جدلاً حامى الوطيس حول الروابط الخارجية للمنظمات التى كانت تتمتع سابقاً بالاستقلال. وفى الاستعراض الذى ورد فى المقدمة لهذا الكتاب، رأينا أن "العمل الجماعى الموجه" ينطبق على تلك الحالات التى تاتى فيها المبادرة والسلطة من الخارج وتعلو على النشاط الجماعى نفسه" (Molyneux, 1988:229). وبينما يتسع المجال بدون شك للمفاوضات حول الأهداف والوسائل، فمن الواضح أن الحركة النسوية الدولية، وكذلك برامج الوكالات المانحة تؤثر بالفعل على الحركة المعاصرة فى مصر وتوجهها جزئياً. وتأخذ هذه العلاقة أشكالاً متعددة وقد تكون علاقة تبادلية فى بعض الحالات. ويتمثل أحد تأثيراتها الأساسية فى إضفاء الصبغة المهنية على قطاع الرعاية الاجتماعية التطوعى فى السابق، فقد أصبح النشاط النسائى "مهنة" فى مصر المعاصرة، حيث ظهر مجال جديد للتوظيف داخل الإطار الأوسع لحركة الجمعيات الأهلية. ولسوء الحظ، فإن المهنية تتضمن التنافس على فرص العمل، وإمكانات التمويل، ومنح السفر فى أغلب الأحيان، وهى أمور تؤدى بدورها إلى الحقد والغيرة.

كما تركت الساحة الدولية وعلاقات القوى داخل الدولة أثرها على التصورات الإسلامية لحقوق المرأة. فقد تمكنت أعداد متزايدة من الناشطات الإسلاميات من رفع صوتهن داخل الخطاب الإسلامى العام وقد انتقدن وتحدين زملائهن الذكور لإساءة تفسير الإسلام. ٦٢ وقد استكشف بعض الباحثين قضية الاتجاه الإسلامى وحقوق المرأة، غير أنني لا أود أن أعيد ما قالوه فى هذا المقام (Badran, 199-1, 1994; El-Gulndy, 1983; Karam, 1993, 1994, 1998; Zuhur, 1992) ومع ذلك، فإننى أود أن أعرض باختصار لبعض اتجاهات الناشطات الإسلاميات.

وتكشف الكتابات أن معظم السيدات الشهيرات ظلن يحتفظن بموقف مبهم تجاه ما يشكله الدور المناسب للمرأة في تصورهن لنولة ومجتمع إسلاميين، ومنهن على سبيل المثال : زينب الغزالي، ذات الاتجاه الإسلامي البارز ومؤسسة جماعة السيدات المسلمات (١٩٣٦)، وصافيناز كاظم الكاتبة الصحفية، واليسارية السابقة التي أعلنت التزامها بالإسلام في السبعينيات؛ فبينما لم تجد زينب الغزالي ولا صافيناز كاظم تناقضاً ما بين مشاركة المرأة العامة (في التعليم والعمل) وحياتها الخاصة داخل المنزل (كأم وزوجة)، فقد ظلتا معاديتين للاتجاه النسوي (Badran, 1994:209).

وقد اتسم جيل جديد من السيدات الإسلاميات بصراحة فائقة وباتخاذ مواقف المواجهة حول رؤية الدور الذي تلعبه المرأة في نولة إسلامية، فهن يؤكدن على توافق الإسلام والمعايير التي وضعتها الأمم المتحدة لحقوق المرأة، ويشرن إلى التراث الممتد من العصر الجاهلي بوصفه مسئولاً عن التفرقة ضد المرأة (Ahmed, 1992). وعلى سبيل المثال، فإن زينب رضوان، أستاذة الفلسفة الإسلامية بجامعة القاهرة ومؤلفة كتاب "الإسلام وقضايا المرأة"، قالت لى إنها تود أن تنشر ما تؤمن به فى مقالات بالصحف، وفى محاضرات عامة، وفى برامج التليفزيون، وفى محاضراتها بجامعة القاهرة. وهى ترى أن حركة تحرير المرأة التى أطلقتها هدى شعراوى لم تتناول من القضايا سوى التعليم والحجاب، وقد فشلت فى تناول حقوق المرأة ووضعها فى الأسرة وهى أمور ترى زينب رضوان أن الإسلام قد حددها بوضوح.^(٢٧)

وبلا شك تعد هبة رؤوف عزت، إحدى الشابات والناشطات الإسلاميات، الأكثر صراحة فى دعوتها لانطلاقة حركة نسائية إسلامية. وتشعر هبة رؤوف عزت بتقارب مع المعتدلين من بين الإخوان المسلمين، وليس مع الاتجاهات الراديكالية، وهى تعبر بوضوح عن هدفها ألا وهو تغيير المجتمع من الداخل حتى تتحقق رؤيتها فى إقامة دولة إسلامية. وقد اختارت هبة رؤوف عزت الاجتهاد، وإعادة تفسير المصادر الدينية والقيم التقليدية، وفحص التاريخ الإسلامى، وسائل لتطوير نظرية إسلامية لتحرير المرأة.

وترفض هبة رؤوف عزت إطلاق اسم ناشطة نسوية عليها؛ إذ إنها ترى أن الاتجاه النسوي "معاد للرجل" ورافض للدين (Badran, 1994:213). غير أنها لا ترفض

الاتجاه النسوي رفضاً مطلقاً، بل إنها تعترف بأن النساء لم يتمكن في واقع الأمر من الحصول على حقوقهن في المجتمعات الإسلامية، الأمر الذي يفسر نجاح الحركات النسوية "الغربية" داخل مصر (ibid.: 214). وتقول هبة رؤوف:

لقد اعتبر الإسلاميون دائماً تحرير المرأة فكرة غربية، وقد منعهم ذلك من تقديم تفسيراتهم الخاصة حول مشكلات المرأة. وقد جان الوقت لانطلاق حركة جديدة لتحرير المرأة - حركة إسلامية، لا تقتصر على النساء المسلمات والمجتمعات الإسلامية، بل تتخطاهن للمرأة في كل مكان؛ فإذا كان الإسلام ديناً عالمياً وأسلوباً للحياة، فإن هذه الحركة يجب أن يكون لها أهداف عالمية. ويجب أن تسير موازية للتحرر الاقتصادي والسياسي من السياسة الاستعمارية للنظام العالمي الرأسمالي الجديد. (MERIP, Nov./ Dec. 1994, p. 27)

ويقع البحث على "الأصالة" ورفض "الشنوذ الغربي والسلوك غير الأخلاقي" مثل قبول الشنوذ الجنسي في بؤرة اهتمام هبة رؤوف (Karam, 1988:222). وترى عزة كرم أن الإسلاميات الثلاث: هبة رؤوف، وزينب الغزالي، وصافيناز كاظم مسئولات عن استمرارية الفكر الإسلامي المنقسم "بكل ما ينتج عنه من إبعاد فكر "الآخر" ألا وهو "الغرب" (ibid.: 231).

خاتمة

لا يمكننا تلخيص "إحياء" النشاط النسائي في الماضي القريب في كونه فعلاً دفاعياً مضاداً لدعوة الإسلاميين لعودة المرأة للمنزل، حتى وإن عزز "مناخ الخوف" من الجهود الرامية لتنظيم سيدات الطبقة الوسطى العلمانيات. ومن الأهمية بمكان تأكيد أن موجة النشاط المناصر للمرأة في الماضي القريب - بالإضافة إلى التعبير عن أفاق ومطالب جديدة تتصل بقضايا مثل المشاركة السياسية للمرأة، ومساواة المرأة بالرجل في محل العمل، والقضايا الأكثر حساسية المتعلقة بحقوق المرأة الإيجابية، والعنف ضد المرأة - قد جرت أحداثها في سياق عالمي عابر للبلدان على نحو كبير، الأمر الذي شعرت معه الحكومة بضغط الدوائر الدولية كي تثبت التزامها بالمساواة بين الجنسين. أضف إلى ذلك، أن تعبئة الموارد والأشخاص قد جرت حول المؤتمر الدولي للسكان والتنمية (سبتمبر ١٩٩٤) ومنتدى المرأة العالمي (سبتمبر ١٩٩٥).

وفي بعض الحالات بدا وكأن بعض الأشخاص قد اجتمعوا بصفة مؤقتة استجابة لإمكانات التمويل التي تقدمها البرامج الدولية، ثم تفرقوا من بعد انتهاء كلا المؤتمرين. غير أن هناك بعض الشبكات التي تحافظ على توجه لمعالجة القضايا مثل حملة مكافحة ختان الإناث، وشبكة المنظمات التي تعمل في مشروع يُطلق عليه المرأة والعنف لم تستمر فحسب، وإنما بدت محافظة على قوة الدفع الخاصة بها. وفي واقع الأمر فإن هذه الشبكات المهتمة بقضايا متنوعة تمثل شكلاً تنظيمياً جديداً في تاريخ الحركة النسائية من حيث إنها تقوم على روابط بين الجمعيات تحافظ فيها تلك الجمعيات على استقلالها، وإلى حد ما، تعترف بوجود الخلافات بينها، فعلى سبيل المثال يضم مشروع المرأة والعنف جماعة مستقلة للدفاع عن حقوق المرأة، وجمعية استشارات قانونية، وجمعية دفاع عن حقوق الإنسان، ومركز لضحايا التعذيب ومنظمة أهلية للصحة.

وقد انتُقص من قدر الناشطات المصريات عبر تاريخهن من قِبَل دوائر مختلفة وذلك بوصفهن بالعميلات للغرب الاستعماري، أو الإمبريالي، ويكمن في جوهر بعض هذه الهجمات نقص الدور المسند للمرأة المصرية. ومع ذلك، فإنَّ الكفاح لتحسين وضع المرأة وإعادة تعريف دورها لا تحتكره السيدات الغربيات وحدهن، ولا يعد الكفاح ضد الظلم الاجتماعي مجالاً يحتكره الرجال الغربيون وحدهم. فقد كان للناشطات المصريات، بغض النظر عن اختلافهن في الاتجاهات الإيديولوجية، دور فعال في سياقهن الثقافي والاجتماعي والسياسي. وإنَّي لأعجب دائماً من الاستمرار في الانتقاص من قدرهن على أساس من انتمائهن الطبقي وروابطهن بالثقافة والتعليم الغربيين، بينما لا يبدو أنَّ الناشطين من الرجال لا يتعرضون لمثل هذا القدر من التدقيق فيما يتصل بوضعهم الطبقي أو خلفيتهم الثقافية.

غير أننا يجب أن نتخطى المفاهيم التي تشير على سبيل المثال إلى أن "الحركة النسائية المصرية ليست نصاً فرعياً من الاستعمار أو "الخطاب الغربي"، بل إنها خطاب مستقل اشتبك في صراع مع النظام الأبوي المحلي، والسيطرة الاستعمارية الأبوية" (Badran, 1995:24). فلعل الوقت قد حان كي نتخطى عن الحاجة للوقوف موقف الدفاع، وأن نحرر أنفسنا من الحاجة لإضفاء الشرعية على الحركة النسائية من خلال إثبات استقلالها عن الفكر الغربي. ولا شك أننا في حاجة لمنهج جديد وبناء يفتح المجال أمام الجدل الثقافي والإيديولوجي الذي لا ينتج بالضرورة كتلة ثابتة تفرض قيودها، وإنما يسمح بمواقف للاختيار، والتمثل، وإعادة الصياغة، فضلاً عن الابتكار. وبدلاً من التمسك بتصورات جوهرية عن "الثقافة" و"الهوية"، فإنَّ التحليل الذي يقدمه منهج ما بعد الاستعمار، والذي يؤكد المزج والحركة والتبادل، يقدم منهجاً بناءً يفضّل دعاوى الأصالة.

وقد أصبحت إعادة تعريف أدوار النساء وتقييم أدوارهن وأوضاعهن أحد السمات المميزة لتاريخ مصر المعاصر، وتكشف النظرة الثاقبة لهذا التاريخ أن أكثر التغيرات أهمية عند إعادة تعريف هذه الأدوار والأوضاع قد وقعت خلال تلك الفترات التي مرَّت فيها البلاد بأزمات سياسية، أو اجتماعية، أو اقتصادية (Nelson, 1984:223-4) فثورة ١٩١٩، والحصول على الاستقلال عام ١٩٢٣، وثورة ١٩٥٢، وهزيمة ١٩٦٧،

وحرب أكتوبر ١٩٧٣، وسياسات الانفتاح عام ١٩٧٤، وتأثير الخطاب الإسلامى ونمو النشاط الإسلامى فى الثمانينيات، والأزمات الاقتصادية المستمرة وزيادة تأثير الوكالات الدولية فى التسعينيات، كلها كانت فترات انتقالية هامة فى تاريخ البلاد، فضلاً عن علامات طريق هامة للحركة النسائية.

ولا تُعدّ الدولة بعيدة عن كونها بناءً متجانساً يتسم بالثبات فحسب، بل إنّ علاقتها بالمنظمات النسائية تختلف باختلاف السياق، وتسير سياسات الدولة ودورها المتغير فى مواجهتها لقضايا النساء فى خط مواز للضغوط المستمرة التى تبذلها النساء على الدولة لتستجيب لمطالبهنّ وحاجاتهن (Hatem, 1992:248). وتمثل الدولة المصرية تهديداً للمنظمات النسائية كما أنّها تمد هذه المنظمات بالموارد. وتقدم صياغة كوندل Connell الفكرية للدولة التى تجسد "النظم القائمة على النوع" وتقييمها، أداة تحليلية نافعة لفهم العلاقة الغامضة والمتغيرة ما بين الحركة النسائية المصرية والدولة. (Connell, 1990) وقد شاركت الدولة المصرية عبر تاريخها فى إقامة مفهوم النوع من خلال سياساتها ونصوصها القانونية، ويُعد قانون الأحوال الشخصية مثلاً على ذلك لما يظهره من نور الدولة الغامض فيما يتعلق بالعلاقات بين الجنسين، وتستطيع الدولة أن تتحدى العلاقات القائمة بين الجنسين (بتعديل قانون الأحوال الشخصية المحافظ، ومنح النساء حقوقاً أكثر فيما يتصل بالزواج، والطلاق، وحضانة الأطفال)، أو يمكنها أن تعزز من العلاقات التى تلحق الظلم بالنساء (بالغاء القوانين المعدلة).

وكما أشارت مارجو بدران من قبل فإنّه "ثبت أنّ هناك متسعاً فى مصر للخطابات المتنافسة للدولة، والإسلاميين، والناشطات فى مجال حقوق المرأة فيما يتصل بـ"قضية المرأة" (Badran, 1994:205). وفى التسعينيات تزايدت حاجة الدولة وأنصار الاتجاه النسائى لمتابعة النشاط الاجتماعى والسياسى الإسلامى وخطابه ومطالبه. وفى تلك الأثناء، اتجهت الجهات القائمة على نشر العولمة، وأعنى بها الدوائر الدولية لصانعى السياسات، ووكالات التنمية، والمنظمات التابعة للأمم المتحدة، هى أيضاً لتشكيل النشاط النسائى المعاصر.

الهوامش

(١) تستخدم راي Rai، مثلها في ذلك مثل غيرها من نقاد ما بعد الاستعمار، تعبير "العالم الثالث" كمصطلح لـ "المعارضة السياسية، فضلاً عن إشارتها للتجربة التي مرت بها هذه الدول تحت الاستعمار" (Rai & Lievesley, 1996:2).

(٢) تدير الجمعيات الإسلامية التطوعية الخاصة مدارس كبرى، ومستشفيات، ومنظمات خيرية، وتقدم الجمعيات المرتبطة بالمساجد خدمات اجتماعية مثل نور الحضارة، والعيادات الطبية، والمراكز التعليمية. وقد حلت شبكة المؤسسات والجمعيات الإسلامية الكثيفة محل خدمات الضمان الاجتماعي التي تقدمها الدولة (Zaki, 1995:63)

(٣) لم يتوافر لدى العضوات المؤسسات المعرفة بالجمعية الخيرية التي تحمل اسم جمعية المرأة الجديدة والتي أسستها مجموعة من السيدات اللائي ينتمين للطبقتين العليا والوسطى بعد انطلاق المظاهرات الوطنية في عام ١٩١٩ .

(٤) القنصل العام البريطاني في مصر.

(٥) كان رفاعة الطهطاوي هو أول شيخ يصاحب أكبر بعثة دراسية أرسلها محمد علي للدراسة في فرنسا. وعلى الرغم من أنه أوفد بصفته إماماً وليس طالب علم، فقد أتقن الفرنسية، وقرأ بها الكثير من الكتب في موضوعات متعددة مثل الفلسفة، والتاريخ، والجغرافيا، ويمكن تتبع تأثير فلسفة التنوير الفرنسية في كتاباته التالية (Hourani, 1983:65-83).

(٦) ويعد "منتدى المرأة والذاكرة" ويضم مجموعة من الباحثات في الاتجاه النسائي استثناء من تلك الملاحظة، وتنشغل تلك المجموعة من الباحثات بإعادة تفسير التاريخ، وتتضمن قراعتن للتاريخ النظر بعين الاعتبار لإسهامات النساء في التنمية الفكرية والثقافية في مصر.

(٧) اتسمت مؤسسات صحافة المرأة بالتنوع الديني والعرفي الذي يعكس التركيبة المتنوعة للمجتمع المصري والعربي. وقد عرضت صحفهن وجهات نظر متعددة. وترى بارون أنهن "كنّ دون ما شك واعيات بالخطاب العربي الاستعماري، وخاصة الخطاب المتصل بالنوع، غير أنهن لم يتأثرن بهذا الخطاب تأثراً كاملاً" وأنهن "عالجن قضايا تتصل بالثقافة، والهوية، والتغيير". (Baron, 1994:7-8)

(٨) تقدم كومارى جاياواردانا Kumari Jayawardena فى آخر أعماله : العباء الأخر للمرأة البيضاء:
النساء الغربيات وجنوب آسيا أثناء الحكم البريطانى The White Woman's Other Burden: Western
Women and South Asia during British Rule (1995) زاوية جديدة ومثيرة. فهى تبحث الصراع النسوى
والمعادى للإمبريالية الذى تحملته النساء الغربيات المقيمت فى جنوب آسيا أثناء الاحتلال على نحو يخل من
الجدل حول الشرق فى مواجهة الغرب والذى يدور رحاه بين المستعمرين والمستعمرين سابقاً.

(٩) أسست هدى شعراوى الاتحاد النسائى المصرى فى عام ١٩٢٢ واحتوى جدول أعماله على
المناداة بالحقوق السياسية للنساء، وإجراء تغييرات فى قانون الأحوال الشخصية (وخاصة فيما يتصل بوضع
القيود على الطلاق وتعدد الزوجات)، وإتاحة الفرصة للفتيات للحصول على المساواة فى حق التعليم الثانوى
والجامعى، وزيادة فرص العمل للنساء. وقد اتسم نشاط الاتحاد بالتفاعل الحر والصراع ما بين الاتجاه
النسائى والاتجاه الوطنى.

(١٠) بدأت الخطة الموسعة للإصلاح الاجتماعى بحملة ضد الأمية بين النساء البالغات، وقد أسست
"بنت النيل" مراكز فى القاهرة، والإسكندرية، وعدة مدن فى الدلتا حيث جرى تعليم النساء القراءة والكتابة،
ومبادئ الصحة العامة، وإمكانات زيادة الدخل (Khater & Nelson, 1988).

(١١) نُشرت بسيرة درية شفيق عندما كنت أنهى بحثى فى القاهرة.

(١٢) اختصار اسم "الجامعة الأمريكية بالقاهرة"

(١٣) يضع القانون رقم ٢٢ قيوداً على تشكيل المنظمات التطوعية وأنشطتها (على سبيل المثال جمعيات
المرأة وحقوق الإنسان) فى مجالات نشاط محددة، كما يحدد عدد الأعضاء المسموح بهم، وعدد المنظمات فى
إقليم معين، وكذلك مسك دفاتر الحسابات، ونظام المحاسبة والتمويل، كما يمنح القانون رقم ٢٢ الحكومة الحق
فى التدخل لإلغاء قرارات مجالس إدارات تلك المنظمات أو حتى حل تلك المجالس بأكملها، وقد كان القانون
نفسه هدفاً لحملة قام بها دعاة حقوق الإنسان فى السنوات الأخيرة، وفى مايو ١٩٩٩ أصدرت الحكومة
المصرية قانوناً أكثر تضييقاً على تلك المنظمات ويتسم بقدر أقل من الديمقراطية مقارنة بمشروع قانون
الجمعيات الأهلية لعام ١٩٩٨، وهى القانون الذى رفضته الجمعيات الأهلية المصرية والشركات المدنية. انظر
<http://www.geocities.com/~lrrc/NGO> لمعرفة التفاصيل حول القانون الذى صدر مؤخراً والحملة التى
قامت ضده.

(١٤) لم يقتصر تأثير الانفتاح على إعلان سياسة الخصخصة الاقتصادية والسوق المفتوح، وإنما
امتدت نعمة حرية التجارة إلى الحكومة، والإدارات، وشئون الهجرة، والسياسة الخارجية، الخ. (Ayubi,
1991:17).

(١٥) لم يتم تعيين النساء فى كثير من الأحيان على أساس أن تكلفة وجودهن بالعمل كبيرة على أساس
من مزايا الأمومة ورعاية الطفل التى وفرتها القوانين التقدمية فى الخمسينات والستينات.

(١٦) أنظر (Hatem 1992, 1994) لمراجعة وصف متعمق لتحول النولة المصرية من عهد عبد الناصر
إلى عهد السادات، والتأثيرات المختلفة لذلك على النساء.

(١٩) عادة ما ينسب التمسك بالمظاهر الدينية بين المصريين إلى هزيمة مصر أمام إسرائيل في حرب ١٩٦٧ (Ahmed, 1992:216).

(٢٠) يُطلق مصطلح De-Nasserization (هدم الناصرية) على محاولات نظام السادات إضعاف الأجهزة والنخبة الناصرية القوية، وتشويه نظامه وذلك لكسب الشرعية.

(٢١) ومن بين مظاهر وجودها في الحياة العامة: تأسيس مدارس ومستشفيات ومصارف وجمعيات خيرية إسلامية. وفي المجال الخاص نرى تزايد الحرص على تأدية الطقوس الدينية والتأكيد على "القيم الإسلامية" مما أثر بصفة خاصة على المرأة (Zaki, 1995).

(٢٢) إلى جانب جمعية تضامن المرأة، بدأت عدة جماعات رسمية وغير رسمية في الظهور في منتصف الثمانينات: على سبيل المثال: جمعية بنت الأرض، والمرأة الجديدة، وجمعية الاتصال لتعزيز وضع المرأة في مصر، ورابطة المرأة العربية.

(٢٣) لمناقشة مفصلة للقانون رقم ٢٣، انظر، S.E. Ibrahim (1996) و D. Sullivan (1994).

(٢٤) فضلت العديد من الجمعيات النسائية الالتفاف حول القانون رقم ٣٢ وتهديد الحل على يد وزارة الشؤون الاجتماعية، فتقدمت للتسجيل للشهر العقاري بوصفها مراكز بحثية أو شركات غير ربحية، في مقابل الجمعيات الأهلية والجمعيات التطوعية. وبذلك تمكنت من تجنب رقابة وزارة الشؤون الاجتماعية والقيود التي تفرضها.

(٢٥) "دفاعاً عن استقلال الجمعيات المدنية" هو عنوان البحث الذي أعدته الجمعيات الأهلية عن مسودة قانون الجمعيات (٢٧ مايو ١٩٩٨).

(٢٦) صاغت مارجو بدران تعبير "نشاط النوع" gender activism لوضع تصور للنشاط الذي "يتخطى الحدود الإيديولوجية للاتجاه النسائي الذي يستخدم لغة سياسية كما يتخطى الاتجاه الإسلامي"، ويشكل "استجابة المرأة التي تقرر بنفسها كيفية رسم سلوكها في المجتمع" (Badran, 1994:202).

الفصل الثالث

الذات وتعاقب الأجيال

خبرات شككت الناشطات المصريات :

نعم ، إنَّه أمر مؤلم أن أتحدث عن ذلك ؛ ففي كل مرة أتحدث أشعر بعد ذلك بالانهيار. وفي كل مرة أحتاج إلى استعادة توازنى. وفي كل مرة أتساءل : هل مررت بالفعل فى ذلك كله ؟ هل وقعت كل تلك الأحداث على شخصى الحاضر؟ وفى نهاية الأمر: ما الرابطة الحقيقية ما بين "أنا الآن" و"أنا" فى الماضى ؟ فـ"أنا الآن" ستروى الحكاية، وهى حكايتها. وأنا لا أحكيها لك لتستخدميها فى بحثك فحسب ، وإنما من أجل "أنا الآن" كذلك ؛ فـ"الأنا" يجب أن تتخلص منها تماماً. يجب أن أحكيها الآن وأحملها كل اتجاهاتى المنحازة ورغباتى الخاصة. ولا أعدك بأنها حكاية موضوعية ، بل إنها ستكون ذاتية إلى أبعد الحدود ، وسيتعين عليك أن تتصارعى وإياها كي تحصلى على بعض النتائج المنطقية والعلمية ، وهذا هو ما يحتاجه بحثك بالفعل: المنطق، والتاريخية ، وأهم من هذين العنصرين: الموضوعية ؛ فهذه أنهار ثلاثة للثقافة المتمركزة حول الذكر. نعم، عليك أن تصارعى لأن حكايتى ستكون غير منطقية، وخارجة عن حدود التاريخ والمنطق. (سامية أ)

كنت جالسة على سرير سامية أ ، وقد ضمنت ساقى فى جلسة مستقرة، أحتسى النسكافيه الذى تعده لى كل مرة أتى لزيارتها، وأدخن سجائرها، وأقلب فى الصحف القديمة المصفوفة وجميع الكتب المتناثرة حولى فى كل مكان . وفى كثير من الأحيان كنت أنسى "الفرض" الرئيسى لزياراتى ؛ فقد نقلتني حكايات سامية لخبراتها فى كل مرة زرتها فيها إلى عوالم أخرى : الشقة التى قضت فيها سنوات عمرها الأولى مع

أمها وأبيها ، وكذلك مع زوجة أبيها الأولى وأطفالها، ولكآبة الشقة الأخرى التي انتقلت إليها مع أمها بعد وفاة والدها، والنظرات الفاحصة والتعليقات التي تصدر عن أقاربها، والملل و اليأس اللذين انتابها في خلال الفترة التي عاشتها في المملكة العربية السعودية ؛ حيث كانت أمها تحاول أن تتدبر نفقات المعيشة من خلال عملها كمدرسة ، وقد كانت موهبة سامية في رواية الحكايات ، والأسلوب الذي يتحرك به جسمها كلها، واستخدامها لصوتها، فضلاً عن محتوى حكاياتها وتفصيلها تأسرنى تماماً ، وفي كثير من الأحيان تركت في نفسي الأثر ذاته الذي عبرت هي عنه: الشعور بالدهشة: "فهل من خبرت كل تلك الأمور هي فعلاً نفس الشخص الحاضر أمامي؟"

وقد وافقت سامية ، ومعها تسع ناشطات أخريات، على تسجيل حكاياتهن بعد أن أجريت معهن عدة مقابلات ، وذلك لاستخدامها في مشروعى البحثي ، وكما ذكرت في المقدمة فإن معايير لاختيار تلك السيدات بالذات من مجموع ثمانين سيدة أجريت معهن مقابلات كانت تتصل ببعض العوامل "الموضوعية" مثل الاختلافات بين الأجيال، والاتجاهات السياسية، والانتماء لتنظيمات، فضلاً عن الانتماءات الدينية. ومع ذلك، فقد كانت العوامل "الذاتية" على نفس الدرجة من الأهمية: فقد كان من الضروري أن يحدث توافق ما بيننا، وقدر من الفضول الشخصي والاهتمام، ويجب أن يتولد هذا الشعور عند الطرفين. وقد اختارتني الناشطات اللاتي روين لى قصة حياتهن التي سجلتها بقدر ما اخترتهن أنا نفسي⁽¹⁾.

وقد صرت أنا وسامية صديقتين خلال الفترة التي قمت بها ببحثي ، ولم تلبث أن عرفت عن حياتي بقدر ما عرفت عن حياتها. وفي بعض الأحيان، كنت أشعر بعدم الارتياح، لأننى كنت أخشى أن تفسر اهتمامى بحياتها على أنه مجرد فضول باحث. وقد دفعتنى هذه الخشية إلى تخفيض هذا الدور فى علاقتنا، على الرغم من أن سامية بدا عليها أنها لم تكن لتمانع. ومع تنامى صداقتنا تزايدت صعوبة "القيام بالعمل" وتسجيل قصة حياتها. ألم تكن مناقشة رؤانا عن الاتجاه النسائي، أو حديثنا عن آخر الأخبار، أو قدر من النميمة فى بعض الأحيان، أو التشارك فى تخفيف الأمانا و "تعب قلوبنا"، ألم يكن كل ذلك أكثر إثارة ؟ ومع ذلك فكما سجلنا جوانب من قصة حياة سامية، فإنها كانت تشركنى وجهاز التسجيل فى أحداث تلك الحياة ، وخلافاً للسيدات

اللائى لم أكون معهن علاقة صداقة كعلاقتى بسامية، فإن سامية لم تقتصر على إخبارى بمهنة أبيها وأمها، ودورها فى تنشئتها، وتعليمها، وكيف شاركت فى النشاط السياسى عامة، وحقوق المرأة خاصة، ومستقبلها المهنى، وأسرتها، ومشاركتها فى الحركة النسائية ، بل تخطت كل ذلك لتحكى لى عن أحلامها، ومخاوفها، ومشكلاتها، وإحساسها بفقدان الأمان، واللحظات السعيدة والمؤلة فى حياتها. وبعد شهر من اللقاء والحديث عن حياتها، قالت لى:

هل تعرفين الآن لماذا وكيف أصبحت ناشطة فى مجال الحركة النسائية ؟ إن الاتجاه النسائى كان قائماً دائماً. كان قائماً عندما كرهت أن يرتفع صوت لتوبيخى، وأن أضرب ، وأن توجه لى اتهامات بشأن أمور لم أفعلها. لقد قلت "لا" وقتها فى مواجهة كافة الأوامر غير المنطقية ، وقلت "لا" للزواج التقليدى ، كذلك عندما صممت أن أخرج ، وعندما صحت رداً على الصياح الموجه لى . لقد كان ذلك الاتجاه قائماً جنباً إلى جنب مع توأمه ، ألا وهو الشعور بالذنب ، وكلا الشعورين موجود الآن. غير أنهما توافقا ويتعايشان سلمياً ، بل إنهما قد أخذتا زينتهما بكثير من النظريات ، والندوات ، والمؤتمرات ، والبحوث ، وورش العمل ، والمناقشات . ومع ذلك ، فالإحساس بالذنب يتقدم متتكرراً فى صورة الغضب والاكتناب. والآن أنا أعد نفسى ناشطة علمانية متشائلة^(٢) لا تشعر بعض الناشطات بالارتياح تجاهى ؛ لأننى لا ألتزم بالقواعد ، وليس فى نيتى أن ألتزم مستقبلاً .

ولكن كيف تحولت سيدات أخريات للنشاط النسائى ؟ وما الذى يتطلبه الأمر كى تشارك المرأة فى الكفاح للمطالبة بحقوق المرأة، وتستمر فى ذلك المجال على مدى فترة ممتدة من الزمن ؟ وماذا عن المسار الشخصى والسياق التاريخى ؟ وكيف تقوم العلاقات بين الناشطات ؟ وقد كانت هذه الأسئلة وأسئلة أخرى تتصل بها حاضرة فى ذهنى عند استماعى لسامية ، والسيدات التسع الأخريات اللائى أعطيتنى بصبر لمحات من حياتهن ، وتتطلب حكاياتهن المعقدة ، والمؤثرة فى كثير من الأحيان ، مساحة أكبر وفهماً أعمق مما تحتمله مساحة هذا الكتاب، غير أننى أرجو أن تقدم مقتطفاتى القصيرة بعض النظرات المتعمقة لمجموعة متنوعة من الخبرات ، والدوافع ، والحوافز التى أطلقت نشاط الحركة النسائية فى مصر.

شبكة المعانى

غير أنه يبدو أن انقساماً من نوع آخر قد تسلل إلى منهجنا من حيث لاندري ؛ إذ يعبر تشارلز رازليندهولم Charles Lindholm (1995:805) Lindholm تعبيراً حماسياً عن رأى مؤداه أن تسليط الضوء على الحكايات الشخصية والسير يعمل - فى كثير من الأحيان - ضد "أية إمكانية لإقامة نظرية أو عمل مقارن" ، وقد جاء رأيه هذا فى استعراضه لستة أعمال فى مجال "إثنوغرافيا الشرق الأوسط الجديدة " (Abu-Lughod, 1993a; Bowen & Early (eds.), 1993; Hammoudi, 1993; Messick, 1993; Munson, 1993) . ويقوم نقده بدون شك على اتجاه مقلق نجده داخل ما يسمى بدراسات الشرق الأوسط : ألا وهو عدم الاستعداد للنظر فيما وراء مجالها من حيث الإقليم ، ومن حيث مجال الدراسة النظرية والمنهجية . غير أن استنكار ليندهولم قد يكون قائماً على مشاعر القلق تجاه ما أكدت عليه ليلي أبو لغد فى دراستها للمجال الخاص ، كما هو واضح فى مقالتها الشهيرة "الكتابة ضد الثقافة" (1991) ، الأمر الذى يستبعد أى أساس للتعميم والمقارنات ، ويهدف إلى إنكار وجود أى نوع من الحدود "ما بين الذات والآخر ، والاستقلال الذاتى والمشاركة ، والوحدة والتعدد ، والذكر والأنثى ، والمساواة والخضوع " (Lindholm, 1995:818) . ولا يبدو أن تلك المعانى دارت بذهن ليلي أبو لغد (والكثيرات من المتخصصات الشباب فى دراسات الشرق الأوسط "كما يشير إليهن ليندهولم) عندما اقترحت تسليط الضوء على الأفراد وخصائص حياتهم (1993a:27) . فبدلاً من إقامة "الحجة ضد التعميم فى حد ذاته "فإن منهج أبو لغد يتطلب "رفضاً لإضفاء صفة الموضوعية والمعرفة اللامحدودة على التعميمات " (Jackson (ed.) 1996;19) فالروايات الشخصية والسير ، مثلها تماماً مثل المعلومات الإحصائية ، قد تستخدم كأدوات لمعرفة الأحداث التاريخية ، والعلميات السياسية ، والظواهر الاجتماعية ، طالما كان ذلك هو ما ينوى الباحث استخدامها فيه ، ويعد الخط الفاصل ما بين الخبرة الخاصة والجمعية خطأ يفتقر إلى التحديد الدقيق ومن الصعب رسمه ، وتقدم السياقات التاريخية ، وبعض الأحداث والخطابات السياسية ، خلفية للوعى والنشاط الفرديين ، كما أنها تعد المشهد لهما ، غير أن الوعى والنشاط الفرديين لا يمكن أن يتأثرا سلباً أو تحديداً بهذه العوامل ؛ إذ لا يوجد مجموعة ثابتة ومحدودة من القواعد ، بل توجد دائماً مجموعة من الاحتمالات .

وقد تلقى الحكايات الشخصية الضوء على عهود سياسية وتاريخية بعينها، وكذلك على النظرة السائدة للعالم وأنماط الأفعال ، وقد تصل هذه الحكايات إلى ذروتها حين تقدم خبرات تكتسب أهمية خاصة في تكوين وعي الشخص وأفعاله ومشاركته السياسية. وحتى إذا ما جرت المشاركة في هذه الحكايات ، فإن تلك "الخبرات التكوينية" قد جرت معاشتها وحكايتها على المستوى الفردي ويقدر كبير من التنوع . وقد عبّر مايكل جاكسون تعبيراً تدقيقاً عندما استعار الصورة الواضحة التي أبدعها ماركس: "إننا نجبر الظروف المتجمدة على الرقص عندما نغنى لها ألحانها" (ibid.: 1996:20)

وقد شكل الجدول ما بين الخبرات الخاصة والسياق التاريخي، أو الأحداث "الموضوعية" ، اهتماماً مستمراً لم يتم حسمه عند الكثير من المفكرين. وفي واقع الأمر ، يستمر الجدول ليصبح إشكالية كبرى في العلوم الاجتماعية ، وتتراوح التنويعات على هذا الموضوع ما بين التعبير عن مواطن التوتر بين الفاعل الإنساني والبنية (Giddens, 1979) ، والعلاقة ما بين علم الاجتماع والتاريخ وعمليات الـ structuration (Abrams, 1982) وبين قضايا الوعي الفردي والجمعي (Marx, 1959; Merleau-Ponty, 1962). ولا يتسع المجال في هذا الفصل لفحص هذا الجدول الذي اتسع نطاقه؛⁽³⁾ غير أنني أود أن أنقل عن موريس ميرلو-بونتي Maurice Merleau-Ponty الذي تؤكد فلسفته الظاهرية رؤيته للذات، وهي رؤية تتطلب تعايش وجهين للخبرة:

أن يوكد المرء فإن ذلك يعنى الولادة من العالم والولادة فى العالم . والعالم قد تم تشكيله ، غير أنه لا ينتهى استكمال ذلك التشكيل ، ففى المقام الأول ، نحن نخضع لما يجرى علينا ، وفى مقام آخر ، فإن أمامنا الفرصة لتحقيق عدد لا محدود من الاحتمالات ، ولذلك فإنه لا وجود مطلق للقدرية ، كما أنه لا وجود مطلق للاختيار الحر ؛ فأنا لست شيئاً كما أنتى لست وعياً مجرداً. وواقع الأمر أنه حتى مبادراتنا، وحتى ما وقع عليه اختيارنا من مواقف ، يترك بصماته علينا، ما أن يرتد إلينا كحالة لا كفعل ؛ فعمومية "الدور" والموقف تساعد فى اتخاذ القرار، وعند قيام هذا التبادل ما بين الموقف والشخص الذى يعالجه، يصبح من المستحيل أن نحدد بدقة "النصيب الذى أسهم به الموقف" و"النصيب الذى أسهم به الاختيار". (Merleau-Ponty, 1962:453)

واتفاقاً مع هذا الرأي ، فإن مفهوم "الذاتية" فى مقابل مفهوم "الموضوعية" يصبح خال من المعنى ؛ إذ إن الخبرات الفردية دائماً ما تتراوح ما بين الإحساس الشخصى بالذاتية أو بالموضوعية. أضف إلى ذلك أننا عندما نتعامل مع "الواقع" ، وندمج فى حياتنا اليومية، ونحاول أن نسيطر عليها وأن نتفاعل معها، فإن أفعالنا ذاتها تغير ما يبدو أنه من المعطيات الطبيعية أو الاجتماعية (Schutz & Luckman, 1989:1) ، ولذلك فإن السير يحكيها أشخاص تقع معرفتهم الشخصية وخبراتهم بذواتهم متصلة بالآخرين فضلاً عن كونها قد خضعت فى تشكيلها للظروف العامة ، فالسير الذاتية للمرأة وحكاياتها الشخصية لا تقتصر أبداً على مجرد ما هو خاص وذاتى ؛ "فالتصنيفات والمفاهيم التى نستخدمها لتأمل أنفسنا وتقييمها تتبع من سياق ثقافى" (Patai, 1991:18). وتُنشأ بالتالى هذه العلاقة المتشابكة السياق، أو "شبكة المعانى" التى نحيا فيها ونعمل .

وفى الفقرات التالية سأقوم باستكشاف الخبرات الفردية للناشطات والسياقات الفعلية التى شكلت وعيهن ، وعلى أساس من الحكايات العشر التى سجلتها ، وعلى أساس من مقابلاتى مع أكثر من ثمانين سيدة مصرية من الناشطات، أمكننى اكتشاف عدة فترات مميزة تمثل مجالات مختلفة للتفاعل، وخبرات تكوينية متباينة ، وقد أثرت هذه الفترات على أنماط مشاركة هؤلاء السيدات ونظرتهم للحركة النسائية ؛ إذ تؤكد السيدات اللاتى ينتمين للجيل الأكبر سنًا من الناشطات المصريات فى مجال قضايا المرأة (وهن فى العقد الثامن والتاسع من عمرهن) على مشاركتهم المبكرة المجتمع ومشروعات الرعاية الاجتماعية فى مصر قبل قيام الثورة ، ويمثل العهد الناصرى للتحويلات والخبرات الثورية فى ارتباطه بالنظام الناصرى فترة لاحقة لحشد الجهود يليها فترة من خيبة الأمل نتيجة لهزيمة ٧٦٩١ أمام إسرائيل (المرحلة السنية: العقد السادس والسابع). وقد ذكرت كثير من السيدات اللاتى التقيت بهن بعض الخبرات المرتبطة بالحركة الطلابية فى عهد السادات بوصفها خبرات على جانب كبير من الأهمية فى تطورهن الشخصى والسياسى (المرحلة السنية: العقد الخامس). وتتسم مرحلة الثمانينيات والتسعينيات بتزايد تأثير المنظمات الدولية والمنظمات المانحة، وبمشاركة الناشطات فى مشروعات تتلقى رعاية دولية، فضلاً عن الخبرات الشخصية بالظلم والاضطهاد (المرحلة السنية: العقد الثالث والرابع).

ولا شك أن الأنشطة الممثلة لفترات التعبئة هذه لا تخص كل فترة على حدة، كما أن هذه الفترات لا يفصل بينها خطوط محددة تحديداً قاطعاً. وسأعطى بعض الأمثلة للخبرات التكوينية التي تحمل دلالة خاصة لكل فترة من هذه الفترات، وذلك بفحص السير المختلفة. وإننى لا أنوى أن أوحى بأن هذه الخبرات تحدد تحديداً قاطعاً موقف المرأة تجاه الحركة النسائية ومشاركتها فيها، بل إننى أنوى أن أرسم صورة عامة لبعض الاتجاهات وأشكال الالتزام التي، وإن كانت تضرب بجذورها في تطورات تاريخية محددة، فإنها تمثل أيضاً اتجاهات راهنة ومصادر للتباين داخل حركة المرأة المعاصرة في مصر.

وسأستكشف أيضاً موضوعات تتكرر في الروايات المختلفة وتشكل الحياة اليومية والوعي السياسى لهؤلاء السيدات، وتؤثر عليهما. وفي هذا المجال سأتناول دور الآباء والأمهات، والعلاقات مع الأزواج، والمسئوليات تجاه الأطفال والأصدقاء، وسأحاول أن أوضح أنه بينما يتعين على النساء أن يكافحن على جبهات متعددة في الوقت ذاته، فإن علاقتهن بأقرب الناس إليهن قد تمثل عقبة في طريقهن مثلما قد تمثل مصدر قوة وتشجيع.

الرعاية الاجتماعية والنخبة في مجال العمل العام :

ترتبط المشاركة في الحركة النسائية بالنسبة للناشطات اللائى نشأن في العشرينات والثلاثينات ارتباطاً وثيقاً بالتزامهن بالعمل في مجال الرعاية الاجتماعية والأعمال الخيرية، وقد تلقت الكثيرات منهن تشجيعاً من آبائهن وأمهاتهن فضلاً عن أساتذتهن لـ"مساعدة الفقراء" و"القيام بأعمال لخدمة المجتمع" و"مد يد المساعدة للغير"، وتتذكر هدى أ، وهي ناشطة أمضت فترة طويلة من حياتها في العمل التطوعى في مصر، والنشاط المهني في الأمم المتحدة، أول صيف شاركت فيه في خدمة المجتمع: اتصف أبى بالليبرالية في منحه أمى الحرية الكاملة للانخراط في خدمة المجتمع. كما كانت أمى تشارك في الحياة السياسية، فقد كان تمارس أنشطة في الحركة النسائية الأولى التي التفت حول هدى شعراوى، وقد ساندتها الأسرة كلها، فقد كانت

اثنان من أقرب صديقاتها، وهما من بنى عمومتهما أيضاً، نشطتين فى حركة هدى شعراوي، وعندما شببت عن الطوق وبدأت أذهب إلى المدرسة فى القاهرة، وكنت قد بلغت الخامسة عشرة حينئذ، سألتنى أمى قبيل قدوم الصيف: "ماذا ستفعلن هذا الصيف؟" وأجبتها "سأستمتع بإجازتى"؛ فقالت لى "من الأفضل أن تنشغلى قليلاً وتقدمى المساعدة للغير". وقد ناقشت الأمر مع صديقات لى وبدأنا نفكر: "لماذا لا نخصص وقت الصيف لتعليم بعض الأطفال الفقراء فى حيننا؟" وكان والدى قد انتقلا إلى القاهرة فى ذلك الوقت، وكنا نساكن فى حى الزيتون فى بيت جدى، وكان له حديقة واسعة. وهكذا استقدمنا هؤلاء الأطفال الفقراء، وكنا خمس صديقات متطوعات صغيرات، وكان بعض الأطفال أكبر منا، واستطعنا أن ننقل إليهم ببساطة معنى النظافة و"لماذا نرُجل شعرنا؟ ونفسل وجوهنا؟ ونحتاج لتعلم القراءة والكتابة؟" كما اصطحبناهم فى رحلات قصيرة وأمضينا وقتاً سعيداً معهم. وفى ذلك الوقت كانت الزيتون منطقة شبه ريفية، وكان الأطفال يمرون من خلال الحقول كى يصلوا إلينا.

وكانت نادية م. من بين الصديقات اللائى اعتدن أن يقمن بأعمال تطوعية، وهى ناشطة فى مجال حقوق المرأة حالياً، وقد تعرضت نادية أثناء نشأتها لنشاط الرعاية الاجتماعية والأعمال الخيرية. غير أن أولى تجاربها المثيرة فى هذا المجال حدثت فى وقت متأخر عندما انتهت من دراستها بالمدرسة الثانوية والتحققت بوظيفة للتدريس لمدة عام فى الكلية الأمريكية فى القاهرة (كلية رمسيس حالياً)، وتقول نادية:

قبلت عرضاً للعمل كأخصائية اجتماعية؛ إذ إننى لم أكن أعمل كمدرسة على أساس دائم، وكان عملى فى جمعية أهلية^(٤) تعمل مع أسر مرضى الدرن الرئوى. وقد طلب منى الذهاب لجمع المعلومات عن هذه الأسر حتى يتسنى لنا أن نقدم لها المساعدة، وكان المرضى يعالجون فى مستشفى قصر العينى، وكانت مراحل مرضهم متقدمة، وكنت أجمع عناوين أسرهم وأجمع معلومات عنها، وكنت أولى عملى هذا اهتماماً كبيراً، وقد وقعت بعض الأحداث الطريفة أثناء قيامى به، وفى عصر أحد الأيام مثلاً - وكانت الساعة حوالى الثانية - ذهبت إلى الإمام الشافعى^(٥)، وكنت أجهل أموراً كثيرة، وكنت أبحث عن عنوان حصلت عليه وأمضيت عدة ساعات لأصل إليه، ثم دققت على أحد الأبواب وخرج شخص وسألنى عما أريد؛ فقلت له إنى أبحث عن مسكن وقدمت له العنوان. فقال لى إن ما أبحث عنه هو مقبرة. وفى ذلك الوقت،

فى عام ١٩٤٥ كان الناس يسكنون المقابر. وفى نهاية المطاف عثرت على الرجل الذى كنت أبحث عنه، ولكنه لم يكن فى تلك المقبرة. وكان الأمر مفرزاً، فقد مضى أغلب النهار وكنت أتحدى بسواريين من الذهب. وكنت وحدى وقد قيل لى فيما بعد إننى كان من الممكن أن أقتل. وعندئذ عاهدت نفسى ألا أتحدى بالذهب أبداً.

وقد نشأت نادىة وهدى مثلها مثل صديقاتهما الحميمات فى أسر تنتمى لعلية الطبقة الوسطى ، وهما يتذكران أن مشاركتهما الأولى فى نشاطات الرعاية الاجتماعية تضمنت اللقاء بالناس، وبأساليب للحياة، والعادات، والقيم التى بدت مختلفة اختلافاً كبيراً عما عهدا، وتعبر نادىة وهدى عن صدمتهما فى بادئ الأمر للهوة الواسعة التى تفصل ما بين حياتهما وظروف حياة "الفقراء". وفى بعض الأمثلة ، لم تقتصر تجاربهما إزاء هذا الاختلاف على وضعهما الاجتماعى، وإنما تخطته لتشمل انتماءهما الدينى ؛ فهدى ونادىة قبضيتان الأمر الذى ساهم فى التزامهما المبكر بالعمل التطوعى الذى كانت تشجعه الكنيسة القبطية بوصفه جانباً من الحياة الاجتماعية ، وتتذكر السيدتان نشاطهما فى مدرسة الأحد فى شبابهما. ومع ذلك، فإن هدى ونادىة تؤكدان أن الكثير من صديقاتهن المسلمات شاركن مثلهن فى نشاطات الرعاية الاجتماعية ، واهتممن بهذه النشاطات مثلهن تماماً.

وتبدو العلاقات ما بين المسلمين والمسيحيين فى سيرتهما الذاتية على نحو مختلف ؛ فتروى نادىة حادثة تراها مهمة فى تطورها اللاحق :

وقعت هذه الحادثة فى بولاق^(٦)، فى مبنى يسمى بـ"الربيع" ، وهو مبنى تمتد به ممرات غريبة، تُستخدم كشوارع، وكانت هناك أسرة فى كل حجرة . وفى إحدى هذه الغرف كان يرقد أحد مرضى الدرن الرئوى ، وقد ذهبت لتحرى المعلومات حول أسرته ، ودخل رجلان الحجرة وشرعا يتحدثان عن حادثة تسبب فيها أحدهما وهو يقود دراجته البخارية. وقال إنه صدم طفلة صغيرة. وسأله الآخر عن اسم الطفلة، وعندما ذكر الاسم اتضح أنها فتاة مسيحية. وقال له صديقه "إنها مسيحية، دعها تموت لتذهب إلى الجحيم" ، وعندما سمعت ذلك أصابنى الفزع ، ولم يكونوا قد عرفوا اسمى، وشعرت أنى يجب أن أهرب إنقاذاً لحياتى ؛ فلم يكن المكان آمناً. غير أن ما حدث ساعدنى حقاً أن أسلك مسلكاً يجعلنى أتواءم مع ذلك الأمر .

ولا تروى نادية هذه الحادثة كي تعبر عن شعور عام بالاضطهاد أو بالتهديد ؛ بل إنها تروى هذه الحادثة وغيرها كي توضح تطور قواها وطبيعة غضبها المتراكم وكفاحها التالي ، ويتصل عنصر آخر من عناصر إحساسها المبكر بالتهميش والدافع لمقاومة مختلف أشكال التفرقة بالتعليم الذي تلقتة في المدارس ؛ فتذكر نادية التي انتظمت في مدرسة حكومية ، في سنوات تعليمها الأولى كيف كان من في مستواها الاجتماعي يحتقر المدارس الحكومية. وتلقى تجاربها في المدرسة الحكومية وموقف أسرتها من التعليم بالمدارس الضوء على بعض القيم السائدة في ذلك العصر:

ظللت بالمنزل حتى سن السابعة ، ثم ارتديت الزي المدرسى ، وذهبت مثل أخواتي البنات إلى مدرسة تديرها الراهبات الفرنسيات . غير أن أمي ضاقت بالمدرسة ؛ لأن أخواتي أصبحن متدينات إلى حد بعيد ، وقد شجعتهن الراهبات على اتباع كافة الطقوس الكاثوليكية . وقد ضاقت أمي بذلك لأنها تنتمي إلى عائلة قبطية أرثوذكسية ، وأخرجت كل بناتها من المدرسة. وقد استحضرت لنا معلمين بالمنزل ، وقررت أنني لن أذهب إلا لمدرسة حكومية. وفي ذلك الوقت كان أفراد عائلتي يحتقرون المدارس الحكومية. وعندما كنت أقول إنني طالبة في مدرسة غمرة الابتدائية، كان الناس يطلقون تعليقات تشير إلى انزعاجهم. وقد جعلني هذا أقلد أخواتي وأعمل على تحسين لغتي الفرنسية، لأنني شعرت أنني منعزلة عن الأسرة. وقد ساعدني ذلك في مدرستي على التميز ؛ إذ إن الأمر لم يقتصر على كوني في مدرسة حكومية، وإنما لكوني وزميلة لى ، الطالبتين المسيحيتين الوحيدتين في الفصل. وعلى الرغم من أن ذلك العهد كان مختلفاً عن أيام التعصب الحالية التي نحيها، فإن المدرسين والمدرسات المسلمين اعتادوا أن يقولوا إن أسوأ صفاتي أنني مسيحية.

أما هدى ، فإنها تؤكد على العلاقة المتناغمة ما بين المسلمين والمسيحيين : "كانت فترة ما قبل الحرب زمناً اختلطنا فيه كلنا دون ما تمييز ؛ فقد كنا نحضر الفصول الخاصة بكل منا معاً. ولم يكن هناك انقسام كما هو اليوم ، ولذلك فقد كان النظام الدراسي عندئذ يساند الوحدة بين الأديان. وبالطبع فقد كنت محظوظة، فقد انتظمت في دراستي بمدرسة خاصة، وفيما بعد، انتقلت نادية إلى مدرسة خاصة وتزاملت وهدى في الكلية الأمريكية (كلية رمسيس حالياً). وقد امتد تأثير المدرسة الثانوية لما

وراء المناهج الدراسية، إذ تؤكد السيدتان أن قيم العدالة الاجتماعية، وخدمة المجتمع، والتسامح قد تم تشكيلها في الكلية الأمريكية.

وقد شجعت المدرسة، وأسرتنا هدى ونادية، وصديقاتهما، نظرتهما التي تتخطى حدود الوطن، منذ فترة مبكرة؛ فقد شهدت هدى ونادية أثناء نشأتها مناظرات حول العلاقات الدولية، والتطورات السياسية، والثقافات المختلفة في مدرستهما، بالإضافة إلى المعسكرات الصيفية في الإسكندرية، والمؤتمرات الطلابية في مختلف بلدان الشرق الأوسط وأوروبا، ومنزلي الأسرتين المفتوحين لزوار من مختلف أنحاء العالم، وقد أمضت السيدتان ردهاً من الزمن في الدراسة والعمل بالخارج في المحافل الدولية.

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية، انتهت هدى من دراستها بجامعة القاهرة، وقد أرادت أن تدرس بالخارج، ولما كانت الولايات المتحدة قد قدمت بعض المنح الدراسية، فإن هدى تقدمت وحصلت على منحة كاملة للدراسة بالخارج^(٧)، وقد أستمتعت هدى بدراستها في الولايات المتحدة في كلية برين مور إلى أقصى حد، وكانت أول مصرية تُقبل بتلك الكلية الشهيرة الخاصة بالفتيات، وقد كان ذلك في عام ١٩٤٧. وإلى جانب اتصالها بعدد متنوع من المقررات في مواد مختلفة، فقد تعرّفت لأول مرة على ميثاق الأمم المتحدة، وهو ما أثار فضولها لمعرفة المزيد، وقد ساعدها أستاذها على الحصول على فرصة للتدريب في قسم الشؤون الاجتماعية الذي أنشئ حديثاً بالأمم المتحدة، وبعد عام بدأت هدى دراساتها العليا. غير أنها اضطرت للعودة لمصر نظراً لوفاة والديها. وقبل عودتها، طلب إليها بعض من تدرّبت في مكاتبهم بالأمم المتحدة أن تبقى. "لقد طلبوا مني البقاء، لأنني كنت المصرية الوحيدة، ولكنني اعتذرت قائلة: لا، ينبغي أن أعود، فما زلت قليلة الخبرة، وقد تخرجت لتوى من الجامعة، ولا أعرف شيئاً عن مشكلات بلادي؛ فقالوا لي: ولكنك هنا كي تنظري من منظور دولي؛ فقلت: لا، ينبغي أن أعود وأستكمل دراساتي العليا في مصر".

وبعد ثلاث سنوات، عندما كانت هدى تعمل بوزارة الشؤون الاجتماعية، في عام ١٩٢٥، سافرت إلى الولايات المتحدة لحضور مؤتمر، وهناك عرضت عليها هيئة الأمم المتحدة مرة أخرى البقاء والعمل. وعندما رفضت هدى العرض هذه المرة، قوبلت

بإصرار: "طلبوا منى أن أتحدث مع رئيس الوفد، وكان رجلاً عظيماً؛ فقلت له: إنهم يعرضون علىّ وظيفة بهيئة الأمم المتحدة، فقال لى : اقبليها ؛ فقلت: ولكنى ملتزمة بعملى بوزارة الشؤون الاجتماعية ؛ فقال لى : استقيلي من الوزارة ، إننا فى حاجة إليك هناك". وقد شكّلت هذه اللحظة بداية عمل هدى بالأمم المتحدة على مدى واحد وثلاثين عاماً (١٩٥٣-١٩٨٤) .

ولا شك أن تاريخ هدى المهنيّ الناجح فى المجال الدولى فريد من نوعه من حيث امتداده الزمنى وعمق الخبرات التى اكتسبتها فقد شغلت مناصب متعددة، وتولت مهام مختلفة (خاصة فى أفريقيا وأوروبا) فضلاً عن عملها بالمقر الرئيسى للأمم المتحدة بنيويورك". غير أن كثيرات من صديقاتها عملن أيضاً على المستوى الدولى لبعض الوقت ، وهناك بعضهن مثل هدى ، كن أيضاً أول من "مثّل المرأة المصرية" فى وظيفة دولية ؛ فقد كانت نادية على سبيل المثال أول سيدة عملت فى منصب الأمين العام للحركة العالمية لمجلس الكنائس العالمى فى جنيف، وما يهمنى فى هذا المقام هو الصلة ما بين الفترة الأولى من بناء الدولة فى مصر فى عهد ما بعد الاستعمار وما بعد الثورة والثقافة التى تلقته هدى ونادية ؛ فقد سبق دخول هدى الأمم المتحدة، والتحاق نادية بالعمل فى جنيف الاستعانة بسيدات الطبقة الوسطى المثقفات لتلبية احتياجات الدولة فى توسيع نطاق درجات العمل الجديدة ، وقد كانت هدى ونادية تنتميان لنخبة الطبقة المتوسطة العليا المثقفة التى تزايد وعيها بواقع بلدها ومشكلاته ، وقد وفرّ نظام ما بعد الثورة خلفية مشجعة للعديد من السيدات المثقفات ليتحدين الأدوار التقليدية المتصلة بالنوع ، وتطابقت بدايات نادى هدى ومع النقلة التى تحوّلت معها النخبة التى كانت تظللها الحماية سابقاً وتشارك بصفة أساسية فى نشاط الرعاية الاجتماعية، لتصبح نخبة مهنية متفتحة على العالم من حولها.

وقد يُطرح تساؤل حول ما إذا كان انتماء هدى ونادية القبطى ساهم فى نظرتهم التى تخطت حدود الوطن، غير أنه من الواضح أن الكثيرات من صديقاتهن المسلمات تقلدن مهناً على المستوى الدولى أيضاً^(٨) وبينما تذكر نادى تجاربها ذات الصلة بمواقف التفرقة الدينية لقبطيتها، فإنها وكذلك نادى تؤكدان عدم انتشار أو عنف التوتر الطائفى والتمييز فى فترة شبابهما مقارنة بالعهود التالية ؛ ففي الثلاثينيات

والأربعينيات شارك المسلمون والأقباط بصفة عامة في بذل الجهد لتخليص مصر من السيطرة والتواجد البريطاني وقد وُصفت هذه الفترة في كثير من الأحيان بالعهد الذي اندمج فيه المصريون تحت راية تضمهم جميعاً: هي راية "الشعور الوطني والوحدة الوطنية" (Zaki, 1995:196).

لقد كانت المشاركة المبكرة في العمل التطوعي والخبرة المكتسبة في المجال الدولي جانبيين مهمين في مشاركة نادبة وهدى في أنشطة المرأة في أيامنا هذه . والآن فإنهما مثل زميلاتهن من نفس المرحلة السنوية ممن تقاعدن رسمياً، نجدهن أكثر انشغالاً، ويعملن بحيوية أكثر من ذي قبل ؛ إذ تشغل نادبة مقعداً في مجلس إدارة إحدى المنظمات الأهلية ، هي جمعية حماية البيئة ، وهي تعمل في مجتمع جامعي القمامة في تلال المقطم ، وقد شاركت أول الأمر في الرحلات الميدانية للتعرف على هذا المجتمع ، وقد حاولت نادبة فيما بعد أن تقيم روابط مع جمعيات دولية أخرى ، وأنشأت لجنة للصحة والتنمية. وقد كانت إحدى الناشطات الرائدات في مصر اللائى وجهن اهتمامهن لقضية ختان الإناث (التشويه الجنسي للإناث) ، وقد تقدمت إلى الصنفوف الأولى في الحملة ضد هذه العادة . وفي عام ١٩٧٦ ، كتبت نادبة بحثاً مهماً كان من ضمن أوائل الأبحاث التي كتبت حول هذه القضية ، وذلك بعد حصولها على منحة لمدة عام للقيام ببحوث في إنجلترا .

وخلال التحضير للمؤتمر الدولي للسكان والتنمية الذي عُقد في القاهرة عام ١٩٩٤ ، انضمت جمعية نادبة للجنة المنظمة :

صدر قرار وزارى يقضى بأن نعين أعضاء في اللجنة المنظمة ، ولذلك فإننا لم نعمل بصفتنا جمعية أهلية ، وقد كان ختان الإناث هو مجال عملنا، وقد استضافتنا مؤسسة فورد. وقد كانت طبيبة سودانية^(٩) هي التي تقود العمل في هذه القضية ، وكانت تعلم بما أنجزته من عمل حول هذا الموضوع ، وقد اتصلت بي في إحدى المرات لتخبرنى ، إننا في حاجة لإنشاء قوة عاملة هنا في القاهرة، وقالت لى إن نجاح هذه القوة رهن بتواجدى بها بصفة منظمّة. وقد قلت لها إننى على استعداد لذلك غير أننا في حاجة إلى غطاء قانونى ، وهكذا أدرجنا تحت مظلة مؤتمر السكان والتنمية.^(١٠)

والآن فإن الجمعية تمارس نشاطاً كبيراً، وتتقدم في عملها، حتى مع وجود بعض المشكلات، وذلك لأن تنظيم المؤتمر معين من قبل الحكومة. ولا تتفق القوة العاملة في مجال ختان الإناث مع الحكومة، بل إنها تعمل ضد مصالح الحكومة. وقد شكل الأشخاص أنفسهم الذين كانوا أعضاء في مؤتمر السكان والتنمية جمعية أخرى مستقلة الآن.

وتعترف نادية بوجود علاقات متوترة في جوهر التزامها بالمنظمات الحكومية وغير الحكومية؛ فهي لا تحبذ المواجهة المباشرة مع الحكومة، ولكنها لا تدخر وسعاً في توضيح أن كفاحها سيظل مستقلاً، وماضياً في خط تصادم مع البرامج الحكومية في كثير من الأحيان، وترى هدى أن مشاركتها في دوائر مختلفة يمثل إشكاليات أقل مما تواجهه نادية، وتقول "كنت أشرك مشاركة كبيرة على مستوى الجمعيات الأهلية، كما شرفت باختياري ضمن الوفد الرسمي لمصر في مؤتمر السكان والتنمية، وفي مؤتمر بكين، وأنا عضو باللجنة القومية التي تتعاون مع الجمعيات الأهلية، وهي تتمتع حالياً بدعم وزارة الصحة والسكان، ولذا فإن عملي يشغل وقتي تماماً مثلما كان الحال أثناء عملي في الأمم المتحدة."

وبعد أن أمضت بالخارج ما يربو على ثلاثين عاماً، قررت هدى العودة لمصر:

لماذا؟ الكل تساءل، لماذا العودة بعد حياة عملية طويلة على المستوى الدولي؛ فقد كان في استطاعتي أن أختار موقعاً في جنيف أو نيويورك في أجواء دولية، غير أن مشاعري أملت على العودة إلى جذوري، وبعد أن خدمت العالم لسنوات طوال، حان الوقت للعودة للوطن، للعودة إلى قواعدي. وإنني أعلم صعوبة التأقلم في البداية، غير أنني وضعت لنفسى خطاً لشراء شقة للاستقرار، وللتحضير لتقاعدي. ومنذ أن عدت، كرست وقتاً طويلاً لمشروعات ومنظمات مختلفة.

وتصف الناشطات من الأجيال الأصغر سناً في الكثير من الأحيان، وخاصة هؤلاء اللاتي شاركن في حركات الطلاب في السبعينيات، الجيل الأكبر بالـ"اعتدال" و"البعد عن السياسة" و"البعد عن المواجهة"، بما يحمله هذا الوصف من معانٍ إيجابية

وسلبية فى الوقت نفسه ؛ فهناك البعض الذى يرى أن هذه الصفات تعنى "التمادى فى الركون إلى الحلول الوسط"، و"العمل جنباً إلى جنب مع النظام" أو "الاستسلام لسياسات الإمبريالية الجديدة" ، بينما يرى آخرون أن تلك الصفات تتضمن "القدرة والرغبة فى التوصل إلى الإجماع"، و"العمل برؤية بعيدة المدى"، وقد ذكرت بعض الناشطات أن بعض السيدات اللاتى ينتمين لجيل هدى ونادية لم ينشغلن بالعمل الاجتماعى فى الأربعينيات والخمسينيات ، بل اخترن أن يشاركن فى العمل السياسى. وترى هدى أن الماضى ، خاصة إذا ما قورن بالحاضر ، اتسم بالتسامح ، والاحترام، والانفتاح ، والرغبة فى التعلم . وهى تفتقد هذه الصفات فى الجيل الجديد فتقول ،

لم نشعر بأى قيود، بينما نشعر بها فى حاضرنا اليوم. لماذا ؟ ربما لم نتصل بالعالم من حولنا بما فيه الكفاية. لا أعرف، ولا أستطيع أن أفهم. إننا نتبادل الحديث فيما بيننا وننظر إلى جيلنا. لقد تلقينا العلم على نحو دقيق، واختلطنا بالشباب، دون ما قلق ، ولكننا اليوم نحيا أياماً صعبة من نواح كثيرة . ربما حدثت نقلات ، وهناك متعصبون فى المسيحية كما فى الإسلام. والآن يتجه الناس للشك فى بعضهم البعض، وليس تقبل واحترام بعضهم البعض ، وربما كانت جماعتنا تتسم بالخصوصية، لا أعلم. إن كتب التاريخ ستقدم تحليلاً لكل ذلك. وقد تلت بنات إخوتى دراستهن بجامعة القاهرة، وهن ينتمين لجيل أصغر من جيلى. وهن يتحدثن إلى عن صعوبة نقل الأفكار إلى الطلاب ، وهى الأفكار التى لا يهتم الطلاب بها مثل أساليب الحياة المختلفة ، والخلفية التى كتب شكسبير أو أى مؤلف آخر على أساس منها. وهم لا يتصفون بالصبر ؛ فالحياة اليوم سباق من أجل المال ، وذلك لارتفاع تكلفة المعيشة، وهم لا يصبرون على التفكير والقراءة وتكوين المفاهيم وفهم الأمور ومقارنة الأفكار. كما أنهم يشعرون بعدم الأمان. ولا أستطيع القول أننا فخورون بوصولنا إلى قمة العلوم والتكنولوجيا . فهناك سباق، وهناك أساسيات فى الحياة قد ألقينا بها وراء ظهورنا وهى الأساسيات التى منحتنا الحكمة والثقة فى التطور. وإننى أشعر بنفاد الصبر عندما أقابل أو أتحدث مع أحد الشباب الذين لا يهتمون بالتفكير والتمييز بين الأمور.

وتعد أفكار هدى عن اختلاف جيلها تعليقاً على الفرص المتاحة والانفتاح اللذين ميزاً فترة نشأتها وعملها المبكر ، وهى أيضاً تقدم الدليل على تجانس طبقة السيدات اللائى شغلن الصفوف الأولى فى مرحلة مبكرة فى عهد ما بعد الاستعمار بمصر، وإذا ما قارنا اليوم بالأمس، فإن الصعوبات الاقتصادية بالإضافة إلى تزايد تأثير القوى المحافظة ساهمت فى إيجاد إحساس عام بالأزمة ونقص الفرص ، وتمعن نادىة النظر فى تغير الأخلاقيات ، وهى حالة تفسرها بتدهور نظام التعليم والمنافسة الشرسة فى سوق العمل اليوم فتقول .

عندما بدأنا كان هناك مستوى للمنافسة أيضاً، غير أننا كنا نحترم مجالات كل منا ؛ ففى مجال العمل أو تقديم أشخاص لشغل وظائف ما، كنا نتبع نظاماً أخلاقياً على نحو ما ، ويمكننى القول إننا كنا أصدقاء نفهم بعضنا البعض جيداً، ولكننا لم نكن لنرشح صديقاً لوظيفة ، مهما كانت العلاقة القوية التى تربطنا به ؛ لأننا كنا نرى فى ذلك محاباة على حساب الغير. أما فيما يتصل بالاختلافات ما بين الأجيال، فإننا نعرف أن كثيرات منا، وهن من بدأن تعليمهن بالكلية الأمريكية ، أصبح عملهن من وحى الخدمة العامة أو تقديم الخدمات ، وكان هناك بعضنا ممن اتجهن لشغل الوظائف ، ولذلك فإن فى جيلنا من هم أكثر استعداداً للتطوع وخدمة الناس ، وقد كان هذا فى وقت استفاد فيه الناس من التعليم ، وقد نما لدينا حب الإبداع ؛ لأن الخيارات كانت متاحة أمامنا ، ولذلك فقد كان التنافس أقل . وهناك التزام أقل حالياً، وفى الثمانينيات والتسعينيات اتجه الكثير من الشباب للأصولية الدينية ، والقليل منهم لحقوق الإنسان والنشاطات النسائية. ولا أرى فى الجيل الجديد اتجاهاً لما يريدون القيام به، فيتبعونه بجد ودقة، وإنى أرى أن ذلك يعود إلى فشل النظام التعليمى .

وتكشف أفكار هدى ونادىة أن الهوة الثقافية ما بين أجيال الناشطات قد اتسعت بمشاركة سيدات ينتمين إلى قاعدة طبقية أوسع مقارنة بما كان عليه الحال خلال فترة عملهن المبكر فى نشاطات الرعاية الاجتماعية ، وقد نمت مشاركتهن المبكرة، خلافاً للنشاط النسائى فى الزمن الحاضر، من روح التطوع وقامت على أساس من خلفية طبقية متجانسة، حيث يتشابه أسلوب الحياة، والوضع الاجتماعى، والفرص المتاحة فى حياتهن. وبدلاً من إصدار الأحكام على الجيل الأصغر سناً من الناشطات اللائى أتيحت لهن الفرصة من خلال التمويل الأجنبى للمشاركة المهنية فى النشاط النسائى،

فإن نادية وهدى تؤكدان الصعوبة الشديدة التي تواجه العمل التطوعي في ظل الظروف الاجتماعية والأحوال الاقتصادية المتغيرة، وهما يقران بوجود الصراعات والصعوبات التي تواجه معظم المصريين من رجال وسيدات في توفير الحياة الكريمة لأسرهم. وترى هدى أن التحدي الأكبر في الزمن الحاضر يكمن في "دفع الشباب لتقديم حكمتهم، ووقتهم، وخبرتهم، ومعرفتهم للمجتمع الأكبر المحيط بهم".

مواجهات مع الثورة ونظام عبد الناصر

ما أن انتهت هدى من دراستها الجامعية حتى التحقت بالعمل في وزارة الشؤون الاجتماعية، ولم يمض وقت طويل إلا والتحقت بالأمم المتحدة. وفي ذلك الوقت في عام ١٩٥٢ كانت سهام ب قد حصلت على الشهادة الابتدائية، وهي تذكر ثورة ١٩٥٢ بوضوح، وهي حدث مثل للمصريين انفصلاً كاملاً عن ماضي الاستعمار في مصر، وتقول، عندما كنت صغيرة السن، خلال فترة الحركة الوطنية ضد الاحتلال البريطاني والقصر في ما بين عامي ١٩٤٦ و ١٩٥١، أتذكر أنني كنت أسمع عن مظاهرات الطلبة، وأن طلاب كلية الطب كانوا يقودون المظاهرات، وكان أخي طالباً بكلية الطب، وفي اليوم الذي لقي فيه حكمدار البوليس مصرعه قال أبي إنه ذاهب لقسم البوليس ليخرج جمال، فقد ألقى القبض عليه في المظاهرات وقد ارتطم بحذائه جزء من قنبلة انفجرت، وعندما عاد إلى البيت، كنا جميعاً ننظر إلى حذائه بينما كان يحكي لنا ما حدث. وبعد ذلك، عندما قامت ثورة يوليو ١٩٥٢، كانت أسرتي كلها سعيدة، وكان أخي الثاني مأمون يعرف أعضاء مجلس قيادة الثورة. كيف؟ لا أذكر، وقد كان متحمساً لقيام الثورة، وكان أبي سعيداً بالثورة أيضاً. وقد دخلت الثورة منزلنا وأصبحت جزءاً من مناقشاتنا اليومية، وعندما كنت طالبة بالمدرسة الثانوية، وقعت أحداث سياسية كثيرة، وفي كثير من الأحيان كانت المدرسة كلها تخرج في مظاهرة، وكان هناك مدرس طبيعة يجيد الخطابة، وخلال هذه الأحداث كان يلقي بالخطب الحماسية عن الثورة، وربما كان مستوى إدراكي بسيطاً لكنني كنت أشارك، وعندما اندلعت حرب ١٩٥٦، التحقت بالحرس الوطني في مدرستي، وتلقيت تدريبات على الإسعافات الأولية، وشعرت أنني جزء مما يجري حولي.

وقد شاركت سهام مثل الكثيرات من زميلاتها فى العمل السياسى حتى قبل دخولها الجامعة ، وقد كان المستوى العالى للأنشطة المدرسية جانباً من حملة واسعة استهدفت تثبيت أسس النظام ، وذلك بتكوين صفوف أولى موالية له بين الشباب. وقد أدخل عبد الناصر الكثير من التغييرات حتى يقيم نظاماً تعليمياً شاملاً وشعبياً بالمقارنة بالنظام النخبوى المفكك الموروث من العهد البائد (Abdallah, 1985:101). وقد شملت هذه التغييرات تأميم معظم المدارس الأجنبية، وإلغاء المصروفات الدراسية، وإعادة هيكلة التعليم الثانوى ومناهجه ، وقد شمل التوسع فى التعليم أيضاً اهتماماً أكبر بتعليم البنات (Ibid. :104).

وخلال لقاءاتى لاحظت شيوع الإدراك بأن سياسات عبد الناصر ساعدت المرأة فى الحصول على قوة اقتصادية واجتماعية وثقافية ، وذلك من خلال ارتفاع نسبة مشاركتها فى التعليم والعمل ، وتنسب الزيادة الملحوظة فى أنشطة المرأة الثقافية والسياسية - فى كثير من الأحيان - للفرص والخيارات الجديدة التى قدمها النظام الناصرى للمرأة ، وتذكر سهام فتقول :

خلال فترة حرب ١٩٥٦ ، اشتركت فى الحرس الوطنى خارج المدرسة ، وتعلمنا كيف نستخدم البندقية ، وكنا نجمع التبرعات من الناس ، وقد اشتركت فى لجنة الدفاع المدنى ، كما شاركت أخواتى الأكبر منى فى اللجنة : نعم التى كانت تدرس الصحافة وتعمل تحت التدريب فى جريدة أخبار اليوم فى الوقت نفسه ، ونجاح ، وهى ربة بيت وتمارس نشاطاً فى مجال العمل الاجتماعى ، وأتذكر انتقالى مع أختى فى سيارة نقل، وكانت أختى نعم تمسك بميكروفون، وتخبر الجميع بما يحدث فى بورسعيد ، وكان حديثها رائعاً فامتلات سيارات النقل بالتبرعات ، وكان الناس يبكون فى الشرفات . وكنا نجمع التبرعات كل يوم ونذهب إلى المستشفيات للتدريب . وقد حضرت مولد طفل وضعته سيدة سودانية فى مستشفى أحمد ماهر . مررت بكل هذا وأنا طالبة بالمدرسة الثانوية ؛ فلما انتقلت للدراسة بالجامعة كنت مستعدة لأن أقوم بأنشطة اجتماعية ، وكنت معروفة فى أسرتى بنضجى المبكر إلى حد أن جيرانى كانوا يلقبوننى باسم يعنى "المرأة العجوز".

ونلاحظ أن عائلة سهام وأصدقائها تستغرقهم السياسة، وهم يساندون نشاطها السياسى ، وبينما لم تبد أسرتها اعتراضاً على مشاركتها السياسية، فإن سهام تذكر ما مرت به من صراع كى تحصل على قدر أكبر من حرية الحركة ؛ فلم يكن يحق لها أن تغادر المنزل وتعود إليه وقتما شاءت، بل كان ينبغى عليها أن تحصل على الإذن بذلك فى كل مرة أرادت أن تغادر المنزل، كما كان لزاماً عليها أن تعود فى ساعة محددة. وعلى الرغم من القيود المفروضة على حركتها، فإن سهام تتذكر مشاركتها الدائمة فى الأحداث السياسية ؛ فهى تتذكر كيف كانت مشاعر التضامن العربى تشكل جانباً من تربيته.

عندما كنت طالبة فى المدرسة الثانوية ، كان هناك مجلة تصدر باسم "الجيل الجديد"، وكان بها باب فى آخر صفحة عنوانه "تذكر هذا الاسم !" وقد كان محررو هذا الباب يذهبون إلى المدارس ويطلبون ترشيحات لأسماء الطلاب المشاركين فى الأنشطة ، وكانوا يضعون أسماء هؤلاء الطلاب وصورهم فى هذا الباب ، وقد رشحت المدرسة اسمى، وعندما جاء المحرر لمقابلتى، كان أحد أسئلته "ماذا تتمنين فى المستقبل؟" وكانت إجابتي "أود أن أكون أول فدائية فى حرب تحرير فلسطين" ، ولا أدري لم استخدمت تعبير "فدائية"، لكننى أتذكر أن إجابتي كانت تلقائية ؛ فقد كانت القضية الفلسطينية تشغل ذهنى طوال الوقت على أساس أنها جانب من الكفاح الوطنى ضد الاستعمار ، وقد وصلنى بالفعل خطاب من شخص فلسطينى كتب يقول إنه تأثر كثيراً بما قلته، وجاهنى خطاب آخر من المملكة العربية السعودية. وفى خلال تلك الفترة كنت عضوة فى الكشافة، وهى تضم جماعة من الشباب ينظمون رحلات فى مخيمات ، وشاركت فى مخيم للكشافات العرب فى الإسكندرية ، وقد قابلت فتيات من مختلف الجامعات العربية ، وشعرت أننا أخوات. وما زلت أحتفظ بصورتى وأنا على رأس طابور من الكشافات المصريات حاملة العلم المصرى .

وقد أثرت مشاركة سهام المبكرة فى منظمات الشباب المتصلة بالنظام الحاكم، وكذلك المنظمات السرية فى الجامعة بعد ذلك على رؤيتها السياسية للحاضر ، فخلافاً لحالتى هدى ونادية اللتين كانتا تنتظران للأمور منذ نشأتها نظرة دولية، فإن سهام كانت تنظر إلى الأمور من منطلق "إقليمى" منذ سنوات الدراسة الثانوية. وقد تزامنت

فترتا دراستها الثانوية والجامعية مع مرحلة ازدهار القومية العربية ؛ فقد تطورت مشاعر القومية العربية وأضحت مثلاً مسيطرًا في العهد الناصري، وقد اتخذتها الدولة سياسة لها منذ منتصف الخمسينات إلى ما بعدها. وقد كانت إحدى الوسائل التي ساعدت على انتشار تلك المشاعر من بين السياسات، والإصلاحات، وأشكال التوجيه العقائدي، وجود مقرر دراسي إجباري يحمل عنوان "المجتمع العربي" ضمن المقررات الرسمية في التعليم. (Abdallah, 1985; Beattie, 1994; Erlich, 1989).

ومع الانتشار السريع للقومية العربية في كافة أنحاء المنطقة ، فإن العديد من المنظمات القومية ، مثل حزب البعث، اكتسبت اتباعاً من بين الطلاب المصريين ، ولكن على الرغم من مبادئ النظام العربية القومية، فإنه وقف موقف المعارضة من هذه الأحزاب "الأجنبية"، التي نشأت خارج حدود مصر. وقد دفعت إجراءات القمع التي كانت تتبعها الدولة تلك الجماعات القومية وأتباعها إلى النشاط السري، وتروى سهام ما يلي :

غيرت المشاركة السياسة العملية من منظوري، وأسلوب تفكيري من نواح مختلفة ؛ فبداية ، بدأت أعتقد في دور عام ينبغي على أن أؤديه ، وأن علينا أن نعمل من أجل أوطاننا ؛ فقد كان هذا واجبنا، ومن لا يقدم على تأدية هذا الواجب فإن حياة ناقصة ، وأعتقد أن شعوري الوطني امتد من مصر إلى بلدان أخرى ؛ فقد شعرت بعروبتى في ذلك الوقت وتعلمت أن أكون صادقة مع نفسى . وهذا هو ما يهم لما له من صلة بتطوري في المستقبل ، ثم تعلمت المخاطرة وذلك لأن عملي السياسي كان سرياً إلى حد كبير ، وكنت أشترك في المظاهرات ، وكنت أعرف أن اسمي قد أدرج بالقائمة السوداء ، وأنتى تحت المراقبة . وقد تعلمت أيضاً أن مواجهة الخطر لا ينبغي أن تمنعنا من القيام بما نريد أن نقوم به ، وعندما كانت قيادة الحزب تجتمع بنا، كنا نتحدث معهم وناقشهم . وهكذا وعلى نحو ما كان ذلك تدريباً للتعامل مع القيادات دون خوف ، وقد أصبحت السياسة جزءاً من حياتي، ولم أخف شيئاً من هذا عن أسرتي .

وقد أُنقنت سهام أثناء نشأتها أن تنظر للإقليم على نحو أساسي بوصفه "الأمة العربية"، ولكن في فترة لاحقة، بينما كانت تدرس في أوروبا، أصبحت سهام تعنى أيضاً بأفريقيا و"العالم الثالث"، وقد اكتشفت نقص معلوماتها عن أفريقيا عندما اختلقت بالطلاب والأساتذة الأفارقة في معهد الدراسات الاجتماعية في لاهاي. وقد تزايدت مشاركة سهام في السياسات الأفريقية لحقبة ما بعد الاستعمار. ومع ذلك، فمعظم بحوثها المهنية ونشاطها السياسي قد اتخذ إطاراً له من السياق الوطني أو العربي .

وتسير خبرات سهام في مجال الآفاق والفرص الجديدة في خط موازٍ لذكريات رجا ن ؛ فرجا تمتدح جمال عبد الناصر هي الأخرى لتوفيره ظروفًا أفضل للسواد الأعظم من المصريين، وإتاحته الفرصة لهم للاستفادة من موارد البلاد ، وهي تتذكر أنه خلال فترة دراستها بهولندا كان يطلق عليها اسم "مسز ناصر" ، وعندما تسترجع رجا ذكريات طفولتها وصباها، فإنها تؤكد ما استهدفه النظام من قيام "وحدة وطنية" ما بين الأقباط والمسلمين، والالتزام بالشعار العلماني: "الوطن للجميع والدين لله" (١١) . وقد نشأت رجا قبطية الديانة أثناء العهد الناصري، فلم تشعر بالتفرقة على أساس انتمائها الديني، فتقول "ففي ذلك الوقت، لم تنشغل بالفروق الدينية. وقد حصل أغلب الأقباط على حقوقهم في عهد عبد الناصر مثلهم مثل كافة المصريين. فلم تكن هناك تفرقة فيما يتصل بالحقوق والتوظيف. غير أن الأقباط لم يكونوا مجموعة متجانسة، وقد تأثرت المصالح الاقتصادية للأقباط الأثرياء مثلما تأثر أثرياء المسلمين أيضاً". وتضرب عقيدة رجا السياسية مثلها في ذلك مثل سهام بجذورها في القومية العربية والمثل الاشتراكية .

وترى رجا أن هزيمة ١٩٦٧ أمام إسرائيل مثلت حداً فاصلاً للأسلوب الذي كان الأقباط يُعاملون على أساسه في عهد عبد الناصر ، وتمتزج تجربتها في جامعة القاهرة مع أولى خبراتها الواعية بالتفرقة :

حصلت على مجموع كبير في الثانوية العامة (١٢) وكنت أود أن التحق بكلية الآداب لدراسة الفرنسية ، ولكن أبي رفض رفضاً قاطعاً. وقد حثتني على الالتحاق بكلية الاقتصاد والعلوم السياسية . وفي الكلية تلقيت مقرر الاقتصاد في الفرقة الأولى على

يدى أستاذ متمكن ترك أثراً كبيراً فى نفسى خلال السنة الأولى لدراستى الجامعية ، وهكذا قررت أن أتخصص فى الاقتصاد ، وقد حصلت على المركز الأول عند تخرجى من الكلية، وعُينت فى وظيفة معيد، وهى وظيفة ثابتة والمعيد يساعد فى البحوث، ويُدرّس، ويدرس لنيل درجتى الماجستير والدكتوراه . وعندما أردت أن أسافر إلى الخارج لاستكمال دراساتى، لم يُسمح لى بالسفر. وشعرت للمرة الأولى بالتمييز فى المعاملة ؛ فلم يُسمح لى بالسفر لأثنى قبطية. غير أنني حصلت على منحة خاصة خارج نطاق "نظام البعثات" الذى تموّلُه الدولة^(١٣). وسافرت إلى هولندا لأحصل على دبلومة من المعهد الأوروبى . وكانت هذه الشهادة تعادل درجة الماجستير المصرية ، غير أنها لم تقبل عند عودتى إلى مصر . واضطرت إلى تحضير رسالة ماجستير أخرى ، ومرة أخرى كان رفض الدبلومة يعود لكونى قبطية ، وبينما كنت أحضر لرسالتى الثانية كنت أبحث عن وسيلة للحصول على منحة للتسجيل لدرجة الدكتوراه . ومرة أخرى تخطونى واختاروا من كان فى المرتبة الثانية بعدى ، ثم تمكنت بصورة ما من الحصول على منحة للدكتوراه فى الاقتصاد من جامعة كلارك فى ماساشوسستس. ومنذ ذلك الحين، شعرت أن هناك خلافاً فى التعامل مع المسلمين والأقباط. شعرت بالفرقة الطائفية^(١٤) وعلى الرغم من الحادثة التى روّتها رجا، فإنها تؤكد عدم وجود سياسة منظمة للدولة فى عهد عبد الناصر تؤدى إلى التمييز الطائفى ضد الأقباط ، بل إنها تحكى عن ممارسة فعلية للفرقة الطائفية يمارسها بعض الأشخاص عقب هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وتتفق رؤيتها مع رؤية محب زكى عن العلاقات القبطية الإسلامية، والفرقة التى تمارسها الدولة منذ حصول مصر على استقلالها ، ويرى زكى أنه على الرغم من أن نظام عبد الناصر مارس الفرقة ضد الأقباط وخاصة فى المناصب العليا فى الحكومة، فلم يكن هناك إلا أقل القليل من الصراعات أو التوترات الطائفية فى ذلك الوقت (Zaki, 1995:196). وهو يفسر ذلك بسلطوية النظام واحتكاره للعمل السياسى (ibid.) وليس بالتزامه بالـ"وحدة الوطنية" كما ترى رجا. ومع ذلك، فإن محب زكى يرى أيضاً تغييراً راديكالياً ما بين نظام عبد الناصر ونظام السادات فيما يتعلق بالسياسات تجاه الأقباط.^(١٥)

وقد شعرت رجا بأصدقاء مؤلة لتجربتها مع التمييز الطائفي في مصر خلال سنوات دراستها عندما مرت بتجارب عاشتها خارج حدود مصر ، حيث شعرت أن الآخرين يعاملونها بتعالٍ فتقول "إنهم ينظرون إليك كأقل من إنسان لأنك عربي. وواقع الأمر أن شعوري بمصريتي كان أقوى في الولايات المتحدة عنه في مصر. فقد كنت الطالبة العربية الوحيدة بين الكثير من اليهود". وقد أطلقت هذه الخبرات في نفس رجا اهتماماً بالنظريات الثورية كالماركسية، ونظريات التبعية، والاستعمار الجديد والقضايا ذات الصلة بالعرق والأقليات. وعندما عادت إلى مصر، هالها ما رآته من مظاهر الفقر وقد أصبح أكثر وضوحاً وبشاعة عن ذي قبل ، وقد زادت مشاركتها في القضايا المتعلقة بالتنمية قبل أن تتجه إلى قضايا النوع أيضاً، وهي تقول:

تسببت مأساة شخصية في فتح عيني على التفرقة ضد المرأة ؛ فقد تزوجت في سن مبكرة فور تخرجي من الجامعة. وسافرت بعد أربعين يوماً من الزواج. وقد كان زواجاً تقليدياً فلم يكن قائماً على حب. غير أن تلك العلاقة لم تُفرض عليّ. وقد بلغ اهتمامي بمستقبلي مبلغاً بعيداً ، وظننت أن زوجي سيقدم لي السند، غير أنه أراد في واقع الأمر أن يعترض طريقي. وعندما عدت من هولندا، بدأت إجراءات الطلاق. والطريقة الوحيدة كي يحصل قبضياً على الطلاق هي أن ينتقل أحد الزوجين من الكنيسة القبطية الأرثوذكسية إلى الكنيسة اليونانية الأرثوذكسية ؛ فهناك قانون يقضى بأنه في حالة تباين طائفتي الزوجين فإن الاحتكام يعقد للشريعة الإسلامية ، ثم مررت بتجربة مهينة ؛ فقد حاول زوجي السابق أن يستبقيني بالقوة باستخدام قانون بيت الطاعة^(١٦) فلم أكن أتصور أن شيئاً من هذا القبيل سيحدث لي . وقد حاول أن يمنعني من السفر للولايات المتحدة، وكنت في حاجة إلى إذنه كي أسافر ، ولكن كيف لي أن أحصل على إذنه ونحن في معركة طلاق ؟ غير أن خطأ بيروقراطياً قد وقع وتمكنت من الحصول على تأشيرة خروج ؛ فقد تصورت الجهة المسؤولة أنني قد حصلت على موافقة الزوج. كل هذا أطلق اهتمامي بقضايا المرأة، غير أن اهتمامي البحثي الأول بقي مرتبطاً بالتنمية .

وقد بدأت مشاركة رجا المنتظمة في الحركة النسائية في منتصف الثمانينات، عندما تجدد الاهتمام بقضايا المرأة. أما سهام، فمثلها مثل رجا، لم تُبدِ اهتماماً

بقضايا النوع إلا من خلال نشاطها السياسى والمهنى ، وهى تعزو دخولها للنشاط النسائى لنشاطها فى مجال البحوث والعمل المهنى، وليس لقناعتها السياسية ، وهى تربط ما بين بدايات اهتمامها بقضية المرأة وبين دعوة تلقتها من اتحاد المحاميات العربيات لتلقى كلمة فى مؤتمر عن الإسلام وعمل المرأة عُقد فى تونس عام ١٩٨٤ ، وأصبحت سهام تدريجياً متحدثة باسم المرأة فى مصر والعالم العربى فى المنتديات الدولية . ومع ذلك ، فهى تؤكد على اعتقادها بأن تحرير المرأة لا يصبح ممكناً إلا فى سياق أوسع من التحول الاجتماعى، فتقول:

غير أننى أعتقد أيضاً أننا يمكننا أن نعمل فى مجالى المجتمع ومكانة المرأة فى المجتمع فى خط مواز ؛ فما زالت غير مقتنعة بأننى أقصر عملى على قضية المرأة ؛ فلن أكون أبداً مناصرة لحقوق المرأة من تلك الزاوية ؛ فقضايا المرأة على قدر من الأهمية ، غير أننى لا أستطيع أن أسلط عليها الأضواء على حساب علاقات التبعية ، أو النظام الاقتصادى العالمى، أو العولمة . وإننى أعتقد أننا فى حاجة إلى المزيد من العمل لفحص العلاقة ما بين السياسات العامة وحياة المرأة اليومية ، ولذلك فإننا يجب أن نعقد الصلة ما بين كيفية تحرير المرأة فى المجتمع ، أو كيفية تغيير وضع المرأة ، إذا ما تغير المجتمع ، والجدل الدائر بين هذه العمليات .

وتشارك معظم الناصريات واليساريات اللائى قابلتها سهام فى نظرتها للاتجاه النسائى، ومغزى "القضايا الأعم" للتحرر الوطنى، والعدالة الاجتماعىة، والإمبريالية. ويمكن أن نصف هذا المنظور بأنه يمثل رؤية تتجه اتجاها راديكالياً لـ "خطاب التحرر الوطنى" المرتبط بالكفاح ضد الاستعمار فى العشرينيات والثلاثينيات ، وهى الفترة التى جرى التعامل فيها مع المرأة بوصفها جزءاً من الصراع لإزالة الآثار السياسية والاقتصادية للاستعمار (Hatem, 1993:42).

وعلى الرغم من مشاعر الحنين لـ "أيام المجد المصرى" المرتبطة بعهد عبد الناصر، فإن هناك أصواتاً غير واضحة وأخرى ناقدة بين الناشطات ، وخاصة هؤلاء اللائى ينتمين للجيل الأصغر سناً ممن لم يمر بتجارب خلال السنوات المبكرة للنظام ؛ فقد تطابقت السنوات الأولى من دراسة عزة هـ الجامعية مع هزيمة ١٩٦٧، والمراحل

الأخيرة من العهد الناصري، وهي الفترة التي يجرى وصفها في الكثير من الأحيان بالدولة البولييسية. وقد أوجد الخواء الذي حلَّ بمصر عقب الهزيمة في حرب ١٩٦٧ إحساساً بالصدمة والتشردم بين المصريين، وجاشت نفوس الطلاب بمشاعر الاحتقار للنظام الذي استمر في إذاعة تقارير زائفة عن القوات المصرية المنتصرة في ضواحي تل أبيب، بينما كانت تلك القوات تلقى الهزيمة. ومع ذلك، ففي التاسع من يونيو، عندما أعلن عبد الناصر الذي بدا مهتزاً بوضوح مسئوليته عن الهزيمة، فإنَّ الطلاب هم الذين قادوا المظاهرات التي طالبت بالبقاء (Beattle, 1994; Erlich, 1989).

ولذلك فإنَّ تجربة عزة مع النظام الناصري تختلف اختلافاً حاسماً عن تجربة سهام:

كان لدينا منظمات للشباب نظمها عبد الناصر كي تعد الصفوف الأولى للنظام الاشتراكي الجديد ، وكنا نلتقى في كل مدرسة وكلية ، وكان أول ما يهمننا نظافة مباني المدرسة خلال الإجازة الصيفية ، ولكني أتذكر أن حرب عام ١٩٦٧ صدمتنا. لقد كان شعوراً بأننا خُدعنا، وقد تدهورت روحنا المعنوية. وفي البداية، كنا نمشي من السيدة زينب إلى العباسية^(١٧) ، وهي مسافة طويلة ، ونجهز ملابسنا العسكرية ونحاول أن نفعل شيئاً. وكانت الأمور تتكشف لنا فعلمنا أن جيشنا بأسره قد قُتل ، وأننا خُدعنا أمةً وأفراداً. وقد خرجنا من هذه الحالة من الصدمة والشلل عندما طالبنا عبد الناصر بالبقاء ، وقد كان ذلك في الثالثة صباحاً، ولم يكن في منزلنا تليفون فوجدت أسرتي غاضبة مني ، وأعتقد أن هذه المرحلة هي أهم مراحل حياتي ؛ فقد بلغ بي الغضب مبلغاً دفعني للسير في الشوارع والبكاء. وقد أفزعت الأطفال الذين كانوا يلعبون في الشارع ، وكنت أقول لنفسي إن هؤلاء الأطفال قد خُدعوا أيضاً. لقد كانت أياماً شديدة القسوة.

وعلى الرغم من هذا التعبير التلقائي المؤيد لعبد الناصر أصبح الطلاب عقب الهزيمة أكثر تطرفاً في اعتراضهم على المؤسسة الحاكمة لكبتها القوى السياسية المستقلة. وقد جرى تنظيم مظاهرات ضخمة، وإضرابات، واعتصامات كرد فعل غاضب

للهزيمة المخزية. ولم يشك الطلاب عامة في مبادئ النظام الناصري بل في الأسلوب الذى اتبعته الدولة لقمع أى نوع من النشاط السياسى المستقل ومستوى الرقابة الذى فرضه النظام ، وتتذكر هدى فتقول :

كان البوليس السرى يتابعنا. وهم من الصفوف التى كان عبد الناصر يعدها لمواجهة القوى المحافظة الرجعية التى لم يكن يثق بها. وقد أراد عبد الناصر عندئذ الحصول على تأييد كل من أحب الاشتراكية بالفعل. غير أنه استخدم فى واقع الأمر المنظمات المختلفة للتجسس على الناس ، وكنا نعبر عن نقدنا الشديد ونود أن نفعل شيئاً لأمتنا. وأرادوا منا أن نكتب تقارير ، وكان يسمونها تقارير الرأى العام: ما يتحدث عنه الناس، والنكت التى يضحكون عليها، ... إلخ. وما لبثنا أن شعرنا أن الأمر لم يقتصر على خداعنا على المستوى السياسى ، وإنما امتد لمحاولة السخرية منا. فهو لا ينظرون لك إلا بوصفك مخبراً. كان الأمر فظيماً وأعلننا عن رفض جماعى، الكل رفض أن يعمل، ولم يكن الأمر إضراباً حقيقياً. وقد كان ذلك الوقت الذى بدأت الجماعات اليسارية تتصل بنا. وقد كانت نقلة. كان ذلك فى نهاية الستينات وبداية السبعينات. وكانت لى صديقة أثق فيها كثيراً، وكنا متلازمتين. وقد ساعدنى هذا على أن أتخذ موقفاً ؛ فقد بدأنا نشارك بدرجة أكبر مع الجماعات اليسارية وبدأنا ندرس الماركسية.

وبالإضافة إلى نداء الطلاب بسحب رجال المخابرات من الجامعات، والتحقيق فى تدخل الشرطة فى الجامعات، فقد طالبوا أيضاً بحرية التعبير للصحافة وإصدار القوانين التى تؤسس الحريات السياسية وتطبيقها (Abdallah, 1985:152). وقد أدت هذه المطالب إلى رفع عدد من القيود التى وقفت فى السابق فى طريق النشاط الطلابى. وبصفة خاصة تزايد عدد مجلات الحائط الجامعية التى لا تخضع للرقابة والتى استخدمها الناشطين من الطلاب لنقد النظام، ونشر أفكارهم، وحشد إخوانهم من الطلاب .

الحركة الطلابية وتزايد المعارضة النسائية

استمرت حالة من الجمود عرفت باسم اللاسلم واللاحرب بعد وفاة عبد الناصر فى عام ١٩٧٠، وقد أطلقت هذه الحالة ردود أفعال قوية من الشعب المحبط ، وقد نظم الطلاب الناشطين بصفة خاصة حركات واسعة النطاق انتقدت نظام السادات لعدم القيام بأى عمل تجاه القضية الفلسطينية (Baker, 1990:127). ومع ذلك، فإن الشعور بالضيق والإحباط لم يلبث أن حل محله حماس جديد ونشاط سياسى نابع من الحركة الطلابية، وعلى الرغم من المخاوف والصعاب المرتبطة بالأنشطة السياسية للطلاب خلال السبعينيات ، فإن الكثير من السيدات يصفن اشتراكهن كتجربة إيجابية للكفاح والأمل والتفاؤل المشترك .

وقد بدت المشاركة فى السياسات اليسارية بصفة عامة، والحركة الطلابية بصفة خاصة، خلال عهد السادات ، ذات أهمية لجيل كامل من النساء اللاتى ضمنن فى صفوفهن عدداً كبيراً من الناشطات المعاصرات ، وقد عادت هانية ك ، وقد تلقت تعليمها المدرسى فى كندا، إلى مصر فى بدايات اندلاع الحركة الطلابية. وترى هانية أن الحركة وكافة الأنشطة ذات الصلة بها قد ساعدتها على تثبيت قدميها مرة أخرى بعد فترة من الشعور بالضيق، وتقول:

قررت أن أفيق ، وأن أشارك فى الكفاح الوطنى. وقد ألقى القبض على لأول مرة عندما كان سنى سبعة عشر عاماً. وقد كانت السنوات الثلاث الأولى من عودتى إلى مصر نقطة تحول كبيرة فى حياتى. وقد انهار والدى حقاً لأن مخاوفه تعود إلى عهد عبد الناصر، عندما كان يُلقى القبض على الناس فلا يعودون أبداً، ولكن أمى كانت قوية جداً رغم أنها تبدو دائماً ضعيفة . وقد ألقى القبض على إخوتى فى بداية الأمر خلال اعتصامهم بجامعةهم. وكان أبى خائفاً على مصيرهم، وقد حدث ذلك مرة أخرى فى منتصف السبعينيات ، وفى هذه المرة جاءت الشرطة لمنزلنا وألقت القبض على إخوتى، ثم ألقوا القبض على طلاب آخرين بالجامعة. وقد أصبحت هذه المواجهة المستمرة جانباً من حياتنا، وكان لزاماً على أبى أن يتأقلم معها لأنه كان مقتنعاً بما يفعله الطلاب .

وقد تزايدت مشاركة أمهات الطلاب ، وذلك بالضغط على النظام لإطلاق سراح أبنائهم من المعتقلات. وأيضاً بإخفائهن للنشطاء الهاربين من الشرطة. وقد أصبحت هائية متحدثة باسم "حركة الأمهات" عندما كانت شابة صغيرة :

كانت كافة النساء المشاركات فى هذه الحركة رائعات ؛ فقد كن على استعداد أن يقمن بالكثير، كاشتراكهن فى المظاهرات، والتردد على السجون وغير ذلك. ومن ضمن ما قمن به حمل الرسائل من السجون إلى خارجها وبالعكس. ولم تكن أمى تحب هذه المهمة، غير أنها كانت تصحبنا وكذلك غيرها من الأمهات متى استطعن. وكنت أحاور بعض الضباط، وكنا ننظم اعتصامات فى ساحة المنزل. وكانت أمهاتنا يحاولن تجنب هذه المواجهات غير أننا لم نكن نسمح بذلك. وفى إحدى المرات حوصرنا وألقى القبض علينا لبعض الوقت، وأخذونا للتحقيق وأطلقوا سراحنا فى المساء ، واستمرت هذه الأحداث لسنوات خلال تلك الفترة من عدم الاستقرار.

وتتذكر عزة أيضاً الأحداث المرتبطة بمشاركة والدتها فى الحركة الطلابية ؛ فبينما كان الأب يعمل بالخارج أصبحت عزة أكثر قرباً من والدتها بفضل النشاطات السياسية :

تحسنت علاقتى بوالدتى أثناء الحركة الطلابية ؛ لأن فى ذلك الوقت ومع غياب والدى اعتاد الأصدقاء والزملاء المجئ للمبيت عندنا ، وكانت أمى تخفى بعضهم ليومين ثم أصبحت تشعر بدورها ، وعندما تسألها فإنها تقول "لقد كانت أياماً عظيمة" ، وأتذكر المرة الأولى التى عاد فيها أبى. ولا أعرف بالضبط ما قاله فى ذلك الوقت، غير أن أمى ردت عليه بقوة وقد ذهل لجرأتها عليه. أتذكر ذلك جيداً لأنه كان يحمل طعاماً ألقى به فى وجهها. وقد اتسخ الجدار ببقايا الطعام ، وظل متسخاً لوقت طويل. وشعرت أمى أنها حصلت على قدر من القوة واحترام الذات. وهذا هو ما تعنيه كلمة تمكين بالنسبة لى ، فقد كانت جزءاً من حركة المرأة. وكانت أمهات الطلاب يذهبن سوياً للمحاكم ولكاتب ضباط أمن الدولة ، وكن يجمعن المال ويهربن الرسائل إلى السجون ، وشعرت أمى أن حياتها جزء من حياتى وأن حياتى ، جزء من حياتها.

وفى بداية السبعينيات، نمت حركة طلابية قوية تطالب بتحرير الأراضى المحتلة الفلسطينية ويتحول النظام السياسى المصرى للديموقراطية (Abdallah, 1985:196). وقد

كان تراجع السادات عن المبادئ الاشتراكية وما نتج عن ذلك من تغيرات اجتماعية واقتصادية فى مصر قضية أخرى تناولتها الحركة. وترى هانية أن الحماس والطاقة المرتبطين بالقضية الوطنية فى بادئ الأمر، ما لبثا أن تراجعا ببطء تحت وطأة القضايا الاجتماعية والاقتصادية الملحة :

التحقت بالجامعة فى عام ١٩٧٣ لأدرس الأدب الإنجليزى، وهناك قابلت أشخاصاً لا يزالون أصدقائى المقربين. وكنا جميعاً نقف موقفاً سياسياً واحداً واضحاً، ولكن فى الوقت ذاته كان حماسنا يذوب ببطء ، وكانت حرب عام ١٩٧٣ نقطة تحول للكثير فيما يتعلق بقضية الأرض (سيناء). وكان زمن التأمل والمناقشات ، ولكن نشأ فيما بيننا اعتقاد من نوع ما أن الثورة ليست ببعيدة. وحاولنا بالفعل أن نقاوم لكننا انكسرنا فى النهاية. وقد حدث ذلك فى واقع الأمر بالتدريج. وكنا نعمل حتى نهاية السبعينيات، وفى عام ١٩٧٧، على الرغم من أننا حاولنا أن نوسع من آفاقنا، فإننا أدركنا أن النقطة المحورية ليست هى القضية الوطنية، وإنما هى المشكلات الاجتماعية والاقتصادية ، وبرزت الأصولية على الساحة، وكان هناك أشخاص ينسحبون إلى عوالمهم الخاصة.

وعندما تنظر هانية إلى ما مضى، فإنها ترى تلك السنوات التى شاركت خلالها فى الحركة الطلابية منغلقة فى ما يشبه "مساحة أمنة أشبه بالجيتو" جعلتها هى وزملاءها ينظرون إلى العالم الخارجى وكأنه غير حقيقى ، وهى تتذكر الإحساس بالاغتراب فى العالم الذى يقع خارج نطاق الحركة الطلابية. وما أن تفككت الحركة، حتى شعرت هانية وزميلاتها بالضيق، وخاصة لأن نشاطهن قد منعهن من المشاركة فى دراستهن الجامعية :

وهكذا بدأت الكثيرات منا يحاولن أن ينظمن حياتهن فى الثمانينيات. وقد قررت أن أبحث عن طريق مختلف لكفاحى السياسى، وعملت على توسيع إدراكى بماهية السياسة. وفى هذا الوقت لم توجد أية منظمات مستقلة، ولكن كان هناك أحزاب فتحت مكاتب لها فى أماكن مختلفة. وقد شاركنا فى الانتخابات وفى أنشطة أخرى ربطتنا بالحكومة ، ثم ما لبثت أن شكلت قضية الأحزاب والبنى جانباً من مناقشاتنا وتفكيرنا. وفى خط مواز لقيام المؤسسات والجماعات خارج نطاق الأحزاب السياسية^(١٨)، بدأت بعض صديقات هانية فى الاجتماع المنتظم لمناقشة قضايا مختلفة، مثل تاريخ

الحركات النسائية فى مصر والبلاد العربية الأخرى أو تطوير وضع المرأة فى المجتمع. وأثناء هذه الاجتماعات، لم تقتصر مناقشات الصديقات على القضايا الجديدة ، بل امتد اهتمامهن باستكشاف وسائل جديدة لاتخاذ القرار وتوزيع القوى، الأمر الذى مثل نقلة من الأساليب الهرمية غير الديمقراطية التى عملت من خلالها الأحزاب السياسية والحركة الطلابية سابقاً. وعندما وقف حزب التجمع والنشطاء اليساريين موقف التحدى منهن بسبب محتوى مناقشاتهم والهدف منها، بدأن فى نشر نشرة خاصة بهن.(١٩)

وتؤكد هانية وكذلك غيرها من الناشطات اللائى لعبن دوراً فى الحركة الطلابية فى السبعينيات ، أن قضايا المرأة قبل الثمانينيات كانت مهمشة أو موضع مناقشة فى إطار الاشتراكية : "كنا نبحث عن التغيير والعدالة الاجتماعية. وقد بدت قضايا المرأة جانباً من صورة شاملة ؛ فلم يكن من المقبول سياسياً أن نقصر حديثنا على قضايا المرأة". ومع ذلك، فبعض الناشطات تمردن على المسلمات والقواعد الأخلاقية التى فرضها عليهن زملائهم. وعلى سبيل المثال، بدأت فاطمة ر فى المشاركة فى قضايا المرأة لأنها رأت أن الرجال متناقضون فى مواقفهم، "فهم يتظاهرون بأنهم أصدقاء للمرأة بينما هم يتحدثون عنها من وراء ظهرها، وهناك الحكم الأخلاقى: فالفتاة التى لا تصادق الرجال أفضل ، كما أن آراء النساء لا تؤخذ بجدية كأراء الرجال ،" وتقدم عزة ذكرياتها للعلاقات ما بين الجنسين داخل الجامعة خلال سنوات الكفاح السياسى المشترك للمسلمات والقيم المتشددة فيما يتعلق بسلوك المرأة "اللائق":

كان الرجال والسيدات يلتقون فى الكافتيريا، وكان يطلق عليها "الغرفة" أى المكان الذى يلتقى فيه الناس لتدخين الحشيش. وقد كانت كافتيريا تقليدية ولم تكن الفتيات ترتادها ، ولذلك فقد بدأنا أولاً فى استخدام المر لهذه المكان، ثم بدأنا نرتاد الصالة الواسعة، وأخيراً جلسنا فى الكافتيريا كشباب من الجنسين. وقد كان ذلك أمراً جديداً فى الكلية ، ولكن كان من المعروف أننا فتيات مستقيمات ، وكنا نراعى سلوكياتنا إلى حد بعيد. وخاصة فيما يتصل بى شخصياً، لأن والدى ريفى، وكنت أعلم كيف ينظر الناس من خارج القاهرة للفتيات ، وكان الأمر مهماً لنا وذلك لأن زملائنا ريفيون ، ويجب أن نذكر أنه فى ذلك الوقت كانت الجامعة مفتوحة لكافة المستويات الاجتماعية، وكان الجميع فى الجامعة، ومنهم من جاء من القرى والريف يحملون معهم كافة مشاعرهم وأفكارهم المسبقة عن المرأة، وخاصة نساء القاهرة. وعادة ما كانت فتيات

المدن، وخاصة المتحررات اجتماعياً، يتسمن بقدر كبير من الليبرالية ، ولكننا كنا نشعر أننا يجب أن نقدم نموذجاً يتبع، وأن نشجع غيرنا من الشباب والشابات لينضموا لمجموعتنا.

وعندما اقترحت بعض الناشطات من الطالبات المهتمات بالقواعد والمتناقضات الأخلاقية فيما يتصل بعلاقات الجنسين إقامة ندوة عن المرأة، كان رد الفعل سلبياً ، وكانت فاطمة إحدى الطالبات اللاتي أردن أن يتحدين الاقتناع السائد بأن قضايا المرأة تحتاج إلى تناولها كجزء من المشكلات الاجتماعية الأوسع نطاقاً :

قال لنا الكثير من الشباب والشابات إن ذلك موقف نسائي ، وإن الاشتراكيين يؤمنون أن مشكلات المرأة يجرى حلها جنباً إلى جنب مع القضايا الاجتماعية. وأرادوا أن يعملوا في اتجاه تحرير الطبقة العاملة. وقد استسلمنا لرأيهم غير أننا كنا نشعر ببعض القلق، ولذلك فقد تأجل مشروعنا لبعض الوقت. ومع ذلك، لم يُلغَ فمشروعنا تماماً ، فبعد فترة من الوقت، قررنا أن نصدر مجلة للمرأة.^(٢٠) وقد أدركت أهمية إصدارها عندما عملت في المصانع خلال الصيف ، ووجدت أن العاملات يعانين من مشكلات تختلف عن مشكلات الرجال. وكنت لا أزال مهتمة رغم ذلك بالسياسة ، وذلك لأن زوجي كان يشارك في العمل السياسي، وكان يُعتقل بصفة مستمرة ، ولكن عندما تزوجت أدركت أن حريتي الشخصية مرتبطة أيضاً بحرية غيرى من السيدات .

وقد اعترفت عدة سيدات أن حياتهن الخاصة أظهرت لهن على نحو مؤلم أن "هناك ما يسمى بقضايا المرأة" التي يجب أن تُعالج مستقلة عن الكفاح العام لتحقيق العدالة الاجتماعية ، وقد جاء الإدراك بأن حتى الرجال "التقدميين" يضطهدون المرأة، إما في سياق السياسات الحزبية، أو داخل مؤسسة الأسرة، كنقطة تحول في حياة الكثير من الناشطات، وقد ذكرت بعض الناشطات أيضاً تهميش دور المرأة في الصراعات السياسية على المستوى الدولي، في الجزائر، وفلسطين، والاتحاد السوفيتي السابق على سبيل المثال ، باعتباره سبباً أساسياً لإعادتهن النظر في مناهجهن الأساسية .

وترى عزة أن النقلة إلى نظرة أكثر جدية لـ"قضايا المرأة" بوصفها قضايا مهمة وجديرة بالدراسة ترتبط بمؤتمر الأمم المتحدة للمرأة عام ١٩٨٥ والذي عُقد في نيروبي: أتصور أن مؤتمر نيروبي قد أفاد كثيراً سواء أدركت النساء ذلك أم لم تدركه، وقد كان المؤتمر نقطة تحول في حياتي؛ فقد شاركت في التحضيرات، وبذلت قدراً كبيراً من الجهود الإيجابية، وأطلعت على كتابات عن المرأة، ولم يشكل كل ذلك موقفاً ملموساً عندئذ، غير أنني بدأت أقتنع، وشعرت أنني أقوى بكثير في ما يتعلق بقضايا المرأة عندما حان موعد مؤتمر نيروبي، ولم يكن الأمر يتعلق بمؤتمر نيروبي نفسه في واقع الأمر، إذ إنني لم أذهب، ولكن ما يهم هو كل هذه الأنشطة التي وقعت في منتصف الثمانينات؛ فمنذ عام ١٩٨٣ إلى عام ١٩٨٥ برزت إلى الوجود العديد من المنظمات، ولم أنضم لعضوية أي منها، غير أنني كنت أشترك في العديد من أنشطتها؛ فقد شاركت في الحملة التي دارت للإبقاء على قانون الأحوال الشخصية الصادر عام ١٩٧٩ الذي أُطلق عليه اسم "قانون جيهان"، كما شاركت في الجمعية التي أنشئت باسم "لجنة الأسرة والمرأة". وقد كانت هناك حركة كبيرة، وكنا نجتمع في منازل وأماكن وقد أعدنا بعض المسودات لتعديلات على القانون، وقدمنا ما أعدناه للبرلمان. وقد وقعت أحداث كثيرة في هذه السنوات: الاستعدادات لنيروبي، والعمل لإعداد التقرير، وعمل لإعداد بحث للقاء الإقليمي للمرأة العربية والأفريقية. وقد كان كل ذلك يصل شخصيتي سريعاً، ثم أن نوال السعداوى دعت للاجتماع الأول حول المرأة العربية، وطلب مني اليونيسيف أن أقدم موضوعاً حول صحة المرأة، وتتطلب الأمر بحثاً دقيقاً وقراءات متعددة حول الموضوع، وكانت الصحة هي مدخلى لأنشطة حقوق المرأة.

وتقدم عزة الأدلة على التقاء العمل المهني والنشاط النسائي فضلاً عن الترابط المتزايد ما بين المنتديات الإقليمية والدولية، كما أنها تشير إلى تأثير نوال السعداوى التي عالجت في محاضراتها وكتبها موضوع تحرير المرأة بوصفها قضية مهمة، دون أن ترى أنها تناقض قضيتي الصراع الطبقي أو التحرر الوطني، كما سبق وأوضحنا في الفصل السابق.

ويبدو من الواضح أنَّ النقلة التدريجية في اتجاه حقوق المرأة بوصفها قضية مشروعة في الثمانينيات تمد جذورها إلى العديد من الأسباب ، مثل الأزمة التي عانت منها الإيديولوجية الاشتراكية بصفة عامة ، وخاصة خيبة الأمل في قيام الناشطين بالتنفيذ الفعلي للقيم الاشتراكية. وقد تزايد عدد النساء اللاتي بدأن في اتخاذ مواقف رافضة للهياكل السياسية الذكورية التقليدية، بينما تزايد نقدهم للقواعد الأخلاقية والازدواجية المفروضة عليهن من قبل زملائهم الناشطون أو آباؤهن أو أخواتهن أو أزواجهن "التقدميون". وقد تطابقت ثورتهم ضد القيود على حرياتهن الشخصية مع التوسع الذي شهدته البرامج والمنتديات الدولية ، والتي استمرت في التأثير على حياة الناشطات في التسعينيات.

الصدّات الشخصية والبرامج الدولية

من الصعب أن نفهم ، ولكنني أعتقد أن هناك ما يعيب الجيل الجديد ؛ فهم لا يتمتعون بالدافع نفسه وروح المبادرة التي كانت متوافرة لنا ، وبينما كنا نشعر أننا نسعى بالفعل لتحقيق هدف ما ، وأننا نتطرق لوضعه حين التنفيذ، فإن هذا الجيل ليس له هدف، فهم لا وجهة لهم ؛ فالبديل بالنسبة لهم هو الانتظار. غير أننا نشعر أننا حاولنا ، وأننا نود أن يأتي من يستكمل مسيرة الكفاح. غير أنه لا يبدو أن هناك من يرغب في ذلك ، وعندما بدأنا كنا نهجم الأجيال الأكبر سناً، ونأخذ المبادرة في أيدينا بأسلوب بناء وليس هداماً. وآمل أن يأتي الوقت الذي يتمكن فيه الناس من رؤية هدف يسعون إليه. (هانية ك.)

وتجد أفكار هانية عن الجيل الجديد، وتعنى به من هن في العشرينيات والثلاثينيات من عمرهن ، صدى بين الناشطات من جيلها والجيل السابق عليه ، وهن يصفن السيدات الأصغر سناً بافتقاد الحماس والدافع والإرادة للمشاركة في الكفاح السياسي ، وبينما استتارت الأزمة في الفكر الاشتراكي بعد انهيار الاتحاد السوفيتي الكثير من النشاطات اليساريات لاهتمام أكبر بقضايا المرأة، يبدو أن السيدات الأصغر سناً قد أصابهن إحساس عام بخيبة الأمل وافتقاد الدافع الجماعي. وعلى ضوء غياب

حركات المعارضة الشعبية خارج الإطار الإسلامى، فإن السيدات نوات التوجهات العلمانية، لا ينشطن بوصفهن يمثلن جانباً من حركة سياسية واسعة، بل إنهن يجدن فى فرصهن المهنية أو ثورتهن الشخصية دافعاً يواجهن به اضطهادهن كنساء .

ويعدّ المستوى العالى للمهنية عيب آخر يُرى أنّه ملازم للناشطات الأصغر سناً ، وتقارن الناشطات الأكبر سناً ذلك العيب إما بروح العمل التطوعى أو بالتطرف السياسى اللذين ميّزا دوافع الناشطات من جيلهن ، وكما أشرنا من قبل، فإن التأثير المتزايد لمنظمات التنمية الدولية، ومنظمات الدفاع عن المرأة وحقوق الإنسان ، فضلاً عن وكالات التمويل قد أسهم دون شك فى ارتفاع مستوى المهنية بين الناشطات المعاصرات . ومع ذلك، فإنّ من الخطأ أن نتصور أنّ الناشطات الأصغر سناً وحدهن قد جمعن ما بين النشاط السياسى والمهن التى يتكسبن منها ؛ فمعظم ناشطات الجيل الأسبق أضحين هن أيضاً جزءاً من نظام التنمية المعقد، والنشاط النسائى، ورسم الاستراتيجيات لجذب التمويل الأجنبى .

غير أنّ الكثير من الناشطات الأصغر سناً يبدين الندم على أنّهن لم يولدن فى الجيل السابق مع السيدات اللاتى كن "يعرفن ما الذى يكافحن من أجله". وقد قالت لى نيفين ب ، وهى ناشطة فى أوائل الثلاثينيات من عمرها: "إن أسوأ الأجيال هو جيلنا ، فواقع الأمر أنّنا لا نجتمع على كفاح مشترك أو قيادة مشتركة على الإطلاق . وعلى الرغم أنّ جيلنا فى البداية توافرت له كافة الإمكانيات ، ولكن عندما بدأت المساعدات الأجنبية ترد إلى مصر ، وتأسست العديد من المراكز والاتحادات ، تغيرت شخصيات وأفكار الكثيرات من جيلنا".

ولعل ما تعبر عنه نيفين من حنين للماضى الذى لم تعشه يتصل ببدايات مشاركتها فى الحركة ؛ فحلاًفاً لسيدات أخريات أجريت معهن مقابلات ، لم تكن نشأة نيفين الأولى فى القاهرة بل فى المنصورة ؛ وهى إحدى مدن الدلتا ، وهناك اتصلت بمجموعة من الناشطات ينتمين إلى جيل السبعينيات ، وهى تقول :

عرفنى صديق لأخى على سيدتين اشتركت معهما فيما بعد فى جمعية "بنت الأرض" ، وهى الجمعية التى أنتمى إليها ، وكنت فى السادسة عشر حينئذ. وكانتا أكبر منى بقليل. وقد كانت خبرة عظيمة أن أنشغل بمثل ذلك المشروع الرائع وأنا فى

سنى الصغيرة هذه، وقد طرأ تغيير كبير على حياتى ؛ فقد تعرفت على المشهد الثقافى فى المنصورة من خلال المجموعة، وقبل ذلك كنت لا أشارك إلا فى اتحاد الطلاب فى المدرسة الثانوية ، وكان اتصالى بالناشطات فى مجال حقوق المرأة بداية لتكوين نظرة للأشياء وموقف سياسى. وقد كانت خبرتنا فى ذلك المجال فريدة من نوعها ؛ فتعرفت على الاتجاه النسائى، وعلمتنى الجمعية معنى العمل الجماعى ، وربما كان لدى الاستعداد لمثل ذلك العمل ذهنياً وعلمياً، غير أنه فضلاً عن ذلك كان التدريب على مستوى كبير من الأهمية فى تلك المرحلة المبكرة من عمرى ؛ فقد كانت مرحلة تكوين شخصيتى، وإننى أدين بسبعين بالمائة من تكوينى العلقى لتلك الجمعية.

وتؤكد نيفين على تفرد خبرتها السياسية وتميزها فى اتصالها بسيدات من الجيل الأسبق ؛ فهى ترى أن هذه الظروف الخاصة تتميزها عن غيرها من الناشطات الأصغر سناً، وتولد فى نفسها إحساس بالانتماء لذلك الجيل الذى نشط إبان عهد السادات ، كما تعبر نيفين عن إحساسها بالاعتراب فيما يتعلق بعدد من المناسبات العامة كالمؤتمرات والندوات التى تعقد بالقاهرة، وفى الوقت ذاته، تعترف نيفين أن انتقالها من المنصورة إلى القاهرة كان الدافع من ورائه المشاركة فى مستوى أعلى من النشاط والحصول على فرص عمل أكثر فى العاصمة ، وبينما تحاول نيفين أن تستقر فى القاهرة وتعمل مع العديد من الجمعيات، وتتزايد مشاركتها مع المنظمات الدولية، فإنها تحافظ على علاقات وطيدة مع السيدات اللاتى ساعدنهن على وضع خطواتها الأولى فى عالم السياسة. غير أن نيفين تدرك أنها تبتعد أكثر وأكثر عن نوع النشاط والمبادئ التى ميزت المجموعة التى انضمت إليها فى بادئ الأمر.

ومع صعوبة الحكم على الدافع الفعلى للمشاركة الفردية فى النشاط السياسى، يبدو من الصعب - فى أيامنا هذه - أن نتدبر وسائل للتعيش دون مشاركة سياسية. وبالفعل، هناك من السيدات من يدفعهن الأمل فى المقابل المادى والشهرة لا الرغبة الصادقة للدفاع عن حقوق المرأة، ولكن هناك ناشطات شابات، حتى وإن كن أقلية، يكافحن فى سبيل حصول النساء على حقوقهن بالحماسة نفسها التى اتسمت بها الأجيال السابقة. وعند سؤالى للناشطات الأصغر سناً عن دوافعهن للمشاركة فى نشاطات المرأة، لم تكن معظمهن على يقين من بدايات اهتمامهن غير أن كل منهن روى

لى حكاية حزينة، فمنى أ. على سبيل المثال نشأت فى حماية والديها من العالم الخارجى ، وقد فرض والداها عليها قواعد صارمة لكيفية "السلوك الذى يليق بفتاة". وفى البداية لم تعترض منى على قواعد والديها ونظرتهم الأخرافية، بل أنها تذكر أنها دافعت فى مناظرة أقيمت بمدرستها عن بقاء المرأة فى البيت :

لا أعلم حقيقة ما الذى دفعنى للتمرد وكيف بدأ تمردي بالتحديد. وقد كنت دائماً متمردة، ولكن إلى حد ما وإلى أن بلغت سنًا معينة كنت أثق كثيراً فى والدى وقد كان دائماً ما يقول لى أن مكان المرأة هو منزلها. وقد فقدت ثقتى به عندما وجدته غير سعيد. وقد كانت أمى ملازمة للبيت ومع ذلك كان غير سعيد. فالأمر لا صلة له ببقائها فى البيت أو عدمه. وكانت صديقاتى فى المدرسة اللاتى كانت أمهاتهن يخرجن للعمل أكثر سعادة فى فترة الطفولة. وقد كانت أمى امرأة عنيفة، وأعتقد أن ذلك تسبب جزئياً فى تمردي. وكان من الممكن أن أكون فتاة لطيفة غير أننى لم أكن. وقد اعتادت أمى أن تضربنا حتى بعد أن تقدمنا فى السن. وأذكر آخر مرة ضربتني فيها عندما كنت فى الرابعة عشر من عمري. وأتذكر أننى قلت لأختى ذات ليلة أننى أخجل من تعرضي للضرب فى سن الرابعة عشر بينما صديقاتى فى المدرسة لا يتعرضن لمثل تلك المعاملة على الإطلاق. وفى يوم من الأيام قلت لنفسى إذا ضربتني سأضربها. وهذا هو ما حدث. فقد صفعتني فصفعتها. ثم صفعتني مرة أخرى، وتبادلنا الصفعات حوالى خمس مرات. فكلما صفعتني صفعتها أيضاً، وقد أصيبت بصدمة فلم تصدق رد فعلى. ولم تضربني مرة أخرى بعد تلك الحادثة .

ولم تشارك منى فى العمل الاجتماعى أو المنظمات السياسية عندما تقدمت بها السن. وهى ترى التزامها النسائى نابغاً من شخصيتها، وإحساسها بالعدالة، وتهنئها، وخبراتها المؤلمة، خاصة تلك المرتبطة بوالدتها، وزوجها فيما بعد. وقد عملت منى لسنوات عديدة فى وظيفة لا صلة لها على الإطلاق بالنشاط النسائى. وقد تركت وظيفتها بعد زواجها ولازمت منزلها لعدة سنوات. وخلال وخلال تلك الفترة بدأت فى ممارسة العمل التطوعى مع جمعية تضامن المرأة العربية التى أنشأتها نوال السعداوى. وقد كانت وظيفتها التالية متصلة بمشروع يتيح للمرأة الحصول على دخل خاص بها، ثم استقرت بعد ذلك فى وظيفتها الحالية بأحد مراكز الدفاع عن حقوق

الإنسان، وهى تقول "إننى أحب عملى هنا، على الرغم أن هناك من ينظر إليه على أنه مجرد عمل تطوعى. ولكنى أفضله حتى على العمل المهنى لأنه هوايتى، هذا هو ما أحب أن أعمله، وقد استفدت كثيراً من عملى فى هذا المكان، فقد تطورت شخصيتى من خلال تجربة ثرية من خلال منظور الاتجاه النسائى المحدود الذى هو أحد أوجه حقوق الإنسان. وإننى أشعر بالسعادة هنا لأننى ناشطة فى مجالى المرأة وحقوق الإنسان".

وقد أصبح منظور حقوق الإنسان إطاراً واسع القبول للنشاط النسائى فى مصر فى أيامنا هذه. وترى الكثيرات من الناشطات فى مجال السياسة فى عقد السبعينات، مثل الناشطات فى مؤسسة المعهد الذى تعمل به منى، أن مفهوم حقوق الإنسان قدّم بديلاً لأشكال سابقة من الكفاح الاشتراكى. غير أن الانتشار الواسع للمراكز التى تعمل فى مجال حقوق الإنسان فى الماضى القريب يعد غالباً أحد النتائج الواضحة لتأثير البرامج الدولية والمؤسسات المانحة .

ومثلما ترى منى أن مشاركتها فى نشاط المرأة هو امتداد لتمرداها المبكر على ضرب أمها لها، فإن سامية أ. تصف أيضاً مشاركتها فى الحركة النسائية بوصفها تطوراً لإحساسها السابق على ذلك بالظلم، ولوقوفها موقف التحدى من توقعات أمها، وأقربائها، وخطيبتها :

نشأت وأنا أعتقد أن المرأة يجب أن تتزوج وتنجب، على الرغم من أن أفراد أسرتى على مستوى عالٍ من التعليم. وقد خُطبت مرتين ولم تستمر الخطبة فى الحالتين، ففى كل مرة كانت الأمور لا تسير على ما يرام بسبب مشكلة كبيرة. فقد حاول خطيباى أن يضعونى فى إطار، كما حاولوا أن يفرضوا صورتهم على غير أن التمرد الكامن بداخلى ظل موجوداً على الدوام. وكنت أصر على أننى أبحث عن حياة "طبيعية". وكانت أمى وبقية أفراد عائلتى يرون أن كل ذلك مرجعه إلى دراستى لنيل درجتى الماجستير والدكتوراه، أو لأننى أتصف بقدر كبير من النضج، أو لأننى أتمتع بقدر زائد من الحرية .

ولم تكن منى وسامية كلاهما مهتمتين بالسياسة قبل مشاركتهما فى الأنشطة النسائية، ولم يتبعا إطاراً إيديولوجياً واضحاً، غير أنه بالرغم من اختلاف خبراتهما ومشاركتهما الحالية فى تلك الأنشطة، فإنهما يشتركان فى الإحساس بالتهميش والظلم فى مراحل حياتهما الماضية. وتصف منى كيف كانت أمها وأختها تعاملنَّها معاملة قاسية بسبب بشرتها السمراء. وتذكر منى حادثة وقعت منذ ست سنوات عندما كانت فى ألمانيا لإلقاء سلسلة من المحاضرات: "كانت أمى معى لترعى ابنى فقد كان طفلاً صغيراً، وعندما كنا نمشى فى الشارع كان الناس يستديرون لينظروا إلىّ وليس إلىّ أمى. وقالت لى أمى أنهم ينظرون إلىّ لأنى سمراء". ومع ذلك فإن الشعور بالاختلاف عن الآخرين أعمق بكثير من مجرد الشعور باختلاف الملامح. وتصف منى نفسها بالانطواء الأمر الذى جعل تكوين الصداقات أمراً عسيراً عليها. وتتصل منى حالياً بأشخاص كثيرين من خلال عملها الحالى، غير أن منى ما زالت مدققة فى اختيار صديقاتها وتفضل أن تعمل فى صمت على الرغم من أنها تحظى الآن بالشهرة .

أما سامية، فقد اختارت طريقاً آخر. وهى تستمتع بالاهتمام العام بعملها فى مجال الأنشطة النسائية. وهى ترى أن الالتزام بالاتجاه النسائى يعنى أيضاً الاتسام بروح اجتماعية قوية والانفتاح على الآخرين. وتذكر سامية، مثلها فى ذلك مثل منى، الإحساس بعدم الانتماء وهى تشب عن الطوق، فتقول "لقد كنت اتسم بالهدوء الشديد، ولم أكن أعرف كيف أتحدث. وكان ينتابنى شعور بالبؤس الشديد. فقد كنت بدينة أزن أكثر من ثمانين كيلوجراماً. وكنت أستذكر دروسى وأتناول الطعام طوال الوقت، ولم تكن لى حياة اجتماعية". وفيما بعد عندما التحقت سامية بالجامعة شعرت بأنها مغتربة على الرغم من حصولها على أعلى الدرجات والكثير من الاهتمام من زملائها الذكور: "عندما كانوا يقولون لى أننى جميلة، كنت أظن أنهم يجاملوننى. وكنت لا أزال خجولة ولا أهتم سوى بدراستى. وكانوا يظنوننى متعجرفة".

وبعد محاولات فاشلة للارتباط بزيادة شعور سامية بالإحباط والاكتئاب، وقد بلغ شعورها بالاغتراب مداه قبيل أن يتغير موقفها إلى النقيض :

فجأة أشرقت على لحظة يسمونها "لحظة التنوير" في الأدب، فشعرت أنني الوحيدة التي على حق، وأن الآخرين يعانون من مشكلاتهم، وقابلت كل هؤلاء السيدات اللاتي كن يعشن حياة يكرهونها، فهناك الزوجات اللاتي يكرهن أزواجهن، وكنت قد اعتدت الشعور بالذنب لدرجة كبيرة، وفي لحظة ما كنت أخجل من نفسي، غير أن قوة هذا الشعور أعطتني الدافع لفك أسرى .

وبعد هذا التغير النفسي اتصلت سامية بمركز دراسات المرأة الجديدة حيث تلقت إطاراً نظرياً وسياسياً القى الضوء على تجربتها الشخصية المؤلة :

لقد كانت ضربة حظ . فقد ذهبت إلى مركز دراسات المرأة الجديدة بالصدفة، فقد كنت أحضر ندوة في المجلس الثقافي البريطاني عن صورة المرأة، ولم يكن في ذهني أي إطار نظري، وبدأت أنتظم في حضور الاجتماعات وتدرجياً أصبحت عضواً في الجمعية، وقد تعلمت منهن الكثير، وقد سهلت خلفيتي الأكاديمية الأمر، فقد كنت على معرفة بأصول البحث العلمي، وأعتقد أن الخطين يلتقيان عند نقطة محددة، ولا يجب الفصل بينهما، كما أنني أؤمن بالتضامن، فلا يستطيع المرء أن يقوم وحده بشيء، وتكمن قوة السيدات ذوات الاتجاهات الإسلامية في تضامنهن، وأصبح الاتجاه النسائي تدرجياً هو رؤيتي وأسلوبى في الحياة، ومنذ ذلك التاريخ بدأت الأمور تسير من حسن إلى أحسن .

وقد استمدت سامية إحساسها بالقوة من إدراكها أن غيرها من السيدات يعانين نفس مشاعر الذنب والاعتراب التي تشعر بها، ومنذ أن التقت بسيدات مركز دراسات المرأة الجديدة اكتشفت سامية مكاناً آمناً تستطيع أن تعبر فيه بحرية عن نفسها، وتقابل فيه سيدات يقدمن لها الأدوات الفكرية اللازمة لتحليل ما وقع عليها من ظلم واضطهاد، ويشير وصفها لتشابه النشاط النسائي والنشاط الأكاديمي إلى إحدى سمات الأنشطة المعاصرة حيث يجرى اندماج للبحوث، ونشاطات التنمية، والنشاطات السياسية . ويشيع الاتهام بالإسراف في التنظير على حساب العمل السياسي الملموس بين معارضى هذا الاتجاه العديدين المتواجدين على سبيل المثال في الدوائر اليسارية، والإسلامية، وأعضاء الجمعيات الأهلية الذين يعملون جنباً إلى جنب مع ما يسمى بالقاعدة العريضة.

وتؤكد سامية أن دور المركز اقتصر على تقديم منصة لها، وفرصة، كي تضع إمكاناتها التي لازمتها طيلة حياتها، في قالب ملموس. ولم تمض إلا بضع سنوات بعد لقائها الأول بالمركز تحولت بعدها سامية إلى شخصية عامة. ولا يمكننا القول يقيناً إذا ما التزمنا العدل، أن الدافع الأول لسامية وغيرها من الناشطات يرتبط بفرص الحصول على عمل. غير أنه لا شك في أن السياق الاقتصادي والاجتماعي لنشاط المرأة في التسعينات، الذي يصحبه روابط دولية واهتمام إعلامي متزايد، قد نتج عنه مناخ يسمح بالتطور السريع لفرص العمل وتحقيق الشهرة. وقد تنوعت ردود أفعال الناشطات لهذا الموقف: فخضع بعضهن خضوعاً لإغراء الفرص الجديدة أكثر من غيرهن .

الظروف الخاصة: الفرص والأزمات

تحتوي المقتطفات المختارة من سيرة حياة الناشطات على ما هو أكثر من مجرد دلائل فيما يتصل ببدايات اتصالهن بالنشاط النسائي، فهي لا تقتصر على الأحداث الأبوية في حياة كل منهن بل إن الروايات تقدم نظرة ثاقبة أيضاً للظروف والعقبات الشخصية التي تشكل الحياة اليومية لمن يعمل في المجال الاجتماعي. وعلى الرغم من أن الحكايات روتها سيدات فرادى كل على حدة، وتحتوي على خبرات خاصة تتخطى السياق السياسي والتاريخي، فإنها تثير قضايا عامة. وتتسم الروايات التي جمعتها بالتعقيد على نحو لا يسمح باستكشاف شامل لكافة نواحيها وموضوعاتها. ومع ذلك، فإنني أود أن أشير إلى عدد من القضايا التي تناولتها معظم الناشطات باعتبار أنها جوانب هامة من حياتهن. وتتصل هذه القضايا بصفة خاصة ببيئتهن المحيطة: أمهاتهن، وأبائهن، وأقربائهن، وعشاقهن، وأزواجهن، وأصدقائهن. وفي بعض الحالات يمكن أن يوفر هؤلاء الدعم والقوة لهن، وفي حالات أخرى من الممكن أن يشكلوا عقبات كبيرة في طريقهن وأعباءً إضافية تثقلهن. وهم يشكلون في كثير من الأحيان مزيجاً من الاتجاهين في حياة المرأة، ففي بعض الأحيان يشجعون نموها وتطورها، وفي أحيان أخرى يضعون لها الحدود ويعوقون مسيرتها.

وهذه الظاهرة جديرة بالملاحظة في الأسلوب الذي تصف به الناشطات أبائهن والأثر الذي تركوه على حياتهن. وقد جذب عدد من السيدات الانتباه للتأثير الإيجابي للآباء في حياتهن، وموقفهم المساند لتعليم بناتهم. وتتذكر عزة أحد الكتب الأثيرة إلى نفسها، وهو من إهداء والدها، فتقول:

في طفولتي كان أبي يحكى لى عن بعض الكتب، وكان يسمح لى بالذهاب للمكتبة العامة . وكان أحد أهم الكتب التى أهداها لى وما زلت أذكرها بل وابتعتها من أجل ابنتى هو كتاب "أميليا إيرهارت" Amelia Earhart. وقد كانت أول امرأة تقود طائرة، وقد كان الكتاب عن حياتها. وفى طفولتها كانت ترفض أن تكون مجرد فتاة فكانت تلعب ألعاب الأولاد. وكانت على إصرار وقوة عظيمتين . وقد كان أبى يأمل أن أكون امرأة قوية مثلها .

وتؤكد عزة، مثلها مثل سهام ونيفين، أهمية الحماس للتعليم والاهتمام به. ولم تكن الدراسة والكتب هما الوجهين الوحيدين للتعليم الثانوى والجامعى اللذين يمثلان المرحلتين اللتين وصفا بأنهما الأكثر أهمية فى تطورهن كناشطات فى مجال حقوق المرأة. بل إن الاندماج فى الأنشطة المدرسية والجامعية تتكرر الإشارة إليه فى رواياتهن، وتتذكر هدى جماعات النقاش المختلفة، والمشروعات التى تتضمن خدمات للمجتمع، والمخيمات الصيفية كجانب من تعليمها. وقد اقتصر نشاط سهام على الرياضة والتحاقها بالـ"حرس الوطنى"، غير أنها شاركت فى العديد من الأنشطة الثقافية إلى جانب مشاركتها السياسية. وقد التحقت عزة بفصول الرسم والتمثيل داخل الجامعة، كما شاركت فى جماعة الصحافة، وكتبت الشعر وشاركت فى مسابقات للقراءة قبل مشاركتها فى الحركة الطلابية. وجميعهن كن بارزات ونشطات ومتحمسات ومتعاطفات كل بأسلوبها، وجميعهن أردن أن يشكلن جانباً مؤثراً فى الظروف والتغيرات التى تحيط بهن .

وقد أصبح من الواضح أن التعليم بمعناه الواسع، بالنسبة للعديد من السيدات، قدم الوسيلة لتخطى الدور الضيق المحدد لكل نوع. وقد كانت الصلة ما بين التعليم و"التشبه بالأولاد" هو العامل الحاسم فى نشأة سهام وخبرتها بهويتها، وتقول عن ذلك :

حصلت على الإذن بالذهاب للمدرسة سيراً على الأقدام. وربما كنت محل ثقة، وربما كان ذلك بسبب مظهرى. فقد كنت أبدو صغيرة للغاية، وأظن أنه لم تبدُ على علامات الأنوثة فى المدرسة الثانوية. ولم يكن تفكيرى متجهاً للشباب. وقد اعتبرتني أسرتى صبيياً عندما كنت صغيرة. ويعود ذلك إلى أنني كنت الأصغر سناً وأنتى كنت أتحدث مثل الكبار. وقد أعتاد أخى أن ينادينى عندما يزوره أصدقاءه ويتحدث معى أمامهم للتباهى. وكانوا يطرحون على أسئلة وكنت أجيب إجابات واضحة فصيحة. وكان أبى يُعجب بذلك، وكان دائماً ما يجيب عن أسئلتى. وقد دفعنى هذا للاعتقاد بأن قدراتى العقلية على جانب كبير من الأهمية إذا ما أردت أن أنال حب الآخرين. وقد كان ذلك اكتشافاً هاماً بالنسبة لى عندما شببت عن الطوق. وهكذا ولأننى كنت ألقى المديح فى كل وقت، ونظراً لما كنت أقول، فقد تصورت أن أسلوب تفكيرى وحديثى يشكل جانباً من شخصيتى. فأنا أتمتع بالذكاء، وقد لقيت تشجيعاً، ولذلك فقد كان التعليم بالنسبة لى أمراً طبيعياً. وعندما بلغت الثالثة عشرة من عمرى، كان لزاماً على أن أحصل على إذن إذا ما أردت الخروج من المنزل. وعندما تجيء الإجابة بالرفض، كنت ألحظ أن أخى قد اعتاد الخروج كلما أراد. وقد بدأت أسأل عن السبب. وكانت أسرتى تأخذنى مأخذ الجد فيما يتصل بتعليمى، وربما تصورت أنهم سيأخذونى مأخذ الجد بمساواتى بإخوتى. غير أنني لم أحصل على الحرية التى حصلوا هم عليها. وربما شعرت أنني على نحو ما ولد مثلهم غير أنني لا أتمتع بحقوق الأولاد. وربما كان التعليم بالنسبة لى ضرباً من التشبه بهم. فمتذ سن مبكرة كنت مدركة للحقوق المختلفة التى يتمتع بها الرجال والسيدات. ويتمثل العنصر الآخر الذى ترك أثره فى تربيتى فى أن والدى، وقد كان قارئاً جيداً، كان مؤمناً بالمشاركة فى الحياة العامة، فإذا لم تكن تلك المشاركة عبر قنوات منظمة، فلتكن ضرباً من الالتزام بأن نعى بما يقع خارج منزلنا. وقد أعتاد أن يناقش الأمور السياسية مع أصدقائه بينما كنت أنا متواجدة معهم. وأتذكر فى طفولتى أن أبى كان يأتى بالصحيفة ويعدنى بأن يدفع لى قرشاً إذا ما قرأت له جانباً منها. وكنت أجلس إليه وأقرأ له، وأسمع له عندما يتحدث فى شئون السياسة. ونشأت على الاهتمام بالحياة العامة. فجميعنا فى أسرتنا لم نشعر بأننا منفصلين عن الحياة العامة. ولم تكن أسرة تقليدية بهذا المعنى .

وعلى الرغم من الدعم الذى قدمه والدا عزة وسهام لهما فيما يتصل بتعليمهما، فإنَّهما قد وضعا مع ذلك العقبات التى منعتهما من التشبه بالأولاد فى سلوكهما وحركتهما. ويسرى فى الكثير من الروايات ذلك الشعور بالتفرقة والذى يقوم على حقيقة أنَّهنَّ وُلدن فتيات بغض النظر عن مقدار الدعم الذى يقدمه أقاربهنَّ لهن. وفى أغلب الأحيان، يُنظر إلى التذبذب بين الدعم والمنع على أنه يمثل تناقضاً أدى بدوره فى واقع الأمر إلى أشكال من التمرد الشخصى، وإلى المشاركة فى أساليب منظمة للكفاح. وعلى سبيل المثال، فهناك من حذا حذو نادية فى رؤيتها لأيام الصعوبات بوصفها أياماً جلبت لهنَّ الخير على نحو غير مباشر، فقد ساعدتهنَّ تلك الأيام الصعبة على اكتساب القوة فى مواقع الكفاح التالية :

كنت الرابعة فى ترتيبى بين إخوتى، عندما كان والداى يودان أن ينجبا ولداً. وكنت سيئة الحظ لأننى وُلدت كفتاة غير مرغوب فيها، وكانت بشرتى أكثر سمرة من أخواتى، بالإضافة إلى أن ولادتى وافقت فترة الحداد على وفاة جدى. ولذلك نشأت وقد تقبلت وضعى الأدنى. بينما كان أخى الذى وُلد بعدى بسنة وتسعة شهور مصدر سعادة الأسرة. غير أنَّنى فيما بعد نظرت لكل ذلك كمزية، فما يهم هو أنَّنى اكتسبت شخصية أقوى، وأنَّ أخى الضعيف اضطر أن يحذو حذوى .

وتؤكد نادية، مثلها فى ذلك مثل الكثيرات غيرها، أن تجاربها الشخصية فيما يتصل بالتفرقة القائمة على النوع جعلتها حساسة لكافة أنواع الظلم، وغرست فى نفسها كراهية لكافة أنواع الاستغلال. غير أن نادية تقر بأنَّ هذه الأحداث قد تتسبب فى عقد لا يمكن علاجها، وعقبات نفسية تستمر مع المرأة طوال حياتها. وفى حالة هانية، نجد أنَّها تلقت إشارات متناقضة من أقاربها. فبينما كان والدها يقدم لها الدعم، ويعاملها معاملة مساوية لمعاملة إخوتها من الذكور، فإنَّ والدتها ظلت تذكرها بـ"التصرف بوصفها فتاة وليس فتى". وهى تتذكر أيضاً أن أخواتها الذين شاركتهم النشأة الأولى ولعبت معهم ومع أصدقائهم قد اعترضوا على اتخاذها أول صديق لها.

وقد تؤدي هذه الإشارات المتناقضة إلى إحساس بالارتباك، غير أنَّه فى الحالات الخاصة بالناشطات نجد أنَّها أدت إلى تزايد المعرفة بالذات، والقوة المعنوية، والحس السياسى. وما نحتاج إلى تأكيده مع ذلك هو أن دعم الأب ليس ضرورياً كي تصبح

المرأة ناشطة فى مجال حقوق المرأة. فعلى سبيل المثال ، نجد أن منى تصف والدها كما يلى "كان متعصباً فى اعتقاده أن مكان المرأة هو بيتها، وأن واجبها الأول هو تجاه زوجها ثم أولادها". وعلى الرغم من هذا التصوير فإن منى لم تشعر بأية كراهية تجاه والدها: "إن أبى شخص لطيف غير أنه مشوش التفكير فيما يتصل بالمرأة. وأعتقد أن ذلك ناتج عن تربيته. فقد توفيت والدته ونشأ يتيماً يحارب للبقاء حياً". أما الشخص الذى تحتقره وتحمله مسئولية الألم والصعوبات التى مرت بها فهى أمها التى تقول عنها:

تمثل أمى المشكلة الأساسية فى حياتى. فهى تكره النساء وذلك يكشف عن مدى كراهيتها لنفسها. ويمكننى أن أصارحك بذلك الآن لأننى أستطيع أن أرى وأفهم مستعينة بالتحليل العلمى. فقد كانت تتمنى دائماً إنجاب ذكر، وهذا أمر معروف. ولم تعمل أمى قط، ولم تكن على قدر من التعليم، غير أنها كانت تتسم بالجمال. وهى تمثل المرأة الجميلة فى صورتها المعروفة، وهى تحيل حياة زوجها وأبنائها جحيماً لمجرد أنها لا تبرح البيت. فقد كان الأمر محبطاً لها، ولكن حتى إذا ما أُتيحت لها فرصة للعمل، فإنها لا تفعل، لأنها لا تؤمن بالعمل .

وقد تسببت والدة منى فى آلام وأوجاع مستمرة لابنتها بما وضعت من قيود، وما وجهته لها من إهانات، وما سلطته عليها من ضرب فى أيام الطفولة والمراهقة، بالإضافة إلى تدخلها مؤخراً فى حياتها الزوجية. وقد روت منى من الأحداث الرهيبة والمزعجة ما لا يمكن عرضه للنشر فى هذا المقام، غير أن الإذلال والهجمات المستمرة على يدي والدتها قادت منى إلى قرار أن تقاطعها فلا تكلمها: "لقد قررت أن أخرجها من حياتى لأننى لم أعد أستطيع تحملها أكثر من ذلك".

وعلى الرغم من أن حالتى سامية ونيفين لم يكن على نفس القدر من الصعوبة التى واجهتها منى، فإن كليهما واجهها صعوبات كبيرة فى علاقتهما بأمهما. فقد توفى والدهما فى طفولتهما وتولت أمهما وأقاربهما تربيتهما. وقد توفى والد سامية عندما كانت فى الرابعة من عمرها، وتقول: "لقد نشأت فى بيت مع أب لى، وأم، وزوجة أبى الأولى، وأخت غير شقيقة^(٢١). وأتذكر أنى كنت أحب زوجة أبى كثيراً، وأظن أن أمى كانت تغار من ذلك، وقد ظننت أن تلك الأمور طبيعية، ولى ذكريات جميلة لتلك الأيام

التي أمضيناها في ذلك البيت". وعندما توفي والد سامية، انتقلت سامية ووالدتها إلى شقة أخرى. وقد عانت سامية ووالدتها من شظف العيش بكل معانيه بينما حاولت الأم أن تفي بمتطلبات أسرتها. وعندما بلغت سامية التاسعة من عمرها، اضطرت لمصاحبة والدتها إلى المملكة العربية السعودية حيث حصلت أمها على وظيفة مدرسة: "لقد كان الوضع فظيماً هناك. فالحياة ما هي إلا تناول للطعام والإنفاق على الاستهلاك، والاضطرار إلى مخالطة أسوأ أنماط المصريين. وقد تأقلمت أمي معهم وصارت محافظة إلى أبعد الحدود".

وقد حفلت مراهقة سامية والعقد الثالث من عمرها بالصراع مع أمها التي حاولت أن تفرض عليها قواعد صارمة وجعلتها تشعر "أن هناك ما يعيبها، لأنها مختلفة". وقد أصبحت تلك الصراعات واضحة بصفة خاصة عندما فشلت خطوبة سامية مرتين. ولم تكتف الأم بأن تحت سامية على الزواج وإقامة حياة "طبيعية"، بل إنَّها استعانت بالأقارب كي يمارسوا ضغوطهم عليها. وقد بلغ قلق الأم تجاه سلوك سامية غير التقليدي مبلغاً تحول معه إلى اقتناع بأنَّ ابنتها قد أصابها مس من الجن. وقد أدى هذا في نظر سامية إلى حساسيتها الفائقة وقلقها فيما يتصل بصورتها في عيون الآخرين.

وتختلف المتاعب التي مرت بها نيفين عن الصعوبات التي واجهتها منى مع أمها، وعن المشكلات التي مرت بها سامية. غير أن نيفين مرت أيضاً بضغط عنيقة من جانب والدتها وخاصة فيما يتصل بالزواج، وتقول: "كانت أمي تعاني من بعض الاكتئاب وقد اعتادت أن ترى فيّ وفي أختي سبباً لاكتئابها هذا. وكانت تصرفاتها توحى باقتناعها بأننا لا نريد لها السعادة". وعندما بدأت والد نيفين وأقاربها في تقديم طالبي الزواج إليها، لتقبل بأحدهم زوجاً لها، قررت أن تتجنب مثل تلك الزيجات التقليدية بأن تبحت لنفسها عن زوج.

وعلى الرغم من اختلاف تجارب نيفين وسامية ومنى مع أمهاتهن، فإن ثلاثتهن يشتركن في تصميمهن ألا يكن شبيهات بأمهاتهن اللاتي يمثلن في نظرهن جانباً من البنية الأبوية السائدة أو ضحايا لها في نهاية الأمر. وبالطبع توجد أمهات يقدمن نماذج إيجابية ويقدمن الدعم لبناتهن. وفي بعض الأحيان، كما في حالة عزة وهانية خلال

حركة الطلبة نجد أن والدتيهما خاضا الكفاح جنباً إلى جنب معهما. وفي حالات أخرى، كما نجد في حالة سهام، أدى حب الأم ورعايتها إلى تقوية الابنة في كفاحها وتقديم الدعم لها كي تشعر بالاستقرار النفسى .

وبينما تضغط بعض الأمهات على بناتهن كي يتزوجن، فإن الأزواج أنفسهم قد يصبحون مصدراً للأسى والضغط. وتعد نيفين إحدى هؤلاء السيدات اللاتي يعتقدن في أن الضغوط المفروضة عليها "لتكون زوجة" كانت أحد الأسباب التي أدت إلى تعاستها الزوجية. فقد التقت بزوجها في الجامعة وبدأت تخرج معه. ولم يكن يسارياً ولا مهتماً بنشاط نيفين في مجال الدفاع عن المرأة، فقد "كان معتدلاً" و"أكثر تفهماً من غيره من الشباب" الذين قابلتهم. وقد كان محل عمله في القاهرة حيث أرادت أن تنتقل. وتقول نيفين "لم يكن ذلك منطقاً سليماً، غير أن ذلك كان أحد الأسباب، وخاصة وأن من قابلت من الشباب لم يتركوا أثراً يذكر في نفسى. وقد أردت أن أعرف رجلاً يبدى اهتماماً بجمعية المرأة التي أنتمى إليها. ولم أجد مثل ذلك الرجل. وفضلاً عن ذلك لم يستطع أحدهم أن يحرك مشاعرى. ولم يكن أحمد يسارياً ولكنه كان معتدلاً، وتوافرت لنا القدرة على التعامل معاً."

وتقر نيفين بأن زوجها، خلافاً للكثير من الناشطين التقدميين في مجال السياسة، يشارك في مسئولية تربية ابنتهما: "يقول لى زوجى دائماً أن الكثير من الأزواج يرفضون القيام بما يتولى القيام به. ولا أعرف كيف كان يمكننى أن أتعامل مع زوج لا يقدم أى نوع من الرعاية لطفلتنا". وبوجه عام، فإن نيفين تعبر عن إحساس باضطرابها للجوء إلى الحل الوسط طيلة الوقت لدرجة أنها تشعر بوطأة الضغوط التي تعاني منها. وأحد الأسباب التي أدت إلى هذا الشعور يتمثل في رغبة زوجها أن تلازم البيت وتتخلى عن الاهتمام بأنشطتها في مجال الدفاع عن حقوق المرأة :

كان هناك مؤتمر فى باريس لمدة ثلاثة أيام وأردت أن أحضره، غير أن زوجى رفض وكان عنيداً للغاية. وعندما رفض لم أرد أن أجعل من الأمر مشكلة كبيرة غير أن المشكلة كانت قد قامت بالفعل فى علاقتنا. ولم أر أن تحدى رغبته سيأتى بخير، لما لذلك من تأثير على ابنتنا وعلى علاقتنا فيما بعد. ولذا فقد قررت أن أستسلم. وقد كان ذلك فى مارس. ثم ذهبت إلى المغرب فى أبريل، ولم يكن يرغب فى مضايقتى على

الدوام فلم يعارض فى تلك المرة وسمح لى بالسفر. وقلت له عندئذ إنه يضع قيداً حول رقبتى فيطلقنى ويشدنى إليه فى كل حين .

وقد حاولت نيفين فى بداية الزواج أن تناقش ما يثير قلقها وهمومها مع زوجها، غير أنها توقفت بعد أن اكتشفت أن رؤيتهما للعالم تختلف اختلافاً تاماً: "والآن فإننى أشرك صديقاتى فى اهتماماتى، وفى بعض الأحيان أشرك أختى إذا توافر لها الوقت، ولكنى لا أشركه ولا أجادله. فأنا أعلم الآن أننا مختلفين، فلا نتناول القضايا الإنسانية العامة بالمناقشة". وفى بعض الأحيان يصبح الشعور بالانخراط فى حياتين مختلفتين كناشطة فى مجال حقوق المرأة، وكزوجة وأم أمراً لا تستطيع نيفين أن تتحملة. ولا يبدو أن الطلاق يقدم حلاً، فهى قلقة على مستقبل ابنتها لما يجلبه الطلاق من متاعب وإدانة اجتماعية. "أخشى أن أؤذى ابنتى. لقد نشأت يتيمة الأب وأعلم ما يمثله الأب من أهمية لابنته من الناحية النفسية. فالأب يمثل درجة من الأهمية توازى أهمية الأم، وليس أقل كما يقال عادة. فطالما استطعت أن أتوافق مع أحوالى فلم لا أستمّر؟ ولكننى فى بعض الأحيان أجد أن حالى سيكون أفضل إذا ما عشت حياتى وحدى". ويمضى قلق نيفين على مستقبل ابنتها فى خط مواز لتجربة منى الزوجية:

تتلخص مشكلتى مع زوجى فى قضيتين أساسيتين. فهو بخيل جداً ونحن لا نتفق فكراً أبداً، فلو كان لطيفاً أو كريماً ودافئ المشاعر لأمكننا أن نتعامل مع اختلافنا فى رؤية الأمور، ولكن هذه الصفات لا تتوافر له على الإطلاق، ولا تتوافر له من الصفات الطيبة غير صفة واحدة ولا يربطنى به إلا تلك الصفة وهى علاقته بابننا. فهو أب حنون لهانى، وهو يحبه ويلعبه .

وفى كثير من الأحيان تضع المسئوليات تجاه الأطفال الناشطات فى حيرة. ففى حالتى نيفين ومنى ينبع القلق الأساسى من الصراع ما بين الانفصال عن زوج لا يقدم السند والدعم، والبقاء معه من أجل الأبناء. غير أن المشكلات تطراً أيضاً على المستوى العملى: كمحاولة التوفيق ما بين الوقت المخصص للأبناء والوقت المخصص للعمل والسياسة. ويبدو أن الإحساس بالذنب ملازم لبعض السيدات على الدوام. وقد عبرت الكثيرات عن أسفهن لاضطرارهن لتترك أطفالهن فى رعاية الآخرين لفترات طويلة.

وكما ذكرت من قبل، فإن الأزواج يلعبون أدواراً مختلفة، غير أن معظم الزوجات يصفن أزواجهن بالتعاون فيما يتصل برعاية الأطفال. وبالنسبة لمن لا تتوافر لهم الموارد المالية فإن دور الحضّانة والمدارس تقدم الحل لمشكلة الوقت بما يتيح الفرصة للناشطات لممارسة عملهن السياسى. كما أن السيدات اللاتى يتمتعن بدخل مادي أعلى يعتمدن هن الأخريات على المربيات لرعاية أطفالهن. وبالنسبة لبعض السيدات فإن الأسرة الممتدة المكوّنة من الأخوات، والأبوين، والأعمام والعمات، فضلاً عن الأصدقاء، توفر نوعاً من شبكات الرعاية التى تخفف من العبء إلى حد ما. وتصف هانية التى عارض أبواها فى زواجها مولد ابنتها بوصفها نقطة تحول فى موقف أبويها :

بعد أن جاءت ابنتى للحياة، بدأت أسرتى تغيير من رأيها فى زواجى وبدأوا يتقبلونه. وقد استمتعت بعامين ممتعين فى صحبة ابنتى. فقد توقفت عن العمل لمدة عام ثم عدت لعملى بعد ذلك. غير أنني أؤكد أن ابنتى تأتى فى المقام الأول من حياتى، فهى ليست مسألة ثانوية. وفى بعض الأحيان، وجدت صعوبة فى التعامل، وخاصة بعد أن استأنفت نشاطى السياسى. وقد مرت فترات سادها الهدوء وكنت أستطيع أن أتعامل مع المواقف، ولكن كان هناك مؤتمرات فى فترات أخرى وكنت أضطر لتحميل جدولى ما لا أطيق. وفى مثل تلك الفترات كان لزاماً على أن أقوم بمسئولياتى داخل المنزل وخارجه. وفى السنوات السبع الأخيرة أصبح الوضع أكثر صعوبة، وتناقص الوقت الذى أمنحه لأسرتى، غير أن زوجى كان يساندنى مساندة كبيرة. فهو يقوم مقامى عندما أغيب، وتجد ابنتى متعة فى صحبته، ولذلك لا أشعر بالذنب. فهى تكبر وقد أصبح لها أصدقاء. وفى نهاية المطاف، هناك خسارة تقع، فإما لا أستطيع أن أفى بمتطلبات عملى أو أجد نفسى مضطرة لإهمال أسرتى وأبنائى. ويشكل هذا الأمر ضغطاً مستمراً على السيدات اللاتى يعملن ويشاركن فى النشاط السياسى. غير أن حياتنا فى منزل يضم كثيرين من أفراد العائلة ساعدنى كثيراً، فهناك دائماً من يعنى بالصغار، وهناك الكثير من الأطفال الذين يلهون معاً. وعندما أنشغل أنا وزوجى كلانا فإن أمى تحمل المسئولية كاملة على عاتقها.

ونجد فى الروايات المختلفة لمشكلات الأطفال ومباهجهم أن العائلة الكبيرة التى ذكرتها هانية تشكل عنصراً هاماً فى قدرة السيدات على "التعامل مع رعاية الأطفال،

والعمل، والنشاط السياسي ببراعة". ويلعب الجيران والأصدقاء، فضلاً عن آباء وأمهات أصدقاء الأطفال دوراً هاماً أيضاً، والقول بأن الأطفال يمثلون عبئاً هو قول غير دقيق. فكافة السيدات اللاتي أجريت معهن مقابلات يؤكدن على السعادة التي يستمدونها من أطفالهم، وتأسف منى التي تحمل حباً كبيراً للأطفال وكانت تتمنى على الدوام أن ترزق بعدد كبير منهم أنها لن تستطيع تحقيق ما تتمناه بسبب تعاستها الزوجية :

إننى أحب الأطفال كثيراً، وأعتقد أنهم أفضل ما فى الحياة. ولو كان لى من الأبناء والبنات اثنى عشر ما تبرمت. وقد أصبحت على نحو ما أتبنى الأطفال بمعنى أننى أوجه كل اهتمامى لكل طفل ألقاه. وبالطبع أنا أحب أبنى حباً يفوق ما عداه ولا أستطيع أن أستغنى عنه أبداً. ولا أجد صعوبة فى التوفيق ما بين عملى وطفلى، لأننى أحصل على سعادة غامرة عندما نجتمع سوياً وناقش بعض الأمور، وعندما أراه يكبر. وإننى دائماً أبهر بالأسلوب الذى يرى به طفلى والأطفال بصفة عامة الأمور من حولنا. وقد أمدت طفلى بقدر كبير من القوة. ففى لحظات مضت من حياتى كان إقدامى على الانتحار وارداً. غير أننى عندما أنظر إليه فحسب أشعر أننى يجب أن أصمد قدر استطاعتى. فلم أعد أعيش حياتى غير عابئة بشىء، وهو ما كان وارداً بدونه. فأنا لا أقرب الخمر مثلاً لأننى لا أريد أن أعرض نفسى للخطر من أجله، فلا أريد له أن ينشأ يتيم الأم. وأنا أرغب فى تنشئته لأنه فى واقع الأمر أهم ما فى حياتى. ولا أضعه أبداً على نفس المستوى مع عملى .

وعلى الرغم من حب منى الكبير للأطفال ورغبتها فى أن تكون أمّاً لعدد كبير منهم، فإنها لم ترغب فى أن تنجب فى السنوات الخمس الأولى من زواجها، لأنها لم تشعر بالتوافق مع زوجها. وقد انفصلت عن زوجها لمدة عام ثم قررت العودة لأنها ترغب فى إنجاب طفل. "وفى هذه الوقت ، لم أكن أعتقد فى الطلاق والزواج مرة أخرى. فإذا كنت أرغب فى إنجاب طفل فإن ذلك سيكون من هذا الشخص وليس من غيره. وعندما أنظر الآن إلى الوراء فإننى أعتقد أنه كان بإمكانى الحصول على الطلاق وأتزوج من آخر وأحيا حياة سعيدة وأرزق بطفل، ولكن نشأتى لم تكن لتسمح بمثل هذه الأمور".

ويقدر ما عانت منى ونيفين من تجربتهما التى خاضا فيها الضغوط والصعوبات فى علاقاتهما بأزواجهما، فإن الغضب والام الناتجين على علاقتهما الزوجية يمثلان

دافعاً لهما فى كفاحهما العام. وهناك سيدات أخريات كن أسعد حظاً مع أزواجهن، وصادفن التوفيق فى الالتقاء بشركاء للحياة يشاركونهم حياتهم. أما نادبة فإنها لم ترغب فى الزواج لأنها ترى فى نفسها صراحة غير محدودة، وصلابة لا تلىن "لقد كان الرجال يخافون أن يتحدثون إلى من هن مثلى من السيدات فى جيلى، وهن السيدات اللائى تتوافر لهن القدرة على التعبير عن آرائهن. كما أننى قد بلغت السن التى يعتقد أن من تبلغها قد فاتها قطار الزواج". وعندما بلغت نادبة الثالثة والثلاثين، تقدم للزواج منها أرملة فى الواحدة والأربعين من عمره، وكانت نادبة تعرفه منذ الصغر وكانت تناديه بـ "عمى". وعلى الرغم من رفضها فى بادئ الأمر، ومقاومتها لضغوط الأسرة، فإن نادبة وافقت على الزواج فى نهاية الأمر بعد ثلاثة شهور من التفكير المتعمق :

لقد توجهت إلى الله بالدعاء أن يبارك فى هذا الزواج إن أراد لى. وقد شعرت فجأة أن هذا هو قدرى . وأخذت الأمر بجدية واستمتعت بحياة أسرية جميلة. وقد كان زوجى شريك حياة رائع وكان يمنحنى القوة. وقد شجعنى أن أنشط وأقوم ببعض الأعمال. وقد خططنا للإنجاب على الفور لأننا تقدمنا فى السن ولذلك فقد أنجبنا طفلين أحدهما بعد الآخر. وقد كان زوجى مقدراً لظروفى وساعدنى كثيراً فى العناية بالطفلين. وقد كان مدركاً بالفعل لدور المرأة وقد أراد قيام مشاركة كاملة بيننا. وعندما كنا نعد طفلنا الثانى للالتحاق بالحضانة، تقدمت للالتحاق بدراسات الماجستير بالجامعة الأمريكية بالقاهرة ، وقد شجعنى زوجى على ذلك كثيراً. ولكن بعد التحاقى وجدت أن على الكثير من العمل الموزع بين البحوث، ورعاية طفلين لا يفصل بينهما سوى عامين، واستقبال الضيوف والعناية بهم فى منزلنا. وقد كان ذلك كثيراً، ولذلك فقد قررت ألا أمضى فى دراستى. غير أنه رفض قرارى وقال لى أنه متى بدأت يجب أن أمضى فى تنفيذ ما عزمته عليه. وقد ساعدنى للمضى قدماً وفى نهاية المطاف كان ذلك أهم شىء قمت به.

وقد اتضح لنادبة أن زواجها تجربة تختلف تماماً عن توقعاتها وما رآته حولها من تجارب. وهى ترجع ذلك إلى تفرد زوجها الراحل إذ أنها ترى أن فكره وسلوكه اللذين يدلان على تفهم هما سمتان غير تقليديتين فى عصره ولا يزالان غير منتشرين حالياً. غير أن نادبة تعبر أيضاً عن نقدها لبعض تفسيرات المساواة: "إننى حريصة على

مفهوم المشاركة، لأننى أعرف بعض الحالات فى الولايات المتحدة حيث جرى عكسها تماماً. فالمرأة تقبع بالبيت وتتوقع أن يقوم الزوج بكل شىء، لأنها تدعو إلى اكتساب المرأة لحقوقها. وأنا أكره ذلك، فأنا أحب المشاركة على أساس من المساواة."

ولم ترغب صديقتها هدى التى زاملتها فى المدرسة الثانوية وتكبرها ببضع أعوام أن تجازف فاخترت عدم الزواج. وقد كانت مرتبطة برجل وتفكر فى الزواج والاستقرار فى مصر قبل أن تحصل على عرض بالعمل فى الأمم المتحدة. وهى ترى أن شىئاً لم يتغير على وجه التقريب فى السنوات الأربعين الماضية فى ما يتصل بعدم استعداد الرجال لمصاحبة زوجاتهم حول العالم :

حتى اليوم ، نحن نعانى من الانحياز على أساس النوع، ونحن نسلم بأن الرجل يمكنه أن يتخذ قراره بمصاحبة زوجته معه أينما ذهب. ولكن لم يحن الأوان الذى تتخذ فيه المرأة قراراً باصطحاب زوجها عند نقلها. فى بعض البلاد مثل السويد يقرر الزوجان من منهما يعتنى بالأطفال ومن يعمل، وذلك يعتمد على من منهما يعمل فى وظيفة أفضل. وأقول لك، أن اليوم سيأتى عندما يجرى تطبيق هذا النظام فى مصر، غير أن ذلك اليوم بعيد جداً.

وتروى هانية التى تربطها بزوجها علاقة مشاركة وصداقة أكثر التجارب الزوجية إيجابية. فقد تعرفت على زوجها بالجامعة، لكنّها "لم تعجب به كثيراً عندئذ". ثم بعد مرور عشر سنوات وكان ذلك فى الثمانينات أصبحت صديقين وجمع الحب بينهما. وقد عارض والدى هانية هذا الزواج، وذلك لأن زوجها مسلم بينما هى قبطية المولد، أضف إلى ذلك أن زوجها لم تكن له وظيفة محترمة :

لقد كان مهتماً بالكتابة على الدوام. وكان من المجموعة التى شاركت فى الحركة الأدبية فى الستينات، ولكنه لم يتخذ الكتابة مصدر رزق له. وعندما كنا نفكر فى الزواج، التحق بعمل أبيه. وقد كان زواجاً غير مناسب من مختلف جهات النظر. وعلى أى حالس، مضينا فى مشروعنا بهدوء وتزوجنا بعد عقد القران أمام مأذون. وفى السنوات الأولى من الزواج أقمنا بعيداً عن والدى. وقد صرنا لصيقين على الرغم من اختلاف شخصيتينا لاشتراكنا فى الكثير من الأفكار، ومناقشتنا للعديد من القضايا. وكنا دائماً نترك متسعاً لبعضنا البعض. فلم نضطر للاختلاط بنفس الدوائر

الاجتماعية، وقد كان غير اجتماعي للغاية. يفضل الانفراد بنفسه، ويتعامل مع الناس على أساس المقابلات الثنائية أو الثلاثية على أكثر تقدير. وقد يشكل هذا مشكلة، خاصة في البداية حتى أدركنا أنه لا داعي لأن نكون متماثلين، وأن لا داعي أن نذهب سوياً في كل مكان. إذ يمكنه أن يكون له أصدقاء، وأن يكون لى أصدقاء غيرهم، ولكننا يمكن أن نخرج معاً في بعض الأحيان. فلسنا مضطرين أن نقدم شخصينا للعالم بوصفنا زوجين طوال الوقت .

وما يبدو في بادئ الأمر أنه نسخة أخرى من "الانفصال" هو في واقع الأمر ترتيب من نوع آخر. وتشكل المناقشات حول الهموم التي تؤرق كل منهما، واهتماماتهما، ومشكلاتهما جانباً من حياتهما اليومية. وتشعر هانية أنها هي وزوجها قد تطورا معاً وأنهما متسامحان فيما يتعلق باختلاف الرأي في إطار علاقتهما : "لقد ناقشنا أشياء كثيرة، وقد أدى ذلك إلى إيجاد حلول للكثير من المشكلات التي واجهناها في حياتنا الخاصة. وفي بداية حياتنا الزوجية اعتدنا الشجار والدخول في معارك عاطفية عندما كان لا يتفهم آرائى، وكنت أشعر بغضب شديد وأود أن أوسعه ضرباً، فقد كنت أشعر أنني على حق." وبمرور الوقت أصبحت العلاقة أكثر تناغمًا واستقراراً، وخاصة لأن مروان يشارك هانية في اهتمامها بقضايا النوع وعلاقات القوى، وهما يتشاركان في أداء الأعمال المنزلية وتربية ابنتهما على أساس عملى .

ويمكن للمشكلات المحيرة التي تنشأ عن الزواج التعس أن تكون إحدى العقبات والضغط الأكثر خطورة في حياة المرأة، سواء كانت نشطة سياسياً أم لا، وترى الناشطات أن الصراعات التي تنشأ عن قيام علاقة زوجية مع زوج غير متعاطف أو مساند لزوجته قد تؤدي إلى إحساس بصراع داخلي لأن المرأة تعيش حياتين منفصلتين داخل المنزل وخارجه. ويعد السعى للحصول على المساندة والتعزية بين الصديقات والزميلات من الناشطات إحدى الوسائل التي تعوض نقص التشجيع والتعاطف في المنزل. وقد خلقت هذه الحاجة عالمًا جديدًا للمرأة، يختلف عن عالم الحريم القديم القائم على الانفصال والذي تسكنه نساء سلبيات مضطهدات، وهذا العالم الجديد أصبحت فيه المرأة مبدعة لثقافتها أو على الأقل ثقافتها الفرعية. وعادة ما تتكون الصداقات عبر الأجيال ، وتروى لنا نادية التي بلغت السبعينيات من عمرها ما يلي:

أشعر أنني سعيدة الحظ لأتني كوّنت صداقات كثيرة من أجيال مختلفة، فلي أصدقاء في العشرينيات والثلاثينيات من عمرهن، والآن لي صديقات من السيدات اللاتي ينتمين لجيل حفيدتي، وذلك لأنني أهتم بصفة خاصة بتتمة العلاقات الإنسانية. ولذلك، فإنني أشعر أن جانباً من حقوقى يقتضى إزاحتى لفرق السن، وليس لي غير شرط واحد لإقامة علاقة صداقة مع الغير وهو الصراحة والإفصاح عن مشاعرنا بقدر الإمكان. ولا يشكل السن حاجزاً بالنسبة لي، غير أن الحواجز قد تنشأ في كثير من الأحيان عندما لا توجد عوامل مشتركة. والمشكلة تكمن في أننا لا نرى من الأصدقاء إلا من يتحركون معنا في نفس المحيط، أو يعملون في نفس الأنشطة.

وتمثل الروابط القوية ما بين زميلات العمل، وما بين النشاط النسائي والصداقات ما بين الناشطات سناً وملاًزماً، بالإضافة إلى كونها أيضاً ساحة لصراعات مريرة. وفي كثير من الأحيان تختفى الخلافات والصراعات الشخصية وراء المناقشات السياسية، كما أن العكس صحيح، فيتجاوز التنافس جنباً إلى جنب مع روح الفريق والعمل الجماعي. وفي زمن لا تبدو فيه الرؤى واضحة تماماً، ولا تتضح معالم الطريق مثل ما كان الحال في عهود سابقة، فإن الصداقات في كثير من الأحيان تصبح مثقلة بالأحمال. وتشرح هانية مشكلات تطور الصداقات التي كانت تعتمد في أساسها على الاقتناع بسياسات وأمال مشتركة :

نحن نتحدث عن مئات الأشخاص الذين اجتمعوا، ولكن بمرور الأيام تناقص العدد لأنه لا يوجد بيننا من يحتفظ بالأفكار أو المشاعر نفسها. في وقت معين أختار كثيرون طرقاً مختلفة. ويتأثر المرء عند كل مرة يرى فيه شخصاً يبتعد عنه. وهناك الكثير من الناس الذين دب بينهم الخلاف. ولقد مررنا بفترة شعرنا فيها بالهزيمة، واليأس، والارتباك، والضياع، وكل ذلك له تأثيره الضمني على القرارات الشخصية. فالناس يتقاربون على أساس من جهود محددة وسمات معنوية، وفجأة نجد أن كل هذه الجهود والسمات غير موجودة. ولذا فإن هناك خيارين: إما الاستمرار في علاقة الصداقة السابقة أو الانسحاب إذا لم يعد هناك أية أرضية مشتركة. وما يبقى هو أننا كنا معاً على مدى خمسة وعشرين عاماً. وقد اتخذت قراراً أن صداقتي مع بعض الناس في الماضي لا تكفى لاستمرار الصداقة في الزمن الحاضر. ولا يتعين على

الأصدقاء أن يتحولوا إلى نسخ مكررة من بعضهم البعض، ولكنهم على الأقل ينبغي أن تجمعهم بعض المفاهيم، والمشاعر، والأخلاقيات.

وقد حذرتني العديد من الناشطات في مناسبات مختلفة ألا أقدم العلاقات بين الناشطات في صورة رومانسية. وخلال مقابلاتي تركت بعض السيدات لدى انطباع أنهن يفتقدن بالفعل نوع الصداقة الذي يسمح بالتبادل الحميم والصريح للمشاعر. وإذا ما أخذنا في الاعتبار الحساسية الناتجة عن خلط النشاط السياسي، بالعمل المهني، والصداقة، فإنه لا يدهشنا الصعوبة التي تلاقىها بعض الناشطات في مناقشة النواحي الخاصة بصلاتهن بغيرهن من الزميلات.

النشاط المعاصر: طبقات من الاختلافات

إن اختلاف الدوافع والخبرات يجب أن يوضح للقارئ أنني لا أنوى أن أقدم صورة "للاشطة المصرية المعاصرة". بل إنني أرى أن هذه المقتطفات القصيرة من حياة الناشطات تقودنا إلى خبرات تتصل بخلفية التجارب والدوافع التي يصدر عنها الأشكال المتنوعة لمشاركة المرأة في النشاط النسائي. كما ترمز هذه المقتطفات إلى كيفية تأثير الظروف التاريخية، والتجارب التي تتضمنها، على المشاركة السياسية الدائرة. ولا تعد هذه الظروف طارئة في حياة الناشطات وإنما تتصل بحياتهن على نحو له مغزاه، وهي لا تحدد العمل السياسي، بل إنها تشكل الاحتمالات، وتطرح الإمكانيات، وتطلق الاتجاهات، وتضع الخيارات في إطاراتها. وتتأثر التوجهات السياسية، والأهداف، والبرامج، وأشكال المشاركة في الحركة النسائية، فضلاً عن البرامج المحلية والدولية بالاتجاهات العامة والأحداث التاريخية. ولا تعد العلاقات الأسرية، والصداقات، وجماعات الدعم من قبيل المصادفة أيضاً، فهي تخضع للتغيرات الاجتماعية والسياسية نفسها التي أثرت في كل ناشطة على حدة.

والأفكار تتعرض للتغير. فما يعتقدده الناس لا يتسم بالثبات المطلق. كما أن العقائد والممارسات لا تتطابق أو تتسق مع بعضها البعض على الدوام. وقد اكتسبت الناشطات الخبرات الجديدة بصفة مستمرة الأمر الذي ساعد في تشكيل مشاركتهن.

ومع ذلك، فقد تبين من فحص حالات هؤلاء الناشطات أن خبراتهن التي ساهمت في تكوينهن تركت أثراً باقية مع الزمن .

وهناك من التجارب ما لا يرتبط بالضرورة بالأحداث التاريخية أو النقلات المجتمعية العامة. فبعض الأحداث التي تتسبب في صدمة شخصية، مثل الشعور بإساءة المعاملة في فترة الطفولة، أو خيانة الأصدقاء، أو فشل العلاقات، أو خيانة الزوج أو الحبيب، أو الطلاق أو الموت، تمثل فواصل تغير من وعى الشخص ورؤيته للعالم من حوله. وقد أشارت الكثيرات ممن قابلتهن إلى سلسلة "الأحداث الحاسمة" التي تركت أثراً في تشكيل وعيهن بالإضافة إلى المزاج العام لعهد سياسي بعينها .

ويقودنى ذلك إلى التساؤل عن الخلاصة التي يمكنني أن أقدمها على أساس من هذه الأمثلة. فهل تلك المقتطفات من سير هؤلاء السيدات ممثلة للفترات التاريخية التي عاصرناها ؟ وقد احتوت تلك الأقوال التي قدمتها على بعض الموضوعات التي تمثل عوامل مشتركة من الناشطات الأخريات اللاتي قابلتهن. ولم يتجه اختياري لتلك المقتطفات لتقديم المثال العام ولا لتقديم الحالات المتفردة، بل وقع اختياري على الحالات التي تصلح أن يضرب بها المثل، فقد كانت استراتيجيتي هي محاولة التوصل إلى الخبرات التي ساهمت في تكوين الناشطات في عهد معينة. وقد اخترت نقاط التحول بصفة أساسية حتى أفحص العلاقة المحتملة بين هذه التجارب و "النشاط السياسي العام". وقد كانت أي محاولة للتعميم على أساس من التجربة الشخصية لأي ناشطة تلقى بالضرورة بظلال يكتفى وراءها مستوى التفرد والخصوصية. غير أن التساؤل الذي أطرحه يتعلق بالمدى الذي أفي فيه بمتطلبات عرض تلك السير من خلال استخدامي لها كحالات بحثية. ويتصل بذلك التساؤل أيضاً السعي لما هو شخصي ومتفرد، أي "الشخص الذي يكمن وراء المثل". ولا شك أن المجال لا يتسع في هذا الكتاب لمحاولة تقديم خلاصة عن شخصيات السيدات اللاتي اخترت أن أقدم سيرهن. غير أن من الجدير بالذكر تأكيد أنه بينما يستقر إحساس المرأة بذاتها في الذكريات الجمعية لفترة سياسية بعينها، فإن هذا الإحساس يبرز من الوعي بالتفرد. وأود أن أشير إلى حاجة ذلك السياق لمنهج بحث خاص يدمج السيرة الشخصية مع السيرة السياسية مع الأخذ في الاعتبار التطورات التاريخية والثقافية الأكثر شمولاً.

وقد حاولت فى هذا الفصل أن أضيف مستوى يرتبط بالسير والتجارب الذاتية يُضاف إلى السياق التاريخى العام الذى جرى عرضه فى الفصل الثانى. ويرتبط الانتقال من نشاط الرعاية الاجتماعية الذى تحركه روح العمل العام ، إلى مختلف أشكال المشاركة السياسية التى تتراوح ما بين الاتجاه القومى الاشتراكى العربى الذى يتصدى للإمبريالية، والأطر النسائية، بالتغيرات الاجتماعية الاقتصادية، والتحوّلات السياسية على المستوى المحلى والدولى. وقد جاء تحدى العديد من السيدات المثقفات للأدوار الخاصة بالنوع بانسحابهن من مجال الرعاية الاجتماعية التطوعية ودخولهن سوق العمل على أساس من التحوّلات التى جرت فى مصر فى فترة ما بعد الاستعمار وما بعد الثورة. وقد تأثرت مشاركتهن حتى يومنا هذا إلى حد كبير بروح الخدمة الاجتماعية، والتطوعية، والشبكات الدولية، وكلها عناصر من مشاركتهن فيما مضى. أما بالنسبة للجيل التالى فإن تجاربهن مع الثورة نفسها، والتغيرات المباشرة ذات الصلة بنظام عبد الناصر صارت حاسمة فى تشكيل وعيهن. ويجب أن نؤكد على أن المراحل المختلفة لنظام عبد الناصر أثارت تجارب مختلفة إذ إن المرحلة الأخيرة من عهد عبد الناصر توافقت مع هزيمة ١٩٦٧ أمام إسرائيل وتزايد موجة التحدى من قبل الناشطين من طلاب الجامعة ضد نظام المخابرات وفساد السلطة. وقد قدمت الحركة الطلابية فى عهد السادات جيلاً كاملاً يعمل فى النشاط السياسى، كما شكلت وعى الكثير من الناشطات المعاصرات. وبقدر ما تمثل الحركة الطلابية فى السبعينيات مدخلاً، وفى الكثير من الأحيان سلسلة من التجارب الحاسمة التى تترك أثرها على الشخصية، فإنها توصف أيضاً بأنها فترة قام فيها الرجال بوضع البنى والبرامج السياسية الأمر الذى منع المرأة من متابعة قضاياها المستقلة التى جرى تهميشها واستيعابها فى قضايا التصدى للإمبريالية والصهيونية والصراع الطبقي.

وتتسم الفترة التى أخرجت لنا الجيل الأصغر من الناشطات المصريات المعاصرات بغياب أى حركة مؤثرة للمعارضة العلمانية، وتزايد الارتباط بالمنظمات الدولية ووكالات التمويل، وإضفاء الطابع المهني على ما كان فيما مضى عملاً تطوعياً. وتميل الناشطات الأكبر سناً للتعبير عن ملاحظتهن السلبية عن الجيل الأصغر، فينتقدونهن لافتقادهن للحماس والوعى السياسى، واتجاههن المهني وسعيهن للشهرة.

غير أن بعض الناشطات الأصغر سناً قد يتوافر لهن قدر من الحماس والاهتمام بكفاح المرأة يوازي ما لزميلاتهن الأكبر سناً. وقد أدت التجارب الشخصية التي تعرضت لها الكثير من النساء من اضطهاد وتفرقة إلى أنهن سعين للتضامن مع نساء أخريات، وبحثن عن أشكال منظمّة للتعبير عن تمردهن. أضف إلى ذلك، أن حتى الجيل الأصغر يتكون من سيدات تختلف لديهن الدوافع والأهداف، ولا يمكن أن يُدرجن تحت فئة واحدة ببساطة.

وفي كثير من الأحيان تتفاعل أطر الأنشطة سوياً، وتُبدى الناشطات مستوى أعلى من الاختيار والانتقاء بدلاً من مجرد إحلال مجموعة من المعتقدات بمجموعة أخرى، وقد عبرت كثيرات ممن قابلت عن ضيقهن لما رأيته من اتجاه عام بين الباحثات، فضلاً عن الناشطات السياسيات والمتقفات في مصر، لتصنيفهن في فئات، الأمر الذي يشوه الطبيعة المتعددة والمتنوعة لنشاطهن. وتصل هذه الظاهرة إلى ذروتها في ما يتصل بـ"ناشطات الاتجاه النسائي العلمانيات"، وهو التصنيف الذي يستخدم ليضم الناشطات غير الإسلاميات. وكما سبق وشرحت في مقدمة كتابي، فإن استخدام مصطلح "ناشطة نسائية" يمثل إشكالية، وقد درس هذه الإشكالية باحثون كثيرون (Abdel-Kader, 1987 Badran, 1994,1995; Karam, 1998) غير أن الاستخدام المضلل لمصطلح "علماني" لم يلق اهتماماً على الدوام. ومن المنظور المعاصر الذي يشهد تنامي الاتجاه الإسلامي، جرى توحيد النظرة للاتجاه العلماني وتقديمه كمفهوم مجرد، وأهملت الفروق ما بين الخطابات والأنشطة المتنوعة. وفي الفصل التالي سأقدم دراسة دقيقة للتفسيرات والممارسات المختلفة للعلمانية بين الناشطات المعاصرات .

الهوامش

(١) بينما يجرى في كثير من الأحيان استخدام مصطلحي حكاية حياة و سيرة حياة للإشارة للشئ ذاته، فإنني استخدم مصطلح حكاية حياة بالتقابل مع سيرة حياة لأنه أقدر على وصف أسلوب اختيار المقتطفات التي جمعتها من حياة السيدات اللاتي قابلتهن، فلم يكن الأمر تدويناً زمنياً للماضي الذي عاشته هؤلاء السيدات، وترى مارسيا رايت Marcia Wright أن حكاية الحياة "يجري تأليفها في جو من الغموض، وقد يؤلف بعضها أو أغلبها وسيط يقوم بترتيب الشهادة ويقدم بهدوء مداخلات شارحة" (Wright, 1986), (quoted in Reinharz, 1992). فحكايات الحياة إذن هي حكايات تنبت من التفاعل ما بين الباحث ونوع محدد من المقابلات، من حيث أنها تتعلق على نحو عام بتاريخ الشخص وليس بظاهرة أو خبرة محددة (Reinharz, 1992:130). ويمكن إدراج حكايات الحياة تحت المسمى العام "التاريخ الشفهي" مثلها في ذلك مثل السير.

(٢) تشير سامية إلى رواية "المتشائل" للكاتب الفلسطيني إميل حبيبي، والتي يصور فيها بطله في كفاحه ضد المحتل الإسرائيلي وعادات مجتمعة وأعرافه.

(٣) أنظر (1982) Philip Abrams, "Historical Sociology" Preface and Introduction على عرض مختصر لموضوع الجدل، ومن بين المؤلفين العديدين الذين تناولوا موضوع الفاعل الإنساني والبنية يذكر أبرامز- Berger & Luck (1957), Merton (1930, 1949), Weber (1960), Eurkheim (1959,1962), Marx (1967), Elias (1978) and Giddens (1979).

(٤) تستخدم نادية مصطلح "الجمعية الأهلية" في سياق فترة زمنية لم يُعرف فيها هذا المصطلح.

(٥) الإمام الشافعي حي في القاهرة يسكنه ذوو الدخول المنخفضة.

(٦) منطقة في القاهرة يسكنها ذوو الدخول المنخفضة.

(٧) سعت الولايات المتحدة بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية لتعزيز تأثيرها وبدأت حملة دعائية واسعة استهدفت تقوية العلاقات التجارية وتقديم المساعدة العسكرية وتقديم المنح للطلاب المصريين.

(٨) وضع الإعلان البريطاني باستقلال مصر الذي صدر من جانب واحد قيوداً على سيادة مصر فيما يتصل بعدد من النقاط وسمح بالتواجد العسكري والتدخل السياسي البريطاني. وقد كانت "حماية الأقليات والأجانب" من بين هذه النقاط. وقد أثارت هذه السياسة ردود فعل متباينة بين المجتمع القبطي: فبينما رحب البعض بالحماية البريطانية، عارضها آخرون من الملتمزين بالوحدة الوطنية (Carter, 1981: 80-88). وعلى الرغم من المشاركة القبطية الكبيرة في السياسات الوطنية والصراع ضد الإمبريالية، وعلى الرغم من الخطاب البلاغي عن التناغم والوحدة الوطنية، ظلت النظرة إلى الأقباط تربطهم بالقوى والتهديدات الأجنبية.

(٩) ناهد طويبا ناشطة سودانية وطبيبة تقف في الصف الأول في الحملات ضد ختان الإناث، وتعمل حالياً في مجال الصحة الإنجابية في مجلس السكان بنيويورك، كما أسست جمعية أهلية تهتم بقضايا الصحة الإنجابية.

(١٠) NCPD هو الاختصار للجنة الجمعيات الأهلية الوطنية للسكان والتنمية.

(١١) صاغ هذا الشعار في الأصل حزب الوفد، أنظر الفصل الثاني.

(١٢) الامتحانات النهائية للصف الثالث من المدارس الثانوية.

(١٣) البعثات الدراسية نظام أقيم في عهد عبد الناصر لإرسال الطلاب المتفوقين للدراسة بالخارج.

(١٤) تمضى رواية رجا في خط مواز لما وصفه شوقي كراس من التفرقة ضد الأقباط، وشوقي كراس صعيدى قبطى هاجر إلى الولايات المتحدة، وهو يرى أن الحكومة تنحاز للمسلمين ضد الأقباط في وظائف التدريس بالجامعة وفي المنح الدراسية. (Karas, 1985:120). (ويُضعف كثيراً من تلك الإفادة عدم دراية صاحبها بنظام معادلة الشهادات الخارجية بالشهادات المصرية، إذ توجد لجنة مشكّلة في المجلس الأعلى للجامعات للبت في تلك المعادلات التي يخضع عملها لمعايير دقيقة معلومة للمشتغلين بالجامعة - أ.د. يونان لبيب رزق).

(١٥) أنظر Farah (١٩٨٦) لوصف عميق للفتنة الطائفية في عهد السادات.

(١٦) يستطيع الزوج أن يحصل على أمر قضائي بعودة زوجته إلى بيت الزوجية بالقوة ورفض إجراءات الطلاق.

(١٧) السيدة زينب والعباسية حيان من أحياء القاهرة.

(١٨) تشير هانية إلى نموذجين أقيما في أواخر الثمانينات في حين مختلفين: مركز حلوان الاجتماعى الذى يقدم خدمات للرجال والنساء من الطبقة العاملة (وتتردد النساء بصفة خاصة على المركز ويستفدن من خدماته فى مجالى الصحة الإنجابية ومحو الأمية)، ومركز الرعاية الصحية بالوايلى وملكيته عامة وقد أسسته مجموعة من الطبيبات اللاتى يشتركن فى رؤية واحدة فيما يتعلق بالسياسات الصحية.

(١٩) أشير فى هذا المقام إلى التأسيس التدريجى لجمعية "المرأة الجديدة" التى تمارس نشاطها منذ عشر سنوات، والتى سيرد تاريخها فى الفصل السادس.

(٢٠) عنوان المجلة "المرأة الجديدة".

(٢١) والد سامية متزوج من امرأتين ويعيش معهما فى نفس الشقة.

الفصل الرابع

العلمانية

تحدي الاستشراق الجديد والتاريخ من وجهة النظر الذكورية

فى أيام صباى لم تكن العلمانية تعنى ما تعنيه اليوم. فقد كانت تستخدم مقرونة بكافة ما تفخر به مصر من أمجاد مثل ثورة ١٩١٩ وحزب الوفد وما إلى ذلك. وفجأة، فى السنوات الخمس إلى العشر الأخيرة، بدأت العلمانية ترتبط بمعانٍ شنيعة. لم تكن "العلمانية" فيما مضى تعنى معاداة الدين، بل كانت تشير إلى العامة فى اختلافهم عن السلطات الدينية. وهى الآن تستخدم بوصفها كلمة شائنة من قبل الإسلاميين الذين غيروا من معناها. وهى تعنى الآن "معاداة الدين"، والإلحاد. وقد كان فرج فودة أول ضحية لهذا الخلط. فمن خلال إقدام الإسلاميين على اغتياله فإنهم قد رسخوا من معنى "علمانى" ليقصدوا بها وجوب قتل من يعتنق العلمانية لأنه خارج على الدين^(١)!

(منى أ.)

تقوم العلمانية على فكرة فصل الدين عن الدولة، وقد كان الأمر هكذا على الدوام فى مصر. فهل يريد من يعارض العلمانية فى أيامنا هذه إقامة دولة إسلامية على غرار إيران؟ وأنا لا أود أن أعيش فى دولة تشبه المملكة العربية السعودية أو إيران. وإذا أردت أن تطبق الشريعة حقاً كما يجرى تطبيقها فى المملكة العربية السعودية فيتعين عليك أولاً أن تحظر بيع المشروبات الروحية وأن تلزم النساء بالبقاء فى بيوتهن، ولذلك فإن هذا لا يمثل حلاً لقضايا المرأة. ونحن نرى أن المحيط العام سيختفى تماماً. ولن

يمنع الحكم الإسلامى ضرب الزوجات، فالزوج لن يتورع عن ضرب زوجته ويتوجه بعد ذلك لأداء صلاة الجمعة .

(سامية أ.)

أنا مؤمنة؛ ولكن إذا ما سئلت ما إذا كان فى إمكانى أن أتخطى معتقداتى الدينية كى أحدد اختياراتى ، فإننى أجيب بالإيجاب، فقد أسىء استخدام الدين، غير أن الدين لا يمثل عدواً. فإذا ما نظرت إلى لب عقيدتى فإننى أشعر أنها تحقق التحرر للإنسانية. ومع ذلك فإننى أرى فرقاً كبيراً ما بين لب التعليمات الدينية وأسلوب ممارسته. وأنا أقف ضد المعتقدات الجامدة فى كل صورها، وأعنى بذلك قيام المؤسسات الرسمية باتباع تعاليم الدين دون ما تفكير. ولا تعنى العلمانية أن المرء قد فقد إيمانه وإنما تعنى أنه لا يستسلم إلى التعاليم الضيقة للسلطات أو الهيئات الدينية الجامدة . كما تعنى أيضاً قبول الاتجاه الإنسانى، وحقوق الإنسان، والتعددية.

(نادية م.)

مقدمة :

إنَّ ما قالته منى وسامية ونادية لا يدع أمامنا مجالاً للشك في أنَّهن قد أعملن الفكر كثيراً في قضية العلمانية وأنَّ التزامهن بهذا المفهوم هو جزء لا يتجزأ من نشاطهن السياسى. ولكن ما الذى يعنيه مصطلح

"علمانى" بالفعل فى السياق الأوروبى وكيف يجرى استخدامه. فهل يشير فى أصله إلى "العامة" بالفعل مثل ما تريد منى أن تقول؟ أم هو قائم على مفهوم فصل الدين عن الدولة كما ترى سامية؟ وهل تغير معنى المصطلح ومغزاه عبر الزمن، وإن كان ذلك صحيحاً فلماذا؟ ويرى الكثيرون ما تراه سامية من أن أوضح مظاهر العلمانية تتمثل فى معارضة تنفيذ الشريعة. فما هو الدور إن وجد مثل هذا الدور الذى يلعبه الدين فى حياة الناشطات نوات الاتجاه العلمانى؟ وترى نادية أن مفهوم العلمانية يعنى فى المقام الأول رؤيةً للدين لا تتسم بالجمود، غير أنَّها لا تعنى أن العلمانى لا دين له. أضف إلى ذلك ما تشير إليه منى من أن الإسلاميين قد استخدموا تعبير علمانى مراراً ليعنى "ملحد" أو حتى "كافر". وقد اكتسب تعريفهم قوة وقبولاً فى الخطاب السائد فى مصر المعاصرة .

ولم يحدث أن أثار مصطلح جدلاً واسعاً واعتراضاً وخطأً كبيراً مثلما أثاره مصطلح "العلمانية". وخلال العقد الأخير اشتبكت الشخصيات والهيئات الثقافية و السياسية والدينية فى مصر فى جدل حامى الوطيس فى الكثير من الأحيان حول أصل العلمانية ومعناها وقيمتها. وقد ساهم الباحثون والصحفيون الذين قدموا آراءهم من خارج مصر فى انتشار الخط وإشاعة الغموض حول هذا المفهوم. ومما يثير الدهشة أن الكثير من الكتاب يعجزون عن تقديم تعريف لما يقصدونه بمصطلح العلمانية عندما يتناولونه فى كتاباتهم. وفى كثير من الأحيان يمضى غياب التعريف فى خط موازٍ للدائرة العلمانية" التى تفتقد هى الأخرى للتحديد وتخضع لنظرة أحادية. وبصفة عامة لا تأخذ الاتجاهات التى يتزايد اهتمامها بالحركات الإسلامية فى اعتبارها أن الاتجاهات العلمانية بعيدة كل البعد عن تمثيل فئة واحدة بل أنَّها تكشف عن مواقف وانتماءات سياسية ومواقف مختلفة من الدين.

وبالمثل فإن أحد أهم السمات المتضمنة لمصطلح العلمانية فيما يتصل بحق المواطنة في مصر، وأعنى بذلك مساواة جميع فئات المواطنين أمام القانون والدولة، كمثال يتبع، لم يلق إلا قدراً يسيراً من الاهتمام. ويراد للعلمانية أن تلعب دوراً إيجابياً في السيطرة على الكيانات متعددة الأعراق، والأديان، مثل ما هو الحال في مصر (مسلمون وأقباط). وللأسف فقد فشلت الكثير من النظم العلمانية في فترة ما بعد الاستعمار في منح المساواة في حق المواطنة للأقليات الدينية، ولم تفلح في كثير من الأحيان سوى في تقوية شرعية ديانة الأغلبية وإن كان ذلك من وراء ستار. وفي بعض الحالات مثل الهند تقدم أمريتا شهاشهي Amirta Chhachhi رأياً مؤداه أن الشعور الوطني يغلب عليه الطابع الجماعي لا العلماني (1991:155). ومع ذلك ففي مصر نجد أن غالبية مساندي العلمانية يؤكدون على الصلة ما بين العلمانية و"الوحدة الوطنية" بين الأقباط والمسلمين. وكما تقدمت برأبي في موضع آخر (Al-Ali, 1997) فإن أزمة العلمانية في مصر تتلزم والأزمات ذات الصلة بالهوية الوطنية والتي تتعرض لتهديدات "داخلية وخارجية"^(٢).

وقد بدأ جانب من اهتمامي بالناشطات العلمانيات عندما أدركت أن تسليط الضوء الجارى حالياً على الدوائر الإسلامية يتم في أغلب الأحيان على حساب تقديم وصف تحليلي ومتعمق يبرز الاختلافات ما بين الجماعات والناشطين فيما يتصل باتجاهاتهم السياسية، وموقفهم من تهميش وضع المرأة وأنشطتها. غير أن خاطراً طاف بذهني تصورت من خلاله وجود تنوعات في تفسير العلمانية ومظاهرها في سياسات تلك الجماعات وهؤلاء الناشطين وأساليب حياتهم. ولم يحول هذا خاطر دون شعوري بالدهشة أثناء قيامي بعملى الميداني وذلك عندما ووجهت بتفسيرات متعددة للعلمانية ومظاهرها.

وقد وصفت في مقدمتي الاتجاه العلماني باعتباره قبول الفصل ما بين الدين والسياسة، وأكدت على أنه لا يعنى بالضرورة اتخاذ موقف معاد للدين أو الإسلام. أضف إلى ذلك أنني أشرت إلى أن السيدات نوات التوجهات العلمانية لا يساندين استخدام الشريعة كمصدر رئيسي أو أوجد للتشريع، بل إنهن يرجعن إلى القانون المدني والقرارات الصادرة عن مؤتمرات حقوق الإنسان التي تبنتها الأمم المتحدة،

باعتبار أنها تمثل أطراً مرجعية لنضالهن. وقد لقي هذه التعريف بالفعل صدى لدى الكثيرات ممن قابلتهن. ومع ذلك فإن نتائج بحثي تشير إلى أن هذا التعريف يخل بتعددية تفسير العلمانية ومظاهرها بين الناشطات المصريات، كما أنه لا يفسر الاستمرارية ما بين العقيدة والممارسات الدينية والعلمانية في الحياة اليومية للمرأة .

وفي الصفحات التالية أمل أن أوضح بعض هذه الآراء المختلفة فيما يتصل بالعلمانية في مصر وأوجه فهمها بين الناشطات المصريات. كما سأقوم باستكشاف كيف تترجم هذه المفاهيم إلى ممارسات سياسية وأساليب حياة فردية. ولكن قبل أن أتناول المفاهيم الخاصة وممارسات السيدات اللائي قابلتهن، أود أن أضع مناقشتي في سياق مناظرات أكثر عمومية حول الاتجاه الإسلامي والعلمانية. ويرتبط بتلك المناظرات فكرة المساواة التي لا تقبل المراجعة ما بين العلمانية و"الغرب" والمسيحية، وهو أمر يشكل في رأيي افتراضاً مسبقاً يعتمد على رؤية جوهرية ينبغي أن تُراجع. كما أنني سأناقش باختصار بعض الرؤى حول العلمانية في المجال المصري.

الروح الإسلامية أم الاستشراقية ؟

إن الكثير من الدراسات الحديثة التي تستكشف "طبيعة" المجتمعات المسلمة وتوافقها مع المفاهيم الغربية كمفهوم الدولة الوطنية، أو الديمقراطية، أو العلمانية، والتي لا تزال بعيدة كل البعد عن التحرر من التعميمات التي تقع خارج نطاق التاريخ التي اتسمت بها بحوث الدراسات الاستشراقية المبكرة، لا تزال تقدم صوراً جامدة وجوهرية لسماوات الإسلام. (Bill & Springborg, 1990; Crone, 1980; Crone and Hinds, 1986, . Gellner, 1983a' Kedourie, 1992; Pipes, 1983, 1992; Vatikiotis, 1983, 19887) وعلى نفس المنوال نجد أن التطورات السياسية الأحدث، وخاصة تزايد شعبية الحركات الإسلامية ومطالبها، يجري تفسيرها في كثير من الأحيان من خلال الإطار الديني الإسلامي. وربما اختلفت الدوافع والمناهج ولكننا نجد مصداقاً لرؤية سامي زبيدة Sami Zubaida عندما نرى أن الكثير من الكتاب يقدمون مفهوماً لـ "جوهر تاريخي مستمر للإسلام" . (1993:Xiii)

ومن ناحية أخرى، فإننا نجد أن هناك حجة تشيع بين الإسلاميين، والمسيحيين العلمانيين، وبعض الباحثين تتعلق بوجود رابطة طبيعية وجوهرية ما بين المسيحية والعلمانية الأمر الذي يفهم منه الفصل ما بين الدين والدولة. وتتجاهل هذه الحجة، التي تستخدم لتأكيد الفرق الجوهرى ما بين الإسلام وعلاقته الخاصة بالعلمانية، التطور التاريخى للعلمانية وسياقاتها السياسية، فضلاً عن التغييرات التي طرأت على مظاهر العلمانية فى الدول التي تسود المسيحية بها فى أيامنا هذه. وتعارض نيكى كيدى Nikki Keddie مفهوم تواجد نموذج جوهرى وقائم بذاته للعلمانية داخل إطار الحضارة المسيحية وتشير إلى التقاء العلمانية الثقافية والمجتمعية والعلمانية التي ترعاها الدولة والتي لا تزال موضع جدل وصراع منذ قرون فضلاً على أن هذه الاتجاهات العلمانية لم تنشأ على نحو طبيعى.

بينما يجرى فى كثير من الأحيان تتبع الأصول الفكرية للعلمانية إلى لوك Locke ميل Mill فيما كتبه عن التسامح، أو إلى فولتير Voltaire وغيره من رموز التنوير الذين هاجموا الكنيسة والمؤسسة الدينية؛ وإلى هنرى الثالث Henry III الذى صادر ممتلكات الأديرة وزاد من سيطرة الدولة على الكنيسة، وإلى المستبدين المستنيرين الذين كان لهم اليد العليا فوق الكنيسة، وبالطبع إلى أعمال الثورة الفرنسية ونابليون والجمهورية الأمريكية الجديدة. وقد شملت هذه الخطوات الحكومية قدراً من التسامح مثل تحرر اليهود، وتحرر الكاثوليك فى البلاد البروتستانتية والبروتستانت فى البلاد الكاثوليكية، إلى جانب الحد من الامتيازات المخصصة لدين الأغلبية. وبحلول القرن السابع عشر أو الثامن عشر، ساد الشعور بأن الصراعات الدينية سواء أكانت فى حروب أوروبا الدينية، أو فى الاضطهاد الذى مارسته المستعمرات الأمريكية، هى صراعات دموية لا تؤدي لنتيجة حاسمة وتضر بالوحدة الوطنية، ولذلك فقد تزايد الشعور بأنه من الأفضل لكافة الحكومات أن تفسح مكاناً لكافة الجماعات الدينية. (36 : 1997)

ومثلما دافع سامى زبيدة عن وجهة النظر القائلة بأن حقوق الإنسان لا تحمل فى طياتها سمة غربية جوهرية (انظر الفصل السادس)، فإن كيدى أيضاً يعرض رأياً مؤداه أن مفهوم العلمانية تطور تاريخياً ولا يزال مسرحاً للجدل. فالفجوة ما بين قرارات حقوق الإنسان وتطبيقاتها الفعلية توازى الفجوة ما بين مفهوم العلمانية المعلن

ووجوده على أرض الواقع. ومعظم شعوب غرب أوروبا تفسر العلمانية على الأرجح بأنها فصل الدين عن الدولة. ومع ذلك فقد أثبت العديد من المؤلفين أن الدول الغربية تبدي قدرًا كبيراً من التنوع في معالجتها الخاصة للدين وعلاقته بالدولة (Forster, 1972; Keddie, 1997; Rossiter, 1992; Saghal, 1992; Sahghal & Yuval-Davls, 1992; . Yuval Davls, 1992). ولا يمكننا أن نجد الفصل الكامل ما بين الدولة والدين في أية دولة غربية .

ففي ألمانيا، على سبيل المثال، فإن الحزب الحاكم السابق وهو الاتحاد الديمقراطي المسيحي لا يمكن أن نصفه بالعلمانية تحديداً، فاسمه وحده قائم على هوية دينية. ويتدخل الدين في سياسات الدولة بأساليب مختلفة، ومثال ذلك تحصيل الدولة لضرائب دينية تستخدم لدعم الكنيسة، وتدخل الأساقفة الكاثوليك المستمر في السياسة وخاصة في بافاريا حيث الجنوب الألماني المحافظ. بل أن الحد الفاصل ما بين الدين والدولة يبدو مشوشاً بدرجة أكبر في بريطانيا حيث لا يقتصر الأمر على وجود دين رسمي تستقر ملكة إنجلترا على رأسه، بل يمتد ليشمل وجود قانون لازدراء الدين وُضع لحماية كنيسة إنجلترا (دون غيرها من الكنائس أو الجماعات الدينية) من الهجوم عليها.

وترى جيتا ساجال ونيرا يوفال دافيس في المقدمة لكتابهما: رفض الالتحاق بخدمة الكنيسة: المرأة والأصولية في بريطانيا Refusing Holy Orders: Women and Fundamentalism in Britain (1992) ، الذي يضم مجموعة من المقالات في تحليل الأصولية المسيحية واليهودية والهندوسية والإسلامية في بريطانيا فيما يتصل بتوجهاتها الخاصة إزاء المرأة - أن بريطانيا بعيدة كل البعد عن كونها دولة علمانية:

ومسيحية بريطانيا مع ذلك ليست مسألة انتماء ديني ولا تشكل حتى جانباً من إيديولوجية وطنية بريطانية، وإنما هي مسيحية مستقرة في القانون، وتمتد لما وراء رمزية وضع الملكة بوصفها أعلى سلطة اسمية لكنائس إنجلترا وسكوتلندا. فبادئ ذي بدء تشترك الكنيسة بدرجاتها العليا في العملية التشريعية البريطانية. فهناك اثنان من كبار الأساقفة وأربعة وعشرين أسقفًا يتمتعون بعضوية مجلس اللوردات (اللوردات الروحانيون) وهو المجلس الأعلى في البرلمان البريطاني. كما أن رئيس الوزراء يقوم بواجبه في تعيين كبير أساقفة كنتربري، وقد كشف الجدل الذي دار في وسائل الإعلام

مؤخراً حول تعيين كبير الأساقفة أن انتماء رئيس الوزراء ومواقفه الدينية ينبغي أن تؤخذ في الاعتبار على نحو مناسب. أضيف إلى ذلك أن الكتاب السنوي لليهود يذكر في الفصل الخاص بالقوانين البريطانية التي تتعلق باليهود خاصة أن الوضع القانوني لتولى يهودى (أو شخص غير مسيحي) رئاسة الوزارة فى بريطانيا لا يتسم بالوضوح. فلم يحدث فى تاريخ بريطانيا أن تولى يهودى هذا المنصب (فقد تحول ديزرائيلى إلى المسيحية). (Saghal and Yuval-Davis, 1992:11-12).

والمؤلفتان عضوتان فى جماعة "المرأة ضد الأصولية" ومقرها بريطانيا WAF (Women against fundamentalism)⁽³⁾ وهى تضم سيدات من مختلف أنحاء العالم ومختلف الخلفيات السياسية والدينية. وتستخدم الجماعة مصطلح الأصولية لتعنى به كافة أشكال التطرف الدينى التى تشترك من وجهة نظرهن فى سمات معينة من بينها النظرة إلى المرأة بوصفها "تجسيد للأخلاقيات والقيم التقليدية للأسرة والمجتمع بأسره" والصراع للتحكم فى "عقول المرأة وجسدها" (WAF, 1995: no.6 back cover). ويصف هومى بابا Homi Bhaba "المرأة ضد الأصولية" بأنها جماعة مؤيدة لـ "علمانية دونية" - فى مقابل "العلمانية الليبرالية" - ويعرّفها على أساس مبدأ "عالم تسوده المساواة يقوم أفرادها باتخاذ قرارات بشأن حياتهم وحياة الآخرين على ضوء المنطق والحس السليم" (1995:6). ويستخدم بابا مفهوم "الدونية" كى يشير إلى جماعات الأقليات التى تعرف الأغلبية نفسها مقارنة بها، غير أن تلك الأقليات تحتل موقعاً يسمح لها بتدمير سلطة من يملكون قوى الهيمنة. ويرى بابا أن السيدات اللاتى ينتمين إلى الأقليات الدينية "يجدن أنفسهن فى موضع هجوم يطلقه عليهن المجتمع متعدد المعتقدات ومتعدد الثقافات حيث يقوم الأعضاء الذكور به دائماً على توجيه الضربات بوصفهم الممثلين المعترف بهم للـ "مجتمع" فى المحيط العام". (ibid.). ولذلك فإن هؤلاء السيدات لا يملكن الاختيار والحرية التى تقام عليها مفاهيم العلمانية الليبرالية، ولكنهن يحتجن كما ترى ساجال مساحات علمانية لضمان الاختيار وأخلاقيات التعايش.

كما تهتم جمعية "المرأة ضد الأصولية" فى دراستها للحركات الدينية فى أنحاء العالم بتلك النواحي التى تعارض مفهوم العلمانية فى المجتمع البريطانى، مثل المؤسسة الدينية المتمثلة فى كنيسة إنجلترا، وقوانين ازدراء الدين، وفرض المسيحية فى مدارس

الدولة، بما في ذلك الجمعيات المسيحية وتمويل الدولة للمدارس الدينية. ويصبح من الواضح أن مفهوم العلمانية يبقى قضية يثار حولها الجدل في بريطانيا ولا يمكننا أن نبسطها بإشارتنا إلى "النموذج المسيحي". ولا يقتصر تحدى الدوائر الدينية فى المجتمع ونظرة الدولة للدين والعلمانية على الأعضاء المسيحيين بل يمتد ليشمل الأعضاء اليهود والمسلمين والهندوس فى جمعية "المرأة ضد الأصولية" (فضلاً عن رجال وسيدات فى أنحاء بريطانيا) ، ولا يبدو أن الجدل سينتهى .

وحتى فى الولايات المتحدة حيث النصوص الدستورية والنقوانين وسياسات الولايات أقرب ما تكون للتعريف الشائع للعلمانية، فإن فصل الدين عن الدولة لا يلتزم به على نحو قاطع على الدوام. فعلى الرغم من أن إقامة الصلوات بالمدارس تعد خرقاً للقانون، فإن الكثير من المدارس فى عدة مناطق بالولايات المتحدة تقيمها (Keddie, 1997: 25)، كما أن الكنائس والطوائف الدينية معفاة من الضرائب ويُقدم لها الدعم بأشكال متعددة. أضف إلى ذلك زيارات الرئيس كلينتون وزوجته هيلارى للكنيسة وهى الزيارات التى تحظى بتغطية إعلامية واسعة خاصة فى وقت الأزمات مما يعد وجهاً من وجوه العلاقة غير الواضحة ما بين الدولة والدين .

ويوضح المد الأصولى المسيحي، وحركة "الميلاد المسيحي الجديد"، وازدهار العديد من الطوائف المسيحية وغير المسيحية، والجماعات الدينية والكنائس أن مفهوم "فصل الكنيسة عن الدولة" يخفى وراءه كوكبة متشابكة من العناصر والقوى العلمانية والدينية تفوق ما يبدو منها على السطح. ويشير كيدى إلى استبيانات الرأى وأعداد الأعضاء بالكنائس :

تثبت الولايات المتحدة دائماً أنها سبّاقة فى مجال العقيدة الدينية والانتظام بالكنائس، بما فى ذلك الحضور المنتظم فى الكنائس، مقارنةً بأية دولة فى أوروبا الغربية. وهذا يعنى أن ما تعد أكثر الدول الغربية الكبرى علمانية هى على الأرجح أيضاً أكثرها تمسكاً بالدين سواء استدللنا على ذلك بنسب الحضور فى الكنائس وعضويتها، أو بقياس الرأى العام الدينى. (1997:134)

ويتعين على تحليلات العلمانية فى الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى أن تأخذ هذه التعقيدات والتنوعات فى الاعتبار، كما يتعين عليها أن تنتبه للممارسات فى

تعارضها مع الشعارات. أضف إلى ذلك أن تحليل العلمانية فى الولايات المتحدة يكشف أيضاً عن ضرورة التفرقة النظرية ما بين الالتزام الدينى الفردى والسياسة.

ولا تتجه نيتى لتقديم دراسة دينية للإسلام والمسيحية فى علاقتهما بمفهوم العلمانية، فذلك إسراف فى الطموح. غير أنني أرى أن الإسلام والمسيحية لا يمكن فهمهما خارج إطار تفسيراتهما وممارساتهما الخاصة. وأعنى بذلك أن مسألة ما إذا كانت المسيحية أكثر توافقاً من الإسلام مع العلمانية تقيم فرضاً مسبقاً عن دين متشبيء بينما يجرى تجاهل الأمر الواقع. فقيام الدول الوطنية، والصراع من أجل البقاء، والتعرض لوسائل الإعلام العالمية، وانتشار التعليم بين الجموع، والتصنيع كلها عوامل تؤدي إلى العلمانية وتشكل الواقع اليومى لأى شعب يعيش فى مجتمع سواء أكان مسيحياً أو مسلماً. ومصر لا تمثل حالة استثنائية، فقد سارت المناظرات الفكرية والسياسية عن العلمانية والإسلام فى خط مواز مع الاتجاه إلى العلمانية الذى يوجهه كل من المجتمع والحكومة فى خطوات ملموسة مثل إبعاد علماء الدين عن معظم شئون التعليم، وتزايد سيطرة الدولة على الأزهر، وقيام نخبة جديدة من العسكريين، والسيطرة على الأوقاف والزكاة، بالإضافة إلى العديد من عوامل التحول إلى العلمانية المذكورة آنفاً.

غير أن الجدل الفكرى حول العلمانية داخل مصر يدور فى إطار الحجج التى تعتمد على مفاهيم جوهرية عن الإسلام من ناحية والمسيحية والغرب من ناحية أخرى، وقد وضعت التوجهات الإسلامية المتزايدة أنصار الآراء العلمانية فى موضع الدفاع عن أنفسهم على نحو متزايد الأمر الذى حد من الآفاق الخطابية لأية مناقشة.

العلمانية المصرية: التاريخ من وجهة النظر الذكورية الرسمية

هناك إجماع عام على أن المناقشات العلنية حول العلمانية قد أصبحت تتم على الهامش بعد اغتيال الكاتب والناشط العلمانى فى مجال حقوق الإنسان فرج فودة فى يونيو من عام ١٩٩٢ على أيدي المتطرفين الإسلاميين. واليوم يشعر الكثير من المثقفين العلمانيين بتهديد يمنعهم من التعبير عن آرائهم علناً. وقد أثار اتهام الأستاذ الجامعى

نصر حامد أبو زيد بالرّدة، والمحاكمة التي تلت ذلك الاتهام، وهروب أبو زيد وزوجته ابتهال يونس إلى الخارج غضباً واسع النطاق، وتعبيراً عن التضامن في أوساط المثقفين والفنانين. غير أن هذا الفصل المأساوي أوضح مرة أخرى ما ألت إليه المواقف العلمانية في مصر المعاصرة من تعرض لمصير غير واضح وعدائي.^٤

وهناك بعض المفكرين والكتاب ممن كانوا رموزاً علمانية في الماضي مثل حسن حنفي، وصافيناز كاظم، وعادل حسين، ومحمد عمارة، وأنور عبد الملك، وخالد محمد خالد وغيرهم كثير، يساندون الإسلام السياسي (Flores, 1988:28). ولا نجد إجابة شافية توضح الدوافع الشخصية لهذا التحول، فهل اعتمد على اقتناع ديني توصلوا إليه مؤخراً، أم أن التحول يعود إلى التوافق، أو الانتهازية، أو الخوف. وإننا نجد أن خلفياتهم وآراءهم من التنوع بحيث لا يمكننا أن نتحدث عن "مدرسة فكرية" تجمعهم. غير أن تحولهم إلى الاتجاه الإسلامي وتفسير الإسلام بوصفه لب "التراث الشرقي" الواجب عليهم الدفاع عنه ضد الإمبريالية الثقافية الغربية يعد القاسم المشترك بينهم جميعاً.

ويرى عادل حسين، وهو مفكر يساري سابق وناشط سياسي يدعو للأفكار الإسلامية من موقعه كرئيس تحرير لصحيفة "الشعب"، أن "من الصعب في أيامنا هذه أن نجد شاباً واحداً يتمتع بالذكاء لا ينحاز للحل الإسلامي" (1996:5). وهو يتوقع أن يختفي كافة المدافعين عن "مستقبل علماني غربي" في نهاية الأمر ليحل محلهم نخبة جديدة ملتزمة التزاماً واضحاً بالإسلام. ويرى عادل حسين الإسلام ديناً للأغلبية الساحقة من المصريين، ويرى فيه أيضاً "الأساس لثقافة وطنية للمصريين جميعهم، تقوم على أساسه سلوكياتهم ومؤسستهم الاجتماعية" (ibid.: 2). وبعد ثورة ١٩١٩ اتخذت النخبة المصرية كما يرى عادل حسين آراء ليبرالية غربية، الأمر الذي كان يعنى إزاحة الإسلام من مجالات كان يسيطر عليها سابقاً - وهي عملية لم تكن مقبولة لجموع الشعب المصري.^٥ غير أن عادل حسين لا يقدم على مساواة الغرب بالمسيحية، وهو يؤكد على أن الوقت قد حان في أيامنا هذه بعد انقضاء فترة المواجهات العدائية ما بين الإسلام والمسيحية لقيام اتصالات مكثفة: "ولعل المؤمنين بالإسلام والمسيحية واليهودية إيماناً حقاً يكتشفون أن أوجه اتفاق هامة تجمع بينهم في مواجهة طغيان

المادية والعلمانية في الحاضر وهو ما يهدد كافة القيم الدينية، ويهدد بقاء الأمم نفسها، بدءاً من البنية الاجتماعية الأساسية، ألا وهي الأسرة (7: ibid.). ولا شك أن بقايا معتقداته السياسية فيما يتعلق بمعارضة الاتجاه الرأسمالي لا يزال في الإمكان تتبعه في هجومه على المادية .

ويرى عادل حسين أن العلمانية عنصر يقع خارج حدود ثقافة مصر الوطنية ، فقد فرضت فرضاً من قبل الغرب فصارت غريبة وأدت إلى الاغتراب. ولا يشارك أستاذ الفلسفة ، حسن حنفي، عادل حسين رأيه. وقد كان حسن حنفي مدافعاً جريئاً عن العلمانية والعقلانية غير أنه اتجه مؤخراً إلى دمج الأفكار السياسية اليسارية والإسلامية (Flores, 1988:27). وقد أكد حسن حنفي في لقاء أجرته معه في عام ١٩٩٥ أن العلمانية تشكل جانباً جوهرياً من الإسلام. ومع ذلك فإنه يرى أن الجدل الدائر ومحاولة فصل الدين عن الدولة يشكلان ظاهرة غريبة محضة :

لم يحقق النموذج المسيحي لتوحيد الدين والدولة نجاحاً يذكر. فقد أحرز الأوروبيون حقوق الإنسان، وعقوداً اجتماعية، وحصلوا على الديمقراطية والحرية ومفاهيم الثورة الفرنسية. وفي السياق العربي إذا ما فهمنا روح الإسلام، وأنا أتحدث من موقعي كخبير في تاريخ الأديان أطلع على البحوث المتخصصة عن هذا الموضوع على المستوى الدولي، فإن ندرك أنه أكثر الأديان اتجاهاً للعلمانية. فلا توجد سلطة دينية مثل رجال الدين أو البابوات في الإسلام. وإنني أعتقد أن لوثر والمذهب البروتستانتي قد تبنا بعض المفاهيم الإسلامية مثل العلاقة المباشرة ما بين الإنسان والله، وحرية تفسير النصوص المقدسة. ويكفي معرفة اللغة كي تصدر حكماً بنفسك. وإذا قامت العلمانية ضد سلطة الكنيسة فإن الأمر لا ينطبق على تاريخنا. ثم أن طبيعة الإسلام قابلة للتطبيق ، وإذا ما استخدمنا المفاهيم المسيحية الهيجلية فإن الإسلام مثال يمكن تطبيقه ... وإنني لا أرى الإسلام بوصفه ديناً يرتبط بالطقوس والعقائد الجامدة والمؤسسات والقوى الغيبية، بل أرى فيه بنية اجتماعية سياسية. وهذا يعني أنه قانون ومجتمع يحقق عدالة اجتماعية. وتتبع العلمانية من داخل الإسلام. ونحن نسقط إشكالية غربية على ثقافة علمانية بطبيعتها. ونحن محافظون وننظر إلى الدين بوصفه مساحة مقدسة لما هو دنيوي، ولذلك فإن الأمر يبدو وكأننا نواجه إشكالية. غير أن ذلك

ليس صحيحاً، فالإسلام يعالج السببية في الأفعال الإنسانية وهو دين يتسم بقدر كبير من الوضعية. فلسنا في حاجة لإدخال العلمانية إلى حياتنا لنحولها إلى الحداثة بل إننا في حاجة لفهم الإسلام فهماً مستنيراً لفهم حق الفهم أهدافه من داخل هذه الصيغة.

وتختلف رؤية حسن حنفي إلى حد كبير عن رؤية عادل حسين وغيره من المدافعين عن الاتجاه الإسلامي ممن يرون أن العلمانية ضد الإسلام، وبالفعل، فإن رؤيته تبدو أقرب إلى الفكر العلماني حسين أحمد أمين الذي يرى أن القرآن لا يحوى ما يتعارض مع الأمور الدنيوية أو الوقتية، وأنه لا وجود في الإسلام لسلطة دينية قائمة للسيطرة على المؤسسات الدنيوية (1987:89-100) وخلافاً لحسن حنفي الإسلامي اليساري، فإن حسين أحمد أمين، العلماني اليساري، يميز ما بين العقيدة والممارسة الدينية، مشيراً إلى أنه في واقع الأمر قد برزت مؤسسة دينية قوية تتمثل في علماء الدين الذين استغلوا مكانتهم الاجتماعية والاقتصادية المتميزة للتحكم في جماعة المؤمنين، وقد احتكر مفسرو الشريعة في إجراء مشابه لرجال الدين المسيحي في العصر الوسيط بأوروبا "التفسير الحق" للنصوص الدينية، وباسم الحفاظ على وحدة الفكر الديني واستقامته عارضوا التغيير ودعوا لفكر تقليدي جامد (ibid.).

ويعد حسين أحمد أمين واحد من عدة مفكرين علمانيين مثل الراحل فرج فودة، وفؤاد زكريا، ومحمد نور فرحات، ومحمد سعيد العشماوي صرحوا علناً بأرائهم في قيام دولة علمانية وحصر الإسلام في إطار العقيدة، وفي مجال القيم الروحية والأخلاقية. وعلى الرغم من أن اغتيال فرج فودة والحكم برده نصر حامد أبو زيد قد أسكت هذه الأصوات إلى حد كبير، فإن فترة منتصف الثمانينات قد شهدت مناظرة نشطة جرى فيها تبادل الأفكار، وقد دارت حول مسألة إمكانية التوفيق بين الإسلام والعلمانية (Al-Azm, 1981; Flores, 1988, 1993; Gallagher, 1989). وقد فند مفكرون من أمثال حسين أحمد أمين، وفرج فودة، وفؤاد زكريا، دعوى الإسلاميين بأن العلمانية تخص التجربة الأوروبية وحدها، ورفضوا فكرة اختلاف المسيحية في العصر الوسيط اختلافًا جوهرياً عن الظروف السائدة في عالم الإسلام الآن (Flores, 1993: 33-4). وقد دارت معظم المناظرات المتعلقة بالعلمانية في الثمانينات حول أزمة الوحدة الوطنية وتناولت وضع الأقباط في إطار النسيج الوطني (Al-Ali, 1997: 186-7). وقد عبر فرج

فودة عن رأى مؤداه أن أحد الأخطار الكبرى الناتجة عن قيام دولة إسلامية يتمثل فى تزايد الصراع الطائفى، والتفرقة ضد الأقباط الذين سينظر إليهم بوصفهم مواطنين من الدرجة الثانية (Foda, 1987:23 quoted in Flores, 1988:29). وقد أصبحت قضية الوحدة الوطنية أكثر حساسية فى معالجتها خلال السنوات الأخيرة التى سارت فيها اعتداءات التيار الإسلامى على الأقباط فى خط موازٍ مع المناظرات الفكرية الشرسة حول ما إذا كان الأقباط يمثلون أقلية فى مصر .

وفى سياق الخلافات مع الإسلاميين، بدأ المفكرون ذوو الاتجاهات العلمانية وكأنهم يرددون سلسلة من القيم والمخاوف والمطالب السياسية المحددة. غير أنهم قد لا يلتقون بالضرورة حول مفهوم مشترك لمصطلح "العلمانية". وقد كانت إحدى المناظرات الدائرة تتصل بمسألة ما إذا كان اللفظ العربى مشتقاً من "العالم" أو من "العلم". ويتخطى الجدل فى هذه الحالة المسألة الصوتية لكلمتى علمانية و علمانية، وذلك بطرح وجهتى نظر ومنهجين متميزين. إذ يمكن مقارنة العلمانية بالوضعية حيث يصبح للعلم والتفكير العلمى السلطة العليا فوق "الحقيقة". أما العلمانية فإنها تمثل مفهوماً أوسع يعتمد فى مرجعيته على الأمور الدنيوية. وفى بعض الأحيان تُفهم العلمانية بوصفها الوقتية، ونجد ذلك فى تعريف فؤاد زكريا، بمعنى الأمور الوقتية فى صلتها بما يحدث فى العالم وعلى هذه الأرض فى مقابل الأمور الروحية. وتتراوح التفسيرات الخاصة بما يشكل "الأمور الدنيوية" ما بين الأنشطة الإنسانية عامة والأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية الخاصة. وتشترط هذه التفسيرات الاستقلال عن المعرفة الدينية المجردة، ولكن لا ترى بالضرورة تناقضاً ما بين العلم والدين. أضف إلى ذلك، أنها تسمح بالاعتراف بأن العلم نفسه ليس بمعزل عن التأثير بالتقاليد والهوى الشخصى.

وترتبط الخلافات فيما يتعلق بتفسير العلمانية بتاريخ الليبرالية والحدثة المعقد فى مصر، وخاصة فيما يتعلق بتجربة الاستعمار وعهد ما بعد الاستعمار. ففي العشرينيات والثلاثينيات امتدت جذور العلمانية التى كان يروج لها مفكرون من أمثال سلامة موسى و طه حسين وتتمثل فى الإيمان بالتقدم والعقلانية. وجاءت النظرة للخطاب السائد للحدثة لترى فيه لغة العقل و"العلم الموضوعى". وسادت نظرة التحرر من قيود التقاليد والتاريخ بوصفها شرطاً مسبقاً للتنمية والتقدم (Meijer, 1995:25) وانتشر الاعتقاد بأن

الدين (الذي ارتبط بالتخلف) والعلم (الذي ارتبط بالتقدم) ضدان لا يلتقيان. وقد اتجه الكثير من العلمانيين المتطرفين بأنظارهم للنظم الفاشية يتلقون عنها الإلهام، ورأوا في الديكتاتورية النظام الوحيد الذى يضمن تحقيق التصنيع والتغير الجذرى (ibid. :29).

ويقف هذا الخطاب موقف المعارضة الواضحة لخطاب الأصالة الذى يقدمه "التيار الشرقى" الذى يرفض تدخل "العرب المادى المنحل" وتأثيره. ويعتبر الليبراليون المحافظون والإخوان المسلمون الإسلام شرطاً مسبقاً لتحقيق التقدم فى مصر. وفى أواخر الثلاثينات بدّل بعض أنصار الحداثة العلمانيين الراديكاليين من مواقفهم الأولى مثل حسين هيكل على سبيل المثال، وتبنوا خطاب الأصالة الذى استبدل التوجّه الثقافى بالاحتفاء بالعلم. غير أن العلم لم يُرفض تماماً، وإنما جرى وضعه فى إطار إسلامى (ibid. :28-29).

ومن خلال الاشتراكية والشيوعية دخلت مفاهيم المساواة والحقوق الديمقراطية والعدالة الاجتماعية إلى خطاب العلمانية فى الأربعينات. ولم تقتصر جهود الجيل الجديد من المفكرين العلمانيين مثل محمد زكى عبد القادر، وإبراهيم بيومى مذكور، وميريت بطرس غالى، ورشيد البراوى على دعم الديمقراطية البرلمانية والمؤسسات الليبرالية، بل إنهم آمنوا بقيام دولة تملك القدرة على التدخل لتنفيذ إصلاحات تقلل الفجوة الهائلة فى الثروة وتضمن تكافؤ الفرص لكافة أعضاء المجتمع (ibid. :40-1)^(٧) وكان نشر التعليم العلمانى يُعدُّ أحد الأسس الكبرى لثقافة موحدة ومتجانسة تسمح بالحراك الاجتماعى والمساواة أمام القانون. وقد شكّلت العقلانية والعلمانية والروح الوطنية أعمدة هذا المشروع الحداثى.

ويمكننا ملاحظة الانفصال ما بين الاتجاهات السلطوية والاتجاهات الديمقراطية فى العديد من الخطابات العلمانية الحديثة فى تاريخ مصر. فلا مفر من وصف الكثير من المفكرين العلمانيين سواء أكانوا من القوميين العرب، أو الإشتراكيين أو الليبراليين بالسلطوية، والطغيان، والتعصب، وأعنى بذلك أن التفكير العلمانى افتقد فى جوهره السمات الديمقراطية أو التعددية. أضف إلى ذلك، أن الارتقاء بمكانة العلم بوصفه "المرجع" والاعتقاد بموضوعية العلماء ما زالا فرضين منتشرين بين المفكرين العلمانيين. غير أن الإيمان بالعلم والتحديث لا يجب أن يستوى والانحياز غير الواعى للغرب وقيمه،

إذ أننا نجد الكثير من المثقفين العلمانيين الذين ينتمون لحزب الوفد الليبرالي، أو الناصريين، أو الشيوعيين، يوجهون نقداً لاذعاً للسياسات الغربية وخاصة السياسة الإمبريالية.

ولا يلتزم الكثير من المثقفين العلمانيين في يومنا هذه بالإيمان الأعمى بالتقدم والعلم مثلما رأينا في النصوص الحداثية المبكرة. ونجد لدى الناشطات المصريات صدى خاصاً للانفصال العام عن مفاهيم الحداثة فيما يتصل بالمجتمع والتنمية. فبعض السيدات يرين في المشروع الحداثي الذي يدعو للعقلانية والتقدم، وما يتصل بهما من قيام مفاهيم علمانية، استراتيجية ذكورية أخرى للتفرقة ضد المرأة. فهن يعارضن الخطاب الوطني والحداثي الليبرالي الذي لا ينظر لحقوق المرأة في المحيط العام إلا كجانب من عملية تكوين المجتمعات الجديدة، وبالمثل، فإنهن يرفضن الاتجاهات السلطوية وغير الديمقراطية التي تصدر عن الدوائر الإسلامية والعلمانية.

ويبدو لنا أن الجدل الأكاديمي يشوبه عيب يتمثل في الاتجاه لحصر المناقشات حول العلمانية بين المدافعين عنها من الذكور وخصومهم. وتتخذ الكثيرات ممن قابلتهن مواقف علمانية انعكست على صراعهن السياسي وحياتهن اليومية على الرغم من أنهن لا يتخذن موقفاً عاماً في هذا الجدل. وكما هو الحال في قضية المجتمع المدني، التي يتناولها إلى حد كبير الكثير من الذكور، فإن العلمانية تمثل مجالاً آخر يندر أن ينطلق في أرجائه صوت امرأة. وسأحاول فيما يلي من هذا الفصل أن أخلل تصور العلمانية على هذا النحو وذلك بطرح تفسيرات الناشطات وممارساتهن للمناقشة.

مشكلة التصنيف

طرحت منى، وسامية، ونادية اللاتى نقلت آراءهن في بداية هذا الفصل ثلاثة مفاهيم مختلفة للعلمانية. فقد ربطت منى معنى العلماني بمن لا ينتمي للمؤسسة الدينية. وقدمت سامية شعار "فصل الدين عن الدولة"، أما نادية فقد دفعت بتجاوز التعاليم الضيقة للأديان وطالبت بالوقوف في مواجهة العقائد الرسمية. وقد اختلفت المفاهيم المحددة للعلمانية اختلافاً كبيراً أثناء قيامي بالمقابلات، بل إنني كنت ألاحظ

اختلافات فيما يتصل بمفهوم العلمانية، والالتزام والانتماء الدينى الشخصى فى المجموعة الواحدة. وبينما لم أتوصل لمعرفة التمايز ما بين الالتزام الدينى الشخصى والمحيط السياسى للدين الرسمى فى إجابات من قابلتهن من السيدات فإن من الضرورى الفصل بين الأمرين على المستوى الفكرى.

وتنشأ مسألة التصنيف فى سياق تبدو فيه الحدود غائمة. وتستخدم عزة كرم (١٩٩٨) فى دراستها الثاقبة للنشاط النسائى والاتجاه الإسلامى فى مصر ثلاث فئات لتمييز الناشطات المصريات: الإسلاميات، والمسلمات، والعلمانيات. وهى تصف الفئة الأخيرة كما يلى:

تؤمن الناشطات العلمانيات بوضع أسس خطابهن خارج نطاق أى دين سواء أكان الإسلام أم المسيحية، ويضعن خطابهن داخل الخطاب الدولى لحقوق الإنسان كبديل للخطاب الدينى. فهن لا "يضيِّعن وقتهن" فى محاولة لتوفيق الخطاب الدينى مع المفاهيم والإعلانات المرتبطة بحقوق الإنسان. وهن يحترمن الدين بوصفه أمراً خاصاً لكل فرد، غير أنهن يرفضن رفضاً باتاً اعتماده كقاعدة يقمن عليها برامجهن الخاصة بتحرير المرأة. وهن بذلك يتجنبن الدخول فى جدل لا ينتهى عن موقع المرأة فى إطار الدين. (Karam, 1998:13).

ومن ناحية أخرى فإن الناشطات المسلمات على حد قول عزة كرم "يحاولن أن يسلكن طريقاً وسطاً ما بين تفسير الواقع الاجتماعى الاقتصادى والثقافى من وجهة نظر الإسلام، وخطاب حقوق الإنسان" (ibid.: 2). وبما أن دراستى تنصب أساساً على الناشطات العلمانيات فإننى لن أناقش عزة كرم فى تعريفها وتحليلها للناشطات الإسلاميات. ومع ذلك، فإنه فيما يتصل بفئتي "العلمانيات" و"المسلمات"، يمكننى القول إن ما توصلت إليه يشير إلى أن الحدود بينهما ليست واضحة تماماً، وأن التصنيف إلى فئات قد يكون مضللاً إلى حد ما. وكما سأحاول أن أوضح فيما يلى، فإن الآراء ووجهات النظر حول العلمانية والدين تتسم بتعقيد وتنوع كبيرين حتى بين أفراد الجماعة الواحدة. أضف إلى ذلك أن المؤتمرات الدولية لحقوق الإنسان لا تشكل إلا نقطة مرجعية واحدة بين كثير من النقاط، وهو ما يغير التعريف الذى قدمته عزة كرم، وافتراضاتى الأولية.

فإذا ما نحينا الخلافات جانباً، فإنَّ كافة السيدات اللائى قابلتهن اتحدن فى معارضتهن لقيام دولة إسلامية، ولتطبيق الشريعة، وقانون الأحوال الشخصية القائم، وفرض زى على المرأة أى فرض "الحجاب" على المرأة. كما اجتمعن على مفهوم ألا يتداخل الدين مع السياسة. وفيما يلى أعرض ما قالت لى سهام ك، وهى عضو فى رابطة المرأة العربية :

أنا إحدى المؤمنات بأنَّ الإسلام يجب أن ينفصل عن الحقوق والواجبات المدنية، والسياسية، والاقتصادية. فمصر دولة إسلامية اختياراً، ويجب أن يظل الأمر شخصياً. فحرية العقيدة أمر جوهري ولا ينبغى أن تتعارض مع حقوق المرأة. ولا يمكن أن تكون جانباً من رؤية سياسية أو مستقبلية. فهذا أمر مختلف تمام الاختلاف. إننى أريد أن أفصل الدين وأبقيه بعيداً عن السياسة الجارية .

وقد أكدت الكثيرات ممن قابلتهن فى إجابتهن على أسئلتى عن العلمانية أن المرأة ستدفع ثمنًا باهظًا إذا ما نجح الإسلاميون فى تحقيق مطالبهم. وهناك قلة ينظرون إلى الدين فى حد ذاته سواء أكان الإسلام أم المسيحية بوصفه معادياً للاتجاه النسائى. والكثيرات يميزن ما بين الإسلام والاتجاه الإسلامى وهو الاتجاه الذى يوصف فى كثير من الأحيان بالتطرف، ويؤكدن أنَّ الإسلاميين وخاصة الذكور منهم يشوهون التعاليم الدينية للتوصل إلى القوة والسلطة. وتشرح هدى ل. وهى كاتبة وناشطة الأمر كما يلى:

إننى امرأة مسلمة، وعربية، ومصرية. وعندما أقول إننى مسلمة أعنى بذلك عقيدتى الخاصة وذلك كل ما فى الأمر. وهؤلاء الذين يطالبون بدولة إسلامية يستخدمون مفهوماً خاطئاً للإسلام ويعتمدون على تفسيرات لآيات تتصل بفترة تاريخية معينة. وهناك العديد من الوجوه والاتجاهات فى الإسلام، فأيتها نناقش ؟ كيف لنا أن نتخذ قراراً بشأن حقوق المرأة ؟ فالإسلام يرتبط بخصوصيات جغرافية وتاريخية فنجد من التيارات ما يوصف بالتقدمية، ومن التيارات ما يوصف بالرجعية.

وقد عبرت بعض الناشطات عن اعتقادهن بأنَّ أى تفسير للإسلام يضع عقبة فى طريق مساواة المرأة، وهن يقدمن، مثلهن فى ذلك مثل من يعارضهن، آيات وأقوال محددة لدعم حججهن. وهناك قلة من السيدات يوسعن من نقدهن للإسلام لينتقدن

الدين عامة، وهن يرين أن التعاليم الدينية تتصل اتصالاً لا ينفصم بالقيم الأبوية. وتقول ليلي م. وهى ناشطة شابة تشارك فى قضايا المرأة الصحية :

الأديان كلها متشابهة ، الإسلام ، والمسيحية ، واليهودية. فالمرأة ينظر إليها بشكل أو بآخر على أنها أقل، ويفترض أن تبقئها الممارسات الدينية فى ذلك الوضع. وقد صارت الأديان أداة قوية فى أيدي الرجال فى مختلف أرجاء العالم. وإننى أعتقد أن هناك صعوبة كبيرة فى التوصل لنص دينى يقدم صورة إيجابية لما يتصل بوضع المرأة.

ويثبت الانتماء الدينى وجوده فى الصراع السياسى والحياة اليومية لهؤلاء السيدات اللائى أصفهن بـ"الناشطات العلمانيات" بصور مختلفة، فبادئ ذى بدء تجمع تلك الفئة ما بين المسلمات والقبليات، وقد نشأت فى بيئات تراوحت فيما بينها من حيث الالتزام بالطقوس الدينية. وهناك من الناشطات من يصلين ويصمن ويحتفلن بالأعياد الدينية ، وهناك من لا يفعل أى من ذلك. وهناك من يؤمن بأهمية إعادة تفسير النصوص الدينية كوسيلة لجذب المزيد من السيدات المصريات للكفاح، فضلاً عن فضح التشويه المتضمن فى التفسيرات الذكورية. وهناك أخريات يرفضن فكرة العمل فى إطار دينى لما يخلّفه ذلك من آثار عكسية فى نهاية المطاف. كما أن ما يبرر وصف مجموعة من السيدات ذوات الاتجاهات المتنوعة، واللائى يستخدمن استراتيجيات مختلفة، بـ"العلمانية" يتمثل فى رؤيتهن التى لا تنظر إلى الدين بوصفه الإطار الوحيد للتحليل، سواء أكان ذلك فى مجال كفاحهن أم بين سيدات مصر بصفة عامة.

أصل القيم: العقيدة أم التجربة ؟

تتمثل نقطة الانطلاق لمعظم الناشطات العلمانيات فى إدراكهن أن الدين لا يشكل المصدر الوحيد للقيم ولا يعد المحور الذى تدور حوله توجهات الناس. وتقول عايدة سيف الدولة:

إن السيدات اللائى ينتمين لكلا الطائفتين الدينيتين فى مصر ، سواء المسلمات أو القبليات ، وينتمين لطبقة الاجتماعية وثقافية واحدة يتحدثن اللغة نفسها. فهن

يشتركن في قيم واحدة، ويلتزم بقواعد اجتماعية متشابهة، ويشعرن بالإساءة والانتهاك أمام أحداث واحدة. وعندما أشير إلى السيدات من كلا الدينين فإنما أعنى المرأة المتدينة المؤمنة التي تحتل موقعاً وسطاً، فقد ترتدى "الحجاب" وتؤدي الصلاة ولا تناقش وضع الدين كمنظم للحياة في هذا العالم. غير أن ذلك لا يعنى أن هؤلاء السيدات يرجعن إلى الدين في كافة القرارات التي يتخذنها في حياتهن. فالدين يشكل جانباً من الإيديولوجيا ضمن جوانب أخرى بعضها يتمثل في التجارب الشخصية، وبعضها الآخر يتمثل في العرف الاجتماعي وتجارب الأصدقاء وأفراد الأسرة وكلها أمور تتأثر بالثقافة وتتلون بها، مع الأخذ في الاعتبار أن الثقافة تشمل مجموعة من الثقافات والإيديولوجيات تبلغ من الكثرة حداً يجعل من الصعب تحديد بداية المؤثرات ونهايتها. (Self El-Dawla, 1996:25).

وتتعامل عايذة سيف الدولة مع ممارسة الشعائر الدينية بوصفها سمة من سمات الحياة اليومية التي تعد في نظرها جانباً واحداً من خلفية حياة المرأة وقيمها. ونظراً للتسييس المتزايد للإسلام في مصر وفي الخطاب الأكاديمي فإن عناصر ممارسة الشعائر وخاصة ارتداء "الحجاب" قد أصبحت تمثل مجموعة كاملة من المعاني قد تبالغ في واقع الأمر من وجود الدين في حياة المرأة اليومية. وتتذكر نيفين ب. وهي ناشطة شابة من جمعية بنت الأرض الدور الذي لعبه الدين في نشأتها :

كانت أسرتي معتدلة في تدينها. وكان الدور الذي يلعبه الإسلام دوراً محايداً. فأمي اعتادت مثلاً نصحننا بأهمية الصلاة. وكنت أؤدي الصلاة إلى أن بلغت الخامسة عشر ثم لم أرغب في الاستمرار. وحاولت أمي أكثر من مرة أن تلزمني بالصلاة ثم استسلمت. وفي سن الخامسة عشر ارتديت "الحجاب" لستة أشهر. وقد ارتديته لأنني شعرت أنني ارتكبت خطأً فقد قبلني صديق لي على خدي. والآن أرى الأمر تافهاً، غير أنه حينئذ بدا وكأنه خطيئة كبرى. ثم أدركت أنني أخدع نفسي وبعد خمسة أو ستة أشهر أخبرت أمي بعدم رغبتني في ارتداء "الحجاب". وبالفعل خلعتة وذهبت إلى الإسكندرية حيث ارتديت المايوه وسبحت في البحر. وقد ارتدت أختي "الحجاب" في سن الخامسة والخمسين، وكانت هي الأخرى ترتدى المايوه ، وهي مستنيرة بالمقارنة بأخريات. وهي تتسم باتجاه رجحت فيه العقلانية على كفة التدين. ولم تكن تربيتنا

الدينية صارمة ولكن الدين كان دائماً ماثلاً. غير أنه لم يكن الدافع الأول بأى حال من الأحوال. وكنا نسترشد بالأخلاقيات لا المفاهيم الدينية، ولم نستخدم مفهوم الحرام بل العيب. وأنا لا استخدم كلمة "حرام" مع ابنتي.

وقد أقرت الكثير من الناشطات اللائى أجريت معهن مقابلات أن تأديتهن للشعائر الدينية يرتبط بالعادات والتقاليد الثقافية وليس الدين. وترى الكثيرات أن صيام رمضان على وجه الخصوص وسيلة للانخراط فى نشاط جماعى، وقد وصفن رمضان وأسلوب الحياة الذى يفرضه بأنهما يشكلان مناسبة حضارية. وفى بعض الأحيان يحدث دمج ما بين الممارسات الثقافية والمظاهر الدينية، كما توضح لنا سامية أ. ، إحدى العضوات الشابات بمركز دراسات المرأة الجديدة:

إننى مؤمنة بالإسلام ومؤمنة بالله. أصلى وأصوم بانتظام، وأقرأ القرآن. وأنا أشرب الخمر ولا أشعر بالذنب تجاه ذلك. وأنا لا أتناول لحم الخنزير. وهذا أمر له أهميته. فلحم الخنزير محرم بنص القرآن لأن المفترض أن الخنزير حيوان قذر. غير أنني أعرف أن الخنزير فى الغرب حيوان نظيف، ولكنه ليس كذلك فى الثقافة التى أنتمى إليها. والثقافة أقوى من أى دين. فعمى على سبيل المثال ملحد غير أنه متحفظ للغاية. وهى مسألة تعود إلى الأعراف الحضارية وليس الدين. وبالطبع فإن المصريين متدينون إلى حد ما إذا ما أخذنا فى الاعتبار أنهم يكيلون بمكيالين. فقد نشرب الخمر ونصوم رمضان، والدين قائم فى الخلفية. وأنا علمانية لأن ذلك هو السلوك العقلانى وهو الحس السليم، فالدين لا ينبغى أن يكون نقطة الانطلاق فى أى اجتماع سياسى أو أكاديمى. فهناك قيم قائمة بالفعل فى مجتمعنا يجدر بنا أن نؤمن بها ليس لارتباطها بدين معين. فالمساواة، واحترام الغير، ومساعدة الآخرين، وكف اليد عن العدوان، والرحمة، وأعمال الخير، والأمانة، والصراحة كلها قيم إنسانية يمكن لأى شخص الإيمان بها بغض النظر عن الدين. كما أنني أؤمن بعدم فضح الآخرين وعدم إلحاق الأذى بهم كما يفعل الإسلاميون.

وترى سامية أ. أن الدين والعادات يمثلان شبكة معقدة لا يسهل حلها. وهى ترفض الخضوع لهؤلاء الذين يستدلون على "المرأة المسلمة الصالحة" بزيها أو بسلوكها. وتقول سامية أ. التى لا ترتدى "الحجاب" وفى كثير من الأحيان ترتدى الملابس القصيرة: "إننى مسلمة طوال حياتى. فلم يريدوننى أن أكون مختلفة؟" وهى

ترى أن التعليم والأخلاق لا ينبغي أن يقاما على الدين وإنما على القيم الإنسانية. أما فيما يتصل بالسياسية سواء فيما يتصل بنشاط المرأة أو انخراطها في قضايا وحملات سياسية أخرى فإن سامية أ. تسرف في صراحتها وتنطلق منتقدة المحاولات التي تجرى لوضع القضايا السياسية في أطر دينية. وقد تحدثت بصراحة وحماس في ورشة عمل استغرقت يومين تمهيداً لتدشين جمعية نسائية لمراقبة وسائل الإعلام، وكان ذلك عندما تطرق الحوار إلى موضوع ما إذا كانت المرأة القبطية تعاني من أشكال إضافية من التفرقة تزيد عن تلك التي تعاني منها المرأة المسلمة، وذلك لانتمائها لأقلية دينية. وقد أنكر العديد من المتحدثين وجود تفرقة ضد الأقباط، وأكدوا مساواة المسلمين والقبطيات في الحقوق والواجبات والمشكلات. وقد أمسكت سامية أ. بالميكروفون وطرحت سؤالاً: "ماذا بكم؟ لماذا تتحدثون دوماً عن المسلمين والمسيحيين؟ ولنفترض أنني أريد أن انتمى لجهة ثالثة. ما قولكم عندئذ؟"

ولمعرفة مدى جرأة هذا التعليق ينبغي أن ندرك طبيعة الجدل الدائر، وخاصة أن هذا التعليق قد ألقى على مجموعة يختلف أفرادها في توجهاتهم السياسية والدينية ولا يوحد بينهم غير اهتمامهم بوسائل الإعلام. فهل كانت سامية أ. تشير إلى احتمال كونها ملحدة أو لانتمائها لدين آخر غير المسيحية والإسلام. لم يكن الأمر واضحاً ولكن المشاركين بدوا في حيرة من أمرهم. وقد روت لى سامية أ. الحادثة فيما بعد فقالت: "شعرت بغضب شديد. فهم يديرون ظهورهم لقضايا التفرقة ضد الأقباط، كما أنهم يدعون أن المجتمع متجانس. ولا أعرف لم يتحدثون دائماً عن المسلمين والمسيحيين، فلنفترض أنني يهودية، فماذا يكون موقفهم مني؟" وتثار قضية التفرقة ضد الأقباط كثيراً في سياق مناقشة سامية أ. للعلمانية، وتشعر سامية أ. بالخوف، مثلها في ذلك مثل المثقفين من الذكور مثل الراحل فرج فودة، من الاتجاهات الطائفية، وتنزعج بسبب المعاملة التي يتعرض لها الأقباط داخل المجموع الوطني.

ولا عجب أن تشارك السيدات القبطيات مشاركة خاصة في الجدل حول العلمانية. وتقدم نادية م.، إحدى الناشطات الأوائل اللائى قابلتهن، واللائى يعلن إيمانهن بدافع من الذات، تعريفها للعلمانية التي تتبعها في سياق اختلافها مع المبادئ الجامدة التي تدعو إليها الكنيسة. وهي ترى إيمانها كجانب أساسي من حياتها، غير أنها ترفض فكرة مساواة الإيمان بالعقيدة الرسمية أو بالتعليمات الصادرة عن الهيئات الدينية.

وهي تقول إن "الدين كمؤسسة يحاول دائماً أن يوصل الأبواب في وجه الآخرين. وأنا أنظر إلى ما وراء النظرة الضيقة للدين فأقبل الاتجاه الإنساني، والتعددية، وأقيم قرارى على أساس من تحقيق الخير للجميع". وتتجنب نادية الخوض في حديث التفرقة ضد الأقباط، وتكتفى بالإشارة إلى قضية الوحدة الوطنية من منطلق قيمة التعددية. أما رجا. ن. فهي أكثر حماساً في حديثها عن العلاقة ما بين العلمانية وانتمائها الدينى القبطى :

تعرض الشخصيات العامة فى المجتمع القبطى آراءها من سياق دينى سياسى. ولا يعنى ذلك أننى أود أن أؤكد ذاتى بوصفى قبطية، ولكن إذا كان المجتمع كله ينظر إليك من هذا المنظر فإن أمامك خيارين: إما المعارضة، أو القبول ثم التحدى. ولكنى لا أقول أبداً إننى قبطية أولاً، بل أقول إننى مصرية. وعندما حلت الهوية الدينية محل الهوية الوطنية فجأة فى السبعينيات ، كنت أضع مصريتى أولاً تليها قبطيتى. ويعد هذا الموقف ضد التيار العام. ولا أزال أعتقد أن خلاص هذا المجتمع يكمن فى العودة إلى شعار ثورة ١٩١٩: "الدين لله والوطن للجميع". وإننى مؤمنة بدولة علمانية حيث تعنى المصرية المواطنة. أما فى دولة إسلامية فإن المواطنة تخضع للتحديد الدينى وفى هذا تفرقة ضد كل من هو غير مسلم.

وترى رجا. ن. نفسها عضواً فى مجموعتين للأقليات: المرأة والأقباط، وتشعر أن أعضاء الطائفتين يحملن جنسية من الطبقة الثانية. وهى تحتقر الطابع الانفرادى ودعوى الحق التى يأتى بها أى دين، وترى فى ذلك وجهاً من وجوه الفاشية: "إننى لا أحب كلمة "التسامح" حتى، لأنها تعنى أنك تتحامل لقبول شىء ما، وفى السياق الدينى، فإنها تعنى أنك تتحمل ما يعتقد الآخرون. وذلك يعنى أن الآخرين على خطأ غير أنك تتقبلهم. وهو موقف متعجرف. أنا لا أطالب بالتسامح إننى أطالب بالاحترام". وإلى جانب اقتناعها بأن الدولة العلمانية وحدها هى القادرة على منحها المساواة والعدالة والاحترام، فإنها تؤكد أيضاً على أن اتجاهها العلمانى ناتج عن مجموعة من نظم القيم. فتربيتها الدينية ارتبطت بتعرضها للقيم الإنسانية، من خلال قراءاتها وحواراتها مع أبيها. ثم أن اتجاهها اشتراكياً قد نما فى نفسها من واقع قراءات محددة حسبما تذكر غير أنه انطلق من إحساسها العميق بالعدالة. وتؤكد رجا. ن. مثلها فى ذلك مثل نادية م. وسامية أ. الحاجة للتعرف على الطبيعة المتشابكة للخلفية التى تتكون

على أساسها القيم وتتخذ القرارات. وهي ترى أن الدين قد يلعب دوراً أكبر في حياة الآخرين، ولكن بالنسبة لها فإنها تتحرك في أطر أخرى ذات أهمية.

وفي كثير من الأحيان مثلما هو الحال مع الفروض التي وضعتها قبل القيام ببحثي الميداني، يفترض نسبة هذه الأطر إلى آراء عالمية وعقائد شاملة مثل الاشتراكية، أو إلى وثائق خاصة مثل الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وقد شرحت لى الكثير من الناشطات اليساريات الوطنيات كيف أنهن ما زلن يعتمدن على المنهج الماركسى في تحليلاتهن. ومع ذلك فإن غالبيةهن أكدن لى أنهن قد ابتعدن عن المبادئ المبكرة الخاصة بالعلاقة المباشرة ما بين الاستغلال الاقتصادي وتحرير المرأة. فتجربتهن الخاصة داخل الأحزاب السياسية ومع أزواجهن "التقدميين" فى المنزل غيرت من رؤيتهن بحيث صرن اليوم ينادين بضرورة قيام حركة مستقلة لنضال المرأة. وتؤكد السيدات الأخريات اللائى يشرن أساساً إلى الاتفاقيات الدولية لحقوق المرأة والإنسان أنهن لا يؤمنن بالخصوصية الثقافية فيما يتعلق بحقوق الإنسان عامة وحقوق المرأة خاصة. غير أن عدداً من السيدات اللائى قابلتهن أكدن أن قيمهن ومفاهيمهن لا تقوم على عقيدة محددة أو على الإعلان العالمي لحقوق الإنسان، ولكنها تنبع من تجارب متنوعة للنضال الفردى والجمعى. وتقول هانية ك.

يلجأ الإسلاميون لاستخدام النص وحده ويعدونه إطاراً خاصاً بهم. ويصدر حكمهم على منظومة القيم من خلال النص. ويعتمد إطارى المرجعى على بعض المفاهيم النظرية مثل المساواة والاتجاه الإنسانى وحقوق الإنسان والتعددية، والتسامح، الخ ... وهى قيم نبعت من تجاربي اليومية. وبالطبع فإن هذه القيم لم تنبع من فراغ، ولكنها نبعت من مدارس فكرية مختلفة. غير أنني لا أساند إيديولوجية بعينها على أساس من قدرتها على الإقلال من صنوف الاضطهاد وتعقيدات الواقع. فالقيم والمفاهيم تشكل جانباً من تطورى الشخصى بالقدر نفسه الذى تنبع فيه من النضال الجمعى.

وفى هذا السياق تشكو هانية ك. وغيرها من الناشطات من اتجاه بعض الباحثين الغربيين الذى يجرون بحوثهم فى مصر للاستخفاف بالتجارب الحياتية اليومية والقدرة على التجميع الخلاق لمنظومات القيم المختلفة، فالعامل البشرى يوضع أساساً فى إطار من الإيديولوجيات الجمعية سواء أكانت علمانية أو دينية، ولا تترك مساحة ولو صغيرة للتنوع والمقاومة على المستوى الشخصى. ويذكر المستوى الشخصى متصلاً بالأطر

المرجعية الخاصة بالمرأة، وعلاقتها بالدين، وأيضاً فيما يتصل بعلاقتها بالمفاهيم والقيم. وترى هانية ك. أن على المرء أن يبدأ فى بناء الإطار الخاص به على أساس من الوقائع المحددة، وتضيف أن "الواقع الذى أراه اليوم يتسم بوجود جماعات مختلفة مضطهدة من البشر: النساء، والمسيحيين، والطبقات محدودة الدخل، والواقع الذى أحياءه يذخر بصنوف الظلم. وينبغى التوصل إلى حلول آخذين فى اعتبارنا هذه المظالم".

وترى هانية ك. أن العلمانية فى ذاتها لا تقدم الحل لهذه المظالم، وهى تتذكر تجربتها مع الاشتراكية التى كما تراها اليوم قد حجبت عنها القدرة على رؤية وجهات النظر الأخرى ومنعتها من تدبر مفاهيم جديدة. واليوم ترفض هانية ك. كافة أشكال العقائد الجامدة والأطر الشمولية التى تراها تشكل جانباً من المشروع الحدائى:

لقد سأمت من الكثير من العلمانيين الذين أعرفهم. فهم يعيشون على صور وتجارب قديمة ولا يقدمون مفاهيم جديدة. وهم حتى لا يعطون الفرصة لأنفسهم، لأنهم ينغلقون بعيداً عن التجارب الجديدة. ولذلك فإنهم يصبحون جامدين ويفتقدون الأمان. وهم يحاولون جاهدين أن يتمسكوا بشيء ما. وهم أقرب إلى الإسلاميين فى تفكيرهم. ويتمثل الموقف المضاد لذلك فى التسامح ورحابة التفكير.

وترى هانية ك. العلمانية كمظلة عريضة تستقر تحت ظلها مختلف الخطابات والممارسات والمفاهيم، بعضها يكرر حقائق معروفة سابقاً، والبعض الآخر يحطم النماذج القديمة. وتوازى تلك الصورة تحليلى الذى أقدمه فى كتابى هذا إذ أننى أشير دائماً إلى التكوين المتنوع للنشاط النسائى ذى التوجهات العلمانية.

الاستمرارية العلمانية

بدلاً من تخيل فئات تفصل بينها الحدود، ربما توصلنا إلى نتائج أفضل إذا ما تصورنا الموقفين العلمانى والدينى فى صورة متصلة. فالمقابلة ما بين الدين والعلمانية غير منتجة كما يبدو، إذ أنها تغذى مفاهيم الإسلاميين عن وقوف العلمانية "ضد الدين". ومع ذلك، فمن المهم أن نؤكد أن درجة الالتزام بتأدية الشعائر الدينية لا يمكن مساواتها مع قدر الالتزام بالدين من خلال المؤسسة الدينية. كما لا يمكن أن نرى فى

المظهر الشخصى ما يدل على المواقف السياسية والعكس صحيح. وقد أظهرت السيدات اللائى أجبنً على استبيانى مواقف مختلفة تجاه المظهر الدينى الشخصى والالتزام بتأدية الشعائر تفوق فى تنوعها مواقفهن السياسية. فكافة السيدات اللائى التقيت بهن يؤيدن قيام دولة علمانية ويعارضن تطبيق الشريعة.

وكما حاولت أن أوضح فإنهُ من الصعب أن نرسم حدود الخلفية الدينية، وقدر الالتزام بتأدية الشعائر، والمواقف من الدين فيما يتصل بنشاط المرأة والتفسير الخاص للعلمانية. وهناك عامل واحد قد يفسر التنوعات فى المواقف والممارسات بين السيدات اللائى قابلتهن يتمثل فى السن والجيل. وكما أوضحت فى الفصل السابق فإن نقاط البداية المختلفة للاتحاق بالحركة النسائية تؤثر على المعتقدات السياسية ونوع النشاط الذى تنخرط فيه المرأة. وبالمثل فإن الاختلافات ما بين الأجيال يمكن ملاحظتها فيما يتصل برؤية المرأة الخاصة للعلمانية .

وقد اتضح ذلك الأمر من خلال بحثى، ولكنهُ استحق أن يلفت الأنظار إليه فيما يتصل بمركز دراسات المرأة الجديدة، وذلك لأن عضوية المركز تضم جيلين من الناشطات: من شاركن فى الحركة الطلابية فى السبعينيات وهم الآن فى الأربعينيات من عمرهن، والناشطات الأصغر سنًا وقد التحقن بعضوية المركز منذ سنوات قليلة. وبصيرة عامة بدت العضوات الأصغر سنًا أكثر التزامًا بتأدية الشعائر الدينية مقارنة بزميلاتهن الأكبر سنًا. وفى حالة سامية أ. ، على سبيل المثال، أصبح من الواضح بصفة خاصة أن تأدية الشعائر الدينية لا تشكل فى حد ذاتها علامة دالة على التوجه السياسى. وحتى بين العضوات الأكبر سنًا، يلاحظ وجود اختلافات فى توجههن الدينى فلم يجتمعن على رأى واحد. وقد رفضت بعض العضوات الأكبر سنًا فكرة الدخول فى إعادة تفسير للدين لمواجهة التفسيرات الذكورية المحافظة، غير أن هناك أخريات ينادين بهذا المنهج. وتأخذ نتائجى التى تدل على التنوع حتى على المستوى الداخلى للجماعة خطأ مخالفًا لوصف عزة كرم للناشطات نوات التوجه العلمانى :

يقع الاتجاه النسائى العلمانى فى طرف المجال السياسى ويمثله حزب التجمع ومركز دراسات المرأة الجديدة، وهما يناديان بالمساواة التامة بين الجنسين، ويحاولان أن يؤسسا أفكارهما الخاصة بحقوق المرأة على أطر تقع خارج إطار الدين وينظران

نظرة واحدة إلى الاتجاه الإسلامى باعتباره العدو الأول كما ينظران إلى الدولة باعتبارها قد تأسلمت بالفعل، وفيما يتعلق بغالبية الناشطات العلمانيات فإنَّ عداوتهنَّ لأى خطاب يتضمن الإسلام ، لا يوازيه إلا كراهيتهن وشكوكهن الشديدة تجاه ما يعتبرونه هيمنة الإسلام، (Karam, 1998: 234-5).

ولا شك أن هناك خلافات عميقة قائمة ما بين الإسلاميين والناشطات العلمانيات، غير أنه كما أوضحت فى مناقشتى لمفهوم "الغرب" (الفصل الأول) وكما سيرد لاحقاً فى استكشافى لسياق الثقافة السياسية فى مصر (الفصل السادس) فإنَّ أوجه التشابه يمكن ملاحظتها أيضاً، وتدور أوجه الشبه أساساً حول الوقوف فى مواجهة الإمبريالية وما جرى تصويره على أنه تهديد بغزو ثقافى غربى، أضف إلى ذلك أن النماذج الحدائيه التى تلتزم بخطوط فاصلة ما بين المجالين العام والخاص فى حياة المرأة يمكن ملاحظة وجودها فى الجانبين الأمر الذى يشكل بصور مختلفة عالماً من الخطاب المشترك، ولا شك أنه فى الوقت الذى تتعرض فيه فكرة العلمانية لتفسيرات دائمة التطور فقد برزت خطابات ومفاهيم جديدة داخل ذلك الإطار المتغير لا يمكن أن نصفها بمجرد وقوفها موقف المعارضة للدين أو الاتجاه الإسلامى.

وختاماً أود أن أستحضر مفهوم "العلمانية الدونية" لهومى بابا والتى أشرت إليها من قبل فى هذا الفصل، ويؤكد بابا على الانفصال ما بين العلمانية و"الالتزام المطلق بمعتقدات تتمحور حول المركز الأوروبى أو العرقى وتخص قيم الحدائيه" (6:1995)، فإذا لم يكن هناك جوهر علمانى للـ"غرب" أو للـ"مسيحية"، فإنه بالمثل لا يوجد جوهر تقدمى أو ديموقراطى للعلمانية، فلا يمكننا أن نصل إلى ارتباطات ذات معنى إلا من خلال وضع الأمور التاريخيه والسياسية فى سياقها، وقد تطلع العلمانيون المصريون فى الثلاثينيات للأنظمة الفاشية الأوربية لاستلها ما رأوه نماذج صالحة للتقدم، أضف إلى ذلك أن المفاهيم السائدة للعلمانية والتى تعتمد على الأفكار الليبرالية الخاصة بالفردية، والاختيار، والمساواة، لا تأخذ فى الاعتبار الاهتمامات الخاصة ومعاونة الجماعات المهمشة، وتتخبط الناشطات المصريات اللائى لا يمكن وصفهن بالضحايا السلبيات فى مهمة صعبة لهدم الخطابات المهيمنة للدولة والإسلاميين والمتقفين المحافظين من الذكور.

الهوامش

(١) اغتيل المفكر العلماني والمعارض للصريح للإسلام السياسي فرج فودة في يونيو ١٩٩٢ على أيدي متطرفين إسلاميين.

(٢) مثال ذلك مؤتمر الأقليات عام ١٩٩٤ الذي نظمه مركز ابن خلدون لدراسات التنمية بمصر. وقد تضمن المؤتمر الذي يناقش الأقليات العرقية والدينية في الشرق الأوسط محوراً عن أقباط مصر. وقد تعرض منظم المؤتمر لهجوم عنيف لتدميره الوحدة الوطنية وتملقه للمصالح الغربية. وعلى سبيل المثال فإن المحلل السياسي الشهير محمد حسنين هيكل بدأ مناقشته بالقول بأن القوى الدولية الكبرى قد تستغل "وهم" الأقلية القبطية لضرب سيادة مصر، وربما بوسائل عسكرية، تحت غطاء حماية حقوق الأقلية القبطية. (Zaki, 1995:29)

(٣) شاركت بنفسى كعضو نشط في جمعية "المرأة ضد الأصولية" منذ عام ١٩٩٥ .

(٤) بينما تراجع الجدل العلني حول العلمانية مؤخراً فقد صدرت العديد من الدوريات والمجلات الثقافية كرد فعل علماني لزحف الإسلاميين: ومنها "الكتابة الأخرى"، و"الجراد"، و"زرقاء اليمامة"، و"النداء"، و"ال".

(٥) بينما يعترض حسين على "التمثل غير النقدي للثقافة الغربية (وخاصة التنوير البريطاني الفرنسي)" فإنه يقر بأن المفهوم الليبرالي للدولة الوطنية لم يكن عنصراً غريباً في ثقافة مصر الوطنية وقد ساعدها هذا المفهوم على الحصول على استقلالها: "وربما ذكرتم في هذا المجال أن تحرير الأمة الإسلامية من السيطرة الأجنبية هو أحد المبادئ الرئيسية للفكر الإسلامي القائم على القرآن والسنة" (1996:2). ويعكس خلطه ما بين مفهوم الأمة الإسلامية والدولة الوطنية اتجاهات شائعة بين المفكرين الإسلاميين يدحض الحجة القائلة بأن الاتجاه الإسلامي في جوهره معاد للروح الوطنية.

(٦) لوصف مفصل لهذه المناظرات الرجاء الرجوع إلى Flores(1988,1993). ويقدم Gallagher (1989) وصفاً لحدث بعينه.

(٧) يقدم Meijer(1995) مدخلاً مفصلاً لهؤلاء المفكرين والفكر العلماني المبكر بصفة عامة.

الفصل الخامس

من الأقوال إلى الأفعال : أولويات الناشطات المعاصرات ومشروعاتهن

إذا ما ساهمت التجارب الشخصية للفرد فضلاً عن التطورات السياسية واسعة النطاق في إيجاد مداخل للمشاركة في الحركة النسائية فإنه يتعين طرح بعض الأسئلة عن محتوى النشاط النسائي وشكله. فما الذي تريده الناشطات ذوات الاتجاه العلماني في مصر المعاصرة؟ وهل يتجهن جميعاً لتحقيق الأهداف نفسها؟ وكيف تنتقل أولوياتهن إلى حيز التنفيذ؟ وما هي الأعمال التي يشاركن فيها؟ وما مدى فعاليتها؟

دارت هذه الأسئلة في ذهني عندما كنت أجري مقابلاتي مع الناشطات، وأقرأ مطبوعاتهن، وأشارك في نشاطهن. وفي عدة مناسبات، عندما كنت أتوجه لهن بهذه الأسئلة بالفعل، فإن إجاباتهن التي تصف أهدافهن ومشروعاتهن كانت تتضمن إشارات لأنشطة جمعيات أخرى، متضمنة في أحيان كثيرة، إن لم تشر صراحة، نقداً أو استنكاراً لها. فبعضهن اعترض على حجم العمل البحثي ووصفنه بالبعد عن "الهموم والقضايا الحقيقية". وهناك أخريات انتقدن جمعيات الخدمات لمتجهها اللاسياسي. أعني أن هناك خلافات يصعب معها إيجاد أرضية مشتركة على ساحة الجمعيات المهتمة بمحتوى النشاط النسائي وأشكاله في مصر المعاصرة. وربما بالغت الناشطات أنفسهن في تقدير هذه الخلافات وهذا هو ما سأحاول أن أتحقق منه. فهل هناك اتجاه لتجاهل الأرضية المشتركة للتحالف وتسييل الضوء على الخلافات؟

وفي هذه الفصل سأقوم أولاً بفحص الأهداف المعلنة والأولويات الخاصة بجمعيات مختلفة والناشطات الفرادى اللائى قابلتهن. وسأقوم بربط وجهات نظرهن لما يشكل

القضايا والمشكلات الأكثر إلحاحاً، بصياغة المفاهيم "السياسية" التي ترتبط بدورها بمفهوم المجالين "الخاص" و"العام". وفي الجزء الأخير من هذا الفصل سأقدم دراسة لأشكال النشاط التي تجسد الأهداف والأولويات كما تراها هذه الجمعيات وهؤلاء الناشطات، ويلى العرض العام للأنشطة المختلفة التي تقوم بها الناشطات عرض تفصيلي لعدة مشروعات مثل برنامج الائتمان، وقوة مكافحة ختان الإناث، وبرنامج مراقبة وسائل الإعلام، واستراتيجيات البناء الأساسي، وأحد المشروعات الخاصة بمشكلة العنف ضد المرأة .

التحليلات السياسية : خطابات الحداثة والاعتماد على الغير

تعتمد صياغة الأهداف والأولويات لكافة أشكال النشاط النسائي عامة على تحليل خاص لعلاقات النوع وموقف المرأة في زمان ومكان محددين. وفي السياق المصرى هناك الكثير من الكتابات التي تحلل "وضع المرأة في المجتمع"، أو "مكانة المرأة"، أو "الأدوار التي تلعبها المرأة" (Abdel-Kader, 1973, 1987, El-Baz, 1992, 1997; Zulfi-car, 1995b) غير أن الاستعراض الشامل الذي تقدمه نادية فرح عن الكتابات التي صدرت عن المرأة في مصر⁽¹⁾ في ثمانية عشر عاماً (١٩٧٥-١٩٩٣) تكشف عن فجوة ما بين الكتابات القائمة على التنظير والتي ينتجها في الأساس باحثون أجانب، والأعمال التي تقوم على أرض الواقع ويقدمها باحثون وطنيون أو وكالات التنمية. وترى فرح في تقييمها أن قليلين هم الذين ينجحون في سد الفجوة فيربطون النظرية بالبيانات المادية .

وتتعرض معظم البحوث لقضايا متنوعة مثل التنمية الاقتصادية، والمشاركة في سوق العمل، والتعليم، وتنظيم الأسرة، والصحة، والحقوق القانونية، والمشاركة السياسية، ووضع النساء داخل الأسرة، وتأثير الحركات الإسلامية والخطاب الإسلامى. وتذكر فرح أن معظم الكتابات تتحرك داخل نموذج حدائى وتنص على أن "الثقافة التقليدية" التي يحرى مساواتها بالدين فى بعض الأحيان تقف عقبة رئيسية فى طريق تحرير النساء. ويظل تشيؤ الثقافة المصرية قائماً دون ما معارضة إلى حد كبير فى معظم

الأعمال التي تتناول الأوجه المختلفة لوضع النساء في المجتمع. فعملية التحديث، التي جرى مساواتها بانتشار التعليم، والدخول إلى سوق العمل، والمشاركة السياسية، والتصنيع، تُقدّم كوسيلة لتحقيق المساواة بين الجنسين (Farah, 1994: 9) ويعتمد هذا المدخل على التمييز ما بين المجالين الخاص والعام ويفترض أن تكامل النساء مع المجال العام سيؤدي بالضرورة إلى تغييرات في العلاقات الأسرية. إذ يفترض أن التعليم الحديث والعمل في القطاعات الحديثة ستمنح النساء استقلالاً اقتصادياً، وتغيير من إدراكهن الثقافي التقليدي، وتمكنهن من الدخول مع المجتمع في تفاوض جديد حول وضعهن داخله وداخل الأسرة وذلك لتحقيق قدر أكبر من المساواة والديموقراطية. (Ibid.)^(٢).

وهناك إطار آخر مشترك يصاغ من خلاله تحليل لموقف المرأة المصرية، ويعرف باسم خطاب الاعتماد على الغير^(٣). ويترك هذا الخطاب بصمته كما أشارت ميرفت حاتم على أعمال الجيل الجديد من السيدات العربيات اللاتي تلقين تعليمهن في العلوم الاجتماعية. وفي هذا الخطاب يجري تحليل مشكلات المرأة العاملة في الريف والحضر يجري تحليلها بالإشارة إلى تخلف المجتمع عامة وهو وضع ناتج عن المفهوم الدولي لتوزيع العمل في ظل النظام الرأسمالي (Hatem, 1993: 43-4). ومن وجهة النظر هذه فإن عدم المساواة بين الجنسين لا يمكن معالجتها إلا من خلال معالجة مشكلات أكثر عمومية متصلة بالتخلف، والتوصل إلى القضاء عليها نهائياً. فالخطاب الحدائثي وخطاب الاعتماد على الغير لا يقفان موقف المواجهة على نحو كافٍ إزاء العلاقات بين الجنسين، وأشكال تهيمش المرأة داخل الأسرة، كما لا يعالجان الروابط بين ما يطلق عليهما المجال العام والمجال الخاص. أضف إلى ذلك أن كلا المنهجين يتجهان إلى تجاهل الاختلافات والخصوصيات بين الدول الوطنية ولا يأخذان في الاعتبار السياقات الوطنية والدولية التي يجب أن يُنظر من خلالها لقضايا المرأة.

ويقوم الباحثون والدارسون الذين يكتبون عن المرأة في مصر باستحضار منتظم لعدة مشكلات تندمج إلى حد ما مع برامج النشاطات النسائية الحالية :
(١) الأزمة الاقتصادية المستمرة، والانفتاح، وهجرة العمالة المتزايدة، وتأثير برامج

التعديلات الهيكلية فى الفترة الأخيرة ؛ (٢) ممارسة التفرقة فى سوق العمل؛ (٣) تأثير الإسلام على حقوق المرأة مع الأخذ فى الاعتبار التفسيرات الرجعية للنصوص الدينية ودعوة الإسلاميين لعودة المرأة للمنزل؛ (٤) القيود المفروضة على التعليم وارتفاع نسبة الأمية؛ (٥) المشاركة السياسية المحدودة؛ (٦) التفرقة فى الحقوق القانونية وفى وضعها موضع التنفيذ؛ (٧) عدم توفير رعاية صحية جيدة وخاصة فيما يتصل بالصحة الإنجابية للمرأة .

وتركز مجموعة قائمة بذاتها من الكتابات على علاقات الجنسين داخل الأسرة، وهى كتابات لباحثين غربيين أو لمن تلقوا تدريباً غربياً (Abu-Lughod, 1986, 1993a; Early, 1993; B.Ibrahm, Macleod, 1991; Rugh, 1979, 1985; Singerman, 1995; Watson, 1992; Wi-kan, 1980) ، وتمثل هذه الكتابات ومعظمها دراسات إثنوجرافية صنفاً مختلفاً عن الأعمال التى تعتمد على الإحصاءات التى تصدر عن وكالات التنمية والباحثين الوطنيين المستقلين. ولذلك فإن هناك قدرأ محدوداً من الترابط ما بين هذه الكتابات التى قد تعزز من صياغة مفهوم المجال الخاص (الأسرة) فى تميزه الواضح عن المجال العام (التعليم، والعمل، ومؤسسات الدولة، الخ) وذلك على الرغم من معارضة العديد من الدارسين .

وينبغى أن نوضح أن بعض الافتراضات الأساسية للدارسين والباحثين الأجانب والوطنيين تتفق مع النماذج السائدة للناشطات، وكما سأوضح فيما يلى فإن الأهداف المختلفة وألويات الجماعات والأفراد الذين ينتمون للحركة النسائية تعتمد على افتراضات مماثلة قدمت لها نادية فرح وصفاً جاء ذكره سابقاً، وتتفاعل فى الأساس داخل إطار حدائى أو فى إطار الاعتماد على الغير. ومع ذلك، وفى السنوات الأخيرة قامت بعض الجمعيات والناشطات بتحدى الخطاب والنماذج السائدة وتمكنت من فتح مجال جديد للجدل.

وقد أجريت دراسة تحليل محتوى للأهداف المعلنة لجمعيات مختلفة وردت فى القسم المصرى من دراسة قام بها مركز دراسات المرأة الجديدة عن الحركة النسائية فى مصر والسودان وتونس (Abdel Wahab Al-Affifi & Abdel Hadi (eds.), 1996) .

وعلى الرغم من معرفتي بالتوتر والانقسام داخل الحركة فقد تبين لى أن الأهداف المعلنة ليست بالاختلاف الذى افترضته. غير أن هذه الأهداف مثل "تحسين حياة المرأة" أو "العمل على تعزيز وضع المرأة فى المجتمع"، أو "نشر الوعى بقضايا المرأة وإعداد المجتمع لتقبل هذه القضايا بقدر أكبر من الحساسية" تعد على قدر من العمومية والغموض إلى درجة أنني اقتنعت أن الاختلافات تقع أساساً على مستوى تنفيذ الأهداف وترجمتها إلى نشاطات .

وقد أصبح من الواضح أن تقييم السياسات الحالية والنظرة الخاصة لكل جمعية على أساس من منطلقاتها الرسمية هو أمر يتسم بالصعوبة. ويمكن للمرء أن يلاحظ تسليط الأضواء على مساحات مختلفة غير أن معظم الأهداف المذكورة أنفاً تتسم بغموض يمنع تحليلها تحليلاً متعمقاً. فمفهوم تحسين حياة المرأة وقضايا زيادة الوعى تحمل تفسيرات متعددة وقد تختلف اختلافاً بيناً من ناحية المحتوى وأساليب وضعها موضع التنفيذ. وتتضح الاختلافات ما بين الجمعيات المختلفة على نحو أكثر قليلاً فيما يتصل بتسلط الضوء على الأولويات. وفى ما يلى أقدم أولويات الناشطات وأهدافهن على النحو الذى قدّمته من خلال بحثى.

هل الأمور الشخصية هى نفسها الأمور السياسية ؟

وجدت معظم السيدات اللائى قابلتهن صعوبة فى تحديد القضية ذات الأولوية الأعلى وكثيرات أطلقن تنهدات، وإيمان ب. مثال على ذلك: "أولوية ؟ لا أعتقد أنك تعنين ما تقولين. إن هناك الكثير من القضايا متساوية الأهمية. والمشكلة تكمن فى أننا لا نعرف من أين نبدأ . إذ لدينا العديد من الأهداف وكل هدف من هذه الأهداف قضية لها أولويتها". وقد قوبلت بردود أفعال مماثلة فى العديد من اللقاءات، غير أنه عندما بدأت الناشطات بالفعل فى الحديث عن الكثير من المشكلات والأهداف أصبح من الواضح فى أحيان كثيرة أنهم ينظرون إلى بعض القضايا بوصفها أكثر أهمية وإلحاحاً مقارنة بغيرها. وقد صاغت العديد من السيدات أهدافهن فى لغة هى أقرب لتحليل المواقف الذى يقدمه الدارسون من منظور جمعية "المرأة المتطورة" ، وهو تحليل يتوجه بالنقد

لنظرية التحديث السائدة سابقاً. وتلاحظ دنيز كانديوتي Denise Kandiyoti أن تلك الكتابات :

تعارض المفهوم القائل بأن مزايا التحديث قد عمّت المجتمع حتى وصلت في نهاية المطاف للمرأة بل أن تلك الكتابات ترى أن المرأة في بعض الأماكن فقدت حقوقها عندما أُغلقت في وجهها بعض السبل التقليدية لكسب العيش والمشاركة الاجتماعية. وقد عاد مفهوم الضرر القائم على النوع لبرامج المرأة غير أنه لا يزال مرتبطاً بمفهوم التنمية (11: 1996) .

وقد أولى منهج "المرأة المتطورة" اهتماماً كبيراً بقضايا التخلف والفقير. غير أن كافة السيدات الناشطات في الحركة النسائية المصرية يعترفن بشكل أو آخر بأن هناك قضايا تخص المرأة داخل الإطار الأعم للحرب ضد التخلف الذي يؤثر على المجتمع كله. فالفقير الذي يؤثر على الرجل والمرأة كليهما يصبح قضية مرتبطة بالنوع في موقف "تأنيث الفقر" وهو موقف جرى تسجيله على نطاق واسع في بلدان العالم الثالث (Afshar and Agarwal (eds.), 1989; Boserup, 1989; Mies, Bernholdt-Thomson & von Werl-hof (eds.), 1988; Son & Groven, 1988; Vickers, 1991) ، وتبرز قضية أخرى على رأس قائمة الأولويات تلي قضية تخفيف حدة الفقر وهي مشكلة الأمية. وتقول سهام ب. وهي إحدى عضوات الاتحاد النسائي التقدمي المنبثق عن الحزب الاشتراكي :

لا يعقل أن نقود حملة كي تحصل المرأة على المساواة إذا كانت بعض سبل الحياة الأساسية غير متوافرة. فالكثيرات يكافحن من أجل مجرد البقاء على قيد الحياة، وإطعام أنفسهن وأطفالهن. يجب أن نعالج الفقر أولاً. والفقر يؤثر على الرجال والنساء، وأعتقد أن الأمية قضية هامة وهي متفشية بين النساء أكثر من الرجال. وهكذا فإلى جانب الحرب ضد الفقر عامة، يجب أن نوفر خدمات محددة للمرأة تعالج مشكلة الأمية.

وينتشر القبول بفكرة الترابط ما بين تحسين وضع المرأة في مصر والقضاء على الأمية. ولا يقتصر قبولها على الناشطات ولكنه يمتد ليشمل الجمعيات الأهلية، ووكالات التنمية والأجهزة الحكومية. وبالنسبة للناشطات فإن الأمية في كثير من الأحيان ينظر

إليها على نحو يتعدى مجرد تعلم مهارات القراءة والكتابة، فهي فى نظرهن أداة لنشر الأفكار وزيادة وعى المرأة بحقوقها. فمحو الأمية القانونية يعنى معرفة القوانين القائمة وتوفير القدرة على فهمها، وهو أمر يرد ذكره كثيراً فى هذا السياق. وبالفعل فإن مفهوم زيادة وعى المرأة بحقوقها القانونية يُعد قضية تحتل مكان الصدارة لدى العديد من الناشطات اللائى قابلتهن. وأنقل ما يلى عن إحدى العضوات برابطة المرأة العربية: "إننا نوجه اهتمامنا لمساعدة المرأة المصرية التى لم تحصل على تعليم كامل. ونحن نريدها متعلمة أى قادرة على القراءة والكتابة، كما نريدها على معرفة بحقوقها القانونية حتى لا يمكن خداعها بسهولة وحتى يمكنها زيادة دخلها". (أمال م)

وبينما يشكل الوعى القانونى أحد الأهداف الشائعة بين الناشطات فإن جانباً هاماً من النشاط فى مجال حقوق المرأة بمصر يوجه نحو تغيير القوانين القائمة، وتقنين ما تراه الناشطات حقوقاً للمرأة^(٥). ويعد قانون الأحوال الشخصية هو القانون الأكثر إثارة لمشاعر الغضب والمعارضة، وتقول راندا ك.:

إننى أعارض أية نصوص قانونية تعلن أن المرأة أقل شأنًا من الرجل. وقانون الأحوال الشخصية خير مثال على ذلك. وأن أرى أن الشريعة الإسلامية برزت إلى الوجود قبل ظهور مفهوم المجتمع الحديث. وقد بقيت لأن بعض الرجال أرادوا لها البقاء. غير أن الشريعة تقف ضد محاولة تحديث المجتمع. وربما دافعت الشريعة عن حقوق المرأة فى بعض المناسبات غير أن القضاة يشوهون هذا الدفاع. ولا أظن أن هناك امرأة واحدة ترضى بأى وجه من وجوه قانون الأحوال الشخصية، وخاصة قوانين الطلاق وحضانة الأطفال، (راندا ك.، إحدى عضوات مركز النديم للعلاج والتأهيل النفسى لضحايا العنف).

وقد اتفقت معظم الناشطات اللائى قابلتهن مع الرأى القائل بأن قانون الأحوال الشخصية يعد مصدراً للتفرقة وعدم المساواة، غير أنهم يختلفون فى مطالبهم بتعديله أو تغييره تغييراً جذرياً. وبالنسبة لمعظم الناشطات فإن الهدف الذى يتمثل فى تغيير القانون الذى ينظم الزواج والطلاق وحضانة الأطفال هو الوجه الوحيد لما يرونه من المساعى التى تتصل بحياة المرأة "الخاصة". غير أن الزواج والطلاق تجرى صياغتهما

فى كثير من الأحيان كأمرين عامين، وقد برزا كعلامتين لعملية التحديث ومن ثم أصبحا موضوعين مشروعين للمناقشة على نحو متزايد. ويقع التصور واسع الانتشار بأن قانون الأحوال الشخصية ينتمى إلى الزمن الماضى، وأنه لا يجارى العصر الحاضر بل يقف فى طريق عملية "التحول إلى دولة حديثة" فى قلب الحجج الموجهة ضده .

ونيفين ب. هى الناشطة الوحيدة التى عبرت عن رأيها فى وجود علاقة مباشرة ما بين قانون الأحوال الشخصية الذى يضع فروقاً ما بين الجنسين والأعراف الاجتماعية السائدة التى تقيد وتتحكم فى أسلوب لقاء الشباب من الجنسين وزواجهم: "ما نحن فى حاجة فعلية لإعلان الحرب ضده فى الأساس هو النظام الأبوى. وليكن هذا هو مسعانا الرئيسى لأن هذا النظام يؤثر على مختلف أوجه حياتنا: القوانين القائمة، والقيم الثقافية، والأعراف التى تحدد ما هو لائق وما هو غير لائق، وهكذا". ويظل تحليلها تحليلاً متميزاً مع ذلك إذ أن العدد الأكبر من الناشطات لا يقمن رابطة ما بين القوانين التى تساند عدم المساواة بين الجنسين ومفهوم الأبوية الذى لا يتخلل النصوص القانونية وتطبيقاتها فحسب بل يمتد أيضاً إلى التأثير فى القيم الثقافية.

ويصدق هذا أيضاً على الجدل الدائر حول قانون الجنسية الذى يؤكد التفرقة ما بين الجنسين ومن ثم يلقى رفضاً واسع النطاق فى صورته الحالية. ولا يمنح القانون المرأة المصرية المتزوجة من الأجنبى الحق فى نقل الجنسية المصرية لأبنائها، بينما يحصل الرجال على هذا الحق. وهذا أوضح مثال يضع المرأة فى مرتبة المواطنة من الدرجة الثانية. كما ترى الناشطات أن هذا القانون غير دستورى، مثله فى ذلك مثل قانون الأحوال الشخصية ويتعارض مع بنود اتفاقية القضاء على جميع أشكال التمييز ضد المرأة GEDAW^(٦) .

وتعد الناشطات أكثر غموضاً فى تقييمهن لقوانين العمل والقوانين التى تنظم حقوق المرأة السياسية. وترى بعضهن أن قوانين العمل والقوانين ذات الصلة بالمشاركة السياسية لا تعكس عدم المساواة بين الجنسين على وجه الخصوص، غير أن تطبيق هذه القوانين يمثل المشكلة الرئيسية. وهناك أخريات يؤكدن أن النقص العام فى الديمقراطية والأزمة الاقتصادية المستمرة قد نتج عنهما مشاركة سياسية محدودة بين

السيدات وقيام التفرقة ضدهن في مجال العمل. غير أن بعض الناشطات يشرن إلى عناصر للتفرقة في القوانين ذاتها ويطالبن بتعديلها، ومثال ذلك المطالبة بإعادة القانون الذي يخصص مقاعد للمرأة في البرلمان، وهو قانون كان قد صدر حكم بعدم دستوريته في عام ١٩٨٦ على أساس أن نصه يعارض مبدأ المساواة المنصوص عليها في الدستور المصري (Karam, 1998: 152-3).

ولا شك أن المشاركة السياسية المتزايدة للمرأة هي أحد القضايا التي تحظى بمحل الصدارة. غير أن الجمعيات والناشطات يختلفن في تفسيرهن لهذا الهدف. فترى بعض الناشطات أن زيادة عدد النائبات في البرلمان ومراكز اتخاذ القرار هدف في حد ذاته. ويبدو هذا الرأي متفقاً مع وصف كونيل Connell لمنهج ناشطات الاتجاه النسائي الليبراليات تجاه الدولة في الغرب حيث تقول: "إذا كان الرجال في الوقت الحاضر يتراسون الحكومات، والجيش، والبيروقراطيات، فإن الحل يتمثل في إعطاء الفرصة لمشاركة أكبر للمرأة على أعلى مستويات الدولة إلى أن يعتدل الميزان" (1990: 512). وعلى الرغم من الأخطار التي تحيط بتصنيف النشاط النسائي في مصر مع نظيره الغربي، فإنني أعتقد أن الأمر يستدعي النظر إلى الخطوط المتوازية ما بين أحد الاتجاهات في الحركة المصرية والاتجاه النسوي الليبرالي في الغرب. وهناك العديد من الناشطات اللاتي يؤيدن فكرة زيادة عدد السيدات المرشحات يصبن بفرع شديد إذا ما أطلقت عليهن وصف الليبراليات. وهناك الكثيرات اللاتي يؤمنن بالأفكار الاشتراكية ويلمسن تورط الدولة في النظام الطبقي. غير أن القليلات يقفن في مواجهة الطبيعة النوعية للدولة والأسلوب الذي تساند به النظام الأبوي.

غير أن هؤلاء اللاتي يقفن موقفاً واضحاً يعبر عن عدم رضائهم بمجرد زيادة أعداد السيدات العاملات في مجال السياسة يؤكدن أنهن "لسن مستعدات لدعم أية مرشحة ومساندتها لمجرد أنها امرأة". بل أن هدفهن البديل يتمثل في زيادة وعي المرأة في صفوف عامة الشعب. كما أنهن يتمنين أن يرين تعاطفاً أكبر مع قضيتهن بين السيدات اللاتي يشغلن مناصب اتخاذ القرار ويأخذن مواقعهن في التنظيمات الحزبية وأجهزة الدولة. غير أن أهم ما يشغلن بالفعل هو الوقوف في مواجهة النظام السياسي نفسه وهياكل السلطة التي تقوم عليها الدولة المصرية المعاصرة. ويتضمن

هذا فى نظر عضوات "المرأة الجديدة" على سبيل المثال إعادة لتنظيم الهيكل السياسى الهرمى الأوتوقراطى التقليدى الذى يقع تحت سيطرة الذكور^(٧) .

وتعد قوانين العمل مجموعة قوانين أخرى تثير ردود فعل متباينة بين الناشطات. وترى الكثير من الناشطات أن قوانين العمل المصرية أكثر تقدمية وانحيازاً للمرأة مقارنة بالقوانين المناظرة فى الدول المتقدمة وحتى فى الغرب، فهن يمتدحن الكرم المتمثل فى إجازة الوضع مدفوعة الأجر، وإجازة رعاية الطفل التى تمنح دون أجر، فضلاً عن النص على توافر تسهيلات لقيام حضانات للشركات التى يعمل بها أكثر من مائة امرأة، ومع ذلك فإن الكثير من الناشطات يدركن الفجوة ما بين النظرية والممارسة، ويشكون من مختلف أنواع التفرقة فى سوق العمل، ومن ذلك الإعلانات الموجهة للرجال فقط، أو الرفض المنظم للمتقدمات من السيدات للعمل بعد إجراء المقابلة معهن (2-161 : Karam, 1998 ; 156 : El-Baz, 1997) . ومن بين القضايا الشائعة التى يجرى ذكرها هناك مشكلة المساواة فى محل العمل، والتساوى فى الأجور، وأيضاً الاهتمام على نحو خاص بمشكلات المرأة العاملة التى تواجه الاستغلال وتحمل العبء المزدوج للعمل مدفوع الأجر، إلى جانب الأعمال المنزلية غير مدفوعة الأجر. كما أن التحرش الجنسى يعد من المشكلات التى لم تحظ بالمناقشة إلا مؤخراً، عدا عندما تتصل المشكلة بالأسباب التى تدعو النساء لارتداء "الحجاب" وذلك لحماية أنفسهن من التحرش الشفهى والجسدى فى الطريق إلى العمل أو فى محل العمل نفسه. غير أن التحرش الشفهى والجسدى فى محل العمل قد جرت مناقشته مؤخراً من حيث صلته بأشكال العنف المختلفة ضد المرأة .

ويبدو أن الحاجة الملحة للوعى بالقوانين القائمة وبإدارة الحملات لتغييرها لصالح المساواة بين الجنسين قد زادت بين الجيل الأصغر من الناشطات نتيجة لتجاربهن فى منتدى المرأة الدولى فى بكين عام ١٩٩٥ . وكما قالت لى أمل هـ. وهى ناشطة فى أواخر العشرينات من عمرها وتعمل فى عدد من الحملات ذات الصلة بقضايا المرأة :

أريد أن أدرس القانون لأن عدد المحامين فى مجال حقوق الإنسان من الملتزمين بالفعل بحقوق المرأة ضئيل للغاية. وعندما حضرت مؤتمر بكين، وجدت أيضاً أن النساء

من مختلف أنحاء العالم جميعهن يعانين من مشكلات مشابهة لمشكلاتنا في مصر، ولكن الكثيرات يتمتعن بوجود قوانين تساندهن ويمكنهن العمل من خلال تلك القوانين للدفاع عن قضاياهن. وبالطبع فإننى أعرف أنه في مناسبات عديدة تقع التفرقة ضد المرأة لا بسبب القوانين وإنما بسبب من ينفذونها وخاصة رجال القانون. وعلى الأقل إذا كان القانون في صفى فإننى أستطيع إقامة دعوى.

ولا تشترك الناشطات جميعهن في الاقتناع بأن القوانين هي الهدف النهائي. وترى عضوات مركز "معاً" لبحوث المرأة وهي منظمة نسائية ماركسية (مسجلة كشركة غير ربحية لتجنب قيود وزارة الشؤون الاجتماعية) أن التركيز على "النشاط في مجال الحقوق" وحده يتجاهل مشكلات الاستغلال الرأسمالي والإمبريالي. وهن يرفضن الأهداف قصيرة المدى المتصلة بتخفيف حدة الفقر، ومحو الأمية، وتعديل بعض الحقوق، غير أنهن يؤمن بالهدف طويل المدى للصراع الطبقي داخل مصر، والصراع ضد الإمبريالية على المستوى الدولي. وبما أن المؤسسة حديثة الإنشاء (بدأت في أوائل التسعينيات) فإن أهدافها المباشرة والموسسة تتصل بتحضير الصنف الأول، كما تقول ليلي أ. :

يتمثل هدفنا في بناء حركة حقيقية. ونود أن نستكشف مشكلات المرأة في شتى المجالات، وينبغي أولاً أن نشكل نواة داخل جمعيتنا، وهي نواة من الأفراد الذين يتميزون بالثقة في النفس وتكوين الآراء الخاصة بهم، والقدرة على ممارسة الاختيار واتخاذ القرار. وهي عملية تستغرق الكثير من الوقت إذ أننا يجب في البداية أن نطور القدرة على مناقشة الموضوعات. كما أننا نود أن نحقق تراكمًا نظريًا لتعميق أفكارنا. ويتمثل هدف آخر لنا في تعميق الروابط مع النساء العاملات. فلا يمكن أن نتحدث عن منهج ماركسي بينما نتعامل مع سيدات الطبقة الوسطى وتتجاهل سيدات الطبقة العاملة، (ليلى أ.)

ويمثل الهدف الأكثر مباشرة لبناء نواة قوية وديموقراطية خطوة ضرورية فيما يخص الهدف طويل الأمد لبناء حركة نسائية على قاعدة عريضة. ويصبح التعليم الذاتى ضرورة لعضوات "معاً" في تلك المرحلة من كفاحهن. ونجد ذلك مذكوراً في كتيب

أصدرته الجمعية منذ عدة سنوات : "المعرفة بتاريخنا، وحقوقنا، فضلاً عن القضايا الاجتماعية، والاقتصادية، والثقافية، والسياسية تساعدنا على زيادة ثقتنا بأنفسنا وتوفير لنا السبل للوقوف في وجه إيديولوجية النوع في المجتمع" .

ولا يدخل مفهوم النظام الأبوي ، بوصفه نظام للسيطرة الذكورية، في خطاب عضوات "معاً"، وهن يدركن أن للمرأة مشكلات خاصة بها تقع في إطار الكفاح الأوسع ضد الاضطهاد الطبقي والاستغلال الإمبريالي. ولكن إذا ما جاء ذكر هذه المشكلات فإن أشكال القمع الذكوري وعدم المساواة بين الجنسين عادة ما توضع في سياق الاستغلال الرأسمالي، وترى "معاً" أنها جمعية أكثر راديكالية من الاتحاد النسائي التقدمي المنبثق عن حزب التجمع الاشتراكي لأن الاتحاد النسائي يضع أهدافاً قصيرة المدى تتصل بالرعاية الاجتماعية .

ويحدد الاتحاد النسائي التقدمي وكذلك "معاً"، وإن كان بدرجة أقل، موقع كفاحهما خارج البيت والأسرة. ومعظم أهداف الاتحاد تتصل بحصول المرأة على حقها في التعليم (وخاصة الهدف المتمثل في محو أمية المرأة) والمشاركة السياسية، بما في ذلك تنظيم المعارضة لقانون إنشاء الجمعيات (القانون رقم ٣٢). وهما يوجهان الجهود للدفاع عن حقوق المرأة العاملة في الحصول على أجر مساوٍ للرجل، وعدم التفرقة في التعيين بالوظائف، وإقامة حضانات لأطفال السيدات العاملات في المؤسسات التي يعمل لديها مائة امرأة فأكثر. أضف إلى ذلك أن الاتحاد النسائي يعبر عن مطلبه فيما يتصل بتغيير قانون الجنسية القائم. ويرى الاتحاد نشاطه، مثله في ذلك مثل الكثير من الناشطين ذوي الاتجاهات اليسارية، وأيضاً مثل الناشطين في مجال حقوق المرأة من الليبراليين مثل عضوات رابطة المرأة العربية، موجهاً بصفة مبدئية للمجال العام .

وبالطبع فإن تسليط الضوء على الاقتصاد السياسي مرّ بتاريخ طويل في خطابات التحديث المتعددة، سواء في أشكاله اليسارية والاشتراكية أو المحافظة الوطنية. ويتضمن الافتراض الأساسي القائل بأن تحسين الظروف فيما يسمى بالمجال العام سيمحو في نهاية المطاف أوجه عدم المساواة في المجال الخاص فرضاً آخر ألا وهو الفصل ما بين ما هو قائم في عالم السياسة وما هو قائم خارج هذا العالم .

وخلال مشاركتي في الحركة النسائية المصرية حتى قبل اضطلاعي ببحثي صادفت أحد أكثر الاكتشافات إثارة لدهشتي عندما أدركت أن النشاط النسائي لا ينظر إليه على أنه بالضرورة عمل سياسي. وقد اتضح هذا المفهوم أكثر خلال قيامي ببحثي الميداني عندما صادفت العديد من المواقف حيث جرى تعريف السياسة في كثير من الأحيان بالإشارة للسياسات الحزبية وحدها، أو للمشاركة في منظمة يسارية سرية. وأعني بقولي هذا أن السياسة يجري ربطها عامة بالقضايا والصراعات ذات الصلة بالاقتصاد السياسي والقضية الوطنية. كما أن هناك أيضاً ناشطات يقفن في مواجهة التعريف المحدود للسياسة والانقسام ما بين "العام" و"الخاص".

وترى هند م. وهي كاتبة وناشطة في الأربعينات من عمرها اعتادت أن تمارس نشاطاً كبيراً في اتحاد تضامن المرأة العربية قبل أن تغلقه السلطات المصرية أن اتصال المجالين العام والخاص لا يقبل الشك :

فلنبداً بالأشياء الأقرب لنا. الطبقات، والإمبريالية، والاستقلال أمور هامة، غير أنه من المنطقي أن نتخلص من الاضطهاد اليومي ضد عقولنا وأجسامنا وهو ما يجري في بيوتنا. وتتوجه نظرتنا دائماً للعدو الخارجي وننسى العدو في منزلنا. وهذا عمى ! فلا نرى ما هو أقرب إلينا. فإذا لم أستطع أن أحول زوجي للعدل، فلن يمكنني أن أحول الحاكم إلى العدل. وإذا تعرضت للضرب والإهانة على يدي زوجي، فلن أسير إلى البرلمان للمناداة بالتخلص من التمييز الطبقي. فإذا ساد العدل بيتي فلن يكون هناك تمييز طبقي. وأنا أسلط الضوء على المشكلة الأبوية. ومن الأهمية بمكان أن نتفحصها لأن الحاكم ما هو إلا أب آخر. ولا يمكن لأي غزو خارجي أو أية مشكلة قومية مهما كانت أن تضر البلد إذا ما كنا قد تخلصنا من النظام الأبوي. فلا يمكن لعدو خارجي أن يتحكم في بلد يتساوى فيه النساء مع الرجال لأن الأعداء يستفيدون من التمييز والتفرقة مثل التي ما بين الأديان أو بين الحاكم والمحكوم. فالبيت هو نقطة البداية الأساسية، إذا ساد العدل في البيت تمتعت البلد بالقوة، وهذا هو أهم معايير التقدم .

وقد أصبحت جمعية "المرأة الجديدة"، بعد إغلاق جمعية "تضامن المرأة العربية"، على خط المواجهة أمام التحديات ذات الصلة بالخطاب التقليدي عن وضع المرأة

الهامشى فى مصر. وقد شاركت عضوات الجمعية فى عملية توسيع مفهوم السياسة. ولا يساورهن شك فى أن عملهن سياسى، وأن القضايا التى يثرنها هى قضايا سياسية. وقد أسقطن حدود ما يُسمح بمناقشته والكفاح فى مجاله وذلك بتناولهن المنتظم لموضوعات محرمة مثل حقوق المرأة الإنجابية، والعنف ضد المرأة ووضعها فى برامجهن. وتشمل أهدافهن العامة زيادة وعى المرأة، وزيادة الوعى بالحقوق القانونية وصحة المرأة، والكفاح ضد الأصولية. وفى أيامنا هذه فإن أهدافهن تتصل على نحو مباشر بالتنفيذ العملى لنتائج بحوثهن وتطبيقها :

إننا مهتمات حالياً بقيام برامج دعم داخل المجتمعات المختلفة التى نتعامل معها. وقد تمكنا من إثارة قضايا معينة، مثل العنف ضد المرأة. ونحن الآن فى حاجة لوضع النتائج التى توصلنا إليها موضع التنفيذ. ويعد هذا تحدياً نواجهه إذ أننا وصلنا بذلك إلى مرحلة جديدة فى نشاطنا النسائى. (هانية ك.)

ولا تزال قضية العنف ضد المرأة إحدى القضايا التى تثير جدلاً كثيراً لأنها تمس فى الأساس ما جرى تجاهله لفترة طويلة؛ وأعنى بذلك أشكال الاضطهاد داخل المنزل وداخل الأسرة. ولا عجب أن هذه المشكلة يجرى تجاهلها من قِبل الرجال التقدميين منهم والرجعيين باعتبارها مشكلة فرضها الغرب علينا، بل ومن قِبل الناشطات أنفسهن، فلا يرونها فى السياق الخاص بهم. وهناك من يحاول أن يضعها فى إطار نسبى وذلك بالإقرار بوجود المشكلة ثم الإشارة إلى قضايا أكثر إلحاحاً على قائمة الأولويات مثل الفقر والأمية. ونجد لدى منى أ.، وهى ناشطة فى مجال حقوق الإنسان وتعمل فى مجال قضايا المرأة، وجهة نظر مختلفة، وهى تدعم البحوث والحملات حول قضية العنف :

يجب أن تحتل قضية العنف ضد المرأة صدر قائمة الأولويات. ولا يهمنا ما إذا كانت هذه القضية على رأس أولويات الغرب. ولا يعنينى أن يكون أصل الفكرة غربى. وقد كنا غير مدركين لفداحة القضية حتى اضطررنا لمواجهتها. فالمسألة ليست مجرد قضية غربية، وإنما نحن فى حاجة لطرف يقع خارج حدودنا ليرى المشكلة سواء كانت العنف ضد المرأة أو ختان الإناث. ويصدق ذلك بصفة خاصة فى تلك الثقافات التى

ترى عدم التدخل فيما يتصل بالمرأة والأسرة، فالمرأة في تلك الثقافات يجب أن تتقبل ما يحدث داخل إطار الأسرة ولم يكن تقرير سى إن إن عن ختان الإناث يعنى أن ذلك التقليد لم يكن قائماً من قبل^(٨). وقد قيل أنها محاولة غريبة للإساءة لسمعة مصر. لقد جاء الغرب وسلط الأضواء على هذه الظاهرة. فليكن، لقد تجاهلنا هذه القضية فترة طويلة ولم نفعل شيئاً بشأنها.

ولا شك إذن إن هناك خلافات هامة قائمة بين الناشطات من حيث أهدافهن وما يتطلعن لتحقيقه. غير أن أهم الاختلافات تتمثل في استعداد عدد قليل ولكنه متزايد من الناشطات لتطوير المواقف النسائية خارج إطار الحدائث ونظم الاعتماد على الغير. فهن يرفضن الخطابات الراسخة والضاربة في أعماق التاريخ عن حقوق المرأة في مصر، وهؤلاء السيدات اللاتي يمتد اهتمامهن ليشمل أشكال الاضطهاد الشخصى داخل الأسرة ويشرن إلى الرابطة ما بين "الخاص" و"العام" قد يحققن نجاحاً في إرساء قواعد "خطاب مستقل" جديد تدعو الحاجة إليه (Hatem, 1993). وترى ميرفت حاتم أن لا خطاب الحدائث والتحرر الوطنى ولا خطاب الاعتماد على الغير يقدم أنوات تحليل الجوانب المعقدة لوضع المرأة على نحو شامل، كما أن هذه المناهج لا تقدم حلولاً مرضية .

محاولات لترجمة الأهداف إلى أفعال

ينبغى توخى الحذر عند تقييم أى شكل من أشكال النشاط فلا يجرى التقييم على أساس من الأهداف المعلنة رسمياً. فالتغيير وتحقيق الأهداف يتم من خلال الأنشطة والمشروعات الملموسة . وفى ما يلى أحاول أن أقدم أنشطة ومشروعات مختلفة وأن أُقيم تأثيرها على صناعة القرار وحياة النساء فى مصر .

مشروعات تخفيف حدة الفقر : أعمال خيرية أم تنموية ؟

نشأ عبر تاريخ الحركة النسائية المصرية اتجاه للرعاية الاجتماعية انشغل بأعمال الخير وإقامة مشروعات تدر دخلاً محدوداً ، وقد وفرت هذه المشروعات للنساء محدودات

الدخل بعض الإيرادات الإضافية من خلال عملهن في مجال الأعمال المنزلية التقليدية مثل التطريز، أو الحياكة، أو الطهي، وفي أغلب الأحوال ارتبطت المشروعات التي تدر دخلاً بفصول محو الأمية التي كان يُنظر إليها بوصفها جانباً من استراتيجيات بعيدة المدى في الحرب ضد الفقر. ويستمر هذا الشكل من النشاط الذي يستهدف الفقر بغرض التخفيف من حدته في الانتشار في مصر المعاصرة حيث تنظم جمعيات تختلف في اتجاهاتها السياسية والإيديولوجية مثل التحالف الليبرالي للنساء العربيات واتحاد المرأة التقدمي المنبثق من الحزب اليساري مشروعات عدة تتصل بإدراك الدخل ومحو الأمية .

وفي كثير من الأحيان يجري التهوين من شأن المدخل المباشر والملموس لتحقيق الهدف المتمثل في "تحسين حياة المرأة" فلا ينظر إليه إلا كعمل من أعمال الخير، وعادة ما يشير النقد في الفترة الأخيرة إلى المشكلات الأساسية التي يعد الفقر مظهراً لها ألا وهي سوء توزيع الموارد، والاستغلال الرأسمالي، والانفتاح، وسياسات التعديل الهيكلي، وقد يكون نقد ذلك المدخل على أساس تقليديته واتجاهه للمحافظة في محاولات ومشروعاته الخاصة نقداً متشدداً على ضوء حقيقة أن معظم الجمعيات أو الأفراد الذين يشاركون في إقامة مشروعات إدراك الدخل يشاركون في الوقت ذاته في أشكال أخرى من الأنشطة ويعملون من منطلقات أخرى في الوقت ذاته، فعلى سبيل المثال دأب اتحاد النساء العربيات على تنظيم ندوات متعددة حول الوعي القانوني للنساء محدودات الدخل.

غير أننا لا يمكننا أن نتجاهل أوجه النقد المختلفة الموجهة ضد مشروعات إدراك الدخل التي تشجع الأدوار التقليدية للمرأة، فهذه الانتقادات تتفق والنقطة التي حدثت في الفكر التنموي الذي ينتقل من المشروعات قصيرة المدى التي لا تجلب التحسين المستدام إلى صياغات حديثة للأفكار بعيدة المدى ومفهوم الاستدامة، ولا عجب إذن أن التغييرات في مجال التنمية المهنية قد انعكست على النشاط النسائي، وقد عززت تلك التغييرات بصفة خاصة مشاركة عدة نساء ممن يعملن في مجال التنمية في النشاط النسائي، غير أن نقطة الالتقاء ما بين الدوائر المحلية والدولية أضحيت على جانب كبير من الأهمية إذ أن العديد من وكالات التمويل الأجنبية تساند وتعزز هذه النقطة في الفكر التنموي وخاصة ما يتصل بها من تسليط الضوء على النوع والتنمية .

ويعد برنامج القروض الائتمانية أحد الأمثلة الناجحة لمنهج جديد حيال المرأة والتنمية، ويقوم على أساس نموذج مصرف جرامين Grameen bank فى بنجالاديش. وقد قامت مجموعة من السيدات، المشاركات فى مشروعات التنمية لعدة سنوات والمدرّكات لضرورة قيام مشروع يستهدف المرأة ويحقق لها التمكين، بوضع أسس هذا المشروع المصرى. ومن خلال عملهن المهني كممارسات فى حقل التنمية وتنفيذ البرامج دخلت رائدات البرنامج فى العديد من التجارب الناجحة لمشروعات إدار الدخل، مثل المشروع الذى لاقى نجاحاً كبيراً بين جامعي القمامة الذين يعيشون بالقرب من تلال المقطم فى القاهرة. وفى بادئ الأمر قررن إعادة تنفيذ المشروع الذى جرى تنفيذه بين جامعي القمامة إلى منطقة منشية ناصر، وهى منطقة عشوائية فى القاهرة يسكنها حوالى عشرة آلاف أسرة. غير أنّهن ما لبثن أن اكتشفن أن المجتمع الذى أردن أن يعملن فيه بعيداً عن محيط حياتهن المهنية يحمل شخصية تختلف عن مجتمع جامعي القمامة، وقد حدثتني إحدى العضوات المؤسسات عن ذلك الأمر قائلة : "لقد كان مجتمعاً تقل فيه درجة التجانس والاستقرار عن المجتمع الذى عملت فيه من قبل. ولذلك فقد اضطررنا إلى تطويعه ليتناسب والحاجات الخاصة لمنشية ناصر. وقد أردنا أن نعمل من خلال جمعية أهلية بالمنطقة فلم نجد ولذلك قررنا أن ننشئ جمعية أهلية".

وبعد مشاورات موسعة بين أفراد ذلك المجتمع قررن تنفيذ برنامجين : برنامج للقروض والمساعدة الفنية، وآخر للمساعدة القانونية. وفى عام ١٩٨٧، تم تسجيل "جمعية النهوض وتنمية المرأة" كمنظمة تطوعية خاصة، وبعد عام ونصف العام جرى الانتهاء من تصميم البرنامج تفصيلياً والحصول على التمويل. وقد أنشأت الجمعية مكتباً لها فى منشية ناصر ودرّبت سيدات شابات من المجتمع نفسه للعمل كحلقات اتصال، وقامت بتعيين مدير للمشروع من أبناء الحى، وأقامت جهاز لاتخاذ القرار، ومجلس إدارة التحق به العاملون.

وقد مرت عشر سنوات على تنفيذ ذلك المشروع الذى حقق نجاحاً، والذى قامت إنجازاته على أساس من التطويع الذى جرى التخطيط له بعناية ليتناسب مع المنطقة والأهداف بعيدة المدى. وقد أدركت عضوات جمعية النهوض وتنمية المرأة أن النساء يقمن بالإنفاق على أسرهن فى كثير من الأحيان لأسباب كثيرة: وفاة الزوج، أو الطلاق،

أو البطالة، أو مرض الزوج^(٩). ويستهدف برنامج القروض بصفة خاصة السيدات اللاتي يتحملن مسؤولية الإنفاق على أسرهن، ويقدم لهن القروض لإقامة مشروعات شخصية مستديمة مثل بيع الخضراوات، أو صناعة الأحذية أو الحياكة. وقد دأبت جمعية النهوض وتنمية المرأة على اللجوء إلى مبدأ "التكافل الاجتماعى" بهدف زيادة مشاركة المرأة فى عمليات اتخاذ القرار، وتقديم آلية للدعم، وإيجاد تضامن جماعى، ولضمان رد القروض من خلال الضغط الجماعى.

وتصف إحدى العضوات المؤسسات فى بحث قدمته فى مناقشة عن الأسر التي تتكفل بها المرأة خلال انعقاد مؤتمر السكان والتنمية فى القاهرة مفهوم التكافل الاجتماعى كما جرى تطبيقه فى جمعية نهوض وتنمية المرأة كما يلى:

يطلب من السيدات قبل حصولهن على قرض أن يقمن بتكوين جماعات اتئمانية من ثلاث إلى خمس سيدات على أساس من شبكات الدعم القائمة. وفى هذه الجماعات، تناقش السيدات مشروعاتهن المقترحة ويخترن قائدة للجماعة، ويعمل مسئولو التعبئة بجمعية نهوض وتنمية المرأة مع هذه الجماعات عن قرب خلال تلك العملية التي قد تستغرق ثلاثة أشهر، ويساعدون السيدات فى إجراء دراسات جدوى بسيطة لأنشطتهن. غير أن الشروط الخاصة بالقروض، أى حجم القروض وجداول السداد، الخ. يجرى تحديدها من قبل أعضاء الجماعة. (El-Kholy, 1994)

وما أن يتم منح القرض فإن السداد يتم على أقساط شهرية^(١٠). وتقوم العاملات المساعدات اللاتي يدعمن المشروع فى المجتمع بإسداء النصح للسيدات اللاتي بدأن مشروعاتهن. ونقلاً عن عضوات جمعية نهوض وتنمية المرأة فإن كافة السيدات الحاصلات على قروض على وجه التقريب يسدن قروضهن.

كما أنشأت جمعية نهوض وتنمية المرأة بعد قيام برنامجها للقروض، برنامجاً لتقديم المساعدة القانونية يهدف إلى زيادة الوعى القانونى للسيدات. وقد وضعت الجمعية صعوبة حصول السيدات على بطاقات شخصية على قائمة أعمالها لما لاحظته من مشكلات يومية تتعرض لها المرأة. فمعظم السيدات محدودات الدخل والأميات لا يوسدن تلك البطاقات، فى حين أن الاستفادة من الخدمات العامة تتطلب الحصول عليها.

ففى عهد السادات حصلت الأرامل على معاش (معاش السادات) وهو إسهام بسيط يُضاف لدخل الأرملة لم تعلم به الكثير من السيدات، ولم يقتصر الأمر على عدم معرفتهن بحقهن فى هذا المعاش، وإنما جاءت ضرورة استخراج بطاقة شخصية لتمنع الكثيرات من الأرامل الفقيرات من المطالبة بمعاشاتهن .

وفى المستقبل كما حدثتني إحدى العضوات "تودُ جمعية نهوض وتنمية المرأة أن تعمل على مستوى مختلف وتجذب انتباه الحكومة للصعوبات التى تواجهها السيدات فى استخراج الأوراق الرسمية". وقد دفعت الصعوبات والعقبات فى طريق الحصول على البطاقات الشخصية على مستوى المجتمع عضوات الجمعية لبدء حملة قومية لرفع درجة الوعى عن هذه المشكلة ولتغيير الإجراءات الحكومية فى هذا المجال .

وإذا ما نظرنا إلى الحركة النسائية فى إجمالها، فإنَّ جمعية النهوض وتنمية المرأة عامة جمعية نشطة فى مجال تمكين المرأة فى مقابل الجمعيات التى يقتصر نشاطها على الرعاية الاجتماعية، غير أنَّ بعض الناشطات يتجاهلنَّ عمل الجمعية بوصفه إصلاحياً و "مسرفاً فى اتصاله بخطاب التنمية". ويبدو أن هذا النقد قائم على حقيقة أن العديد من عضوات الجمعية هن أيضاً ممارسات للتنمية المهنية، الأمر الذى يظهرهنَّ بمظهر المهنيات وليس الناشطات فى المجال السياسى، وأيضاً بمظهر ممثلات البرامج الدولية وليس البرامج المحلية. ويبدو هذا النقد ظالماً وقائماً على الشكليات وليس البرامج والأنشطة الفعلية للجمعية. وتعد المبادرة لقيام المشروع محاولة لدفع مفاهيم التنمية السائدة قدماً وتسليط الضوء على تمكين المرأة فى الأسر التى تتكفل بنفقاتها النساء. وقد استهدفت عضوات الجمعية الباحثين المصريين بشكل منتظم كى يدرسوا قضية الأسر التى تتكفل بها النساء حتى تقدم المعلومات الضرورية للتأثير فى صانعى القرار. أضف إلى ذلك أنَّ الجمعية بذلت جهوداً كبيرة فى الاستجابة للحاجات الخاصة لمجتمعات بعينها، وأعنى بذلك منشية ناصر. وتجمع عضوات الجمعية مشروعاتهن على مستوى القاعدة، وهى المشروعات التى تحسُن من حياة بعض السيدات وعائلاتهن على المدى الطويل، مع مشاركتهن فى الأنشطة ذات الصلة بتهميش المرأة على المستوى القومى والدولى. وهن يفكرن ويعملن على مستوى القاعدة وعلى مستوى السياسات القومية والمنتديات الدولية، الأمر الذى يقدم شكلاً مركباً من المشاركة يخالف العرف القائم .

الوعي القانوني وحملات الحقوق القانونية

لم تحقق الجهود المختلفة التي بذلتها جمعية النهوض وتنمية المرأة نجاحاً يذكر بإقرار العديد من العضوات. ولا تعد مهمة رفع وعي المرأة القانوني في موقف تنشغل فيه في المقام الأول بالبقاء يوماً بعد يوم، ورعاية أسرتها، مهمة سهلة، كما أقرت بذلك ناشطات أخريات. غير أنه قد جرى ترجمة الهدف في عدة مشروعات منذ أن أصدرت مجموعة من السيدات أطلقن على أنفسهن "مجموعة السبعة" كتيباً في عام ١٩٨٨ جمعن فيه القوانين الأساسية ذات الصلة بالمرأة مع شرح لها. وقد صدر الكتيب الذي يحمل عنوان "الحقوق القانونية للمرأة المصرية : ما بين النظرية والتطبيق" عن مشروع ذاتي التوجه، وقد تضمن المشروع إجراء بحوث وعقد ندوات ومناقشات، وأصبح نموذجاً للعديد من الدراسات والمطبوعات التي صدرت بعده (Bahiy Al-Din; Zulficar, 1995a, 1995b) (١١) .

وقد استخدم الكتيب وغيره من المطبوعات من قبل الباحثين الأفراد ورجال القانون خلال حملات أوضحت الفجوة ما بين نص القانون وتنفيذه. كما جرى تقديم هذه الأعمال في المنتديات المحلية والدولية لرصد وضع المرأة القانوني، وللضغط على الحكومة المصرية لتغيير القوانين القائمة على التفرقة. أضف إلى ذلك أن العديد من الدراسات عن وضع المرأة القانوني قد شكلت المصادر الرئيسية لندوات الوعي القانوني التي نظمتها العديد من منظمات حقوق المرأة. ويعد "تحالف المرأة العربية" هي المنظمة الأكثر قرباً من برامج الوعي القانوني فقد جمعت ما بين فصول الحقوق القانونية مع برامج للمشورة القانونية المحددة يتولى تقديمها رجال قانون ينتمون للمنظمة. وهناك العديد من مراكز حقوق الإنسان مثل "مركز البحوث والحقوق القانونية" LRRC ، و"معهد القاهرة لدراسات حقوق الإنسان" CIHRS ، ومركز حقوق الإنسان والمشورة القانونية CHRLA التي تعالج حقوق المرأة في الإطار الأكثر شمولاً لحقوق الإنسان، غير أنها تضم برامج تسلط الضوء بصفة خاصة على قضايا المرأة. وقد نظم مركز بحوث المرأة الجديدة عدداً من ورش العمل ومؤتمراً إقليمياً حول عدد من القضايا التي ترتبط بصورة عامة بـ"المرأة، والقانون، والتنمية" .

ومن الصعب قياس تأثير مشروعات تنمية الوعي القانونى هذه إذ أن عدداً محدوداً من السيدات انتظمن بها. أضيف إلى ذلك أن العديد من الناشطات أكدن أن الخلاف ما بين النصوص القانونية وتنفيذها الفعلى يمثل مشكلة كبيرة. وفى كثير من الأحيان لا يقدم الوعي القانونى عوناً كبيراً فى نظام قضائى يسيطر عليه الذكور الذين لا يبديون تعاطفاً مع المرأة وذلك من وجهة نظر الكثير من الناشطات. وتترك الجمعيات النسائية الحاجة لرفع الحظر على ترقية النساء لمناصب القضاء (Karam, 1988: 144) كما تتطلع أن تلعب النساء دوراً أنشط فى النظام القانونى كمحاميات ومستشارات قانونيات .

ويندر قيام حملات لتغيير القوانين القائمة، حتى إذا أعلنت الناشطات ذلك ضمن أهدافهن. وقد تكونت عدة جماعات ضغط على نحو غير منتظم للتصدي لقانون الجمعيات (القانون ٣٢)، الذى يُعد عامة مقيداً لكافة أشكال النشاط السياسى. وبالمثل فإن الناشطات واصلن الحملات لتغيير قانون الجنسية الذى لا يمنح المرأة المصرية المتزوجة من أجنبى الحق فى نقل الجنسية إلى أبنائها. ومع ذلك، فإنه لم تبذل جهود منظمة تؤدي إلى حملة طويلة المدى، ويعود ذلك فى جانب منه للصعوبات فى التغلب على الخلافات ما بين الجمعيات والناشطات نوات الاتجاهات المتنوعة. ويتمثل سبب آخر فى ما يبدو من غموض موقف الدولة التى أعطت إشارات متناقضة وثبتت من عزيمه الناشطات عند تناولهن لقضايا هى أقرب لسلطة الدولة. وتتمثل مشكلة أخرى فى نقص الاستهداف المحدد والمنظم للمؤسسات من قبل الناشطات، ومثال ذلك الحملة ضد القانون ٣٢ والتي اتخذت وزارة الشؤون الاجتماعية هدفاً لها .

أما الحملة ضد قانون الأحوال الشخصية التى حددت بداية عهد جديد لحركة المرأة المصرية فى منتصف الثمانينات، فقد تمخضت عن حل وسط ما بين الإسلاميين والحكومة والناشطات. ولم تستمر الحملة فى التسعينيات على الرغم من الشعور العام بأن القانون يتسبب فى عدم المساواة بين الجنسين والتفرقة ضد المرأة. ومع ذلك، فإن أحد جوانب قانون الأحوال الشخصية، وهو عقد الزواج، أصبح محل مشروع وحملة محددين قامت بهما إحدى جماعات حقوق المرأة. وقد نتج عن هذا المشروع الذى يعتمد فى جانب منه على البحث وفى جانب آخر على إدارة حملة تستهدف الرأى العام

ووزارة العدل تحضير مشروع لعقد زواج جديد على شكل استمارة محددة تشمل قائمة من المطالب المحتملة مثل حق العمل، وحق السفر، وحق التقدم بدعوى الطلاق. ويقصد بهذا العقد المحدد مساعدة المرأة على البوح بحقوقها وشروط زواجها دون الوقوف في مواجهة الزوج والأسرة. وعلى الرغم من أن الشروط المذكورة في الوثيقة التي أُعدت بعناية لا تناقض الحقوق التي منحتها الشريعة للمرأة فإن مشروع عقد الزواج الجديد أصبح موضع جدل واسع النطاق^(١٣).

وتعالج عزة كرم (1996) Azza Karam في مقال بعنوان "المرتد، واقتراح بعقد زواج جديد، والمرأة المصرية؟ إلى أين الآن" التفسيرات الذكورية المحافظة لما يمنحه الإسلام من حقوق وما يمنعه، وتسلط الضوء على صعوبة المحاولة لتكوين قوة اجتماعية مؤثرة في جو رجحت فيه كفة الأصوات التي تدعو للقيم الأبوية في مواجهة الأصوات المعارضة. وتربط عزة كرم الجدل الدائر حول عقد الزواج بقضية نصر حامد أبو زيد، الأستاذ بجامعة القاهرة والمتخصص في الفلسفة والفكر الإسلامي الذي تقدم للترقية عام ١٩٩٢.

وقد حاز طلب الترقية الذي تقدم به نصر حامد أبو زيد القبول من عدة أعضاء بلجنة الترقيات، غير أنه قوبل بالرفض من عضو واحد. ولم يقتصر الدكتور عبد الصبور شاهين، مقرر اللجنة الدينية بالحزب المصري الحاكم [في ذلك الوقت]، على نقد كتابات أبو زيد لافتقادها للأسلوب العلمي، وإنما اتهمه بالترويج لأفكار معادية للإسلام. وفي عام ١٩٩٣ قام عدد من المحامين على رأسهم صميحة عبد الصمد بإقامة دعوى تكفير ضد أبو زيد الذي أنكر الاتهامات الموجهة إليه مراراً. وفي عام ١٩٩٦ أصدرت محكمة النقض بالقاهرة وهي أعلى سلطة قضائية حكمها بارتداد نصر حامد أبو زيد والتفريق بينه وبين زوجته. وقد غادر نصر حامد أبو زيد وزوجته مصر واستقرا بالخارج منذ ذلك الحين.

وهكذا توضح عزة كرم كيف تم تهميش العديد من الأصوات في مصر المعاصرة، بينما زادت شرعية بعض المناهج والتفسيرات الذكورية المحافظة. ومع ذلك فإنها تؤكد على عدم تجانس المواقف الإسلامية، فهناك من الإسلاميين رجال ونساء يدركن أن النساء يخضعن للاضطهاد وأنهن قد سلبن حقوقهن التي منحها إياهن الإسلام.

قوة مكافحة ختان الإناث : صراع على جبهات متعددة

إن تزايد السلطة السياسية للقوى الدينية المحافظة قد أضحى واضحاً بصفة خاصة فى تقلبات الحملة ضد ختان الإناث الذى يمارسه فئة من المصريين^(١٤) وبينما لم تكن قضية ختان الإناث ضمن أولويات الناشطات فى مجال المرأة فى السابق، فإنها قد احتلت موقعها فى برامج العديد من الناشطات والجمعيات استعداداً لمؤتمر السكان والتنمية بالقاهرة فى عام ١٩٩٤ . غير أن القضية برزت على السطح مع إذاعة تقرير سى إن إن خلال انعقاد المؤتمر. وكان لزاماً على الحكومة التى شعرت بالحرص أن تصدر بيانات تستنكر الممارسة بينما كان العالم كله يراقب ما يجرى باهتمام. وقد قطع وزير الصحة ووزير السكان العهود على نفسيهما للمجتمع الدولى بالعمل على استصدار تشريع يحظر ممارسة ختان الإناث .

وما أن انتهى المؤتمر وانتقل اهتمام المشاهد فى دول العالم لأمر أخرى حتى انتقلت الأضواء فى اتجاه آخر. فقد رأت عدة دوائر إسلامية وخاصة الأزهر، وهو المؤسسة الدينية الرسمية، وقد أثار غضبها عدة تصريحات للحكومة قبل المؤتمر وأثنائه، أن الوقت قد حان لتأكيد سلطتها المتزايدة داخل مصر. وترى عايدة سيف الدولة (1996) Alda Seif El-Dawla أن المنظمات الإسلامية والأزهر أغضبها احتمال أن تنجح الناشطات فى تحقيق مطالبهن، وخشيت من تطور عام يحقق المزيد من مطالبهن الشاملة :

ولذلك فمن أجل الوقوف فى مواجهة أى أمل فى تحقيق مطالب المنظمات النسائية، انطلقت حملة متعددة الأطراف ضد الدعوة لوضع حد لختان الإناث. وكانت لهجة الحملة تتسم بالشراسة فى استنكارها للدعوة لوقف ختان الإناث، ولجأت للأسلوب العاطفى فى تأكيد المعنى الثقافى لهذا التقليد... وقد جرى تصوير الختان على أنه عادة محلية تشكل جانباً من هويتنا كمسلمين، فهى جانب من أخلاقياتنا فى مواجهة الأخلاقيات التى يحاول الغرب أن يفرضها علينا. (Seif El-Dawla, 1996: 26)

وقد وجدت الحملة الشرسة للقوى الدينية المحافظة صدى لدى الحكومة التى شعرت بضغط جعلها لا ترغب فى استعداد السلطات الدينية أكثر من ذلك.

وسرعان ما أصدر وزير الصحة قراراً يبيح ختان الإناث على أيدي الأطباء وحدهم ويحرمه على من لا ينتمى للمهن الطبية. وقد شكلت عدة جماعات نسائية ، وجمعيات أهلية ، وأفراد يعملون في مجال حقوق الإنسان وقضايا الصحة ، جماعات ضغط ضد ختان الإناث وطالبوا بإلغاء قرار وزير الصحة الذي قنن ممارسة ختان الإناث في المستشفيات .

وقد نجحت قوة مكافحة ختان الإناث في نهاية المطاف في حمل وزير الصحة على إلغاء قراره، غير أن كافة الأعضاء الذين شاركوا في الحملة يدركون أن ختان الإناث لن يتوقف بمجرد تغيير القوانين، ولذا فقد واصلوا حملتهم للوصول إلى المصريين على مستوى رجل الشارع، فضلاً عن استهداف السلطات الدينية والمؤسسات الحكومية. وقد اشتعلت الحملة ضد ختان الإناث في عام ١٩٩٥ بصعود المسح السكاني والصحي لمصر الذي ورد به أن ٩٧ بالمائة من السيدات المتزوجات قد أجريت لهن عمليات الختان، وأن ٢٨ بالمائة لا زلن يؤيدن ممارسته^(١٥). وفي تلك الأثناء، أصبح هجوم السلطات الدينية أكثر عنفاً وفي عدة مناسبات قامت شخصيات بارزة تنتمي للجهات الدينية بإعلان أن ممارسة الختان إسلامية .

وعلى الرغم من "أسلمة" الختان أو نتيجة لذلك فإن الحملة اتخذت قراراً واعياً بعدم الدعوة للتخلص من ختان الإناث من خلال جدل يدور حول الدين، وإنما سلطت الضوء على أن "الختان ممارسة تتصل بالثقافة لا الدين"^(١٦). وترى نادية واصف (1998a) Nadia Wassef أن لجوء الحملة لحجج ذات صلة بصحة المرأة قد طرح إشكالية، إذ أنه حول موضوع الختان إلى موضوع طبي لا يناقش المنطق من وراء العملية بل يلفت النظر لمخاطرها الطبية. ولن تستجيب الكثيرات اللاتي لم يتعرضن لمشكلات طبية لمنهج "الآثار الجانبية"، كما أن هذا المنهج يتجاهل جوانب من الصحة العقلية والجنسية. أضف إلى ذلك أن أعضاء المهن الطبية يميلون لدعم الممارسة التي يمكن أن تصاغ على أساس من الإساءة لحقوق الإنسان. وقد اعتبر القائمون على حملة الختان المنهج القائم على قرارات حقوق الإنسان مصدراً لإشكالية أخرى. ويتمثل مصدر قلقهم في بعد جمهور المصريين عن صياغات وقرارات مؤتمرات حقوق الإنسان التي يُنظر إليها عامة على أنها منتج غربي .

ومن ناحية أخرى فإنّ الحملة رأت أن "المنهج النوعى التنموى" هو الأنسب للسياق والموقف المحدد للصراع : "فلا يمكن للتنمية أن تنجح إذا كان نصف عدد السكان خاضعاً ومعرضاً لانتهاك حقوقه على أيدي النصف الآخر" (FGM Task Force 1997a) ومن هذا المنظور فإنّ ختان الإناث ما هو إلا وسيلة لتكريس عدم المساواة بين الجنسين، والتفرقة ضد المرأة، وعلاقات القوى الأبوية. (Wassef, forthcoming)

وقد اتخذت الحملة ضد ختان الإناث مؤخراً موقعها فى إطار القضية الأعم الخاصة بالعنف ضد المرأة، إذ أن الناشطات قد تزايد وعيهن بأن ممارسة الختان والمواقف الاجتماعية السائدة التى تقوم على أساسها هذه الممارسة هى جانب من ظاهرة أكثر شمولاً يجرى خلالها تجاهل العنف ضد المرأة، وقبول المجتمع أو تبريره لذلك العنف. وفى حالة الختان فإنّ العنف ضد الفتيات يجرى قبوله على نطاق واسع باسم التقاليد. وهناك صور أخرى للعنف الجسدى مثل ضرب الزوجات أو اغتصابهن لا يجرى تبريرها بالحجة نفسها وإنما يجرى التعامل معها على أساس أنها موضوعات محرمة. وقد تمكنت بعض الناشطات مؤخراً من اختراق حاجز الصمت وبدأن فى العمل لإيجاد أساليب لمواجهة مختلف أنواع العنف .

العنف ضد المرأة : اختلاف الاختلاف ؟

قامت العديد من العضوات بجمعية المرأة الجديدة بنشاطهن فى مجال ختان الإناث فى سياق الحقوق الإيجابية تحضيراً لمؤتمر السكان والتنمية. وقد قررت المجموعة أن تعمل فى مجال المرأة وقانون العمل للتحضير لمنتدى المرأة العالمى فى بكين، غير أن اللجنة المنظمة التى توزع العمل ما بين الجمعيات الأهلية المصرية نقلت المهمة لمجموعة أخرى. وفى البداية لم يكن موضوع "المرأة والعنف" هو الاختيار الأول، ولم تتحمس العديد من العضوات للموضوع، غير أن المواقف تغيرت خلال عملية المشاركة : "لم يرغب أحد فى العمل فى موضوع العنف، ولذا فقد انتهى بنا المطاف بقبوله. ولكن الموضوع صادف نجاحاً وشعرنا جميعنا بالالتزام نحوه، حتى بعد بكين". وقد تم تعيين مركز العلاج والتأهيل النفسى لضحايا العنف (النديم) منظماً، وشاركت

جمعية المرأة الجديدة مع منظمة وسائل الاتصال المناسبة - ACT (Appropriate Communications Techniques) ، في تصميم استبيان وتنفيذ عملية مسح لقضية العنف ضد المرأة .

وقد خصصت الجمعيات الثلاث لقاءاتها الأولى لتجميع الأفكار حول مفهوم العنف، وحاولت أن تنقلها إلى الواقع العملي، وتصيغ أسئلة مناسبة بصددتها. وقد ميزت السيدات أشكالاً متعددة للعنف الجسدي والنفسي الذي يقع في المجال "الخاص" داخل المنزل، والذي يقع في المجال "العام" مثل الشارع، ومحل العمل، وأقسام الشرطة، والمحاكم، وغيرها من الأماكن. وقد حققت هذه التصورات نقلة راديكالية بعيداً عن التمييز المقبول سابقاً بين أشكال العنف المنظم من جانب الدولة، والعنف المنزلي الذي يمارسه الرجل. وللمرة الأولى جرت معالجة العنف وتحليله على نحو منظم ومترابط .

وبينما بدت القضايا أكبر من أن يستوعبها استبيان واحد فقد قرر المشاركون في المشروع تحديد درساتهم الميدانية في ثلاثة سياقات لوقوع العنف : في العمل، والمنزل، والشارع. وقد تم توزيع نسخ من الاستبيان على عدد محدود من السيدات، وجرى مراجعتها حتى انتهى البحث الفعلي. وقد شمل المسح أكثر من خمسمائة امرأة ومائة رجل من مختلف الطبقات ومستويات التعليم. وتمت كتابة تقرير جرى تقديمه في اللقاءات التحضيرية المتعددة في أنحاء مصر قبل تقديم النسخة النهائية في بكين. وتتذكر إحدى العضوات الشابات في جمعية المرأة الجديدة ما يلي : "شاركنا في الاجتماعات والمشاورات التمهيدية على المستويين الإقليمي والوطني. وقد كانت المرة الأولى التي ناقشنا فيها نتائجنا مع سيدات ينتمين للقاعدة العريضة. وذهبت إلى الإسكندرية بالتقرير. وكان أغلب السيدات اللاتي حضرن للاستماع إلينا يرتدين "الحجاب". وكان الرجال متدينين أيضاً. وحاول البعض إخافتنا، ولكن جاء رد فعل أكثر السيدات إيجابياً" .

ولم تكن ردود أفعال الغير بنفس القدر من الإيجابية، وخاصة داخل الدوائر الدينية المحافظة، وأيضاً بين اليسار التقدمي. فقد اعتبروا القضية انعكاساً للبرامج

الغربية بهدف تجاهل المشكلات الحقيقية للمرأة المصرية وتجاهل المحرمات والقيم الثقافية، وقد بدا وكأن بعض أوجه النقد تشير إلى أن الناشطات هن اللائى خلقن العنف فى مصر المعاصرة. ومع ذلك فإن المجموعات الثلاث التى شاركت فى المشروع توافر لديها الاقتناع بأن نتائج بحثها كشفت عن أن العنف يمثل مشكلة حقيقة وعاجلة تحتاج إلى معالجة ومواجهة. وقد وجدت اللجنة أن النساء معرضات للإساءة والعنف فى كل مكان: بالمنزل، ومحل العمل، والشارع، وبالفعل، فإن العنف بدا وكأنه جانب من حياة المرأة اليومية. وجاءت حقيقة أن إحدى المجموعات (النديم) توفر العلاج الطبى والنفسى والعون القانونى لضحايا مختلف أنواع العنف الذى يتراوح ما بين التعذيب فى أقسام الشرطة والاعتصاب، لتقدم الدليل الذى تخطى حدود المسح الذى تم تحضيراً لمنتدى بكين. وقد زادت تجارب النديم من درجة الوعى والإحساس بأهمية المشكلة بين المشاركين فى المشروع .

وقد قررت المجموعات الثلاث لاحقاً أن تستمر فى جهودها وأنشطتها للتوسع فى الحملة لتشمل جماعات وأفراداً آخرين مهتمين بالقضية، وقد وجهت الدعوة لست منظمات أخرى، وجمعية للاستشارات القانونية، ومنظمة للصحة للمشاركة وتكوين شبكة. وفى العديد من ورش العمل جرت جلسات لطرح الأفكار تم خلالها تحديد أهداف على المدى البعيد وتوزيع المسئوليات. وقد حدثت إحدى عضوات المرأة الجديدة اللائى شاركن فى البعد التنظيمى للمشروع مشاركة كبيرة بما يلى: "توزع المشاركون المنتمون لمنظمات مختلفة على مجموعات عمل متعددة: فأصبح لدينا مجموعة بحثية، ومجموعة تقدم المشورة القانونية، ومجموعة للتعليم، وأخرى للتدريب، وللتأهيل، وتقوم كل مجموعة بتنفيذ خطة عمل حالياً". وقد اتضح أن نشر الوعى العام من خلال حركة أوسع للجمعيات الأهلية والإعلام يمثل الخطوة الأولى لتحقيق الهدف البعيد المدى ضد العنف. وقد اتفق المشاركون فى المشروع على اختلاف انتماءاتهم على أن الحجج الدينية والثقافية التى تتجاهل العنف أو تطبعه ينبغى أن تواجه على أساس منتظم، وتفند، وتزال رهبة السلطة من حولها. وقد كانت عملية إرساء الروابط، وإيجاد شبكة، ووضع البرامج تجرى بتكثيف كبير عند قيامى بعملى الميدانى وقد بدا أن المشروع يتقدم بخطى ثابتة، فلم يعد العنف من الموضوعات المحرمة فى دوائر واسعة من

المجتمع، وحتى إذا كانت أهمية المشروع تلقى معارضة من البعض فإن القضية وجدت طريقها لبرامج العديد من الجمعيات الأهلية المحلية^(١٨) وتركت أثرها على العديد من رجال الدولة.

رفع درجة الوعي أم عروض حوارية ؟

إذا كان الهدف من تزويد المرأة بالمعلومات، ورفع درجة وعيها فيما يتصل بقضاياها داخل المجتمع، يرتبط ارتباطاً ضرورياً بالمعركة ضد الاتجاهات الدينية المحافظة، فما هي الأرض التي تدور عليها هذه المعركة ؟ وهناك عدد من السبل المختلفة التي تلجأ لها الناشطات في مصر المعاصرة تتراوح ما بين الندوات، والمؤتمرات، ونشر الدراسات، والمجلات، والظهور في وسائل الإعلام، إلى جانب اللجوء إلى برامج التدريب الموجهة نوعياً، وفي بعض هذه المجالات يصبح رفع درجة الوعي تدريباً في التعليم الذاتي للناشطات أنفسهن. بينما تتعرض ناشطات أخريات لقطاع عريض من الجمهور .

وتعد الندوات والمؤتمرات أكثر الأنشطة شيوعاً وظهوراً في الحركة النسائية في مصر، وهي ظاهرة تستغل في بعض الأحيان للنيل من الحركة التي توصف بأنها "إضاعة السيدات لوقتهن في لقاءات وأحاديث". ويجافى هذا النقد العدل على ضوء الأنشطة المتعددة التي تقوم بها جمعيات مختلفة والأهمية الخاصة لتلك اللقاءات والمؤتمرات. فقد تتحول هذه اللقاءات إلى منتديات منتجة لتبادل الأفكار ومناقشة المشكلات، وتقديم نتائج البحوث، والبحث عن الحلول لمعالجة مشكلات معينة، وإرساء اتصالات ينتج عنها إيجاد شبكات عمل. غير أن تلك اللقاءات قد تكون أيضاً مناسبات يعاد فيها ما سبق مناقشته، وتتحول الاختلافات إلى صراعات، وينشغل الأفراد عن الاستماع لبعضهم البعض، وتبتعد عن أرض الواقع الذي تعيش فيه أغلبية النساء في مصر. وباختصار فإن هذه اللقاءات قد تصبح غير ذات جدوى .

وقد حضرت العديد من الندوات وورش العمل التي نظمتها مختلف الجمعيات ، وتناولت مجموعة متنوعة من الموضوعات ، وذلك أثناء إعدادى لبحثى، ومن ضمن

الموضوعات التي طُرحت للنقاش أذكر قضية أُثيرت بعد مؤتمري القاهرة وبكين حول كيفية تطبيق النتائج، وقضية الانتخابات والمشاركة السياسية للنساء، وتمثيل المرأة في وسائل الإعلام، والصحة الإنجابية، والعنف ضد المرأة. وكما هو الحال في سياقات أخرى فإنَّ بعض المناسبات بدت جدية بالاهتمام وبعضها الآخر بدا غير مجد، وإلى جانب العدد الضخم من هذه المناسبات التي تستغرق وقتاً طويلاً، لاحظت تكراراً كبيراً في المناقشات وموضوعات الأبحاث، إذ يبدو أنه لم يبذل جهد كاف لتكوين شبكات ولتجميع المعلومات وعقد التحالفات. ولا عجب أن يحدث ذلك في ظل التنافس الذي يفوق في بعض الأحيان الإحساس بالتضامن والأهداف المشتركة. وعندما تجرى المناقشات البناءة، ويتم تبادل نتائج الأبحاث، فإنه لا يستفيد من المعرفة إلا من يحضر المناسبات ولا يُبذل إلا أقل الجهود لنشر تلك المعرفة على جمهور أوسع. ويعد الجو العدائى الذى يسود المؤتمرات وورش العمل فى بعض الأحيان عيباً آخر، فهذه المناسبات تستغل بانتظام لتأكيد بعض المواقف بدلاً من مناقشتها والإصغاء للمواقف الأخرى والحجج التى تقوم عليها .

ونقلًا عن العديد من السيدات اللاتي قابلتهن فإنَّ الوضع كان مختلفاً أثناء مؤتمري القاهرة وبكين، وخاصة أثناء التحضير لكلا الحدثين، وتصف عايدة سيف الدولة وإبراهيم (1995) Seif El-Dawla and Somaya Ibrahim الحماس ومستوى التعاون والتنسيق المتميزين بين الجمعيات النسائية والجمعيات الأهلية في مصر قبل انعقاد مؤتمر القاهرة للسكان والتنمية. فخلال التحضير لمؤتمر القاهرة وبكين بعد ذلك، قدمت اللجان المختلفة، التي تكونت لتنسيق البحوث الخاصة بقضايا معينة، نتائج البحوث للجمهور في مختلف المجتمعات من الدلتا إلى الصعيد، وقد جرى تبادل مثير وخلاق لوجهات النظر داخل الحركة النسائية والجمعيات الأهلية التي تعمل في القضايا ذات الصلة بالمرأة، وأيضاً ما بين ناشطات القاهرة الحضرية والقاعدة العريضة في أنحاء مصر .

وعلى الرغم من اتساع دائرة النقد لعدد المؤتمرات والندوات المتزايد والاتجاه للحديث الدائري، فإنَّ هذه المناسبات تظل أدوات هامة لتبادل الآراء حول القضايا ورفع درجة الوعي. وقد أكدت لى الكثير من الناشطات أنَّ المؤتمرات ليست هدفاً في حد

ذاتها وإنما هي جانب من مشروع أوسع يشمل إجراء البحوث وتنفيذ نتائجها. وقد تأكد ذلك بصفة خاصة فيما يتصل بالمؤتمرات الكبيرين اللذين عقدا في القاهرة وبكين، كما ينطبق على المؤتمرات المحلية والإقليمية. فقد تضمنت المشروعات ذات الصلة بالحقوق القانونية، وتخفيف حدة الفقر، ووضع المرأة العاملة، والصحة الإنجابية، والتعليم، والإعلام والعنف، مستويات متعددة للبحوث، وتقديم نتائج تلك البحوث في الندوات والمؤتمرات، ومناقشة الاستراتيجيات الممكنة وسبل تنفيذها. ويبدو أن كافة ما يتصل بمناقشة الاستراتيجيات وتنفيذها لا يزال متضمناً في برامج العديد من الجمعيات عقب انتهاء مؤتمري القاهرة وبكين.

ولا يزال الوقت مبكراً لتقييم المدى الذي سيذهب إليه صانعو القرار المصريون في تطبيق نتائج البحوث والتوصيات المختلفة لكلا المؤتمرات ولسلسلة الأحداث التي أعقبتها. كما أنه من الصعب تقييم بقاء مختلف القضايا والحملات ضمن برامج الناشطات أو تحولها إلى مشروعات المدى القصير وثيقة الارتباط بالتمويل والبرامج الأجنبية. وهذا مجال للبحث يقع على عاتق الباحثين في المستقبل. ويمكننا القول فيما يتصل بالمؤتمرات والندوات التي عقدت قبل التحضير لمؤتمري القاهرة وبكين أن العامل المشترك بينهما تمثل في الإصدارات المختلفة من كتيبات، ومقالات، وكتب.

تكوين الصفوف الأولى والكفاح ضد الإمبريالية

كان رفع درجة الوعي وبناء ثقة المرأة بنفسها ضمن أهداف الناشطات اللاتي يرين في الإمبريالية العدو الأول والعقبة في سبيل بناء مجتمع عادل. وقد ترجمت ناشطات جمعية "معاً" هدف الكفاح ضد الإمبريالية والرأسمالية - وكلاهما يعنى قيام علاقات استغلالية - إلى أنشطة مختلفة تستهدف "المساعدة في تكوين نواة صلبة"، والأساس لحركة أوسع يُنظر إليها بوصفها هدفاً بعيد المدى في المستقبل. و"معاً" منظمة مستقلة، تم تسجيلها كشركة غير ربحية، وتضم التحليلين الماركسي والنسائي معاً وتعارض بقوة التمويل الأجنبي^(١٩). ولا يبعد مقرها بجوار جامعة القاهرة كثيراً عن وسط المدينة، وهي تجتذب الشباب من الجنسين الذين لهم اهتمامات بالسياسة،

غير أنها تجتذب أيضاً الناشطين اليساريين الذين يبدو أنهم يمضون وقت فراغهم في التنقل من مناسبة لأخرى، وعادة ما تأخذ المناسبات التي تعقد في مقر المركز شكل المناقشات أو الندوات أو المحاضرات .

وترفض "معاً"، التي تخالف الجمعيات الأخرى في دعوتها للرجال لحضور مناسباتها والاشتراك في لب عملية اتخاذ القرار، فكرة وجودها كمنظمة قاصرة على النساء، وتستنكر تلك الفكرة وتعزوها "للاتجاه النسائي الغربي". ومن خلال منهجها الماركسي تجاه قضايا المرأة تلحق علاقات الاستغلال الأبوية بالظلم القائم على العلاقات الطبقية، والعلاقات الرأسمالية الدولية، والمؤامرات البورجوازية. ولذلك فإن الرجال الذين يؤمنون بالخط الفكري نفسه، وهم النشطاء السياسيين اليساريين، يُنظر إليهم بوصفهم حلفاء وشركاء في الكفاح ضد النظام الاجتماعي السائد. غير أن العضوات المؤسسات لـ "معاً" يؤكدن أن تحليلهن يشمل العلاقات غير المتكافئة بين الجنسين، ويتوجهن بالنقد لليساريين الذين يتجاهلون مشكلات المرأة الخاصة أو يهونون من شأنها .

ويتلقى الرجال والسيدات تشجيعاً على المشاركة النشطة في مناسبات مختلفة تنظمها مجموعة من النشطاء الأساسيين وذلك بتحضير الكلمات، أو وضع الأسئلة، أو اقتراح موضوعات للمناقشة. غير أن ما يُعتقد أنه حوار بناء يتطور في كثير من الأحيان إلى موقف تقدم فيه النماذج المجتمعية السائدة. وأعنى بذلك أن الرجال، وخاصة الجيل الأكبر سناً من الناشطين السياسيين يسيطرون على الحوار في بعض الأحيان، وكثيراً ما يخيفون الشباب بما يلقونه من مصطلحات سياسية ونبرات صوت. ويصدق ذلك على الناشطات الأكثر خبرة اللائي تعين عليهن أن يشققن طريقهن خلال الهياكل السياسية التي يسيطر عليها الذكور، واللائي يوجهن حديثهن في كثير من الأحيان من موقع السلطة لسيدات يفتقدن الخبرة السياسية .

ولا يعنى ذلك أن الناشطات الشبابات المهتمات بقضايا المرأة، والساعيات للوقوف على منصة والمشاركة في شبكة تدعمهن، لا يكتسبن الثقة مع جمعية "معاً". فالكثيرات يحصلن على هذه الثقة بأنفسهن ولا يعود ذلك لمجرد أنهن يخضعن للناشطات الأكبر سناً.

فهن يكتشفن أنهن لسنٌ وحدهن اللائى يواجهن مشكلات مع أسرهن، وفى علاقاتهن بالجامعة والعمل. وفى كثير من الأحيان توفر "معاً" المساحة الآمنة الوحيدة التى تسمح لهن بالحديث بحرية دون خوف من إصدار الأحكام عليهن أو نبذهن خارج المجتمع. ومن خلال القراءات والمناقشات ينمو وعى الناشطات بالكثير من القضايا والارتباطات التى لم ينتبهن لها من قبل، وتقع الندوات والمحاضرات فى بؤرة موضوعات شتى، مثل تاريخ الحركة النسائية فى مصر والعالم العربى، والمناهج النسائية فى المسيحية، واليهودية، والإسلام، ومشكلات المرأة العاملة، وخاصة العاملات فى المصانع، ومناهج دراسات النوع فى العلوم الاجتماعية، ومؤخراً مناقشات عن الحب، والجنس، والأسرة .

وفى كثير من الأحيان تأخذ المناقشات فى "معاً" شكل العرض لوجهات نظر مختلفة أو مناقشة فكرة محددة من زوايا متعددة. وقد يؤدى ذلك إلى نتائج مختلفة : إما انتشار العداوة بين المتحاورين أو ارتفاع درجة وعيهم الديموقراطى. ونقلاً عن إحدى الناشطات الأكبر سناً فى الجمعية، فإن أحد أهداف إجراء المناقشات هو تحويل جولات الصياح التى تؤدى إلى إثارة العداوات والغضب إلى مناقشات ديموقراطية تقبل فيها وجهات النظر المختلفة وتتوخذ بجدية. غير أنه لا تزال الإيديولوجية الماركسية السائدة والمواقف السياسية للناشطين المؤسسين والأعضاء الرئيسيين هى مقياس الحقيقة التى تقدم كإطار للمواقف والآراء. وبالطبع فإن الأمر يبدو معقولاً إذا ما أخذنا فى الاعتبار أن الهدف بعيد المدى يتمثل فى البناء التدريجى لحركة قوية تشترك فى الأهداف والتحليلات الماركسية ذاتها .

وتواجه "معاً" صعوبة فى التوسع ، نظراً لنسبة لحضور الهائلة للمناسبات التى تنظمها وما يبذله الأعضاء الأساسيين من نشاط فى هذا الاتجاه. غير أن ناشطى "معاً" يمدون جسور الاتصال مع العاملات فى المصانع وطلاب الجامعة، والعديد من أعضاء "معاً" وأغلبهم من الطبقة الوسطى توجهوا للعمل بالمصانع، ولم يقتصر عملهم على إجراء البحوث، بل تعداه إلى العمل على زيادة الوعى، وتقديم العون والسند. وقد سلطت أول مجلة يصدرها المركز منذ عامين على القضايا التى تهتم السيدات العاملات، ومشكلاتهن الخاصة، وأشكال الاستغلال والمقاومة .

ومن الصعب قياس تأثير "معاً" خارج نطاق المركز نفسه. فأنشطة المركز محدودة نتيجة لضعف الموارد المالية. غير أن هناك مستوى عال من الالتزام والابتكار في حدود هذه الموارد. وللأسف فإن قدرًا كبيراً من الوقت والجهد يُوجهان لحل الخلافات الداخلية، ومما يؤسف له أكثر، للانتقاص من قدر الجماعات والناشطات اللاتي يتبين وجهات نظر سياسية مختلفة .

التدريب النوعي

إذا ما كانت البحوث والمؤتمرات تمثل العنصر النظري لنشاط المرأة، وهو عنصر يتداخل في بعض الأحيان مع العمل الأكاديمي، وفي أحيان أخرى مع النشاط السياسي، فإن تقديم برامج التدريب النوعي يمثل الصلة ما بين الجمعيات الأهلية الناشئة وقطاع التنمية ونشاط المرأة. وقد أصبحت برامج التدريب النوعي أداة تتزايد أهميتها في حقل التنمية، وهي عملية لم تغفل الناشطات المصريات عن ملاحظتها. وتستخدم هذه البرامج بوجه عام لتعريف العاملين في المجالين الصحي والاجتماعي، وأعضاء الجمعيات الأهلية، وأيضاً ممثلي الحكومة، بالقضايا ذات الصلة بالنوع وشحن حساسيتهم تجاهها. وقد قامت وكالات التمويل الأجنبية والجمعيات الأهلية والمؤسسات الأكاديمية في بلاد الشمال في بادئ الأمر بتصميم هذه البرامج. ويرى الكثير من الناشطين أنها لا تعالج الاحتياجات الخاصة لمصر. وقد جرت مؤخراً عدة محاولات لتمصير هذه البرامج حتى تتناسب وتتفق مع السياق الخاص الذي يجرى استخدامها به .

وقد أسست إحدى العضوات المؤسسات لجمعية المرأة الجديدة شركة غير ربحية عام ١٩٩٢ أطلقت عليها اسم وسائل الاتصال المناسبة ACT . وتهدف الشركة لتوفير الأدوات التي يستخدمها العاملون في مجال خدمة المجتمع للاتصال بالقاعدة العريضة. وقد تم مؤخراً تقديم مفهوم النوع بوصفه جانباً هاماً من عمل التنمية، وتقول كريمة أ. مؤسسة الجمعية :

مرت ست سنوات وأنا أعمل في تدريب السيدات للعمل في مجال الصحة، والحضانات، وتقديم العون للمعاقين. وأقوم بتدريبهن على تصنيع الوسائل السمعية

والبصرية وأدلهن على كيفية استخدامها. وعلى سبيل المثال نعلمهن كيف يصنعن العرائس ويستخدمنها كوسائل بصرية. وفي الصعيد تشعر السيدات بالحرَج عندما يتحدثن عن الأمور الصحية. وتساعدهن العرائس على ذلك كما أن العرائس تجذب انتباه الصغيرات. ونحن ندرِبهن على كيفية تسجيل أحداث معينة باستخدام الفيديو، والكتيبات، والنشرات، ونرشدهن لإعداد دراسات الجدوى والتخطيط الاستراتيجي لمشروعاتهن. ونساعدهن على التعرف على مشكلاتهن وأهدافهن وتصميم الخطط للعمل الجماعي. وهذا العمل يستهدف تحسين وضع المرأة في مجال عملها وفي المجتمع بشكل عام. كما نقوم بتجارب في مجال النوع بوصفه إحدى القضايا الجديدة في مصر. فنعقد مناقشات مع الجماعات المستهدفة ونحاول أن نشركها في القضايا المتصلة بالنوع. وهناك ترجمات متعددة لكلمة gender بالعربية. ولا يوجد مصطلح موحد تترجم إليه ولذلك فإننا ندعوهم لاستخدام ما يحلو لهم من أسماء. وقد عقدنا ورشة عمل عن "المرأة وعقبات التنمية" في عام ١٩٩٤، وأعد تقرير عن هذه الورشة. وقد قامت بالعمل مجموعة من الجمعيات المهتمة بالموضوع وصدرت عدة توصيات عن المرأة والعنف، والمرأة والجمعيات الأهلية، والعمل والابتكار والبيئة. وقد عملت كل مجموعة لستة أيام وقدمت عرضاً مسرحياً تنقلب فيه أدوار الرجال والسيدات، وقد صار واضحاً لنا ما الذي يشعر به الرجل عند انقلاب الأدوار .

وتعد فكرة تقديم مسرحية تنقلب فيها أدوار الجنسين وسيلة فريدة من نوعها لبيان جوانب قضية النوع في مصر. وكما تقول كريمة أ. إن المصطلح العربي المستخدم عند الحديث عن gender يثير خلافاً كبيراً وجدلاً واسعاً (٢٠) .

غير أنه من الواضح أن في معظم الأحوال، وخاصة فيما يتعلق بالتنمية، فإن النوع يشير إلى "المرأة"، وقضايا النوع، في معظم الأحيان، تعنى قضايا المرأة. وبالفعل، فإن المصطلحين يستخدمان تبادلياً في الكثير من الأحيان، بينما يختلف الرجل والجوانب الذكورية من بؤرة الأضواء .

تطويع عالم الآداب

فى الوقت الذى التقت فيه أعمال التنمية والنشاط النسائى فى برامج التدريب النوعى على مستوى القاعدة، فقد تزايد سعى الناشطات لكسب حلفاء والعمل على التأثير فى مجالات الإعلام، وتتضح محاولات رفع درجة الوعى وتغيير الرأى العام فى حملات وأنشطة متعددة ذات صلة بالصحافة، والإذاعة، والتليفزيون، فضلاً عن السينما، والمسرح، والأدب، ومنذ سنوات مضت، عبرت "جماعة السبعة" (جمعية الاتصال لتعزيز وضع المرأة فى مصر) عن أهمية وسائل الإعلام فى كتيب نشرته عن حقوق المرأة القانونية، فوسائل الإعلام هى منصة تتشكل فوقها الآراء والمواقف وتناقش وتتغير. وفى الكتيب تصف مجموعة من الناشطات تطوراً إيجابياً فى وسائل الإعلام وذلك بعد أن دخل جيل جديد من السيدات هذا المجال. ويتناول هذا الجيل الجديد من صحافيات، ومؤلفات، ومخرجات، وكاتبات سيناريو مشكلات المرأة فى المجال المهنى. غير أن الجمعية قد أطلقت هذا التحذير :

تظل هذه الجهود فردية لا تترك سوى أثراً محدوداً على تيار الإعلام العام فى تقديمه لصورة المرأة. وفى رأينا، فإن أحد أسباب فشل وسائل الإعلام فى إعطاء المرأة حقها وإتاحة منتدى لها تعبر من خلاله عن آرائها هو عدم رغبة المسيطرين على وسائل الإعلام فى استثارة غضب الأصوليين الدينيين الذين يمارسون تأثيراً قوياً على المجتمع . (Communication Group, 1992: 36)

ويدخل الأدب فى التعريف الواسع للإعلام الذى يتصل بمحتوى الكتب ونشرها، وعلى الأخص اختيار ما ينشر وما يمنع. وفى العقد الماضى تزايد اهتمام وسائل الإعلام والأوساط البحثية المصرية والدولية بـ"كتابات المرأة المصرية". وحتى فى حالة التزايد المستمر للكاتبات فإن نشر الكتب لا يزال حتى السنوات الأخيرة تحت سيطرة الرجال. وقد قررت مجموعة من السيدات اللاتى يعملن فى المجالات المهنية والأكاديمية المختلفة فى القاهرة وينتمين لجنسيات عربية مختلفة أن يؤسسن أول دار نشر للمرأة العربية: "نور" فى عام ١٩٩٣. ومنذ إنشاء دار نشر نور، ثبت أن بعض السيدات قادرات على إطلاق مشروع احتكره الرجال فى السابق، وإدارته بأسلوب مهنى مبتكر.

وقد شجعت دار نور للنشر نور ، المؤلفات من مختلف أنحاء العالم العربي وساندتهن، وحددت مشروعات بحثية قامت بها باحثات مؤهلات عملن مؤقتاً بدار النشر، كما نظمت أول مؤتمر لكتابات المرأة العربية فى القاهرة عام ١٩٩٥ .

ويعد قيام عدة جمعيات مستقلة ولجان تابعة للأحزاب السياسية ومراكز حقوق الإنسان بنشر مجموعة من النشرات والمجلات مدخلاً آخر لعالم الأدب، وتهتم إصدارات مراكز حقوق الإنسان مثل "حقوق الشعب -حقوق المرأة" مركز بحوث الحقوق القانونية (People's Rights Women's Rights (Legal Rights and Research Center) و "سواسية" (معهد القاهرة لدراسات حقوق الإنسان) بقضايا المرأة اهتماماً كبيراً. وقد بدأت العديد من الجمعيات المستقلة نشاطها العام بإصدار مجلة أو نشرة دورية. وقد أصدرت جمعية "بنت الأرض" منذ ١٩٨٤ عدة أعداد من مجلة تحمل اسم "بنت الأرض"، عالجت فيها مسائل متنوعة مثل مشكلات المرأة العاملة، والدعوة للعودة إلى البيت، والتعليم ومشكلات الأمية، والمشاركة السياسية، والقيم الثقافية، وأحوال المرأة الريفية، والتطرف الدينى، والعلاقات بين المسلمين والأقباط، وحياة الفلسطينيين تحت الاحتلال، ومشاعر المرأة وصحتها النفسية. وبدأت جمعية المرأة الجديدة فى إصدار مجلتها بعد عامين، وفى البداية عالجت مجلة المرأة الجديدة موضوعات متنوعة، ولكنها خصصت الأعداد التالية لعدد من الموضوعات، مثل "المرأة والعمل"، و"المرأة والإعلام"، و"المرأة والعنف". وقد أصبحت بعض هذه الأعداد الخاصة جزءاً من مشروعات بحوث موسّعة، يتبعها فى بعض الأحيان إصدارات ومشروعات تستهدف التنفيذ الملموس، ومثال ذلك مشروع "المرأة والعنف" الذى ناقشناه آنفاً .

وعلى مدى السنوات الأخيرة تزايد إدراك الناشطات لأهمية وسائل الإعلام فى تشكيل الآراء والمواقف الخاصة بالنساء، وإتاحة منصة حيث يجرى التخفيف من حدة الآراء الدينية المحافظة. وقد تأثر صراعهن مع وسائل الإعلام بالتجربة التى أظهرت أن وسائل الإعلام قد تتحول إلى أداة لنشر أفكارهن كما يمكن أن تتحول إلى أداة للانتقاص من قدرهن والهجوم عليهن. كما أدركن أيضاً أن وسائل الإعلام المصرية لا تشكل كلاً متجانساً، بل تتكون من أشكال متعددة (الصحف، والمجلات، والأدب، والتليفزيون... إلخ) وتضم اتجاهات سياسية وإيديولوجية وثقافية مختلفة .

السيدات ومراقبة الإعلام : تحرير العقل أم تشديد الرقابة ؟

فى عام ١٩٩٣ ، صدر عدد خاص من مجلة المرأة الجديدة عن "المرأة والإعلام"، حيث واجهت الجمعية الأسلوب الذى تشكل به وسائل الإعلام الرأى العام، وخاصة فى المسائل المتعلقة بالمرأة، وتعتمد المجلة إلى حد كبير على تحليل المحتوى الذى تقدمه عضوات الجمعية، كما تقدم مقالات تكتبها ناشطات أخريات. وتكشف تحليلات المحتوى لما ينشر بالصحف والمجلات المصرية البارزة مثل الأهرام، وصباح الخير، وحواء على سبيل المثال، أوصاف متوارثة وجامدة للمرأة تسلط الضوء على الأزياء والجمال، أو القضايا المتعلقة بالأمومة والمهام المنزلية. وفى نهاية التحليل أوصت الناشطات بتشجيع خطاب من نوع آخر فى الصحافة وذلك بقيامهن أنفسهن بكتابة المقالات، وفى الوقت ذاته مواجهة المسئولين عن الإعلام بنتائج بحوثهن وما تعنيه. أضف إلى ذلك أن عضوات المرأة الجديدة أكدن الحاجة إلى "تقديم صحافة نسائية بديلة قادرة على معرفة مشكلات المرأة وفهمها، وخاصة فيما يتعلق بمشكلات السيدات اللاتى لا تتاح لهن الفرصة للتعبير ولا يرد ذكرهن فى الصحف الحالية" (Al-Mar a Al-Gedida, 1993: 11) .

وبعد مضى عام نظمت الجمعية ورشة عمل تحت اسم "الرقابة وصورة المرأة فى وسائل الإعلام" عُقدت فى المجلس الثقافى البريطانى بالقاهرة، وجذبت مجموعة مختلفة من الحضور. وقد قُدمت ثلاثة بحوث^(٢١) أثارت مناقشة ثرية. وحظيت قضية تصوير العنف ضد المرأة فى وسائل الإعلام على وجه الخصوص بالاهتمام، إذ أن وسائل الإعلام المصرية قدمت خبراً عن حادثة اغتصاب وقعت فى ميدان مزدحم بالقاهرة (ميدان العتبة) بأسلوب يعتمد على الإثارة. وقد رأت الكثير من الناشطات أن هذا الحادث قد أظهر "أن هذه المرأة قد أُغتصبت فى الطريق العام، واغتصبت مرة ثانية من خلال وسائل الإعلام". وخلال المناقشات طُرِح اقتراح بإنشاء جمعية نسائية لمراقبة وسائل الإعلام، وتقديم الصورة والخطاب المضادين، وفى نهاية المطاف تغيير المواقف والرأى العام .

وخلال التحضير لمنتدى المرأة العالمى ببيكين، اتجه العمل والجهد الكبير لقضية وسائل الإعلام من خلال إحدى اللجان. وقد أجرت لجنة الإعلام دراساتها وأعدت بحوثاً

عن المفاهيم النظرية التي تقوم عليها قضية المرأة فى وسائل الإعلام، وصورة المرأة فى السينما، وصورة المرأة فى الكاريكاتير والرسوم المتحركة، وصورة المرأة فى صفحة الحوادث^(٢٢). وقد أكدت كافة الدراسات مفهوم تقديم وسائل الإعلام لصورة نمطية سلبية للمرأة فى الأغلب الأعم. غير أن مسحا مبدئياً شمل مائتين وخمسين سيدة من مختلف الخلفيات التعليمية كشف أن الكثير من السيدات لا يدركن مدى التمييز الذى تتعرض له صورة المرأة فى التلفزيون .

وقد رأت اللجنة فى الاختلاف ما بين تحليلها وإدراك السيدات اللاتى جرى سؤالهن إشارة إلى أن الاتجاهات المحافظة قد تغلغت فى نفوس مستهلكى وسائل الإعلام، الأمر الذى عزز من رأى المشاركين فى جماعة الإعلام بضرورة بذل الجهود للوقوف فى وجه التأثير السلبى لوسائل الإعلام على رأى العام. وقد أوصت جماعة الإعلام بتأسيس هيئة نسائية لمراقبة وسائل الإعلام تقوم "بمراقبة كافة الصور أو الأفكار غير المقبولة عن المرأة فى وسائل الإعلام وتقف فى مواجهتها، كما تقوم بتشجيع المبادرات الإيجابية وتدعمها". غير أن أثناء المحاولة لنقل هذا الهدف إلى مشروع ملموس أصبح من الواضح أن غياب تعريف عن ما يمثل "الصور غير المقبولة عن المرأة" أثار خلطاً وانشقاقاً بين المشاركين فى المشروع .

وقد التقت الآراء حول قيام هيئة المراقبة بوصفها منظمة مستقلة لها أهدافها المحددة (مراقبة وسائل الإعلام وتحليلها؛ وتجميع قاعدة بيانات؛ والقيام بأعمال الدفاع؛ وإصدار نشرة دورية؛ وإقامة قنوات اتصال وإعلان؛ وإنتاج الأفلام والبرامج)، كما التقت الآراء حول الحاجة إلى الدعم المالى، وإدارة تنفيذية، وموظفين دائمين. غير أن لجنة الإعلام لم تتفق على بعض القضايا التى ظلت تثير جدلاً مثل الأولويات وحدود المشروع. فلم يتم إقرار ما إذا كان الدور الرئيسى لمراقبة الإعلام وطبيعة المراقبة هى من قبيل العمل البحثى، أو نشر الأفكار التقدمية، أو المواجهة النشطة. وأثار تنظيم الجمعية جدلاً آخر: فهل تتولى العمل مجموعة من الناشطات الفرادى أم منظمة مستقلة أم اتحاد للجمعيات الأهلية ؟

وعلى الرغم من سلسلة القضايا التى لم تلق حسمًا فإن التقرير النهائى الذى قدمته لجنة الإعلام للدوائر المختلفة داخل مصر وفى بكين قد استُقبل استقبالاً حسناً،

وبدا أنه لم يقتصر على نتائج البحوث بقدر من التفصيل والعمق فحسب وإنما قدم توصيات ملموسة في اتجاه تكوين منظمة لمراقبة وسائل الإعلام. وللأسف فقد فشلت محاولة تنفيذ النتائج الصادرة عن البحث الدقيق، والتوصيات القائمة على الفكر السديد لعدة أسباب تمثل المشكلات السائدة داخل الحركة، والعقبات التي تعترض طريق مثل هذه المشروعات .

وبعد انقضاء المنتدى الدولي للمرأة في بكين، تفجر الخلاف حول مسألة الاستمرار من حيث تحديد من يتولى تنسيق الأنشطة القادمة، ومن يشارك بها من الأفراد والجمعيات. وقد عطلت هذه الخلافات أية أنشطة لبعض الوقت، حتى قررت جمعية المرأة الجديدة أن تضع يدها على التنسيق وأن تنظم ورشة عمل تدعو إليها عددًا من السيدات المثقفات، والناشطات، والفنانات لتقديم فكرة الرقابة على وسائل الإعلام. وقد وصفت إحدى عضوات جمعية المرأة الجديدة الأحداث كما يلي :

هاجم الجميع الفكرة وانطلقوا في موضوعات بعيدة عن القضية الأساسية وهي مراقبة وسائل الإعلام، وأعتقد أن ذلك قد حدث لأن الأسلوب الذي قدمنا به المشروع لم يكن واضحًا بما فيه الكفاية. فقد اتسم بالعمومية والغموض. وفي بعض الأحيان استخدمت لغة مسرفة في الأكاديمية وبعض الناس لم يفهموها. بينما كنا نقصد إلى تشجيع طرح الأفكار. وقد طُرحت الكثير من الأفكار. وأتذكر أن سيدتين ظلّا يصرخان "ما الذي تتحدثون عنه، انظروا إلى المرأة في الريف، المرأة المسكينة، ودعم من مراقبة وسائل الإعلام فهي قضية لا تعيننا" .

وبينما فسر الغموض والافتقار إلى الوضوح بعض ردود الأفعال السلبية، فإنني أتصور أن العنصر الأهم يتمثل في الظاهرة الدائمة للإشارة للفقير وظروف المعيشة القاسية للسيدات في الريف والسيدات محدودات الدخل في المدن بوصفها النقطة الوحيدة المشروعة للنقاش وقيام النشاط. أضف إلى ذلك أنه يبدو أن هناك موقفًا محيرًا يتكرر دائمًا تجاه المدعويين، فمن منهن يتلقين الدعوات ومن يُستبعدن، إذ أن من المحتمل قيام بعض المدعوات بسد الطريق أمام أية مناقشة بناءة وذلك بالتشكك في أساسيات الفكرة، بل وتحدي الفكرة نفسها التي تقول بتعرض المرأة لأشكال معينة من الاضطهاد .

وقد اتضحت مشكلة توجيه الدعوة أو حجبها، والمهمة المستحيلة للتوصل إلى أرضية مشتركة ما بين جماعة من الناس لا يجتمعون على خلفية واحدة أو برنامج مشترك على نحو مثير للانزعاج وذلك في ورشتي عمل نظمتها جمعية المرأة الجديدة والمجلس الثقافي البريطاني في مارس ١٩٩٦ . وقد كان من الممكن لهذين اللقائين أن يحققا توجهاً نحو البناء والابتكار، فقد دعا المنظمون ناشطة هندية لعبت دوراً رئيسياً في إرساء قواعد مراقبة وسائل الإعلام في الهند. وقد قدمت الناشطة الهندية الأهداف والدوافع التي انطلق المشروع الهندي على أساسها، كما قدمت أدوات ووسائل خاصة لم يقتصر استخدامها على منظمة الرقابة على وسائل الإعلام الهندية وحدها وإنما استخدمتها جمعيات عديدة في أنحاء العالم. وقد أكدت الحاجة لتبني أهداف ووسائل محددة تناسب السياق المصري، ودعت إلى مناقشة ما بين المشاركين في الورشة .

وكان المجلس الثقافي البريطاني قد دعا لأسباب تتعلق بالعلاقات العامة عدة صحفيين ومقدمي برامج تليفزيونية، وبعض الشخصيات العامة. ولم يكن مستغرباً أن يلجأ أحد ممثلي الصحافة الرسمية ، وهو معروف بنظرتة المتحررة التي تبدو في بعض الأحيان في استخدامه لجسد المرأة مرتبطاً بموضوعات مثيرة لجذب انتباه القراء، لموقف الدفاع عن النفس، والتشكيك في المشروع برمته، على أساس أنه يضم أشكالاً جديدة من الرقابة^(٢٣). وقد ضاع وقت طويل في الرد على شكاواه الأمر الذي منع تبادلاً أكثر عمقاً للقراء. غير أن العقبة الأكبر بشأن أسلوب تجسيد فكرة الرقابة على الإعلام من قبل المرأة تمثلت في انقسام الحاضرين حول المعايير والنقاط المرجعية لتقييم صورة المرأة وتعديلها. وقد انصب الخلاف على صورة المرأة في علاقتها بالدين، وخاصة قضية تناول صورة المرأة من الناحية العلمانية أو الدينية، وما إذا كان التفرقة ضد الأقباط تعد أحد معايير الرقابة على وسائل الإعلام .

وقد عبرت عضوات المرأة الجديدة وغيرهن من الناشطات اللائى شاركن في ورشة العمل عن خيبة أملهن في المناقشات، غير أنهن أكدن على استفادتهن الكبيرة من عرض المشروع الهندي والتجربة الكلية للورشة. وقد اتفقت معظم السيدات على أن رقابة المرأة للإعلام لن تدخل حيز التنفيذ إلا بانطلاقها من نواة محدودة من الناشطات اللائى يشاركن على الأقل في بعض الافتراضات والتوجهات الأساسية، ويمكن لمشروع

صغير يبدأ فى حدود ضيقة أن يتوسع وقد يحتوى الخلافات دون أن يلحق ضرراً
بالمشروع .

وحتى انتهائى من بحثى لم تبذل أية جهود ملموسة لإنقاذ المشروع، الأمر الذى
يُمكن تفسيره فى جانب منه بجهود جمعية المرأة الجديدة المكثفة للتوسع فى بحثها
الخاص بـ"العنف ضد المرأة"، بينما لم تقدم أية جمعيات أخرى أو ناشطات مستقلات
على التطوع لاستكمال المشروع. ولعل لصعوبة التنفيذ دلالاتها فى سياق تغييب فيه
الأطر المؤسسية المحددة .

كيفية قياس تأثير النشاطات النسائية

لم تكن مهمة اختيار ما أقدم من مشروعات وما أهمل بالأمر السهل وذلك مع
توافر عدد كبير من الأنشطة. ولن تتعدى أية محاولة لتصوير نشاطات المرأة المصرية
المعاصرة الخطوط العريضة وتظل دائماً تفتقد للاكتمال. غير أنني أمل أن أكون قد
أوضحت الخطوط العريضة لمشروعات بعينها والسياق العام الذى تجرى فيه هذه
المشروعات. ولقد اتسمت مهمتى بصعوبة أكبر عند تقييم نشاطات السيدات اللاتى
قابلتهن، إذ أنني أدرك أن النظر إلى النتائج وحدها كفيلاً بإساءة تقدير الجهود المبذولة.
ولكن كيف يتسنى لنا تقييم النجاح ؟ كيف لنا أن نقيم تأثير النشاطات النسائية ؟

ولعل هذا الفصل قد أوضح أن تقييم إنجازات الحركة النسائية وفشلها لا يتم
بمجرد الإشارة لمشروعات بعينها. إذ لا بد للمرء أن يتدبر عوامل أخرى، مثل موقف
الحكومة وسياساتها، والأطر المؤسسية لصناعة القرار وتنفيذه، والخطاب الإسلامى
وحملاته، فضلاً عن تأثير المنظمات الدولية وبرامجها. ولا تتم نشاطات المرأة فى فراغ
ولذا لا يجب أن نقيم وكأنها تجرى فى مثل ذلك الفراغ.

ويبدو أن هناك مشكلة عامة تتمثل فى غياب الأهداف المؤسسية المحددة فى
الكثير من الحملات التى تتجه نتيجة لهذا الغياب إلى فقدان التأثير. فالانتقال من
مرحلة تناول بعض القضايا ودراسة أبعادها إلى التنفيذ الفعلى تصطدم بعقبتين
يتمثلان فى غموض موقف الدولة وعدم التزامها، وقشل الناشطات أنفسهن فى الحفاظ

على قوة الدفع بدرجة كافية، والتمسك بالتضامن فيما بينهن. ففي كثير من الأحيان تعترض المنافسة التي تدور غالباً حول ضمان الحصول على التمويل والموارد طريز. العمل الجماعي. وفي بعض الحالات يبدو من المعقول أن نتساءل ما إذا كانت بعض المشروعات لا تمتد إلا لفترة قصيرة نظراً لاستجابتها للبرامج الدولية بدرجة تفر. استجابتها للاحتياجات المحلية. غير أنه من المهم أن نؤكد أن البرامج الدولية والاحتياجات المحلية قد لا يكونا متقابلين، وإنهما قد يساندا بعضهما البعض إذا ما جرى استخدامهما استخداماً بناءً .

وقد كشف الأسلوب الذي دارت به المناقشات حول عقد الزواج الجديد، وختان الإناث، والعنف ضد المرأة عن أمر شديد الوضوح، ألا وهو أن الناشطات لا يثقن في مواجهة العقبات العامة التي تعترض حصول المرأة على حقوقها فحسب، وإنما يدخلن في صراع ضد السلطة السياسية المتزايدة للقوى الدينية المحافظة والدولة التي تشعر بالحرج ما بين مطالب الجماعات الإسلامية وضغوط المجتمع الدولي. وأمر آخر يتضح في أن محاولات زيادة المشاركة السياسية للمرأة، وهو أحد الأهداف التي تعلنها الكثير من الناشطات، تحقق أفضل النتائج على مستوى المشاركة السياسية للناشطات أنفسهن. وأعنى بذلك أن الناشطات غير قادرات على زيادة عدد الناخبات لأن الناس تشعر بياس ولامبالاة تجاه نظام تُحدد فيه نتائج الانتخابات مقدماً. كما أنهن عاجزات عن زيادة العدد المحدود للنائبات في البرلمان أو في مؤسسات صناعة القرار الأخرى. وربما قدمن المساعدة لرفع درجة وعي السيدات اللائي يعملن في إطار الأحزاب السياسية وفي الحكومة ذاتها. ولكن الأمر المؤكد هو أنهن يتركن أثراً بقيامهن بالاستمرار في أداء أدوارهن كناشطات سياسيات يتحدین الخطابات والسياسات السائدة، ويرفضن الاستسلام للتفسيرات المحافظة للقانون والدين .

ولا تزال الكثير من الناشطات، وربما كن أغلبية يتناقص عددها، يتمسكن بالأطر الحدائية (وربما أفضل أن استخدم مصطلح "حدائية تقليدية") فيعرفن نشاطهن بالمعنى الحرفي للنشاط من أجل الحصول على الحقوق (حق التعليم، وحق المشاركة السياسية، وحق العمل، الخ) في المجال العام. وتعمل أخريات في إطار نموذج الاعتماد على الغير فيسلطن الأضواء على القضايا ذات الصلة بالاقتصاد السياسي بينما يتجاهلن القضايا

ذات الصلة بـ "المجال الخاص" للأسرة والبيت أو يعالجها كمسائل هامشية. وتعد المناقشات التي دارت حول قانون الأحوال الشخصية استثناء من ذلك، ولكن القوانين التي تنظم الزواج، والطلاق، والحضانة، كما ذكرت من قبل، قد أصبحت قضايا عامة، وليست قضايا تثير نقداً لما يدور بين الرجل والمرأة في العلاقة الزوجية أو خلال إتمام إجراءات الطلاق. ويُنظر إلى "السياسة" في كثير من الأحيان كأمر منفصل عن "قضايا المرأة"، وتُفسر عامة بالمشاركة في الأنشطة ذات الصلة "بسياسة الأحزاب الرسمية" أو المنظمات السرية .

ويقف جيل جديد من الناشطات تدريجياً في مواجهة المفاهيم والشروط القديمة لخطاب الحداثة والاعتماد على الغير، ويخلخل هذه المفاهيم على نحو مستمر ومتسق، وقد كان هذا الخطاب يرى في زيادة حقوق المرأة تحسناً ألياً لوضعها بالمنزل. وقد تمكنت الناشطات من تحريك المياه الراكدة التي استقر عليها الانقسام المريح ما بين العام والخاص لأجيال. وقد وجهت هؤلاء الناشطات بمعالجتهن قضايا مثل الصحة الإنجابية، والعنف ضد المرأة، الأنظار إلى الارتباط ما بين الاضطهاد الذي يقع على المرأة بالبيت وبالمجال العام. وتقول ميرفت حاتم أن هؤلاء السيدات هن اللاتي استطعن أن يتغلبن على "المفاهيم والأدوار القديمة والمجربة والتي لا يتوقع أن تقدم حلولاً جديدة" (Hatem, 1993: 45) .

ونادراً ما يستخدم مصطلح "النظام الأبوي"، إذ أنه يُنظر إليه باعتباره وثيق الصلة بالاتجاه النسوي الغربي. غير أن السيدات يشرن في الكثير من الأحيان إلى الأساليب المتعددة التي تخضع من خلالها المرأة لسيطرة الرجل واضطهاده. ويبدو أن الكثير من الناشطات المصريات يتفقن مع الناشطات الغربيات في افتراضهن بأن دخول أعداد كبيرة من النساء في الأنظمة التي يتحكم فيها الرجال مثل التعليم، والعمل، والسياسة، يقدم حلاً لمشكلة المساواة. ولا تتفق الناشطات اللاتي يوجهن النقد للتصورات الليبرالية والاشتراكية معهن، وهن يرين أن النظم المختلفة في حد ذاتها تحتاج إلى التغيير لأنها تعكس التصورات الذكورية التسلطية للقوة .

وعلى ضوء هذه الاختلافات فإنه لا عجب أن الناشطات يتجهن لتسليط الضوء على الخلافات فيما بينهن؛ غير أن هذه الخلافات يُنظر إليها ويُعبر عنها عامة

بمصطلحات متعددة. فقد يصاغ النقد في مجال التعبير عن الخلافات بالإشارة إلى "جلسات الحديث"، و"المنشغلات بالرعاية الاجتماعية"، "ومقطوعات الصلة بالقاعدة العريضة". وتقدم بعض الجمعيات على مستوى آخر تعريفاً لنفسها وللجمعيات الأخرى: على أساس الانتماء السياسي ونقاط نضالها المرجعية، وعلاقتها بالدولة، ورؤيتها ومشاركتها في الأحداث والحركات الدولية، وموقفها من التمويل الأجنبي. وسأسلط الضوء على بعض هذه المناظرات في الفصل التالي والأخير، الذي يهدف أساساً لتوضيح الثقافة السياسية التي تقوم عليها الكثير من موضوعات الجدل داخل الحركة النسائية المعاصرة .

الهوامش

- (١) قامت نادية فرح بتقديم ٤٥٠ عنواناً، غير أن نصف هذه العناوين كان متاحاً في المكتبات التي رجعت إليها في القاهرة. ونصف تلك الكتابات على وجه التقريب قام به باحثون أجانب أو مصريون يعملون بالخارج .
- (٢) انظر (1995) Paidar لمراجعة أوجه تشابه هامة مع إيران .
- (٣) انظر (1995: 8-14) Paidar; (1996) Kandiyoti; (1993) Hatem لتحليل لخطاب الحداثة والاعتماد على الغير في قضايا المرأة .
- (٤) رابطة المرأة العربية تتكون أساساً من سيدات ينتمين للطبقة المتوسطة العليا والطبقة العليا، ويشغلن وظائف مهنية، ومعظمهن تتراوح أعمارهن ما بين الخمسين والستين .
- (٥) انظر (1998: 140-75) Karam لمناقشة مفصلة عن القضايا والحملات ذات الصلة بحقوق المرأة القانونية في مصر .
- ٦ - انظر (1995) Mayer لمناقشة عن تحفظات مصر تجاه مؤتمر إلغاء كافة أشكال التفرقة ضد المرأة .
- (٧) مركز دراسات المرأة الجديدة تم تسجيله بوصفه شركة غير ربحية لتجنب سيطرة وزارة الشؤون الاجتماعية. وتتكون الجمعية من جيلين من الناشطات، جيل شارك بنشاطه في حركة الطلبة في السبعينيات، وجيل أصغر سنًا التحق مؤخرًا بالجمعية. وتعلن عضوات الجمعية ذات الاتجاه اليساري تأييدهن للاتجاه النسائي. وسناقش تاريخ الجمعية وبرنامجهما الحالي في الفصل التالي .
- (٨) أثناء انعقاد مؤتمر السكان والتنمية في القاهرة عام ١٩٩٤، صورت شبكة سي إن إن وأذاعت تقريراً عن ختان فتاة صغيرة. وقد أخرج ذلك التقرير الحكومة المصرية وأطلق جدلاً واسعاً حول قضية الختان في مصر .
- (٩) تتراوح نسبة الأسر التي تتكفل المرأة بنفقاتها ما بين ٢٠ و ٣٠ بالمائة .
- (١٠) ظل معدل رد القروض ثابتاً بنسبة ٩٦ بالمائة، ولم تواجه جمعية نهوض وتنمية المرأة صعوبات كبيرة تجاه رد القروض عدا في عام ١٩٩١ عندما زادت الأسعار زيادة كبيرة بعد تنفيذ برنامج التعديلات الهيكلية في مصر (El-Kholy, 1994) .
- (١١) تشير الجمعية التي نشرت الكتيب لنفسها بأسماء مختلفة : "جمعية السبع"، أو "جمعية السيدات المهتمات بشئون المرأة المصرية" أو "جماعة الاتصال لتعزيز وضع المرأة في مصر". وخلال لقاءاتي أشارت معظم السيدات اللاتي قمن بدور في هذا المشروع إلى اسم "جماعة السبع"، ولذا فقد اخترت هذا الاسم بالتحديد .

- (١٢) انظر على سبيل المثال (1987) Chemais .
- (١٣) شاركت منى ذو الفقار المحامية والناشطة المصرية ، وهدى الصدة الأستاذة بجامعة القاهرة على وجه الخصوص فى هذه الحملة وفى إعداد مسودة لعقد الزواج الجديد .
- (١٤) أُقيم المشروع تحت رعاية ناهد طويبا، وهى طبيبة سودانية ومناضلة فى الحملة ضد ختان الإناث. ويرجع الفضل إلى مؤسسة فورد وخاصة لجوسلين دى جونج Jocelyn de Jong لقيام قوة مكافحة ختان الإناث، وقد قام بالتنسيق مارى أسعد التى تناولت مشكلة الختان قبل أن تتحول إلى مشكلة قومية أثناء مؤتمر السكان والتنمية فى عام ١٩٩٤ . انظر Wassef (1988a) لمراجعة تحليل مفصل عن الخطاب الماضى والحاضر والنشاط فى مجال ختان الإناث .
- (١٥) المسح الديموجرافى والصحة لمصر، ص. ١٧١، ورد فى (Wassef (forthcoming) .
- (١٦) انظر (1997a: 3-4) FGM Task Force .
- (١٧) يوجد ملخص للنتائج فى National NGO Committee for Population and Development (1995): 35-41.
- (١٨) انظر على سبيل المثال (1998) Tadros .
- (١٩) سناقش الجدول حول التمويل الأجنبى وموقف "معا" المحدد فى الفصل التالى.
- (٢٠) الترجمة العربية لمصطلح gender والشائعة حالياً هى "النوع"، وفى بعض الأحيان يُحتفظ بالكلمة الإنجليزية فى النصوص العربية؛ وهناك ترجمة أخرى هى "الجنس" الأمر الذى يفسر الارتباطات السلبية التى يأخذها المحافظين المتدينين على المصطلح الذى يربطونه بممارسة الجنس قبل الزواج، أو العلاقات غير الشرعية، والإجهاض، والشذوذ الجنسى .
- (٢١) رضوان الكاشف (مخرج سينمائى): "الرقابة وصلتها بصورة المرأة فى وسائل الإعلام"؛ الدكتورة هدى الصدة (أستاذة الأدب الإنجليزى، وناشطة فى مجال حقوق المرأة): "صورة المرأة فى وسائل الإعلام"؛ الدكتورة عايدة سيف الدولة (طبيبة نفسية وناشطة نسائية): "وسائل الإعلام وموقفها من العنف ضد المرأة".
- (٢٢) يوجد تلخيص لنتائج البحوث والتوصيات التى أصدرتها لجنة الإعلام فى كتيب نُشر عام ١٩٩٥، أعدته لجنة الجمعيات الأهلية القومية للسكان والتنمية (اللجنة الفرعية للمساواة بين الجنسين) وعنوانه (The Road from Cairo to Beijing (pp. 23-24) .
- (٢٣) بينما بدا وكأن هذا الصحفى بالذات مهتم بالرقابة بمعناها الواسع، فإن أحد أوجه اعتراضه اتجه لتصوير جسد المرأة. وتشكل مسألة معارضة التصوير الجنسى لجسد المرأة أو تبريرها باسم حرية التعبير وحرية الصحافة مجالاً للجدل التقليدى بين الناشطات الغربيات .

الفصل السادس

مرآة الثقافة السياسية فى مصر

الجدل والانقسام فى صفوف الناشطات

يُعدُّ الجدل الدائر حول الهوية والأصالة فى مصر، مثل ما هو الحال فى مجتمعات أخرى تمر فى مرحلة ما بعد الاستعمار، جزءاً لا يتجزأ من عمليات معقدة تسعى من خلالها تلك المجتمعات لتعريف الذات. ويبدو ذلك على سبيل المثال فى الجدل الدائر حول التمويل الأجنبى للبحوث المحلية وأنشطة التنمية، التى تعد من وجهة نظر بعض الناشطين السياسيين شكلاً من أشكال التدخل الخارجى. وكما ذكرت من قبل، ينبغى أن نضع الجدل حول التمويل الأجنبى فى سياق حقيقة أن مصر هى ثانى أكبر مستفيد من المعونة التى تقدمها الولايات المتحدة بعد إسرائيل. أضف إلى ذلك أن المعونة الأجنبية تتراوح ما بين المشروعات الثنائية والمتعددة الأطراف وتمويل مشروعات محددة على مستوى القاعدة الشعبية من قبل وكالات تمويل دولية متعددة. كما يجب أن نأخذ فى الاعتبار النظرة إلى المنظمات الدولية وتقييم المؤتمرات الدولية فى سياق الكفاح من أجل الحصول على الاستقلال السياسى وخاصة فيما يتصل برفض التأثير الأمريكى المتزايد.

غير أن الجدل حول الهوية والأصالة يأخذ فى أحيان أخرى سياقاً ثقافياً وليس سياسياً. ويبدو هذا الاتجاه جديراً بالملاحظة فى الجدل حول الإطار الثقافى المرجعى لنشاط المرأة المصرية. وفى الفصل الرابع كنت قد تناولت دور الدين كمؤشر ثقافى فيما يتصل بالأصالة والهوية. وفى هذا المقام سأسلط الضوء فى الأساس على الجدل حول عالمية حقوق النساء فى مقابل خصوصياتها، وتحويل الجدل السياسى إلى الاتجاه الثقافى.

وسأبدأ برواية تاريخ مركز دراسات المرأة الجديدة كوسيلة لبيان بعض أوجه التوتر والمشكلات والجدل، وكيف أثرت هذه السلبيات على الحركة النسائية. وتشكل مختلف ذكريات ومواقف العضوات المؤسسات للمرأة الجديدة المصدر الرئيسى لما أحاول أن أروييه، وبدلاً من القيام بمحاولة لرصد الأحداث والصراعات، فإننى أود أن استخدم قضية بعينها كمثال للمشكلات والانقسامات فى الحركة النسائية، وبشكل أعم داخل الثقافة السياسية المصرية المعاصرة. وسأستمر فى كتابة هذه الفصل باستكشاف مفصل للمشكلات التى تحيط بالتمويل الأجنبى والجدل حول عالمية المشكلات فى مواجهة خصوصياتها وذلك بالنظر فى مواقف الناشطات من منطلق مجموعة متباينة من الآراء.

الجدل حول الماضى: حكايات المرأة الجديدة قضايا ومجادلات المرأة الجديدة فى الزمن الماضى

وقد أكدت العضوات المؤسسات لجمعية "المرأة الجديدة" اللائى قابلتهن أن الدافع الأول للقائهن ولناقشاتهن قضايا المرأة ارتبط بـ"أسلوب تطور المجتمع"، فمعظم الناشطات جنن من اليسار السياسى، وقد شاركن بدرجات متفاوتة فى الحركة الطلابية فى السبعينيات، وتقول إحداهن "فى البداية كنا ست أو سبع سيدات، كنا نتطلع للتغيير والعدالة الاجتماعية. وبدت قضايا المرأة جانباً من نسيج عريض"، وتؤكد السيدات أن الحديث عن قضايا المرأة فى تلك الفترة لم يكن أمراً وارداً، غير أنهم اجتمعن وبحثن عن أساليب جريئة للتعبير عن عدم رضائهن بالسياسات الحزبية وإغفال حقوق النساء. وقد تزوجت معظمهن من رجال تقدميين، وأدركن أن التغيير على المستوى الشخصى لا ينبع بالضرورة من الأفكار السياسية التقدمية. وقد ذكرن أعمال نوال السعداوى فى أكثر من مناسبة بوصفها عاملاً أثر فى فكرهن، غير أن تلك الأعمال لم تقدم إجابات مرضية للعديد من الأسئلة التى طرحتها مجموعة الصديقات المشاركات فى النشاط السياسى. وقد انتقلن تدريجياً من اقتناعهن المبدئى بأن أفضل سبيل لحصول المرأة على حقوقها يكمن فى سياق تنظيمات الكفاح الاشتراكى الرحب:

اقترحت إحدانا أن نفحص مفهوم النظر في قضايا المرأة باعتبارها جانباً من نسيج عريض وبدأنا فترة من البحث. فدرسنا وناقشنا تاريخ الحركة النسائية وقرأنا كثيراً ، الأمر الذي جعلنا ندرك أن النضال من أجل العدالة والاستقلال لا يعني بالضرورة حل قضايا المرأة. ووجدنا مصداق ذلك في الجزائر وفلسطين، فقد نُحيت المرأة الجزائرية جانباً بعد الاستقلال، بينما تواصل المرأة الفلسطينية جهودها لضم قضاياها للبرامج السياسية للمنظمات والأحزاب. ويعتبر الناشطون السياسيون قضايا المرأة هامشية بالنسبة للكفاح الوطني، وقد توافرت لدينا وسائل اتصال غير رسمية بسيدات فلسطينيات، ولم تكن هناك جمعية تجمعنا لكننا كنا نجتمع بانتظام في بيوتنا. وبدأ الناس يتساءلون "ما الذي تردن أن تقلنه؟ وما هو الجديد؟" ولذلك فقد بدأنا في إصدار نشرة في عام ١٩٨٩. حصلنا على المادة وبدأنا نتفاوض حول اسم الجمعية. واخترنا اسم "المرأة الجديدة" على أساس أنه عنوان كتاب قاسم أمين. وقد كانت هذه إحدى مرتين اتخذنا قرارنا بالتصويت. ولم أكن سعيدة بهذا الاسم، ولكن العدل يقضى بأن أقر أن هذا الكتاب لقاسم أمين يمثل الكثير بالنسبة للمرأة. (سمية د.)

وقد أكدت عضوتان مؤسستان أن فكرة إصدار مجلة انطلقت بتأثير ظهور مجلة أخرى لجمعية تأسست وقتها في المنصورة، وهي جمعية "بنت الأرض" وذلك عقب الغزو الإسرائيلي للبنان في عام ١٩٨٢، "تصورنا أن الفكرة جيدة ونفذناها. كما أننا كنا نحاول التعرف على هذه الجمعية التي اتسمت بالراديكالية، غير أنها لم تعلن آراء واضحة حول قضية المرأة، ومن ثم أعدنا العدة لإصدار مجلتنا".

وقد صدرت من المجلة عدة أعداد ما زالت ذات قيمة. وقد سبق وتناولت في الفصل الثاني الجدل الدائر حول العلاقة بين النشاط النسائي والصراع السياسي الأرحب مثل الكفاح للحصول على الاستقلال، والكفاح لتحقيق العدالة الاجتماعية، وفي الفصل السابق ناقشت مفهوم المجالين العام والخاص، وأوضحت كيف اكتسبت حقوق النساء العامة مثل التعليم والمشاركة السياسية والعمل شرعية على حساب حقوقها في ما يدعى بالمجال الخاص (قانون الأحوال الشخصية الذي ينظم علاقات الزواج والطلاق وحضانة الأطفال، والعنف في البيت، والحقوق الإنجابية). غير أن سمية د. توجه اهتمامها أيضاً للشكل التنظيمي وهياكل الجمعيات النسائية، وخاصة محاولة قيام هياكل ديموقراطية مستقلة. وسأعود للجدل المتصل بقضايا البنية الداخلية وعمليات اتخاذ القرار. غير أنه في هذا المقام سأتناول الأوجه المختلفة للخلافات الإيديولوجية والسياسية التي تشمل أيضاً مسألة تعريف الذات.

وتدعو الحاجة أن نضع ظهور جمعية "المرأة الجديدة" وإصدارها لمجلتها بعد ذلك فى سياق التقاء التجارب السياسية ذات الصلة بتطورات تاريخية محددة فى ذلك الوقت من ناحية، والتجارب الفردية الخاصة بالعضوات المؤسسات من ناحية أخرى. وترتبط التجارب السياسية التى أطلقت المحاولات لتأسيس جمعية نسائية مستقلة بانتهيار الحركة الطلابية والأزمة العامة للييسار السياسى وانقشاع الأوهام التى أحاطت بالهيكل السياسية الهرمية التى يسيطر عليها الرجال، غير أن فكرة قيام جمعية نسائية مستقلة تطورت أيضاً فى سياق تعبير الناشطة الرائدة نوال السعداوى وإلى حد ما عضوات "بنت الأرض" بالمنصورة عن غضبهن لاضطهاد النساء بأسلوب أشرك العديد من السياسيين ذوى الاتجاهات المختلفة. ولم يقتصر الأمر على تقديم العضوات المؤسسات لأفكار ثورية يسارية وإنما امتد للتعبير عن خيبة الأمل فى احتمالات العمل فى اليساريين الذكور وخاصة فى إطار الهيكل التنظيمية أو الأحزاب ذات الترتيب الهرمى.

وقد انشقت بعض السيدات اللائى أسسن جمعية "المرأة الجديدة" عن جمعيات اشتراكية كانت قائمة حينئذ. وذلك لأنهن لم يجدن من خلالها اهتماماً كافياً بالقضايا ذات الصلة بتحرير النساء. وقد أكدت بعض السيدات أن تجاربهن الخاصة مع الرجال "التقدميين" اليساريين سواء أكانوا آباء أم أخوة أم أزواج، عززت من اعتقادهن بأن الإيديولوجية الاشتراكية لا تتضمن بالضرورة التزاماً بالمساواة بين الجنسين، غير أن معظم العضوات المؤسسات بلغن من الانخراط فى الإيديولوجية الماركسية مبلغاً جعل اتجاههن النسائى يضم إليه المذهب الاشتراكى، وأعنى بذلك أن معظم العضوات المؤسسات لجمعية "المرأة الجديدة" لم يهجرن الاشتراكية، وإنما تركن خلف ظهورهن "الصراع المزدوج" حيث حاربن فى صفوف المنظمات الاشتراكية التى يسيطر عليها الناشطون الذكور كما حاربن ضدها. وقد برزت الخلافات حول أسلوب دمج الاشتراكية والاتجاه النسائى فى ما يتصل بالمناهج والأهداف والاستراتيجيات على أرض الواقع. وتؤكد إحدى الناشطات اللائى انسحب من جمعية "المرأة الجديدة" فى نهاية المطاف، وأسست جمعية جديدة فى بداية التسعينيات أطلق عليها اسم "معاً"، إلى أن الانهيار النهائى للجمعية يعود فى الأصل لاختلاف التوجهات:

منذ البداية كنا منقسمات إلى اتجاهين: فهناك مجموعة مهتمة بمشكلات السيدات اللاتي ينتمين للطبقة العاملة، وهناك مجموعة أخرى مشغولة بمشكلاتها الخاصة المتعلقة بالهوية والعلاقة مع أزواجهن. أى أنهن كنَّ معنيات بالتعبير عن الذات بدرجة أكبر. أما السيدات اللاتي على شاككتي ويشعرنَّ بالسلام النفسى فقد أردنَّ أن يتفاعلنَّ مع مشكلات أكبر. (ليلي أ.)

ويمكننا عقد الصلة ما بين هذا التصور والمناقشة فى الفصل السابق حول أوجه الإدراك والتعريفات المختلفة لما هو "سياسى" و"عام" فى مقابلة ما هو "خاص". ويعكس ذلك الخطاب اليسارى التقليدى الذى يضع نشاط المرأة فى سياق أوسع من الصراع الطبقي فى الوقت الذى يتجاهل فيه مشكلات خضوع المرأة داخل الأسرة، ومشكلاتها الصحية (الجسمانية والنفسية)، وما يتصل بعلاقاتها الخاصة والجنسية باعتبار أنها اهتمامات بوجوازية متحررة. أضف إلى ذلك أن هذه الرؤية توحى بأن النساء اللاتي يفتقدنَّ للإحساس بالاستقرار، ويعانين من المشكلات الشخصية والنفسية، هن اللاتي يرتبطنَّ بالقضايا ذات الصلة بالتعبير الذاتى. كما أن الجدل بين عضوات المرأة الجديدة حول متطلبات تعريف النشاط النسائى والسياسة عامة يجرى على نطاق واسع، ويستمر داخل نطاق الحركة النسائية على مستوى واسع، وبين اليسار السياسى أيضاً، والجماعات الإسلامية وداخل الحكومة.

وتختلف الآراء فيما يتصل بالاختلافات فى المرحلة التنظيمية المبدئية، غير أن معظم العضوات يجمعنَّ على اتفاقهن حول الكثير من القضايا، وأنهن شككنَّ مجموعة نسائية حاولت أن تستخدم أساليب لمعالجة هذه القضايا على نحو يختلف عن المناهج القائمة. وقد اتضح ذلك بصفة خاصة فى الحملة حول قانون الأحوال الشخصية عام ١٩٨٥، وهى الحملة التى جمعت ناشطات ينتمين لاتجاهات سياسية مختلفة. وحتى فى ذلك الوقت فإن العضوات المؤسسات لجمعية المرأة الجديدة شعرنَّ أن برنامجها يختلف عن برامج الناشطات الأخريات. وكما تقول سميرة د. :

فيما يتعلق بقانون الأحوال الشخصية المعدل أجمعنا على تقديم بديل يمنح الحقوق المتساوية للنساء. وقد ظننا أن بإمكاننا التفاوض، غير أننا كنا أقلية مطلقة. وقد ووجهنا بالمعارضة حتى من سيدات تقدمات من النخبة، إذا ما حازت هذه الكلمة

القبول، ومن الطبقة الوسطى، والطبقة الوسطى العليا. وهو ما نواجهه حتى اليوم، ويتمثل الاتهام في أننا نقوم بعمل غريب يقع خارج نطاق ثقافتنا. وقد تعرضنا لهذا النقد على الدوام، وعادة ما نقيم علاقات أفضل مع سيدات القاعدة العريضة بالمقارنة بسيدات النخبة. وقد كان لهذا الموقف دوره الكبير في تطوير جمعيتنا، فنحن معرضات للمسائلة دائماً، وفي بداية عملنا كانت الاتهامات مختلفة عن الاتهامات الموجهة لنا حالياً. فقد اتهمنا في البداية بأننا مسرفات في الراديكالية، ثم قيل أن برنامجنا لا يعكس حقيقة مشكلات النساء، وأن الدين يلعب دوراً هاماً في الحياة وأننا لا نعطي الدين اهتماماً كافياً، وذلك لأننا كلنا غريبات. واليوم يقولون أننا نسرف في التغريب وأننا نهتم بذيل قائمة الأولويات. وهي اتهامات مهذبة. غير أن تجربتنا أثبتت أننا أقرب للطريق السليم. فنحن ناشطات، والناشطات يحتجن رؤية تتخطى ما هو قائم. وقد أظهرت لنا ردود الأفعال التي وصلتنا من الناس الذين عملوا معنا أننا نتناول قضايا هامة تهم الكثير من سيدات مصر، مثل اتخاذ القرار، وتعدد الزوجات، والعنف، إلخ. إن لغتنا ليست غريبة، وما نتحدث عنه من موضوعات مرتبط بالواقع.

وسواء صيغت هذه الاتهامات بوصفها "نشاطاً يقع خارج نطاق ثقافتنا"، أو "خروجاً على الدين"، أو "إغراقاً في التغريب"، فإن هذه الاتهامات المختلفة تعطي الدليل على استمرار الجدل حول الأطر المرجعية الثقافية المشروعة للنشاط النسائي بصفة خاصة، والنشاط السياسي عامة. ويرتبط بالجدل حول الأطر المرجعية الثقافية جدل آخر يدور حول "العالمية في مقابل الخصوصية" وهو موضوع لا يشغل الحركة النسائية المصرية فحسب، وإنما حركة حقوق الإنسان والخطاب السياسي العام أيضاً. وقد ناقش ناشطو الاتجاه النسائي وحقوق الإنسان تفصيلاً مواقفهم من قضية الخصوصية الثقافية، ومزايا العولة ومخاطرها، وخاصة خلال التحضير للمنتدى الدولي للمرأة في بكين (١٩٩٥)، وأيضاً قبل ذلك في مؤتمر السكان والتنمية الدولي (١٩٩٤). وتحتل هذه المناقشة مساحة هامة داخل الثقافة السياسية المصرية كما سأحاول أن أثبت فيما يلي من هذا الفصل.

وإذا عدنا إلى ما قدمته سمية د. من تاريخ لحركة المرأة الجديدة فإن من الواضح أن معادلتها لدمج الاشتراكية مع الاتجاه النسائي تتضمن إشارة إلى النظام الأبوي، وهي تضيف :

معظم الناس يصرون على تناول مسألة تساوى الأجور وحق النساء فى العمل، حتى إن كانت كثير من النساء لا يرغبن فى العمل، والأمر مرتبط بتركيبة الأحزاب السياسية. فأغلبهم من الرجال، فهم نصف المجتمع الآخر. فإذا ذكر الظلم الذى يسود علاقة الرجال بالنساء، فإن ذلك يستثير غضب بعض الرجال غير المتعاطفين.

وقد التقت آراء العضوات المؤسسات على أن كثيرات من زميلاتهن السابقات، وصديقاتهن، ورفيقاتهن خلال الحركة الطلابية، سرى إليهن الشعور بالتهديد ما أن بدأت جمعية "المرأة الجديدة" فى معالجة قضية سلطة الرجل واضطهاد المرأة. ولا تعد هذه التجربة فريدة من نوعها، إذ أن البرامج النسائية لا تزال تشكل تهديداً لسلطة النخبة الذكورية فى أنحاء العالم. وفى الغرب، اتسمت الموجة الثانية من الاتجاه النسائى فى الستينات بخيبة أمل مماثلة فى الصراعات السياسية التى يسيطر عليها الرجال. وقد وجدت بالفعل الخلافات فى داخل جمعية المرأة الجديدة فيما يتصل بتسليط الضوء على النظام الأبوى أو الاضطهاد الطبقي، ولكن حتى إذا رأت بعض المؤسسات أن هذه الخلافات لا يمكن تجاوزها حالياً، فإنه مما يبدو أن كافة العضوات أقررن خطورة نظام الاضطهاد المتشابك فى صلته بالإمبريالية، والرأسمالية، والنظام الأبوى.

وهناك قضية أخرى تبرز على السطح وتتمثل فى أن الكثير من الاتهامات الموجهة ضد الجمعية تقوم على خلافات طبقية. وينتمى معظم الناشطين السياسيين العلمانيين فى مصر المعاصرة للطبقة الوسطى المثقفة التى يتراوح دخلها كثيراً، غير أن أفرادها يتمتعون بمزايا خاصة ويتحركون فى الدوائر الثقافية. ومما يثير العجب أن الكثير من يرفعن أصواتهم ضد النخبوية والابتعاد عن الجماهير لا يربطهم بالطبقة العاملة فى مصر إلا "الخطب الحماسية"، بينما يتمركز نشاطهن، وأسلوب حياتهم، وشبكات اتصالاتهم، وصدقاتهم حول الطبقة الوسطى. ولا يمكننا تجاهل الاتهامات المتبادلة بالنخبوية وافتقار الصلة بالقاعدة العريضة، فهى تعكس بالفعل الفجوة ما بين اهتمامات أغلبية السيدات المصريات والقضايا والجدل والحملات التى تقوم بها الحركة النسائية. غير أن ما نود أن نفحصه بدقة هو الأسلوب الذى بمقتضاه يستخدم الدفاع عن الجماهير كمجرد وسيلة للانتقاص من قدر جماعات مختلفة من الحركة النسائية،

بينما لا يؤدي بالضرورة إلى تقوية أية روابط بما يسمى بـ"القاعدة العريضة". ولا يعنى هذا الإيحاء بأن الأنشطة المتصلة بالقاعدة العريضة من الجماهير لا وجود لها، وإنما ما نحتاج لتسليط الضوء عليه هو حقيقة أن الذين يكيلون الاتهامات بشراسة للآخرين على أساس بعدهم عن اهتمامات القاعدة العريضة ليسوا بالضرورة أقرب منهم إليها. وقد استقر هذا الاتجاه عبر المحيط السياسى وانتشر بين منظمات اليسار السياسى وحقوق الإنسان مثلما انتشر بين ناشطات الاتجاه النسائى^(١).

وقد زادت الاتهامات المختلفة ضد الجمعية من التوترات بداخلها. وتتذكر إحدى السيدات ما يلى: "كان كل اتهام ينتهى بنا إلى إحباط نسلطه على بعضنا البعض". وفى البداية قررت السيدات أن تظل الجمعية مغلقة على عضواتها، ولكن بعد صدور المجلة الأولى شعرت بعض العضوات بأن الجمعية يجب أن تقبل عضوات جدد، وتمثلت المشكلة الوحيدة فى أن معايير قبول عضوات جدد لم تنطبق إلا على العضوات المؤسسات أنفسهن. وبعد حين شعرت مجموعة السيدات أن نشاطهن لا يجب أن ينحصر فى إصدار مجلة أو الدخول فى مناقشات فحسب، وتتذكر هانية ك. وتقول "شعرنا بضرورة أن ننتقل إلى المجتمعات، غير أنه فى بداية الأمر كانت هذه الفكرة هامشية إلى حد كبير، فكلنا مهنيات نشكل مجموعة صغيرة من السيدات ولم يكن لنا تواصل طبيعى مع القاعدة العريضة".

وقد اتسمت الثقافة السياسية الأوسع فى مصر خلال الثمانينات بمحاولة نقل الاهتمام للعمل مع القاعدة العريضة. وقد شجع هذا الاتجاه الذى تزامن مع نمو قطاع الجمعيات الأهلية الجمعية للعمل فى مجال محو الأمية، والاستشارات الطبية، والتعليم. وفى نهاية المطاف قادت هذه التجارب المختلفة لعقد ورشة عمل عن النساء وتعليم الكبار. وقد تمثلت القضية الأكثر إلحاحاً فى كيفية صياغة مفهوم تعليم الكبار وتقديمه بأسلوب تقدمى. وقد أعدت جمعية "المرأة الجديدة" ورشة عمل مشتركة مع مركز البحوث العربى (المنيل) فى منتصف الثمانينات صدر عنها إصدارهما الأول بتمويل من الجهتين كما تضمنت الورشة الدعوة للتبرع بالأموال.

وعقب نشر الكتيب عن النساء وتعليم الكبار، تفجرت أزمة حادة شلّت نشاط الجمعية لبعض الوقت، وأدت إلى انشقاقها فى عام ١٩٨٩. وتتذكر السيدات اللاتى

قابلتهن هذه المرحلة الحساسة على أوجه مختلفة، غير أن جميعهن يشتركن في الإحساس بالألم والإحباط عند رواية الأحداث والأسباب التي أدت في النهاية إلى اتساع الفجوة. وتتذكر إحدى العضوات اللائى ساندن فكرة توسيع الجمعية وقبول التمويل الأجنبى تحت شروط محددة ومن جهات مانحة بعينها وتحدثنى بما يلى:

فى الوقت الذى حان فيه أوان المناقشات حول التمويل، بدأت ثلاث سيدات من الجمعية فى العمل على أساس فردى للمشاركة فى مشروعات ممولة تركز على الاتصال بالمجتمع. وقد شاركت فى أحد هذه المشروعات، حيث عملت كطبيبة. ومررت فترة لم نشعر خلالها بحالة التمزق التى نمر بها. وقد كنت أعمل فى مركز رعاية للأطفال فى الوايلى (الوايلى حى يسكنه ذوو الدخل المحدود فى شمال القاهرة. وباستثناء نواة تتكون من أسرتين أو ثلاث أسر استقرت فى المنطقة منذ زمن بعيد، فإن غالبية السكان تتكون من المهاجرين من الريف إلى المدينة). كما كنت أعمل كطبيبة نفسية فى جامعة عين شمس. ثم استرعى انتباهنا شىء ما. فقد كنا نعود إلى منازلنا ونناقش صعوبة الدخول فى المجتمعات المحلية لأداء عملنا كناشطات فى جمعية "المرأة الجديدة". ولم يخطر ببالنا لفترة طويلة أن أعمالنا تتيح لنا مدخلاً لتلك المجتمعات. وفى إحدى اللقاءات اقترحت أن نستخدم مشروعاتنا المختلفة التى نعمل فيها بصفتنا المهنية كمجال لنشاطنا النسائى. وقد رفضت بعض العضوات فكرة الدخول إلى هذه المجتمعات عن طريق وظائفنا التى نتلقى عليها أجراً، حتى ولو أن أحدنا لم يشك فى أن عملنا السياسى هو عمل تطوعى ليس إلا. فلا يترتب على قبول التمويل وتسلمه أن العضوات سيتلقين راتباً. وحتى هذه اللحظة فإن العمل فى الجمعية طوعى عدا منصب إدارى لا تشغله أى من عضوات الجمعية. وقد أثرتنا القضية فى جمعية "المرأة الجديدة" نيابة عن كثيرات. وتبعنا الجميع. وخلال تلك الفترة أضحت واضحاً أننا فى حاجة إلى تنظيم وإلى دعم مادى. ولذلك فقد بدأنا فى طلب التمويل.

وتسلط العضوات اللائى انسحبن من الجمعية الضوء على الاختلافات الإيديولوجية والسياسية بوصفها العامل الحاسم فى الأزمة الأخيرة. وقد نتجت الأزمة فى رأى ليلى أ.، وهى المسئولة عن الدفعة القوية التى نتج عنها تأسيس "معاً" فى ١٩٩١ بعد عامين من انسحابها هى وعضوات أخريات من "المرأة الجديدة"، عن

الصراع السياسى حول التمويل الأجنبى والعمل مع القاعدة العريضة، وتروى ليلى أ. لى أنها رفضت فكرة التمويل الأجنبى وشاركتها فى الرفض عضوات أخريات كما عارضن جميعاً فكرة "مزج تجربة العمل المهنى مع النشاط السياسى".

غير أنها تقر بأن الصدام الأخير كان ذا صلة ببنية الجمعية نفسها، فتقول "كنا شلة، مجموعة صديقات، ولم نتمكن من تطوير نظام أو هيكل يستوعب الاختلافات. ولو أننا أقمنا الآليات والأدوات اللازمة لكان من الممكن أن تتم الأمور بأسلوب ديموقراطى. كما أنه كانت هناك مشكلة قيام بعضنا بالعمل كله بينما ينسب الفضل فى ذلك للجماعة كلها. وقد أدى ذلك إلى إثارة مشاعر سلبية". وترى بعض الناشطات عندما يراجعن ما مضى من أحداث أن العلاقات الشخصية بين العضوات والتعريفات الفردية للذات لعبت دوراً بارزاً فى المواجهات الحادة بصورة تفوق ما أدركته حينئذ. وترى العضوات المؤسسات للمرأة الجديدة ممن استمر فى العمل بالجمعية أن مشكلة التمويل الأجنبى، وإلغاء الفصل الصارم ما بين النشاط السياسى والعمل المهنى لم يكونا إلا حجتين لبعض الصدمات التى نشأت على أساس من الخلافات الشخصية ما بين الصديقات. ومن واقع لقاءتى بالعضوات اللائى انسحبن واللئى بقين، تبين لى أن هناك أسباباً متعددة للصدام، وأن السيدات اللائى انسحبن فى نهاية المطاف أقدمن على ذلك لأسباب مختلفة.

ويظل الجدل حول الفصل ما بين العمل المهنى والعمل الطوعى فضلاً عن مشكلة قبول التمويل الأجنبى من عدمه من بين أكثر المشكلات إثارة للخلاف بين حركة الجمعيات الأهلية الأوسع نطاقاً. وقد وقع الخلاف الرئيسى داخل جمعية المرأة الجديدة فى سياق الانتشار السريع للجمعيات الأهلية فى مختلف القطاعات (مثل الصحة العامة، ومحو الأمية، والتنمية، وحقوق الإنسان، وقضايا المرأة)، وتزايد تأثير المنظمات الدولية، وخاصة الأمم المتحدة والوكالات المانحة الأخرى. وقد شهدت أواخر الثمانينات بداية مرحلة من الاتجاه المهنى المتزايد للقطاع التطوعى.

إعادة التنظيم وأولويات جديدة

أدى الصدام داخل الجمعية وما نتج عنه من انسحاب أربع عضوات إلى قيام مناقشات حادة وعنيفة بين العضوات الباقيات اللاتي وجدن أنفسهن في مواجهة موضوعات جدلية تتطلب أن يعلنن مواقفهن بشأنها. وقد بذلت الجمعية جهداً كبيراً في معالجة الموضوعات التي أهملتها من قبل مثل الصحة الإنجابية للمرأة، والعنف ضد المرأة، غير أنها نشطت في مجالات أكثر تقليدية مثل قوانين العمل، والمشاركة السياسية، والحقوق القانونية. وبينما قبلت الجمعية مبدأ التمويل الأجنبي من ناحية المبدأ، فإن سيدات الجمعية ميزن ما بين المانحين "الأخيار" والمانحين "الأشرار"، وفضلن عامة أن يعملن مع منظمات أصغر حجماً وأقل إثارة للجدل السياسي مثل "نوفيب" NOVIB الهولندية، ورفضن التعامل مع وكالات التمويل مثل وكالة التنمية الدولية الأمريكية USAID.

وقد رأت العديد من العضوات المؤسسات الجمعية في التحضير لمؤتمر القاهرة للسكان والتنمية نقطة تحول لجهودهن لإيجاد منصة للاتجاه النسائي، وللانتقال من النشاط القائم على البحوث إلى النشاط المتوجه بمشروعاته للقاعدة العريضة. وقد كانت المنظمات النسائية قبل هذه المؤتمر منفصلة عن بعضها البعض، عدا في حالات محدودة من التعاون تتم من خلال التبادل الشخصي للأراء أو الإصدارات بين المنظمات المختلفة. وقد جمعت الانتقاضة، وحرب الخليج، وإصدار قوانين الخصخصة، وأمور أخرى المنظمات النسائية لفترة قصيرة تفرقت بعدها لتابعة أنشطتها المنفصلة (Seif) (El-Dawla & Ibrahim, 1995: 115). ^(٣) وتلخص هانية ك. أحداث فترة ما قبل انعقاد المؤتمر كما يلي،

بعد الصدام أعدنا ترتيب صفوفنا وحاولنا أن نلتزم بقدر من الاستراتيجية في عملنا. وقد كان هدفنا الأساسي هو التقدم لإيجاد منصة للاتجاه النسائي. وبدأنا العمل من خلال منظمات حقوق الإنسان وحاولنا أن نقدم قضايانا. واستغرق ذلك منا عامين أصدرنا بعد انقضائهما عريضة بمطالبنا قامت على أساس اتفاقية إلغاء كافة أشكال التفرقة. ^(٤) وكان هناك من تردد في التوقيع. ومضى وقت انشغلنا فيه بإقامة الشبكات وهو عمل أتى ثماره عند التحضير لمؤتمر القاهرة للسكان والتنمية. لقد شعرنا بأننا انتصرنا. فقد بدأت النساء تنظم صفوفهن بأنفسهن، ويتقدمن بقضايا جديدة. وقد أفسح ذلك المجال أمامنا. وأنشأنا منصة تسمح بمناقشة القضايا الجديدة

وتقبلها . ولم توجد على هذه المنصة أية منظمات يسارية عدا ناشطة ناصرية واحدة تمثل اتحاد المحاميات العرب. ولذا فقد افتقدت هذه التجربة بعض العناصر والعاملين على المسرح السياسى.

وفى الفترة التى سبقت انعقاد المؤتمر كثف مركز دراسات المرأة الجديدة^(٥) على بعض البحوث التى تقدم الأدلة على "إدراك النساء فى مصر لحقوقهن". وفى هذه المرحلة هاجمت الجمعية موقف الحكومة من تنظيم الأسرة والتنمية، وعبرت عن رأيها فى انحدار برنامج تنظيم الأسرة إلى محاولة للحد من الخصوبة. وقد تسبب تقديم مفهوم الحقوق الإنجابية جدلاً واسعاً وغضباً شديداً بين الناشطات فقد رأينها قضية فرضها "الغرب". غير أن ناشطات الجمعية رفضن هذا الاتهام، إذ إنهن أقمن هجومهن على اهتمامات القاعدة العريضة. كما أنهن تعرضن لمشكلة الخصخصة، والتعديلات الهيكلية وقوانين العمل الجديدة. كما قامت الجماعة بتحرير بحث، ضمن مشروعات أخرى، يحلل برامج الدولة والبرامج الدولية والخطاب السائد بها، وهى برامج "تعتمد فى نجاحها على استغلال النساء كعمالة رخيصة" على حد قول إحدى العضوات. وفى هذا البحث تعالج الجمعية مشكلات القطاع الريفى غير الرسمى كما تناقش سوء أوضاع النساء اللاتى يلتحقن بالخدمة المنزلية.

وقد أتيح للجمعية أثناء انعقاد المؤتمر أن تناقش مشكلة البرامج الحكومية والدولية التى تضر بحقوق النساء مع ناشطات من مختلف أرجاء العالم. وقد كانت قضية إهمال السلطات الوطنية والدولية لحقوق النساء وتخطيها واحدة من عدة قضايا نوقشت للمرة الأولى فى منتدى كبير. وقد أوجد التحضير لمؤتمر القاهرة للسكان والتنمية مساحة للعديد من الناشطات لمعالجة قضايا كان تناولها محرماً فيما مضى (الإجهاض، والعنف، والحقوق الإنجابية)، أو لمناقشة قضايا تثير اهتمامات مشتركة (المساواة أمام القانون، والمشاركة السياسية، والتعديلات الهيكلية، والأحوال الشخصية، وقانون الجنسية) بين النساء اللاتى ينتمين لمختلف الاتجاهات والخلفيات. وتصف عايدة سيف الدولة وسمية إبراهيم فترة التحضير للمؤتمر كما يلى،

بدأت السيدات يبدين اهتماماً بموضوعات لم تشكل فى العادة جانباً من برامجهن. ونُظمت ورش العمل فى أنحاء البلد فعولجت فيها تلك القضايا وقُدِّمت المعلومات.^(٦) وقد ثبت أن هذه اللقاءات مثمرة ومثيرة كما أنها أحييت الآمال فى قيام

حركة عانت من القيود لسنوات طوال. وجرت اللقاءات بين منظمات لم تتعارف من قبل، وأبرمت اتفاقيات فى المجالات التى تصوّرت الجمعيات أنّها تقف وحدها فيها، وفى الوقت نفسه أصبح من الواضح أنّ هناك مجالات لن تحظى بأية اتفاقيات، مثل دور الدولة، والموقف من الإسلاميين، ودور الدين والأحزاب السياسية. ولم تحاول السيدات تحظى هذه الخلافات، فلم يرغب أحد فى التخلّى عن هذه اللقاءات المثيرة التى طال الاشتياق إليها للتوصل إلى إجماع لن يمكن الوصول إليه بأى حال من الأحوال.

(115 : 1995)

وما لبثت مشاعر الأمل والنجاح التى سبقت مؤتمر السكان والتنمية وصاحبته أن تحطمت بضربة قوية اشترك فى توجيهها الحكومة، والإسلاميين، وبعض الناشطين من داخل الجمعيات الأهلية. فبينما كانت الجهات المنظمة للمؤتمر تتسم باللين والتسامح فيما يتصل بضم الجمعيات، حتى تلك الجمعيات التى لم تُسجّل رسمياً بوصفها جمعيات أهلية، فإنّ الحكومة واللجنة المنظمة المرشحة لمنتدى المرأة الدولى فى بكين برئاسة هدى بدران، وضعت تأكيداً كبيراً على التعريف القانونى للجمعيات الأهلية وعلى تسجيلها بوزارة الشؤون الاجتماعية. وقد نتج عن هذا الموقف استبعاد بعض الجمعيات، مثل مركز دراسات المرأة الجديدة، وهى الجمعيات التى التفت حول قانون الجمعيات بتسجيل نشاطها كشركات مدنية. وقد ساهم موقع مؤتمر القاهرة للسكان والتنمية فى زيادة ارتياده من قبل الناشطات والجمعيات، فلم تكن هناك حاجة للحصول على منح للسفر كما هو الحال فى منتدى بكين. أضف إلى ذلك، أنّ الإعلان العلنى للحكومة المصرية بالتزامها بالمساواة بين الجنسين قد جاء متأثراً بالرغبة فى تحسين صورتها فى عيون المنظمات الدولية ووسائل الإعلام العالمية.

وبينما فشلت الجمعية فى المشاركة الرسمية بوصفها جمعية أهلية، فإنّها استمرت فى المشاركة فى التحضير لمنتدى بكين، وساندت مشاركة عضواتها بصفة فردية، وخاصة العضوات اللائى ينتمين للجيل الأصغر سناً ممن التحقن بالجمعية فور الانتهاء من مؤتمر القاهرة. وعلى سبيل المثال فإنّ منال هـ. كانت تعمل فى المجال المهنى نفسه مع إحدى عضوات المرأة الجديدة الأكبر سناً. وقد تعرفت على الجمعية والمشكلات التى تواجهها من زميلتها، وتقول منال:

لقد كنت متعاطفة إلى حد كبير مع قضيتهم، وشعرت أنني يتعرضن لمعاملة ظالمة في أعقاب مؤتمر القاهرة لأنهن لم يسجلن الجمعية رسمياً بوصفها جمعية أهلية. وقد كن يعملن في مشروع عن النساء والعمل يخص النساء اللاتي يعملن أعمالاً يدوية متواضعة. ولم أصادف مثل هذا النوع من البحوث من قبل في مصر. وكانت فكرتي عن الجمعيات الأهلية تتلخص في اجتماع بعض السيدات المتقدمات في السن حول مائدة لتناول الشاي والقيام بأعمال خيرية. وعندما بدأت انتظم في الحضور كن يعملن في مشروع جديد عن النساء والعنف تحضيراً لمنتدى بكين. ولم أعرف كيف انضم إليهن في بادئ الأمر غير أننا كن نطرح الأفكار للمشروع وقمنا بصياغة الاستبيان معاً.

وتؤكد العضوات الأصغر سنًا أنه على الرغم من الجدل الذي أثير حول منتدى المرأة العالمي في بكين، فإنهن استطعن أن يتعلمن الكثير عن نشاط الدفاع عن حقوق المرأة في أرجاء العالم، واكتسبن ثقة في نشاطهن بمشاركتهم في التحضير لمنتدى بكين. وكما ذكرت آنفاً في الفصل السابق، فإن معظم العضوات الأكبر سنًا كن يفضلن الاستمرار في دراسة قضية حقوق العمل استعداداً لبكين. غير أن هذا الموضوع بعينه قد وجهته اللجنة التحضيرية المصرية لمنتدى بكين لجمعية أخرى بالتنسيق مع رابطة المرأة العربية. وكبديل عن هذا الموضوع، قررت "المرأة الجديدة" العمل في مجال العنف، وهي "قضية لم يرغب الكثيرون في معالجتها".

ولم يلق مؤتمر بكين الاحتفاء الذي أحاط بمؤتمر القاهرة فقد تناقص دعم منتدى الجمعيات الأهلية المصري وتعاونيه، كما فرضت الحكومة قيوداً أكبر وتفسيراً محافظاً للقوانين. غير أن عضوات "المرأة الجديدة" يرين أن مكاسب مؤتمر القاهرة غير قابلة للإلغاء، فهن يشعرن أنهن اكتسبن قوة بعملهن مع القاعدة العريضة. كما يرين أن مؤتمر القاهرة ساهم في تقديم القضايا وإجراء البحوث حولها ومناقشتها. وبعد انتهاء مؤتمر القاهرة، أصبح تحويل الجهود أمراً ضرورياً، فقد برزت الحاجة لترجمة المادة التي جرى بحثها إلى برامج ملموسة. غير أن عايدة سيف الدولة وسمية إبراهيم (١٩٩٥) يشيران إلى أن المشاركة ما بين الجمعيات الأهلية والحكومة في تنفيذ خطة مؤتمر القاهرة تأخذ في الكثير من الأحيان هيئة تتحمل الجمعيات الأهلية على أساسها

توفير الخدمات التي تعجز الدولة عن تقديمها. أضف إلى ذلك، أن التنازلات السياسية من جانب الحكومة، مثل تلك التي قدمتها الحكومة في قضية ختان الإناث، تكشف تناقص التزام الحكومة بتمكين النساء بعد انتهاء مؤتمر القاهرة (ibid.: 116) .

الأجيال والثقافة السياسية: اختيار نوع المنظمات

وخلال لقاءاتي مع عضوات المرأة الجديدة الحاليات فإنّ الخلافات ما بين الجيل الأكبر والأصغر سنًا بدت واضحة في أكثر من موقف. وتفسر السيدات اللاتي ينتمين للجيل الأكبر تلك الخلافات بتباين الخلفيات السياسية، وتقول إحداهن: "ما نتحدث عنه نحن الجيل الأكبر هو نتاج عملنا السياسي وخبرتنا على مدى السنين، أما السيدات الأصغر سنًا فإنّ لديهنّ حسًا فطريًا بالعدالة. وهنّ ينتمين للطبقة الوسطى وتتجه قلوبهنّ للحق، فهنّ ديموقراطيات ولسنّ في حاجة للتعامل مع القضايا المبدئية التي شغلتنا عندما عملنا بالسياسية". وترى العضوات المؤسسات اختلافًا آخر يكمن في قرب الجيل الأصغر من الخطاب والممارسة الدينية، بينما يشعر الجيل الأكبر سنًا أنّه أكثر التزامًا بالعلمانية.

ولا شك أنّ الاختلاف في الموقف تجاه الدين والعمل السياسي بوجه عام يرتبط بتطورات الثقافة السياسية المصرية. فحركة الطلاب في السبعينات قدمت خلفية وساحة للمشاركة السياسية للعضوات المؤسسات. وكانت السياسة وقتئذٍ تحمل الوعد بمستقبل باهر، وكان النشاط السياسي يلقي قبولًا واسعًا، وكان الكثير من الآباء والأمهات يقدموا الدعم لأبنائهم في كفاحهم. وقد شكّلت الأفكار اليسارية التقدمية فكر هؤلاء السيدات، على الرغم من إدراكهن للفروق داخل الجيل الأكبر سنًا فيما يتصل بالموقف من الدين.

واليوم في الوقت الذي تفقد فيه جماعات اليسار بريقها في عيون الشباب المصري، فإنّ الحركة القائمة بوضوح في الساحة هي الحركة الإسلامية. وفي هذا السياق فإنّ السيدات الأصغر سنًا اللاتي لا تجذبن الحركات الإسلامية يفتقدن النموذج للمشاركة السياسية. وربما كنّ قد تلقين تعليمًا جيدًا وتدريبًا على العمل في

مجال التنمية، غير أنهن في كثير من الأحيان يفتقدن الوعي أو الإطار السياسي. ويبدو الانتقال العام إلى الحرص على تأدية الشعائر والممارسات الدينية في التزام السيدات الأصغر سناً على الارتباط بالدين. وتبدو سير حياتهن عاملاً أساسياً يكمن وراء الأسباب التي دعتهن للمشاركة في التنظيمات النسائية. وكما ذكرت في الفصل الثالث فإن أشكال الاضطهاد التي خضعت لها الناشطات الأصغر سناً في أيامنا هذه أدت إلى تعميق وعيهن السياسي.

وقد تبرز الخلافات الداخلية فيما يتصل باتخاذ القرار والهيكل التنظيمي بين الجيلين، ولا تعتمد الجمعية في هيكلها على البناء الهرمي بمعنى عدم وجود ما يبرر مثل هذه البنية، غير أن العضوات الأكبر والأصغر سناً قلن لي أن بعض العلاقات الهرمية قائمة. وترى بعض العضوات المؤسسات أن "بعض العضوات ملتزمات أكثر من غيرهن. والأمر يتصل بتنظيم الوقت كما يتصل بمحل سكن العضوات". وتصف هدى أ.، وهي إحدى الناشطات من الجيل الأكبر سناً عملية اتخاذ القرار والبنية الداخلية لمركز دراسات المرأة الجديدة كما يلي:

إذا ما برز أمر يحتاج إلى اتخاذ قرار فإننا نناقشه. ونحن نتخذ قرارات جماعية في ما يتصل بميزانيتنا، وكافة برامجنا، والقضايا التي نناقشها. ونتبع نفس الأسلوب عند اتخاذ قرار بإيفاد عضوات منا إلى أية مناسبة، مثل حضور المؤتمرات بالخارج مثلاً. غير أننا لا نلجأ للتصويت، إذ يجب أن نصل إلى اتفاق، أي أنه يجب التوصل إلى إجماع. فإذا اشتد الخلاف فإننا نعلق الأمر. أما إذا كان الأمر عاجلاً فإننا نواصل المناقشة حتى نصل إلى نقطة اتفاق. وهناك من يتولى القيام بأنشطة معينة ويقدمون تقاريرهن للجمعية. ونحن جميعاً نخشى قيام نظام هرمي. ونجد في غيابه أمراً محبباً يسمح بالتفاعل والشفافية. ولا أحد يجزؤ على تمثيل الجمعية دون موافقة الجميع. ولا يعني ذلك أن أمورنا تجري بيسر فهناك من هن أكثر التزاماً من غيرهن. وأخطر ما في الأمر أن هناك من يشعرن أن الجمعية تنتمي إليهن بدرجة تفوق غيرهن. وعندما أدخل مقر "المرأة الجديدة" فإنني أشعر أنني في بيتي وإذا رأيت أن هناك أمراً عاجلاً دعوت إلى عقد جلسة. وإلى الآن فإننا نتلقى دعوات من الجيل الأصغر لعقد جلسات، فهناك

افتراض ضمنى أن الجيل الأكبر سناً يملك قدرة أكبر على اتخاذ القرار، وأنه يتمتع بحقوق أكثر. (هدى أ.)

ومعظم العضوات الأصغر سناً يقررن باختلاف قدر السلطة ما بين الجيلين، ولكنهن لا يرين في ذلك أية مشكلة تؤثر سلباً على الاتجاهات الديمقراطية للجمعية. بل أن العضوات الأصغر سناً يشعرن بصفة عامة أن التجربة السياسية والسن المتقدمة تمنحان الجيل الأكبر درجة أعلى من السلطة. وبدلاً من الشكوى من قيام نظام هرمى خفى فإن بعض العضوات الأصغر سناً يعبرن عن عدم رضائهن عن عملية الإجماع التى تمنع فى رأيهن من الإنجاز. وقد حدثتني منار ر. بأن قيمة اتخاذ القرار الديمقراطى نبتت من السيدات الأكبر سناً، غير أن هذه القيمة لا تشكل أولوية بالنسبة إليها: "فى بعض الأحيان أفضل وجود قدر من النظام الهرمى والوضوح فيما يتصل بتحديد المسئوليات، ونحن ننفق وقتاً طويلاً فى اتخاذ القرار الأمر الذى قد يؤدي بنا إلى إحباط شديد". وتفضل منار ر. وعلان. على سبيل المثال "قديراً أكبر من التحكم ومحاولات أقل للحصول على الإجماع". غير أنهما يوافقان على المثل العامة للجمعية ويشعران أنها توفر المنتدى الوحيد الذى يمكن من خلاله أن يناقشا آراءهما بحرية. غير أن إحدى العضوات الجدد وهى سهام أ. تحمل تقديراً خاصاً لنظام "المسئوليات الأفقية حيث لا يوجد رئيس، وقد تعلمت المعنى الحقيقى للديموقراطية. ولذا فإننى الآن لا أستطيع العمل مع أية جمعية أخرى".

وبعد انقضاء مؤتمر بكين قررت الجمعية وقف العضوية وإتاحة بعض الوقت لإعادة تنظيم صفوفها وإعادة تقييم استراتيجياتها وهيكلها التنظيمى. وتعتقد بعض العضوات بوجود أزمة، وبالخاصة لمناقشة بعض المفاهيم، مثل الإطار الثقافى للصراع (خاصة موقف الجمعية من المناهج الدينية تجاه حقوق المرأة)، والمسئوليات، وتوصيف المهام، والتحالفات، والمشاركة فى عدة منظمات فى الوقت نفسه. وقد برزت نقطة خلاف فى الأعوام الأخيرة عندما انتقلت بعض العضوات إلى جمعيات أخرى ومنهن من أسس جمعيات جديدة تعمل هى أيضاً فى مجال قضايا المرأة. وفى هذا السياق برزت قضية "التمثيل"، أى ما إذا كان العضوات اللائى يمثلن منظمات أخرى فى المنتديات المحلية أو الدولية يمكنهن أن يمثلن مركز دراسات المرأة الجديدة.

ولعل هذا التاريخ التفصيلي قد أوضح أنَّ القضايا والجدل داخل جمعية المرأة الجديدة لم يحدث في فراغ سياسي، فهي قضايا تمثل نقلات في التطورات الاجتماعية والسياسية خلال العقد الماضي مثل الأزمة العامة التي يمر بها اليسار السياسي، وتنامي التيار الإسلامي، وزيادة تأثير المنظمات الدولية ووكالات التمويل، وبقدر مسئولية النواحي الشخصية والشكوك الفردية عن بعض الصراعات التي شهدتها الجمعية فإنَّ مواطن الجدل والتوتر المطروحة تعكس أيضاً اهتمامات الثقافة السياسية الواسعة في مصر، ويرتبط ظهور أشكال جديدة من التنظيمات دون توافر نماذج للهيكل التنظيمية تلقى قبولاً عاماً بعملية طويلة من التجريب والابتكار. وتتطلب هذه العملية مثلما رأينا في حالة جمعية "المرأة الجديدة" التزاماً طويلاً المدى وقد يتضمن خبرات مؤهلة. غير أنه يمكن أيضاً تحدى الهياكل التنظيمية الهرمية وأنماط اتخاذ القرار بأساليب سلطوية من خلال تلك التجارب والعمليات السياسية المؤهلة، فضلاً عن إفساح المجال لرؤية أساليب جديدة في التنظيم.

معاً: معاً لكن متفرقون

وفي خط مواز للتطورات والتغيرات داخل جمعية "المرأة الجديدة" بدأت جمعية جديدة في التكوين حول القضايا ذاتها التي أدت إلى الانشقاق. وقد أجلت خيبة الأمل السياسية، والمصاعب الاقتصادية، والمشكلات الشخصية من تأسيس مركز دراسات "معاً" لعدة سنوات، وفي أوائل التسعينات قامت إحدى الناشطات اللائي انسحبن من "المرأة الجديدة" بتجنيد رجال وسيدات مهتمين بإقامة مركز يقوم ببحوث تتصل بالنوع من وجهة النظر الماركسية، ويعتمد أساساً على العمل التطوعي وفي المقام الأول لا يقبل أى تمويل أجنبي.

وقد قدّم أحد أقارب هذه الناشطة والمساندين للفكرة شقة تحوى مكتبة للمركز، وبالتدريج بدأ الأصدقاء وأصحاب الاتجاهات السياسية المماثلة في الاجتماع على أساس منتظم لمناقشة رؤاهم واستراتيجياتهم وأولويات البحث والعمل مع القاعدة العريضة. وكما في أيام "المرأة الجديدة" الأولى بدأت الجمعية بمناقشة تاريخ الحركة النسائية المصرية، وتقول ليلي أ.،

كان بيننا الكثير من الناشطات اللائى يسقطنّ الناشطات الأوليات مثل هدى شعراوى من اعتبارهنّ على أساس أنهن بورجوازيات، ولم يكن لديهن فكرة عن دورهن فى ثورة ١٩١٩ . وقد نظمنا ندوة عن تاريخنا لأنّ من المهم أن نعرف تاريخنا ونفخر به، وأصبح من الضرورى أن يتفهمنّ ويدركنّ لمّ يختلفنّ عن الحركة السابقة. وكانت مناقشاتنا الأولى فى منتهى الأهمية للندوات التى أعقبتها مثل الندوة التى عقدناها عن النساء والإيديولوجية، وفى هذه الندوة درسنا الإيديولوجيات الماركسية، والنسائية، والإسلامية. وكان وجه الصعوبة هو التحاق أعضاء جدد، ولم يكن باستطاعتنا أن نبدأ من الصفر فى كل مرة، ولذلك فقد كنا نحاول أن نناقش الأعضاء الجدد على أساس فردى. (ليلى أ.)

وبالإضافة إلى مجموعة الندوات وورش العمل، فإنّ المركز شارك فى عدد من المشروعات ذات الصلة بالقاعدة العريضة بين العاملات فى مصانع متنوّعة. وبما أنّ "معاً" لا تقبل أى تمويل مادي من المانحين الأجانب، فإنّ القيام بالعمل كان على أساس تطوعى. ولم تتوافر إلا موارد قليلة للقيام بالمشروعات، ويعانى معظم الأعضاء أنفسهم من المشكلات المالية، الأمر الذى يجعل من الصعوبة الاستمرار فى الاجتماعات والعمل المنتظم، "هذا هو وجه التناقض فى الجمعية. فكلنا متطوعون فى بلد يضطر الناس فيه للعمل أكثر من تسع ساعات فى اليوم. والناس يعانون نقص المال معظم الوقت، ولذلك فإنّهم يعانون من توتر حقيقى". ويمد الأعضاء المستقرون مادياً يد المساعدة المالية لسداد النفقات الجارية، وتتراوح قيمة اشتراك العضو حسب إمكاناته المادية. وقد أصدرت "معاً" مجلة تتناول مشكلات النساء فى الطبقة العاملة بميزانية مخفضة للغاية عن طريق اللجوء للأصدقاء كى يساعدوا فى التصميم والطباعة والنشر. وقد أعد عدد ثانٍ عن المرأة والفقر بينما كنت أنهى بحثى.

وتظل "معاً" أحد قلاع المعارضة ضد التمويل الأجنبى فى بيئة يجرى فيها التنافس حول ذلك التمويل على الرغم من النقد الدائب لهذا الأسلوب من متلقى التمويل. ويؤكد موقف "معاً" من التمويل وفعالية الجمعية وسياساتها العامة فى كثير من الأحيان الأمانة والالتزام والجهد الذى يميز جماعة من الناس يحاولون العمل بأسلوب الاكتفاء الذاتى. وبالنسبة للناشطات الأخريات، وخاصة اليساريات، فإنّ هناك فجوة ما بين البلاغة والممارسة. فكثيراً ما نرى أن من يتأخر عن المطالبة بالتمويل يتهم

من حصل عليه بالتفريط فى مقابل الحصول على العون الأجنبى. وهذه مشكلة تؤرق الكثير من الدوائر وليس الحركة النسائية وحدها. فهى ظاهرة منتشرة بين الناشطين السياسيين فى حركة حقوق الإنسان وبين الباحثين فى مختلف الاتجاهات السياسية.

التمويل الأجنبى: أزمة مصر فى عهد ما بعد الاستعمار

بينما يبدو أن حرارة المناقشة حول التمويل الأجنبى قد خبت على ضوء القبول المنتشر لهذا التمويل (خاصة منذ التحضير لمؤتمر القاهرة للإسكان والتنمية ومنتدى المرأة العالمى فى بكين)، فإن الموضوع لا يزال هو موضوع الساعة ويحتل موقعه ضمن أسلحة الاستنكار البارزة داخل الحركة النسائية وحركة الجمعيات الأهلية الأوسع. والجدل الدائر حول التمويل الأجنبى يدل على التناقضات الجوهرية فى مصر فى عهد ما بعد الاستعمار. ويرجع ذلك إلى أن الكفاح الوطنى للاستقلال التام من القوى الإمبريالية سار فى خط موازٍ لقيام الكيانات الاقتصادية الجديدة المعتمدة على الغير، والتي يُفسر وجودها فى الكثير من الأحيان بأنها صنائع الاستعمار الجديد. غير أن اعتماد مصر الاقتصادى الواضح على المعونة المالية الأمريكية يصبح قضية ملحة بصفة خاصة على ضوء مساندة الولايات المتحدة لإسرائيل.

وخلال قيامى ببحثى تمكنتُ من ملاحظة درجات متعددة لهذا الجدل الذى لا يجرى بين من يقبل التمويل الأجنبى ومن لا يقبله فحسب. وقد أصبحت تزايد الاتجاه لمناقشة تحديد الجهة التى يُقبل منها التمويل وهى جهة "الأخيار"، وتحديد الجهة التى يرفض عرضها بالتمويل لأنها فاسدة أو لا تلتزم بـ"النزاهة السياسية"، وقدر التمويل المقبول، وكيفية تخصيص الأموال، وأخيراً وليس آخراً تبرير قبول التمويل. غير أن سلوى ف، وهى إحدى العضوات الشابات برابطة المرأة العربية لا تعتقد فى وجود فرق ما بين الممولين "الأخيار" و"الأشرار"، وترفض ما ترى أنه قدر كبير من النفاق، وهى تقول، إن قضية التمويل الأجنبى برمتها تخلق الكثير من المشكلات. وأنا أحترم الجمعيات القليلة التى أعلنت منذ البداية أنها لا ترغب فى الحصول على تمويل أجنبى. والمشكلة أن هذه الجمعيات غير نشطة لأنها تفتقر إلى الأموال، غير أنها تتمسك بموقف واضح حتى الآن. ولكننى أشعر بالاستياء تجاه الجمعيات التى تقبل التمويل

الأجنبي وتتهم الجمعيات الأخرى بقبوله لأنه يرد من مصدر بعينه، ونحن لا نستطيع أن نصدر حكماً بأن الهولنديين أفضل من الألمان، أو أن البريطانيين أفضل من الأمريكيين. وإننى أرى أن هذه حماقة، وجدل يستهلك طاقة كبيرة. ولا أعتقد أن ذلك يفيدنا على الإطلاق، فإذا قبلت جمعية ما تمويلاً أجنبياً فليس من حقها أن تتهم الغير بقبول التمويل، كما يمكن أن يتواجد أشخاص مختلفون فى المنظمة المانحة نفسها، فبعضهم قد ينتمى إلى أجهزة المخابرات بينما بعضهم الآخر قد لا ينتمى لهذه الأجهزة، وبعضهم قد يكون أكثر حساسية تجاه مشاكلنا بينما بعضهم الآخر قد لا يكون مهتماً بهذه المشكلات، وأعنى بذلك أنه حتى فى المنظمة الواحدة هناك اختلافات ولا يمكننا أن نصنف الجهات المانحة ببساطة إلى "أخيار" و"أشرار"، إن الأمر كله ليس صحيحاً.

وبصفتها ناشطة فى مجال حقوق المرأة، وموظفة فى إحدى جهات التمويل (اليونيسيف) فإن سلوى ف. على اتصال يومى بـ"كلا الجانبين"، غير أنها تعلن موقفها صراحة كما يلى: "بالطبع فإن عدم تلقى التمويل الأجنبى هو الوضع الأمثل، لأن كافة الوكالات تحدد متطلبات وتضع اشتراطات"، وتعد برامج التدريب النوعى التى تقدمها المنظمات الغربية أحد الأمثلة المتعددة التى تثبت أن الممولين لا يشعرون بالحاجات المحلية ويفرضون برامجهم. وينادى الكثير ممن يستخدمون هذه البرامج لتدريب الباحثين والعاملين فى مجال التنمية بتصميم برامج ملائمة للبيئة المحلية لأن البرامج المستخدمة حالياً "قائمة على الحركة النسوية الغربية ومشكلاتها. فهى برامج مفروضة علينا دون ما اعتبار لسياقنا الخاص وتاريخنا". (منى س.)

وخلافاً لسلوى ف. فإن معظم السيدات اللاتى قابلتهن يفرقن ما بين المنظمات المانحة. فيخلعن لقب "الجهات الخيرة" على تلك المنظمات التى تتخذ مقرها فى بلاد يُنظر إليها على أنها "أقل تهديداً" من الناحية السياسية، و"أقل إمبريالية" فى توجهاتها، و"أكثر تقدمية" فى سياساتها تجاه العالم الثالث. ويعد مستوى الحرية أو الرقابة التى تفرضها المنظمة المانحة سمة تميز ما بين الجهات الممولة "الخيرة" و"الشريرة". أى أن وكالات التمويل التى يبدو أنها تستجيب على نحو أكثر مباشرة لحاجات المنظمات المصرية دون أن تحاول فرض برامجها تلقى قبولاً أكبر بين معظم الناشطات^(٨).

وحتى إذا كان سن الناشطة ليس عاملاً متغيراً في موقف النساء تجاه التمويل، فمن الواضح أن هناك خلافاً ما بين الأجيال. فبينما لا يزال جيل الوسط (الذي تكون أثناء حركة الطلاب اليسارية في السبعينات) يعاني صعوبة بالغة في تبرير قبول التمويل الأجنبي (ولا يزال بعضهم يرفضه)، فإن الجيل الأكبر والأصغر سناً لا تعنيهما هذه المشكلة كثيراً. ويبدو أن الكثير من الناشطات الأصغر سناً يتصفن باتجاه برجماتي يميزهن عن زميلاتهن الأكبر سناً. وربما كان هناك عدة تفسيرات لهذا الخلاف، أوضحها يتمثل في الفرق في التجربة التي صاغت شخصياتهن، والتحول في المناخ السياسي العام ما بين السبعينيات والتسعينيات. ولا شك أن تدهور الأوضاع الاقتصادية في مصر يمثل عاملاً آخر، وهو وضع يدفع الجميع للمزيد من البرجماتية.

ويضاف عامل آخر فيما يتصل بتصاعد الآراء البرجماتية تجاه التمويل، ألا وهو الاتجاه المهني العام للعمل في مجال الدفاع عن حقوق المرأة. وقد تزايد هذا الاتجاه في التسعينيات وأصبح النموذج الأساسي لأي نوع من أنواع النشاط. وقد تضاعف عدد منظمات حقوق الإنسان على سبيل المثال في السنوات الأخيرة، وهي تستعين على نحو متزايد بباحثين مهرة، ومحامين وأخصائيين اجتماعيين. ويقدم مجال الرعاية الصحية مثلاً آخر، حيث يعالج عدد من الطبيبات الناشطات سياسياً حقوق المرأة الإيجابية، وهن يجمعن بذلك ما بين خبراتهن المهنية ونشاطهن النسائي.

ويوازي الحس البرجماتي المتزايد تجاه التمويل الأجنبي اتجاه لقبول رأس المال المصري لأغراض التمويل. ونجد من بين الناشطات الأكبر سناً والأقل راديكالية بصفة خاصة، اتجاهاً للاستفادة من الموارد المحلية بوصفها بدائل محتملة للتمويل الأجنبي، وتقول بهيجة هـ:

كنت في بادئ الأمر أرفض قبول ما يُقدّم لي من مال، ولكنني أدركت فيما بعد أن الأموال ضرورية. ولا يوجد حالياً إلا عدد قليل من المنظمات قادر على جمع الأموال من المجتمع. وقد ابتكرنا فكرة إقامة مناسبة كبيرة لجمع المال تقام في نهاية العام، إن جمعيتنا الأهلية تخدم النساء ومن ثم تخدم المجتمع ككل. ويجب إقناع الأثرياء بأهمية عملنا. وأعتقد أننا نفتقر إلى الشرعية في حالة اعتمادنا على جمع الأموال من المانحين الأجانب، فمجتمعنا هو الذي ينبغي أن يمنحنا الشرعية. ونحن نجمع قيمة اشتراكات

العضوية ونحصل على هبات من مصريين وخاصة من قطاع الأعمال. غير أنني أضطر دائماً أن أذهب إلى الناس وأقدم لهم برنامجنا وأطلب منهم المساهمة المالية، إذ ينبغي أن أقتنعهم بسخامة برنامجنا وحاجتنا للمزيد من الجهد والدعم. (بهيجة هـ.)

وتدعو الحاجة إلى وضع موقف هذه الناشطة بالذات من التمويل ومحاولاتها الحصول على أموال كافية من "داخل المجتمع" فى سياق البيئة الاجتماعية الخاصة لتحالف المرأة العربية التى تنتمى لها بهيجة هـ. فبضع عضوات الجمعية، وهن بصفة عامة أكبر سناً من الناشطات اللائى انطلقن من الحركة الطلابية، ينتمين إلى جيل شارك فى النشاط السياسى بداية من خلال مشاركته فى الرعاية الاجتماعية وأعمال الخير، وتنتمى معظم العضوات للطبقة الوسطى العليا أو الطبقة العليا، ويتمتعن بتعليم راقٍ فضلاً عن صلات جيدة. وبالمقارنة بجمعيتى "المرأة الجديدة" و"معاً" فإن "تحالف المرأة العربية" تتوافر له قدرة أفضل للوصول إلى موارد التمويل المصرية. وهناك الكثير من الناشطات اللائى يعتمدن على التمويل المحلى غير أنهن يكافحن للحصول على ما يكفى بالكاد، وتشعر أغلبية الناشطات بعدم الارتياح لفكرة طلب التمويل من الشركات الكبرى، فرجال أو سيدات الأعمال يُنظر إليهم عامة كشخصيات فاسدة شرهة تمثل قمة الاستغلال الرأسمالى. غير أن بعض النساء يشعرن بأن الوقت قد حان ليحاولن البحث عن بدائل للتمويل الأجنبى، ولتغلب على العداوات السائدة تجاه الشركات المحلية. وتقول ليلى هـ.، وهى باحثة وناشطة فى أواخر الثلاثينات من عمرها، "لم نعتبر رجال الأعمال أكثر فساداً واستغلالاً من المنظمات الأجنبية التى تقوم على المبادئ الرأسمالية هى الأخرى؟ إننا يجب أن نشارك فى إعداد بحوث حول مجتمع المال والأعمال فى مصر وأن نحاول أيضاً أن نرفع درجة الوعى فى هذا المجتمع. على الأقل إنهم مصريون".

وتتصل إحدى التعقيدات الأخيرة فى الجدل حول التمويل بمحاولة الجماعة الكندية المصرية Canadian-Egyptian Group (CIAD) بتكوين شبكة من المنظمات النسائية والجمعيات التى تنتمى لمختلف الاتجاهات السياسية. وقد قررت مجموعة من المصريين الذين اتخذوا كندا قاعدة لهم أن يخصصوا رصيماً للمنظمات النسائية لمساعدتها لتكوين شبكة وذلك بتوفير المساحات، وأجهزة الكمبيوتر، وقاعدة للبيانات، إلخ. وقد

عبرت بعض الناشطات عن رفضهن لهذا المشروع: "يجب أن تنمو الشبكة التي تجمع كافة الجمعيات النسائية من مبادرة محلية وليس بدافع الحصول على الأموال". ووجه التناقض هنا يبدو في أن أعلى الناشطات صوتاً عند معارضة التمويل الأجنبي كن من أوائل المدافعات عن مشروع الجماعة الكندية المصرية، وعندما توجّهت بسؤال حول ما إذا كانت المشاركة تمثل تناقضاً مع بعض المبادئ العامة، جاءت إجابة نادية ن. من الاتحاد النسائي التقدمي كما يلي:

تهتم منظماتنا اهتماماً كبيراً بمكافحة الأمية وتعليم النساء. فإذا أُتيح لى من خلال مشروع الجماعة الكندية المصرية أن أزيد من فرص تعليم الفتيات القراءة والكتابة وحتى استخدام الكمبيوتر، فلم أعارض؟ إننا نحاول أن نستفيد من هذا المشروع الجديد، غير أننا ملتزمات باستراتيجياتنا وبرامجنا. وهذه تجربة جديدة تجمع ما بين العمل الاجتماعى والسياسى. وقد اكتشفت أننا يجب أن نلّم بتفصيلات كثيرة حول العمل الاجتماعى وأعمال الخير لأن مجتمعنا قد تدهور إلى حد بعيد، فلم يعد الشباب يأتون إلينا لفهم القضية وإنما للبحث عن عمل. فإذا وجدنا عملاً لهم من خلال العمل الاجتماعى، فلم نعارض إذن؟

ولا شك أن ما قالته نادية على جانب كبير من الأهمية، فهي تمثل نقلة راديكالية فى موقفها وموقف حزبها السابق من الرعاية الاجتماعية وأعمال الخير، وحزب التجمع الاشتراكى تاريخه فى التشكك فى العمل فى مجال الرعاية الاجتماعية، وقد أهمل هذا الجانب عامة على أساس أنه رد فعل بوجوازي للمظالم الاجتماعية. وقد حلّ منهج إصلاحى وبراجماتى محل الرؤية الثورية التى تهدف لـ "تغيير النظام بدلاً من إطعام بعض الفقراء". والمرء أن يتشكك فى أن هذا التغيير يتصل بتدهور الموقف الاقتصادى وانتشار الفقر والبطالة فحسب. فهناك عوامل أخرى لا بد وأن لعبت دوراً، فمن الواضح أن الناس ظلوا يعانون المصاعب الاقتصادية والحرمان عبر تاريخ السياسات اليسارية الثورية. وما يبدو أنه السبب المحتمل لهذه النقلة الراديكالية يتمثل فى تناقص جاذبية الحزب اليسارى بين الشباب المصرى، والإحساس العام بالأزمة داخل الحزب بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، والأهم من ذلك هو معرفة أن الجماعات الإسلامية تكسب تأييداً متزايداً بين الشعب عامة لأنها قادرة على تقديم الإمدادات والخدمات بينما لا تقدر الحكومة على ذلك.

أما فيما يتصل ببرنامج الجماعة الكندية المصرية فإن أحد الأسباب التي قدمها من يعارضون التمويل الأجنبي بصفة عامة هو "أصول" المانحين، وتنكر سهامهم، إحدى عضوات الأمانة العامة للحزب الناصري، الادعاءات القائلة بأن المشروع يفرض أفكاراً من الخارج، وهي تطالب بالمزيد من التضامن الدولي والتعاون بين العرب لمواجهة المؤامرات الصهيونية،

لقد ظلت فكرة تكوين شبكة للتنسيق بين المنظمات النسائية المختلفة قائمة منذ زمن بعيد، وقد بدأت بوصفها مبادرة قومية في يوم المرأة العالمي عام ١٩٨٥، وتتكون اللجنة من سيدات ينتمين لمختلف الاتجاهات السياسية، وقد وضعت برنامجاً ورؤية لمشكلات الأمة ومشكلات النساء، ولذا فإن المشروع الكندي المصري لم يفرض هذه الفكرة علينا، بل قدم لنا العون المالي لدعم هيكل الشبكة وآلياتها، ونحن في حاجة لتأسيس بنك معلومات، كما نحتاج إلى أجهزة كومبيوتر، وإلى الدخول لشبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، وكل هذا يلزمه دعم مالي، وقد قبلت الفكرة التي عرضها المشروع الكندي المصري لأن المانحين من أصل عربي، ومثلما قبلت أن أتحدث إليك (المؤلفة) لأنك من أصل عربي، الأمر الذي يؤدي إلى تجنب الانقسامات ويزيل العقبات بيننا، قبلت التمويل من الجماعة المصرية الكندية، وقد قام مهاجرون مصريون من الحاصلين على الجنسية الكندية بتأسيس الجمعية، ويتمثل عدونا في الحركة الصهيونية في كافة أرجاء العالم وهي حركة تساندها الأموال اليهودية، فلم نرفض نحن العرب المساعدة من العرب في أنحاء العالم؟

وقد كانت تلك هي الإشارة الإيجابية الأولى عن العون المادي ما بين العرب التي صادفتها أثناء إجرائي لبحثي، فعادة ما يرتبط العون المادي العربي بـ"أموال الخليج" التي تمثل للكثيرين شكلاً مفسدًا وغير مرغوب فيه من التأثير الأجنبي، وتثير المملكة العربية السعودية بالذات مشاعر الاستياء لسيطرتها المتزايدة على وسائل الإعلام العربية، وهو ما يُنظر إليه على أنه ترويج للقيم المحافظة وللنظام السعودي، بينما يُنظر إلى الجماعة المصرية الكندية بوصفها جمعية تقدم المساندة والدعم للمصالح المصرية على المستوى الدولي، وتمثل خطوة في الاتجاه لإضعاف اللوبي الصهيوني.

المؤتمرات الدولية: تخطى الحدود القومية أم هيمنة غربية ؟

أصبحت قضايا "العولة"، و"تخطى الحدود القومية"، و"التدويل" فيما يتصل بالحركة النسائية المصرية على الأقل من ناحية التمويل واضحة للعيان أثناء التحضير لمؤتمر القاهرة ومنتدى بكين. غير أن الاتجاه المتزايد لقبول التمويل لحضور المؤتمرات الدولية زاد من مستوى المنافسة داخل الحركة بين قلة من الناشطات، وذلك لشراسة المعركة الدائرة حول تمويل تلك الرحلات، وتشير بعض الناشطات إلى تخصيص منح السفر كدليل على إساءة استخدام التمويل الأجنبي ومستوى الفساد بين المانحين أنفسهم، فالصلات الشخصية من هذا المنظور تعد أكثر أهمية من المؤهلات.

وتبقى أقلية تظل تلتزم بتوجيه أقصى الانتقادات وأكثرها إسرافاً في تصور سوء نية التمويل الأجنبي. أما الشكوك والتحفظات فهي أكثر انتشاراً حتى بين الناشطات اللاتي يرحبن بفكرة المنتديات الدولية. وقد ظهر مفهوم "الموضة" كثيراً فيما يتصل بمنتدى بكين: "وظهرت موضة جديدة، وهي موضة بكين. فالتمويل يتجه لبكين وحدها، ولا شيء يحدث خارج حدود بكين. وقد انطلق اتجاه كمي في البحوث يعتمد فيه الباحثين كلهم على بحوث بعضهم البعض. فلا وجود للبحوث الجادة ولا للتحليلات العميقة. فقد احتل المؤتمران الدوليان المشهد بأكمله فضلاً عن ساحة التمويل".

وهناك ناشطات أخريات يشعرن بقيمة المنظمات الدولية غير أنهن يعبرن عن خيبة أملهن في مفهوم "تخطى الحدود القومية"، وهن يرين أن "البرامج الدولية" تسيطر عليها المصالح الغربية ولا تعكس بالضرورة البرامج الفعلية لنساء العالم الثالث. وتعتقد أمال ت.، وهي طبيبة وناشطة حضرت مؤتمري القاهرة وبكين أن البعد الدولي لهذه المؤتمرات يطفى على اهتمامات النساء المصريات:

أعتقد أن المؤتمرين كانا مؤتمرين دوليين وليسا محليين، ولذلك فقد عكسا مشكلات الدول المشاركة. ويجب أن نقر بأن الدول المختلفة لها ثقافات ومشكلات مختلفة. وقد تحدثنا عن ختان الإناث، على سبيل المثال، غير أن هذه المشكلة محدودة ببلاد معينة ولا وجود لها في الثقافات الأخرى. فإذا ما انتقلنا إلى التنفيذ فإن كل بلد بالطبع ستنظر إلى مشكلاتها الخاصة وستحاول تطبيق التوصيات في سياق محدد. ولذلك فإن النقد

الأساسى الذى أوجهه يتصل بقضايا حساسة لا تمثل مشكلة حقيقية فى مصر، وما يتعين علينا أن نفعله يتمثل فى تمصير التوصيات وتنفيذ ما يتصل منها بمشكلاتنا .

غير أن الكثير من السيدات أكدن أهمية كلا المؤتمرين، وبوجه عام فإن مؤتمر السكان والتنمية بالقاهرة والتحضير الذى سبقه أثبتا أنهما تجربتان إيجابيتان وثريتان فاقتا تجربة بكين، وكما ذكرت من قبل فإن أحد أسباب نجاح مؤتمر السكان والتنمية بالقاهرة يتمثل فى موقعه الذى لم يستدعى قيام منافسة حول منح السفر، ولذلك فقد شارك فيه عدد كبير من المنظمات والناشطات، وترى الكثير من الناشطات أن مؤتمر القاهرة أسهم إلى جانب بث الثقة فى نفوسهن وإثارة قضايا جديدة فى تعارف الجمعيات المحلية بعضها ببعض: "لقد كان لدينا جميعاً تصورات خاطئة عن الجمعيات الأهلية، وقد اتضحت الرؤية قبل المؤتمر وبعده"، وللأسف فإن التجربة الإيجابية الكلية لمؤتمر القاهرة لم تتكرر بنفس المستوى خلال منتدى بكين أو قبله، وقد كانت المنافسة على الحصول على منح للسفر، وغياب التنسيق فى مرحلة التحضير، وموقف الحكومة الغامض تجاه المؤتمر، وسياسات اللجنة الرسمية المنظمة للجمعيات الأهلية التى أثارت جدلاً حول الضم والاستبعاد، كلها عوامل أدت إلى التوتر والصراعات داخل الحركة النسائية.

ومن بين السيدات اللاتى قابلتهن، جاء أقسى نقد لمنتدى بكين من ليلى أ. مؤسسة جمعية "معاً" النسائية الماركسية:

كان منتدى بكين حلقة فى سلسلة من المؤتمرات استهدفت إعادة هيكلة البرنامج العالمى وفقاً لحاجات البنك الدولى. وكان الأمر كله يدور حول هذه الحاجات ولم يكن له صلة على الإطلاق بما تريده النساء بالفعل، فلم نذهب إلى بكين ونمنحهم الشكل الديموقراطى؟ فهم لا يمثلون برامجنا. أما إذا ذهبنا بوصفنا جماعة معارضة فلا بد من أن نشكل جانباً من حركة قوية، وطالما أن هذه الحركة لا وجود لها، فالأجدر أن نكثف الجهود لإيجادها على أرض الوطن. لقد ذهب من ذهب إلى بكين للتعرف الاجتماعى، واستمر العرض.

وقد أصبح من الواضح لليلى أ. أن البنك الدولى يمثل ذروة الرأسمالية والاستغلال الرأسمالى. وهى ترى أن المنتدى الدولى للمرأة ببكين لم يكن سوى مظهر آخر من مظاهر الإمبريالية والأسلوب الذى تغرى به الناس ليقعوا فى شرك شباكها.

فباسم حقوق المرأة والديموقراطية، تعرضت النساء من شتى أرجاء العالم بالتماشي مع "البرنامج الحقيقي" لتوسع الرأسمالية الغربية بدلاً من تحدى هذا البرنامج. وفي تحليلها ترى ليلي أ. أنه لا يوجد فارق ما بين البرامج الحكومية وغير الحكومية للمشاركين، كما أنها لا تنسب فعلاً للناشطات من مختلف أرجاء العالم فهي تصفهن بأنهن ضحايا سلبيات لمؤامرة البنك الدولي. وهي لا تقر بحقيقة أن العديد من الجلسات، على سبيل المثال، ناقشت بالفعل سياسات التعديل الهيكلي وانتقدتها في أماكن مختلفة من العالم الثالث. غير أن ليلي أ. تؤكد أن اعتراضاتها القوية في مواجهة المؤتمرات الدولية مثل مؤتمر بكين لا ترتبط بمفهوم الفساد الغربي والقيم الأجنبية. وهي تعتبر نفسها ذات اهتمامات دولية: "الإمبريالية ليست مرادفاً للغرب بل تعنى علاقات اقتصادية محددة". وتعارض ليلي أ. التي تعلن أنها ملتزمة بالفكر الماركسي "الصدام بين الحضارات"، وتؤمن بالكفاح الطبقي على المستوى الدولي.

وحتى الناشطات اللائي استفدن من تجربة بكين، ووجدنهن مثرية لشخصياتهن ونشاطهن، كشفن عن عدم ارتياحهن لبعض جوانب المؤتمر. وقد تمثل موضع التقدير عامة في أن مؤتمر بكين أوضح أن "الغرب ليس كلاً واحداً كما يجادل بعض الناس الذين لا تقع قضايا المرأة ضمن اهتماماتهم الأساسية". ولم يقتصر الأمر على ظهور تنوعات في مواقف الناشطات من مختلف البلاد الغربية وسياساتهن وأنماط الأنشطة التي يقمن بها، بل أن الأمر امتد لظهور تلك التنوعات داخل البلد نفسه. وقد ظهرت الخلافات ما بين برامج الحكومات وبرامج الناشطات اللائي ينتمين إلى الحركات غير الحكومية. وهذا بالطبع أمر ليس فريداً في البلاد الغربية، وقد انتقدت الكثير من الناشطات المصريات الوفد المصري الرسمي لافتقاده للمشاركة الفعلية في قضايا المرأة في مصر.

وقد تمثلت أحد أكثر الجوانب تمكيناً للمرأة في بكين، من وجهة نظر الناشطات المصريات، في إدراك أن "المنظمات النسائية من جنوب آسيا وأفريقيا التي تعمل مع نساء الريف تواجه مشكلات تماثل التي نواجهها. فهن قد أدرجن أيضاً قضايا مثل العنف والحقوق الإنجابية على برامجهن، وهي القضايا التي تصنف كذباً بأنها "غربية" بين الكثير من المصريات". وفي سياق دول العالم الثالث، فإن مفهوم تخطى الحدود القومية أصبح له دلالة أقوى، وقد أعطى الفرصة لبعض الناشطات المصريات لمواجهة الاتهامات بتقليد الغرب من خلال استعراضهن للنشاط النسائي عبر العالم.

غير أن الوثيقة النهائية الفعلية التي صدرت على أساس وقائع المؤتمر تتعرض في كثير من الأحيان لمن يتناولها بالشك. وتشكك الكثير من الناشطات في صلتها بقضايا المرأة، ويصفنها من منطلق النقد بأنها "لا تمثل واقعهن". وفي كثير من الأحيان لا ترتبط التحفظات على الإعلانات الدولية ارتباطاً مباشراً ب"الحقائق المادية على أرض الواقع"، وإنما تنشأ من الشكوك حول القيم والمبادئ ومغزاها العالمى. وتمثل مسألة الصلاحية العالمية للإعلانات الدولية وما تقوم عليه من مبادئ قضية أخرى بين الناشطات تثير الخلاف والمشاعر. فمثلها مثل الجدل حول التمويل الأجنبي لا يتوافر إجماع بين الجمعيات المختلفة والنشاطات حولها. وفي ما يلي سأحاول أن أرسم صورة عامة لبعض الحجج الأساسية ونقاط الخلاف فى هذه القضية.

عالمية حقوق المرأة وخصوصية الثقافة: انفصال زائف ؟

ولا تقتصر إثارة قضية الخصوصية الثقافية فيما يتصل بحقوق الإنسان عامة أو حقوق المرأة خاصة على بعض الإسلاميين^(٩) (وعلى الحكومة فى بعض الأحيان)^(١٠). الذين يرون فى بعض بنود الإعلان العالمى لحقوق الإنسان ما يتعارض والقيم الإسلامية، بل أن الكثير من المثقفين والناشطين من أجيال وانتماءات سياسية مختلفة يثيرون القضية نفسها. وقد شكلت قضية العالمية فى مقابل الخصوصية واحدة من مواطن الجدل الأساسية بين الناشطات المصريات على مدى السنوات الأخيرة. وقد بدأ الجدل مثل ما بدأ حول التمويل الأجنبي لعدة أسباب منها تزايد وجود المنظمات الدولية فى مصر ومشاركتها المتصاعدة للمنظمات المصرية فى المنتديات الدولية. كما أن المناقشات حول عالمية حقوق المرأة أو خصوصيتها تعد سمة من سمات عملية إزالة آثار الاستعمار التى يحاول السياسيون المصريون تعريف برامجهم وأهدافهم من خلالها.

ويعد الاتجاه الحديث نسبياً للحكومات الغربية وخاصة حكومة الولايات المتحدة باحتكار خطاب حقوق الإنسان لنفسها، وإعلان تنصيب نفسها فى موقع المدافع الشرعى والوحيد لهذه الحقوق هو أحد العوامل الهامة التى أدت إلى تزايد الإعراض عن دعاوى العالمية. وقد أوجدت هذه الظاهرة خلطاً بين مفهومي تدويل حقوق الإنسان

من ناحية، والتي يُفهم منها فرض الولايات المتحدة لمطلقاتها الأخلاقية، ومدى
الصلاحية العالمية لحقوق الإنسان. ووجه التناقض هنا يكمن في أن الحكومات التي
ظهرت بمظهر المدافع عن حقوق المرأة، مثل حكومات تاتشر وريجان وكول، هـ
الحكومات التي قاومت في كثير من الأحيان كفاح المرأة للحصول على المساواة داخل
بلدها،^(١١) ومع ذلك فإن حقوق المرأة والإنسان تتصدر برامج الدول الغربية، ويجرى
تقديمها بأسلوب متعال ينفر الكثير من سياسيين البلاد ذات الماضي الاستعماري،
أضف إلى ذلك ما يشير إليه سامي زبيدة،

تُقدم الحجج القائلة بأن "تفرد الغرب" تفرد تعلوه أكاليل الغار في مجالات حقوق
الإنسان والحقوق الدستورية والديمقراطية كما لو كانت تلك مسائل جوهرية ضاربة
بجذورها في التاريخ والثقافة الغربيتين، وكما لو كان استقرار هذه القيم مجرد
استمرار لهذا التاريخ. وتمضى الحجج لتشير إلى أن هذه القيم إضافات غريبة في
تاريخ الدول غير الغربية وثقافتها تُلغى بعد حين. وتتسق حجج السياسات الإسلامية
الحديثة مع تلك الرؤية التي تقدم اختلافاً ثقافياً أساسياً بينها وبين "الغرب"، وترفض
قبول تلك المفاهيم الغربية المسيحية بوصفها جانباً من البضاعة الثقافية الصليبية
للإمبريالية. (7 : 1994) .

وفي مصر عبرت بعض الناشطات عن غضبهن من الأسلوب الذي يستخدم به
مفهوم العالمية لتحقيق أهداف سياسية من قبل الدوائر الغربية: "لقد تمكن الغرب بالفعل
من نشر ثقافته في كل مكان، والآن يحاول الغرب عوالة قيمه. ولسنا في حاجة للارتباط
بمبادئ لم نشارك في وضعها بأنفسنا. بل ينبغي علينا أن نحاول أن نقدم بدائل ونصل
إلى مستوى التطور الذي وصل إليه الغرب". وقد يرتبط التمييز المثير للدهشة ما بين
الثقافة والقيم لصياغة فكرية تربط الثقافة بـ"أمور استهلاكية" بينما يُنظر إلى القيم
على أنها تدل على القواعد الأخلاقية للسلوك. غير أن معظم السيدات اللاتي قابلتهن
يساوين ما بين الثقافة والقيم، وتعبّر كثيرات منهن عن قلقهن تجاه "التوسع الثقافي
للغرب". ويتردد هذا التصور كثيراً في مصر المعاصرة، ويشكل نقداً واسعاً ضد حركة
حقوق الإنسان الدولية باعتبار "أن قضايا حقوق الإنسان كما يجري تقديمها في
المعاهدات الدولية هي نتاج مباشر لحضارة واحدة، هي الحضارة الغربية النابعة من
التنوير، ولذلك فإنه لا يستجيب لاهتمامات ومشكلات الحضارات الأخرى" (Dwyer, 206 : 1991).

وبينما تشعر معظم السيدات بنفور مما يتصورنه احتكار متعالٍ للسمو الأخلاقي من جانب الغرب، فإنَّ الناشطات يختلفن كثيراً في آرائهن حول التعريف العالمي لحقوق المرأة، وقضية الخصوصية الثقافية. وتتكرر نقاط النقد للتعريف العالمي بالإشارة إلى "ثقافتنا"، ومن هنا يتم تبني الأسلوب الخطابى للقوى الإسلامية والمحافظة إلى حد ما. فهذه القوى تستخدم حجة "الثقافة الأصلية" استخداماً مستمراً وناجحاً في مواجهة "الثقافة الغربية" كلما نوقشت العلاقات ما بين الجنسين وحقوق المرأة. غير أن ما يثير العجب أنه لا يبدو أن هناك ما يعرض "ثقافتنا" للخطر عندما يتصل الأمر بالعلاقات الاقتصادية، والتعليم، وأنماط العمل، بل وحتى نماذج الزواج (Abu-Lughod, 1998 b; Narayan, 1997). وقد أصبح إقحام البعد الثقافى فى القضايا السياسية أمراً طبيعياً فى مصر المعاصرة إلى حد أنه أصبح الشك فى شرعية هذه الممارسة وأسسها أمراً شديداً الصعوبة.

غير أن عملية وضع المسائل السياسية فى أطر ثقافية ليست حكراً على الإسلاميين والقوى المحافظة فى مصر. ففى بعض الأحيان تثير دعاوى الناشطات الغربيات للعالمية المخاوف، وتؤدى إلى اشتعال الحجج الثقافية فى أحيان كثيرة. وتقدم العديد من الناشطات المصريات أمثلة عن لقاءات مع ناشطات غربيات وجهنَّ لهنَّ فيها اتهامات بانتهاكهنَّ مبادئ حقوق الإنسان لأنهنَّ لا يعترفنَّ بالحاجة للكفاح من أجل حقوق السحاقيات. "فلا ينبغى استغلال العالمية لتفرض علينا ما لا ينطبق على ثقافتنا ولا يشكل جانباً من أولوياتنا". ومرة أخرى فإنَّ ما يمكن وضعه كخيار سياسى تم تقديمه على أساس ثقافى؛ وهى حجة تبدو قوية بصفة خاصة عندما يتقدم بها "من يقع خارج حدود ثقافتنا".

وقد واجهت الناشطات المصريات مواقف محرجة مراراً فى لقاءاتهنَّ بالناشطات الغربيات. فبينما تعترض الناشطات المصريات على شكل من أشكال التفرقة على أرض الوطن، مثل ختان الإناث، فإنَّهنَّ، عندما يواجهنَّ فى لمنتديات الدولية بالخارج بالنقد العنيف والغاضب من قبل الناشطات الغربيات حول "البريرية" التى ترتكب فى مصر، يشعرنَّ فى الكثير من الأحيان بالغضب للأسلوب الذى طرحت به القضية وما تتضمنه من نزعة عرقية متعالية. ولذلك قد يحدث أن تجد إحدى الناشطات المعارضات لختان

الإناث داخل مصر نفسها تدافع عن تلك العادة خلال مواجهة الناشطات الغربيات، وعادة ما تثير هذه التجربة الشعور بالقلق والاضطراب، وترى راندا س. أنه موقف خاسر في كافة الأحوال تتميز فيه الناشطات ما بين الدفاع عن قضية تخالف ما اقتنعن به وتقديم الحجج التي تؤكد الأنماط السلبية:

عندما تصدر عن ناشطة غربية إشارة سلبية عن ثقافتى أشعر بالحاجة لمواجهتها بإشارة إيجابية، وهناك صعوبة شديدة فى الحياة عبر الثقافات. إذ تمثل خطورة إرضاء التوقعات الغربية. غير أن هذا هو ما يبدو فى بعض الأحيان لأننا نقول ما نشعر به ونؤمن به. وهى أزمة محيرة تذكرنى بفكرة إدوارد سعيد عن غياب العالمين فى كتابه "الثقافة والإمبريالية". وتنشأ ضرورة اكتساب لسانين بالنسبة لـ "مثقفى الخط الفاصل"، ودور الوسيط لا يجلب الراحة أبداً. إذ يُنظر إليه على الدوام بوصفه الناقل والخائن والعميل المزدوج المحتمل.

ويحذر إدوارد سعيد من تفسير الثقافات "فى محاولتها للتحرر من الإمبريالية" على نحو يتسم بالجمود والشوفينية وكراهية الأجانب (258 : 1993). غير أن موقف إدوارد سعيد كباحث ذكر من أصل فلسطينى يعمل فى الولايات المتحدة، بما يكتنف هذا الموقف من صعوبات أكيدة، يسمح بأفق لخطاب أشمل، وانتقال أسهل من التصورات الجوهرية للثقافات بالمقارنة بالناشطات العلمانيات المصريات فى أيامنا هذه. إذ ترزح النساء، اللاتى يحملن على أكتافهن الإرث الاستعماري ويواصلن كفاحهن ضد الأشكال المعاصرة للاضطهاد الأبوي، تحت وطأة الشعور بالخوف من "الخيانة" (Ah-med, 1982 : 122)

وقد أكدت معظم السيدات اللاتى قابلتهن على خصوصية الثقافة ووضعها النسبى. غير أنهن لم ينجحن فى كثير من الأحيان فى تجسيد ما يقصدونه بخصوصية الثقافة المصرية فيما يتصل بقضايا المرأة، عدا قولهن أن السحاق قضية غير واردة بتلك الثقافة. غير أن سلوى ف. أوضحت تفسيرها عن الخصوصية الثقافية لمصر كما يلى:

إن قضية ختان الإناث تعد إحدى الخصوصيات الثقافية فى مصر. وترى معظم الناشطات أنها تقليد سيئ وبعضهن يرى وضع حد لها على الفور. وأنا أعتقد أنه حتى

فى حالة وقف ختان الإناث فإن ذلك لن يؤدى إلى أى تحسن فى وضع المرأة. فلن يكون هناك تغيير أساسى. ويجب معالجة القضية فى سياق أشمل. فعندما أتحدث عن الختان مع امرأة فى أسبوط فإنها قد لا تذكر أنها مرت بتلك التجربة، أو تذكر أنها تأملت أكثر عند إزالتها للزائدة الدودية. وهناك عائلات توقفت عن ممارسة هذا التقليد. ولا نعرف السبب فهذه العائلات لم تتعرض لأية حملات. ونحن لا نتمهل لنعطى أنفسنا الفرصة لدراسة الأسباب، ولا نؤمن بأن النساء يتغيرن على أسس منطقية. وهناك الكثير من العوامل المتضمنة فى موقف النساء. ويعد الوضع الاقتصادى أكثر أهمية من الثقافة والتقاليد. والأمر يحتاج إلى سنوات وقدر كبير من التعليم لتغيير الوعى العام بوضع النساء. وهناك أسباب منطقية لكل ما يحدث حتى بالنسبة للفقراء وغير المتعلمين، غير أننا لا نعطى لأنفسنا الوقت الكافى لفهم هذه الأسباب.

وفى بعض الأحيان تأخذ نسبة الثقافة شكل تشجيع القيم التقليدية أو الثوابت الدينية. غير أنه بالنسبة للناشطات ذوات الاتجاه العلمانى يبدو أنها أكثر اتصالاً برفض التدخل الأجنبى لفرض أمور ما علينا، وبإدراك أن الواقع اليومى يفرض أولويات مختلفة. وتشرح هدى و. الأمر كما يلى:

" المنظمات الدولية غير مستعدة للاستماع لنا أو لأى صوت له خصوصية ثقافية. وهذا الموقف متضمن فى خطاب الوثائق الدولية". كما يبدو أن عنصراً آخر يتمثل فى الاحترام والفخر بـ"الثقافة"، ف يتم قبول الخصوصية الثقافية كمفهوم "إذا عرفت أنها تضيف إلى المزيد من الحقوق والحماية. فما أرفضه من ثقافتى هو التفرقة التى تتضمنها وتوجه ضدى. وأنا أود أن استخرج الأفضل من إرثى الثقافى أو ما تختص ثقافتى به". وفى هذه الحالة فإن الخصوصية الثقافية كما تعبر عنها الكثيرات وليس هدى و. وحدها تصبح أكثر من مجرد أداة تفصل الذات عن "الغرب". فالثقافة تُوظف إيجابياً لتأكيد خصوصيتها، ويُخلع عليها تعميمات توحيدها فى كل منسجم، ويُسقط بالتالى الاختلافات الثقافية داخل مصر بين الطبقات الاجتماعية، والأجيال، والريف والحضر، إلخ.

وعلى الرغم من تأكيد أهمية "ثقافتنا" فى الخطاب السياسى المصرى الذى يعمل على ترسيخها وتطبيعها، فربما قد حان الوقت لطرح الأسئلة عن مدى صلاحيتها وفائدتها. وتقدم ناشطات كثيرات ينتمين إلى دول كانت مستعمرة فى الماضى وإلى

أقليات، ويثقل كاهلهم أيضاً تجربة الاستعمار والصراعات المستمرة مع الإمبريالية، يقدمن أدوات تحليلية تفيد في إجراء دراسة نقدية عن مفهوم الثقافة في استخدامه في الجدل حول حقوق المرأة- Sa (Abu-Lughod, a; Afkhami (ed.), 1995; Narayan, 1997; Spivak, 1987) وعلى سبيل المثال، ترى كانديوتي Kandiyoti أن "المواقع المتميزة لخصوصية الثقافة والهوية ترتبط دائماً بالأسرة، والعلاقات بين الجنسين، وقضايا المرأة" (20 : 1995) .

وقد قامت ليلي أبو لغد (Abu-Lughod 1991, 1998b) بدور رائد في خلخلة مفهوم الثقافة في السياق المصري. وفي عمل سابق لها (١٩٩١) تحمل ليلي أبو لغد مفهوم الثقافة مسئولية مهمة الأنثروبولوجيا البارزة في "تحويل الغير إلى آخر". فلا يقتصر دور التصورات الجوهرية للثقافة على تقديم تعميم موحد وتبسيط مخل للواقع المتشابك بل يمتد لتكون جانباً من عملية الترميم المسئولة عن العنصرية، والتحيز الجنسي، وأشكال التفرقة الأخرى. وتعكس كتابات ليلي أبو لغد اهتمامها بـ"الخاص" الذي تنجح دائماً في ربطه بالعمليات القومية والعالمية الأشمل. ويتضمن نقدها الشامل للحدثة محاولة خلخلة الثنائيات السائدة مثل التقليدي في مواجهة الحديث، أو المحلي في مواجهة الغربي. وفي أحدث أعمالها (1998b) تجد ليلي أبو لغد الإلهام في كتابات بابا Bhaba (١٩٩٤)، وتشاترجي Chatterjee (١٩٩٣)، وسعيد (١٩٩٣)، وغيرهم من كتاب موجة ما بعد الاستعمار. وهي تطور مدخلاً مبتكراً يسمح لها بإعادة تقييم التجربة المصرية تحت الاستعمار في مصر بالنظر إلى "عمليات اقتراض، ونقل، وتكوين معقدة لتركيبات مختلطة جديدة" (Abu-Lughod, 1998 : 412) . وما يثير الاهتمام ويتعارض مع التحليلات التقليدية يبدو في كشف ليلي أبو لغد للتشابهات ما بين الناشطات العلمانيات والإسلاميات فيما يتعلق بالمفاهيم المرتبطة بالزواج والأسرة. كما يسمح لنا منهجها بإعادة دراسة تاريخ الحركة النسائية المصرية دون الالتزام بثنائية الفصل بين الاتجاه إلى الغرب أو التمسك بالأصالة.

وعلى الرغم من أن العودة إلى الثقافة لم تتعرض لها الناشطات في مصر بالنقد إلى حد بعيد، فهناك قلة من الناشطات يقدمن صورة حادة الملامح في انقسامها حول الموضوع، ويؤكدن على تعدد أوجه الخصوصية الثقافية وجوانبها المتعددة. فإذا ما

استغلت النظم السياسية مفاهيم العالمية لتأكيد سيطرتها وتوسيع مداها، فإن مفاهيم الخصوصية الثقافية يمكن إساءة استخدامها لاعتراض طريق النساء في مطالبتهن بحقوقهن. ويسير هذا الاتجاه القمعي للخصوصية الثقافية في خط مواز مع الجدل حول تعدد الثقافات في الغرب، حيث لا يعنى الاعتراف بالتنوع الثقافى الاقتصار على احتواء الاختلافات بل أنه يؤدي إلى ظهور اتجاهات لفرض التعميمات والاستبعاد الأخر (Kandiyoti 1995; Saghal & Yuval-Davis, 1992) وترى ساجال ويوفال-دافيس "أن تعريف الأقليات في الخطاب متعدد الثقافات يتم من خلال ترميز "ثقافتها"، وهي عملية تسقط على نحو متزايد في أمور تتصل بالهوية الدينية" (15 : 1992). وتقع النساء غالباً في بؤرة الاستبعاد الثقافى الذى يبرره التعدد الثقافى. فقد حققت العديد من الحركات الأصولية فى إنجلترا على سبيل المثال نجاحاً فى إضفاء المشروعية على سلسلة من أشكال الاضطهاد والإساءات الموجهة ضد المرأة وذلك تحت دعاوى الاختلاف الثقافى، وهى إجراءات تلقى المساندة فى كثير من الأحيان من قبل سياسات الحكومة ذات الصلة بتعدد الثقافات.

وتصرح بعض الناشطات المصريات بأن الرجال يستخدمون مفهوم الخصوصية الثقافية لتعزيز سيطرتهم على المرأة، ويتشكك فى المفهوم نفسه. وهن يتشككن أيضاً فى التقييم النقدي للتقاليد، وتقول راندا ك. "تشجع تقاليدنا الرجال على السيطرة على النساء. ويجب أن تستقر فى أذهاننا فكرة المساواة، وعدم التفرقة بين الجنسين، بينما نقوم بمراجعة إرثنا الثقافى ونعيد تعريفه". وتتشكك ليلى أ. على سبيل المثال فى وجود تعريف محدد للمساواة، وتقول : "إنى متأكدة من أن هناك فى تراثنا ما يقف فى وجه حقوق النساء، ويجب أن نواجه ذلك. فختان الإناث مسألة تتعلق بالتقاليد وليس الدين. وهناك من يحاول أن يقدم تبريراً دينياً لهذا التقليد. ويتضح من تاريخ الظاهرة أن المقصود بها الحفاظ على عذرية المرأة وهو اتجاه يقوم على النظرة الدونية للمرأة"، ويكشف رأيها عن تمييز قل أن نصادفه بين التأثير المتزايد للمنظمات والمنتديات الأجنبية، وهو ما ترفضه بشدة (كما اتضح من رفضها القاطع تلقى تمويل أجنياً) ومفهوم القيم والحقوق المقبولة عالمياً. وتقدم الكثيرات من زميلاتنا اللائى يتفقن معها فى وجهة النظر السياسية اليسارية منهجاً يتجه إلى انتقائية أكبر للتمييز بين ما هو عالمى وما ليس بعالمى، وهو اتجاه تقابله رجا ن. بالاحتقار، فتقول:

إنني مندهشة لأن الصيحات تتعالى حول النظريات الغربية في قضايا النساء، غير أن النظريات الغربية قد جرى تبنيها مثل الماركسية، والنظريات الخاصة بالنظم السياسية. ومشكلتنا في العالم العربي تكمن في الانتقاء، فنحن نستمد بعض العناصر التي لا تتعارض مع ثقافتنا من النظريات الغربية، غير أننا نهمل عناصر أخرى تتعارض مع معتقداتنا وقيمنا التقليدية، وهي عناصر تشكل مصالح سياسية واقتصادية بالطبع. ولكننا نصرخ خوفاً على "قيمنا" عندما تتصادم مع مواقع القوة والسيطرة، ولكننا نتبناها على الرغم من أصولها الغربية عندما نجد أنها ذات فائدة للجماعة نفسها.

وتقدم رجا. ن. في نقدها المتحمس الدليل على حقيقة أن التقاليد تُستدعى على نحو سياسي انتقائي. فالتقاليد لا تمثل في هذه الحالة استمرارية من الماضي بل أن الدوائر السياسية تنشط لتقدمها وإعادة تفسيرها. فيجري استعارة الفكر الغربي عندما يتناسب ذلك مع المصلحة، وتدور معركة شرسة ضده إذا ما كانت حقوق النساء محل مناقشة. وهذه هي الحجة نفسها التي قدمتها ليلي أبو لغد (Abu-Lughod 1998b) عندما كشفت عن قيام الإسلاميين بتطويع انتقائي ورفض استنكاري للقيم الغربية، على الرغم من إدانتهم لأفكار الاتجاه النسائي (وبالتالي وصفهم لها بالفساد) فقد أقبلوا على اقتباس القيم الغربية الحديثة. وقد استراح الإسلاميون لـ "تناسي" أن مثل الصحبة في العلاقة الزوجية، والأسرة النواة، وتعليم المرأة وعملها مما يشكل جانباً من شروطهم الإسلامية لا تمثل أية قيمة تقليدية. (ibid.: 411-12).

وتشير رجا. ن. إلى اعتقاد آخر يتصل بأن الصدام المفترض بين بعض القيم والحقوق، وخاصة تلك الحقوق المرتبطة بالمرأة، يدل على مشكلات صراع القوى وأزماته في مصر، وليس الصراع ما بين مصر و"الغرب". وترتبط بعض الناشطات هذا الصدام بين المبادئ العالمية والتراث الحضاري بالأزمة العامة للأنظمة السياسية العربية التي لا تقوم على العلاقات الديمقراطية، والتعامل مع شعوبها كمواطنين لهم حقوق إنسانية وسياسية. وهناك أخريات يؤكدن أن الخصوصية الثقافية أمر يكتسب شرعيته بصفة دائمة من الشريعة الإسلامية، ولا يمكن التخلي عنها بسهولة حتى وإن تعارضت مع القيم والحقوق المقبولة عالمياً. وتشير هؤلاء الناشطات إلى إسهامات "كافة الثقافات

والأديان فى تشكيل الوضع الإنسانى والدفاع عنه"، ويجذب الانتباه إلى حقيقة أن "الغرب لم يبدأ إلا مؤخراً الاهتمام بحقوق الإنسان". ويرى سامى زبيدة أيضاً أن إقرار حقوق الإنسان فى الغرب لا يحمل أية خصوصية ثقافية، وقد أقرت هذه الحقوق بعد سلسلة من الحروب الدينية والاضطهادات. فحقوق الإنسان هى الرد العملى للمعاناة التى استمرت بين الشعوب المختلفة وهى وسيلة لتحقيق الاستقرار والسلام الاجتماعى. (7 : 1994) ويمكن أن نضيف فى هذا المقام أن الصراع ضد الاستعمار والإمبريالية هو صراع من أجل "الحقوق" نفسها، ويمكن أن ننظر إليه من سياق أشمل لحقوق الإنسان.

وتقدم بعض السيدات، مثل سمىة د.، رأياً مؤداه أن الاتهام بالإسراف فى الاتجاه نحو "الغرب" لا تستخدمه إلا النخبة بينما لا تستخدمه الطبقات الأفقر فى المجتمع: "لا أعتقد أننا غريبات عن الشعب، وحتى أثناء إجرائنا لبحوثنا عن النساء والعنف لتقديمها فى منتدى بكين، لم نقدم تحليلاً وإنما سجلنا ما قالته النساء أنفسهن". أضف إلى ذلك أن سمىة د. حدثتني قائلة: "إذا ما دخلنا فى حوار مع الناشطات الغربيات خارج مصر، نجد أنهن يتصورن أننا محافظات. ولا يقتصر الاضطهاد على الغرب وحده، فهو يمتد فى العالم أجمع. وقد أعيدت صياغة وثائق حقوق الإنسان بفضل كفاح الشعوب فى أنحاء العالم".

وتفند رجا، ن. الرأى القائل بأن قيمتى المساواة والعدالة فرضهما الغرب على المصريين وذلك بتقديم وصف لتكوين القيم فى نفسها،

يتكون نظام القيم فى نفسى من مجموعة من المصادر. فهو ليس نظاماً أحادياً. ولا أنكر أن تربيتى الدينية مسئولة عن جانب من قيمى. وقد نبعت أخلاقياتى من عقيدة فطرية تؤمن بالمساواة بين البشر، وقد وجهتني هذه العقيدة للمذهب الاشتراكى. فبدون المساواة والعدالة لا يمكننا إقامة مجتمع عادل، وكان والدى من أشد المؤمنين بالمساواة والعدالة. وقد عززت قراءتى وخاصة لكارل ماركس هذه العقيدة فى نفسى. ولم أفهم فى يوم من الأيام عقلية المستأسد، وأنا لا أكره المستأسدين بل أشفق عليهم. وهناك قيم فطرية لولا وجودها لهلكت البشرية منذ أمد بعيد. وقد ولدت وبين جوانحى هذه القيم. وهى تتصل بإحساسى بالكرامة وهو الإحساس الذى زرعه أبى فى نفسى.

وحتى إذا لم يوضح وصف رجا، ن. ما إذا كانت ترى قيمها جانباً فطرياً في شخصيتها أم ناتجاً عن تعليمها، فإنها توضح لنا أن القيم تزدهر في سياقات مختلفة ولا يمكن الاقتصار على تصنيفها إلى "غربي" في مواجهة "مصري". وليست رجا، ن. وحدها في رفض الدعوى بأن الغرب فرض على المصريين المساواة والعدالة. فهناك العديد من الباحثين المسلمين فضلاً عن بعض الإسلاميين الذين تحمسوا لإقامة الدليل على أن الإسلام يتفق ومفاهيم حقوق الإنسان، والمساواة، والعدالة. ويصبح من الصعب إذن مع تشابك الجدل، وتعدد مواقف الدوائر المختلفة، أن نضع خطوطاً فاصلة بين مؤيدي العالمية ومؤيدي الخصوصية.

وتجد الناشطات أنفسهن في ورطة أخرى: فالقوى المحافظة في مصر تتهمهن بتبني البرامج الغربية في الوقت الذي تحاول فيه المنظمات والحكومات الغربية لمد سلطتها المطلقة على قضايا المرأة وحقوق الإنسان. وانطلاقاً من موقفهن الحرج هذا تعبر ناشطات كثيرات عن غضبهن تجاه ذلك التصور الذي يحرمن من الفاعلية والخيال الإبداعي. وتشعر الناشطات أنه فيما يتصل بالنشاط في مجالى النساء وحقوق الإنسان، فإن وكالات التنمية والمؤسسات النسوية الغربية، والحكومات الغربية، والمؤسسات الأكاديمية الغربية أيضاً، تشارك في حرمان النساء المصريات من القدرة على تشكيل نظم القيم والأفكار السياسية الخاصة بهن. وتواجه الناشطات أزمة مماثلة في مواجهة قضية العلمانية التي ناقشتها في الفصل الرابع. غير أنه لا شك أن النساء المصريات يشتبكن في صراع نشط حول المعانى، والقوى، والتغيرات سواء فيما يتصل بتفسيرات العلمانية أم بقضايا النساء.

هوامش

(١) تناقش هبة الخولى (1998) Heba El-Kholy الفجوة ما بين اهتمامات النساء المصريات الفقيرات ومشكلاتهن، وممارستهن من ناحية، والناشطات المصريات من ناحية أخرى، انظر تحديداً "مفاوضات الزواج وصفقاته" (الفصل السادس).

(٢) فى البداية لم تُبدِ الناشطات المصريات اهتماماً كبيراً بمؤتمر القاهرة للسكان والتنمية، وخلال الجلسة التحضيرية الأولى كان الوفد المصرى يتكون من ممثلى الحكومة وحدهم، بينما مثل الجمعيات الأهلية مسئول رسمى من وزارة الشؤون الاجتماعية، وبعد هذا اللقاء طالب المجتمع الدولى مصر بإشراك الجمعيات الأهلية مباشرة الأمر الذى أدى إلى الترشيح الرسمى لخمسة مندوبين عن الجمعيات الأهلية، وكانت عزة حسين أحد هؤلاء المندوبين، وهى ناشطة فى المجال النسائى وترأس الاتحاد المصرى لتنظيم الأسرة، وفى انتهى الأمر بتوليها رئاسة منتدى الجمعيات الأهلية المصرية فقبلت كافة المنظمات بوصفها جمعيات أهلية حتى إذا كان تسجيلها قد تم على أساس أنها شركات غير ربحية أو شركات مدنية ولم يجرِ تسجيلها كمنظمات تطوعية خاصة أو جمعيات أهلية لدى وزارة الشؤون الاجتماعية (Seif El-Dawla & Ibrahim, 1995 : 115)

(٤) اتفاقية الأمم المتحدة لإلغاء كافة أشكال التفرقة ضد المرأة صدرت عام ١٩٨١ بتفويض من الأمم المتحدة، وقد صدقت مصر على الاتفاقية مع العديد من التحفظات مثلها فى ذلك مثل الكثير من البلدان الإسلامية، انظر (1995) Mayer لتحليل مفصّل.

(٥) تم تسجيل الجمعية باسم مركز دراسات المرأة الجديدة فى بداية عام ١٩٩١، ولا تزال الجمعية تشير إلى نفسها باسم "المرأة الجديدة".

(٦) ما أن تنتهى إحدى الجمعيات من بحثها خلال التحضير للمؤتمر حتى يدعو المنسق لعملة بحوث النوع لقعد اجتماعات فى مجالات مختلفة (النقاط المحورية). وتقوم الجمعية التى أجرت البحث فى موضوع بعينه بتقديمه ومناقشة نتائجه، وهى مرحلة تؤدى فى كثير من الأحيان إلى إدخال التعديلات عليه. وفى هذه اللقاءات، التقت ناشطات قاهريات بزميلات لهن من أنحاء مصر، وقد أثمرت اللقاءات والمناقشات مع القاعدة العريضة من الريف والمدن الصغيرة نتائج تفوق فى قيمتها المناقشات المعتادة بين الناشطات والباحثات فى القاهرة.

(٧) قررت اللجنة الوطنية المصرية للجمعيات الأهلية العمل لتنفيذ برنامج عمل مؤتمر القاهرة للتحضير لمؤتمر بكين، وقد تشكلت لجنة فرعية عن المساواة بين الجنسين لضمان أن مشروعات بكين تتوجه توجهاً عملياً

(7 : 1995, NCPD) . وقد انتقدت عدة ناشطات عملية اتخاذ القرار المتصلة بالتحضير لبكين لأنهن رأين أنها أقل ديموقراطية من عملية التحضير لمؤتمر القاهرة.

(8) تقع الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية USAID على الجانب المتطرف للمنظمات "الشريرة". وقد حسنت مؤسسة فورد من سمعتها في السنوات الأخيرة وتقدمت إلى منتصف المقياس جنباً إلى جنب مع المنظمات التابعة للأمم المتحدة مثل اليونيسيف. وتقوم GTZ الألمانية بعمل طيب يدفع بها إلى جانب "الخير" من المقياس، بينما تحتل وكالات التمويل النرويجية، والهولندية، والدانمركية الموقع الأفضل على المقياس.

(9) يوضح كفين دواير (Kevin Dwyer 1991) وسامى زبيدة (Sami Zubaida 1994) أنه لا يوجد موقف إسلامي واضح من الجدل حول حقوق الإنسان.

(10) تفحص إليزابيث ماير بعض التحفظات التي تثيرها الحكومة المصرية فيما يتصل بالـ CE-DAW في إطار عام من النفاق الذي يمارسه السياسيون الذكور الذين يؤكدون على مبدأ المساواة بين الجنسين بينما يقاومون وضعه موضع التنفيذ بل ويعارضونه علناً. (Mayer, 1995 : 104-32) .

(11) يكشف تحليل ر.و. كوتل عن دور الدولة فيما يتصل بالإصلاحات النسائية والسياسات الجنسية الطبيعية الرجعية والمحافظة للدول الغربية في الكثير من الأحيان.

الخاتمة: الوقوف بين المتغيرات

تمثل أحد الأهداف الرئيسية لتسايطى الضوء على الجماعات ذات الاتجاه العلمانى فى كتابى هذا فى تحقيق التوازن مع الاهتمام المتزايد بالدوائر الإسلامية الذى شاع فى الكثير من الكتابات التى صدرت مؤخراً عن الشرق الأوسط ، فقد قصدتُ إلى تقديم صورة أكثر اكتمالاً للفاعلين السياسيين فى مصر المعاصرة. وقد شكّل ما تبديه الناشطات العلمانيات من تنوع موضوعاً متسقاً فى بحثى، عالجتُه من زوايا متعددة أخصها فى خاتمة الكتاب.

فقد حاولت من خلال كتابى أن أثبتُ أن أى تحليل لمواطن التوتر والجدل فى الحركة النسائية المصرية المعاصرة يدعو لمعالجة الثقافة السياسية الأكثر شمولاً وهو المجال الذى تقع هذه الأحداث فى إطاره. فعلى سبيل المثال فإننا نجد أن ظهور جمعيتى "المرأة الجديدة" و"معاً" وتطورهما يمثل بوضوح بعض أزمة القضايا التى لم يوجد لها حل، ومنها على وجه الخصوص مشكلات اليسار السياسى عامة فى مصر. فقد أثار انهيار الاتحاد السوفيتى والجاذبية المتزايدة للجماعات الإسلامية بين الطبقات الشعبية مجموعة من ردود الأفعال، وفى كثير من الأحيان دفعت الناشطات لاتخاذ موقف دفاعى.

وقد ترك التأثير المتزايد للدوائر الإسلامية بصمته على الثقافة السياسية المصرية حيث تهيمن البرامج الإسلامية على الإطار الخطابى. فحيث لم يعد لليساى قدرة على تقديم بديل مقبول فإن الكثير من القضايا التى تصدى لها اليسار سابقاً مثل العدالة الاجتماعية والاستقلال الوطنى أصبحت تشكل جانباً من الخطاب البلاغى الإسلامى. أضف إلى ذلك أن ليلى أبو لغد (1998b) تشير إلى أن بعض الإسلاميين استخدموا التصورات الحدائىة لأدوار النساء فى المجتمع، والعلاقات الزوجية، والأسرة، وبالتالي

دخلوا فى تنافس مع الحداثيين المحافظين والناشطين السياسيين التقدميين حول هذه القضايا. وفى أيامنا هذه، يثير الإسلاميون الجدل حول موضوعى الأصالة والهوية، ويؤثرون فى أسلوب معالجة الفاعلين السياسيين الآخرين مثل الناشطات العلمانيات لهاتين القضيتين.

وبما أننى سلطتُ الضوء فى الفصل الأخير على التداخل فى الأطر المرجعية لحركة النساء العلمانيات والثقافة السياسية العامة فى مصر، فمن المهم أن أؤكد أنه على الرغم من هذا التداخل فإن هناك اختلافات كبيرة بين الدوائر السياسية التى تحتل فيها الناشطات مكاناً بارزاً. فبعض الناشطات يؤيدن إطار الحداثة والاعتماد على الغير، وفى كثير من الأحيان يسعين لإيجاد سبل جديدة لاجتذاب المؤيدين عن طريق المشاركة فى نشاط الرعاية الاجتماعية. وهناك أخريات تقدمن خطوات للأمام ووضعن الأطر السائدة وأشكال النشاط عامة موضع الشك، غير أنهن وجدن أنفسهن هدفاً لهجمات دائمة من قبل الإسلاميين والحكومة والأصوات والمصالح الوطنية، كما أنهن فى شقاق دائم حول اكتساب الشرعية والحصول على الموارد. ومع ذلك فإن بعض الناشطات ينتقدن هذه الخطابات التى تقدم تبسيطاً مبالغاً فى الأمور وذلك بسعيهن لإقامة أطر مرجعية جديدة والبحث عن أشكال جديدة للتنظيم. وفى كثير من الأحيان يودى غياب نماذج النظم الديمقراطية غير الهرمية إلى صراعات وتوتر فى العلاقات الأمر الذى يضع الناشطات أمام تحدٍ إضافي. وتعانى الناشطات الملتزمات بالأسلوب الديمقراطي فى اتخاذ القرار من نكسات كثيرة فى سعيهن للتوصل إلى سبل مبتكرة لتنظيم أنفسهن. وفى سياق هذه المحاولات نجد أن بعض الناشطات يظهرن على الساحة بوصفهن قوة مؤسسة للديموقراطية فى مصر المعاصرة.

وقد أوضح عرض الذكريات الذى قدمته فى الفصل الأخير عن تاريخ جمعيتي "المرأة الجديدة" و"معاً" عن الجانب الشخصى للعديد من العلاقات المتوترة داخل الحركة النسائية. فلا تقتصر المشكلات على الخلافات السياسية والإيديولوجية بل إنها تتطور بين الناشطات اللاتى بدأن الطريق سوياً كصديقات. وكما أوضحت من خلال سير الحياة فى الفصل الثالث، فإن هذه الصداقات قد تكون مصدراً للقوة أو للصراع. وغالباً ما يمتزج "الشخصى" و"السياسى" بحيث تتحول الخلافات والمشكلات

الشخصية إلى إشاعة جو من التوتر في المحيط السياسي. ويعد هذا أمراً خطيراً بصفة خاصة إذ أن الناشطات ما زلن يحاولن البحث عن هياكل ديموقراطية وأساليب تنظيمية تستوعب الاختلافات والصراعات وتسمح باستمرار الأنشطة.

الأنشطة النسائية والدولة

تستقر الخلفيات المتنوعة للأنشطة النسائية المعاصرة في نقاط التقاء تاريخية محددة وفي العديد من التجارب والدوافع الشخصية في الوقت ذاته. وقد قدمت في الفصل الثالث ما أراه من أن الاتجاهات والأهداف والبرامج وأشكال المشاركة السياسية تتأثر كلها بالاتجاهات السياسية والأحداث التاريخية. ولا تحدد تلك اللحظات التاريخية في التقائها بالتجارب الشخصية العمل السياسي، وإنما تشكل الاحتمالات وتضع أطراً للخيارات. إذ تشكل "الخبرات التكوينية" التي دفعت الناشطات للمشاركة الفردية في الأنشطة النسائية نقاطاً مرجعية ومصادرراً للأفكار والفعل بشكل أو بآخر، حتى وإن كان التعرض لهذه التجارب والخبرات حدث على غير اتساق.

وقد لعبت الدولة وسياساتها في مصر عبر التاريخ دوراً رئيسياً في تشكيل العلاقات بين الجنسين. وفي الفصل الثاني قمت باستكشاف العلاقة المتغيرة والغامضة بين الحركة النسائية المصرية والدولة. وقد استعرت الصياغة الفكرية لـ "نظم النوع" التي قدمتها كونل (1990) Connell في محاولتي لبيان الوسائل التي لجئت إليها النظم المصرية المتغيرة - في عهد رئاسة عبد الناصر، والسادات، ومبارك - لتشكيل مفهوم النوع من خلال السياسات والنصوص القانونية.

وفي هذا السياق أصبح من الواضح أن النساء قد جرى وصفهن في الوقت ذاته بأنهن مواطنات ينتمين للعصر الحديث، يتمتعن بالمساواة في الحقوق والواجبات، ويعتبرن حافظات للأصالة الثقافية، ومن ثم فإنهن مسئولات عن حماية "التقاليد" و"الثقافة الأصيلة". وتشكل نقاط التوتر الكامنة في هذا التناقض السياسات النسائية وتؤثر فيها، فالناشطات ينبغي أن يعملن مع الدولة وضدها، على أساس من الطبيعة الخاصة بالدولة وسياساتها. وفي مصر المعاصرة، تتواصل مظاهر الغموض والتناقض

فى سياسات الدولة. إن نجد أن النظام يتعرض لضغوط شديدة كى يُصدر تشريعات وسياسات أكثر محافظة فى مجال المرأة والأسرة ويقوم بتنفيذها، وذلك نتيجة للمواجهة المستمرة مع الإسلاميين، بينما تزايد تأثير الأجهزة الخارجية من وكالات وهيئات دولية خلال العقد الأخير، الأمر الذى يرفع من درجة التزام الدولة المصرية بمعاهدات الأمم المتحدة ذات الصلة بحقوق النساء.

وقد عبرت عن رأى تجاه مظاهر الغموض الواضحة فى الدولة المصرية فى عهد ما بعد الاستعمار، وتجاه سياساتها المحددة المرتبطة بالأحداث التاريخية، وانقساماتها الداخلية، وروابطها بالدوائر الدولية، من حيث أنها تمثل عوامل تحدد علاقات النساء المتغيرة مع الدولة. فالأمر لا يقتصر على قيام جمعيات مختلفة بتبنى استراتيجيات مختلفة تجاه الدولة وتحديد علاقات مختلفة معها، بل يتعداه فيما يبدو من تأثير الناشطات بأشكال مختلفة، إذ تقع عليهن سياسات الدولة التى تساندهن وتضطهدهن فى الوقت ذاته فى محاولة للتأثير عليهن. وبالتالي فإن الجمعيات النسائية تمثل جانباً من مجتمع مصر المدنى الذى تتراوح درجة استقلاله عن الدولة بدرجات متفاوتة حتى وإن لم تمثل تلك الجمعيات سوى قطاع ضئيل من هذا المجتمع.

وفى الفصل الثانى عبرت عن اتفاقى مع سعاد جوزيف التى تؤكد أن الإهمال العام للأنشطة النسائية فى المناقشات الدائرة حول المجتمعات المدنية فى الشرق الأوسط تعكس اتجاهاً عاماً لصياغة فكرية للـ"مجال العام" من خلال النشاط والمشاركة الذكورية. (Joseph, 1993) ومع ذلك فكما أوضحت خلال كتابى فإن النساء يشاركن بإيجابية فى صراعهن مع الدولة حول تشكيل سياسات النوع. وتشارك الناشطات بدرجات متفاوتة فى الأنشطة على مستوى القاعدة العريضة ويتطلعن للتوصل إلى وسائل غير هرمية فى التنظيم، وبالتالي فإنهن يشاركن فى عملية نشر الديمقراطية. كما أن الناشطات، مثلهن فى ذلك مثل الفاعلين السياسيين الآخرين فى المجتمع المدنى بمصر، يدخلون مراراً فى صراعات من أجل الحصول على موارد للتوسع فى نشاطاتهن. وفى كثير من الأحيان تتبنى الناشطات أطراً مرجعية إسلامية، لأغراض استراتيجية فى بعض الأحيان، ودون ما قصد فى أحيان أخرى. غير أن بعض الناشطات العلمانيات يقفن فى مواجهة الدوائر الإسلامية فى محاولة للسيطرة على أطر الخطاب والأنشطة داخل المجتمع المدنى ويعبرن عن آرائهن علناً بشجاعة.

البرامج الدولية

ويُعدُّ تأثير المؤسسات الدولية، مثل منظمات الأمم المتحدة وهيئات التمويل الدولية، عاملاً حاسماً في تشكيل السياق السياسي للحركة النسائية وبصفة خاصة في السنوات الأخيرة. ولا شك أن أهداف المؤسسات والوكالات الدولية شاركت في تشكيل سياسات الدولة الحالية وبرامج الأنشطة النسائية المعاصرة. غير أنه يتعين علينا أن نطرح سؤالاً عن مدى نجاح الجمعيات النسائية في الضغط والتأثير للحصول على الدعم لبرامجها المحلية التي قد تتطابق مع الأولويات الدولية أو لا تتطابق. وبالفعل فإنَّ الطرف المحلي مثل الناشطات المصريات لا يقتصرن على تبني البرامج الدولية ولكنهنَّ يلجأنَّ لانتقاء القضايا العالمية وتطويعها وإعادة تفسيرها لتناسب حاجاتهنَّ وأولوياتهنَّ.

وتتعدد أوجه تأثير البرامج الدولية على الأنشطة النسائية في مصر بما لذلك من آثار إيجابية وسلبية. ويعدُّ التنافس على الحصول على التمويل الأجنبي سمة سلبية للوجود المتزايد لمنظمات التمويل الدولية؛ ففي كثير من الأحيان يؤدي التنافس إلى إنكفاء مشاعر الغيرة وتشجيع الفساد والانقسامات بين الناشطات. وفي بعض الحالات لا تستمر المشروعات أو الحملات طويلاً لأنها كانت مجرد استجابة لـ "تمويل متاح" وليس لبرامج أو قضايا محلية. ويشكل التحول المهني لقطاع الرعاية الاجتماعية سابقاً والنشاطات السياسية أثراً جانبياً أكثر تعقيداً. فقد أوجداً موقفاً يطغى معه الاتجاه المهني على الأهداف السياسية، الأمر الذي يزيد من خطورة التنافس والغيرة. ومن ناحية أخرى فإنَّ تحويل الأنشطة إلى مهنة تتصل بالرعاية الصحية، والصحة الإنجابية، والقضايا القانونية، والتنمية يتطلب قدراً أكبر من التخصص والخبرة بدت واضحة على نحو إيجابي في نوعية المشروعات المختلفة وإصدارات الناشطات المعاصرات.

وعلى الرغم من أنَّ الصراع حول الموارد يمثل عقبة في طريق التضامن والعمل الجماعي، وقد تعطى الدافع للمنظمات المانحة كي تفرض برامجها، فإنَّ بعض الجماعات والأفراد قد حققنَّ نتائج مثمرة ومؤثرة تخدم أهدافهنَّ وأولوياتهنَّ. فالناشطات المصريات والمنظمات الدولية المانحة يشتركان في لعب دور في

تحديد مدى نفع التمويل الأجنبي وتأثيره. فالجمعيات والشبكات النسائية التي أخضعت موضوعاً محدداً للبحث الوافى، وقامت بصياغة أهداف واضحة، وقدمت التنظيم الهيكلي لضمان التنفيذ الفعلى لمشروعاتها المقترحة تتاح له فرصة كبيرة كي تستغل الأموال المخصصة أفضل استغلال. كما أن سياسة المنظمات المانحة فى تخصيص الأموال ومراقبتها، فضلاً عن حساسيتها تجاه الحاجات المحلية، وأسلوب معالجة الأمور، تبدو أيضاً عاملاً أساسياً ينعكس على التأثير الفعلى للموارد التى تقدمها.

وتوحى مشاعر القلق تجاه التمويل الأجنبى، وهو ما أوضحتة فى الفصل السابق، أن هذا التمويل أصبح يمثل كل ما هو خطأ فى مصر المعاصرة. إذ يُنظر إلى التمويل الأجنبى بوصفه شكلاً من أشكال التدخل الخارجى الذى يثبت افتقاد مصر لاستقلالها. والأمر يتعدى فى واقع الأمر تدخل المانحين الأجانب فى البرامج المحلية المرتبطة بقضايا المرأة؛ فالجدل الشرس الدائر حول هذا الموضوع يقع فى كثير من الأحيان على خلفية من المصالح المتضاربة وصراع القوى. وغالباً ما يلقي الواقع المادى المؤلم، ومثال ذلك الأزمة الاقتصادية المستمرة، بظلاله على المواقف المعادية للإمبريالية، الأمر الذى يفسر جانباً من الغموض والصراع فى عملية بناء الدولة التى تتسم بالتعقيد فى عهد ما بعد الاستعمار.

وبالمثل، فإننى قمت بدراسة الانطباعات التى تثيرها المنظمات الدولية وتقييم المؤتمرات الدولية على ضوء الصراع من أجل الاستقلال السياسى وخاصة من التأثير الأمريكى. غير أننى توصلت إلى نتيجة مفادها أن تأثير المؤتمرات الدولية، وخاصة مؤتمر القاهرة الدولى للسكان والتنمية (١٩٩٤)، ومنتدى المرأة العالمى فى بكين (١٩٩٥) إلى حد ما، كان على جانب كبير من الأهمية. فعلى الرغم من أن الناشطات انتقدن تأثير الوكالات والمنظمات الغربية، أو الحجم الهائل لمثل هذه المناسبات الدولية، فإن معظمهن أقررن بأن لقاءهن مع الناشطات من مختلف أرجاء العالم شكك بالنسبة لهن تجربة عظيمة للتعلم والاستلهم. وقد أتاحت فرصة التحضير لمؤتمر القاهرة الفرصة للناشطات والجمعيات الأهلية للاتصال على المستوى الوطنى، الأمر الذى كان موضع ترحيب منهن. وعلى الرغم من الشكاوى من محاولات الدوائر الغربية السيطرة

على المناقشات ووضع البرامج، فإن كلاً المؤتمرين كشفوا للكثيرات أن ما هو "دولى" لا يتساوى مع ما هو "غربي". وقد تركت القضايا التي أثارها الناشطات من أفريقيا وجنوب آسيا أثراً عميقاً على المشاركات المصريات، اللاتي أدركن للمرة الأولى فى الكثير من الأحيان، وجود أوجه تماثل ومشاركة فى الهموم التي تهاجم كثيراً داخل مصر على أساس إسرافها فى التأثر بالغرب.

وقد تزايد فى مصر المعاصرة وجود منظمات الأمم المتحدة وقراراتها، والمؤتمرات الدولية، والمنظمات المانحة، والوكالات الحكومية وغير الحكومية، ووسائل الإعلام الدولية كما تزايد تأثير هذه الجهات بغض النظر عن النتائج المحددة التي تخلفها. ولذلك فإن أى تحليل للحركة النسائية يجب أن يأخذ فى الاعتبار هذا البعد الدولى الذى يتخطى حدود الوطن ويقوم بدراسة المستوى الذى أطلقت عليه مستوى التعبئة شبه الموجهة أو شبه المستقلة. ولا شك أن بعض الوكالات الغربية، وخاصة الوكالة الأمريكية للتنمية الدولية إلى جانب الكثير من الوكالات الأخرى، تحاول أن تؤثر على برامج الفاعلين السياسيين المحليين وأنشطتهم. غير أن وصف الناشطات المصريات بأنهن مجرد مستقبلات للتمويل الأجنبى ومتواطئات عن رضا منهن مع المؤامرات الغربية يعد اتهاماً يخلو من الصحة والمنطق. فالسيدات اللاتي قابلتهن قدرات على الاختيار، والانتقاء، والجدل، والتفاوض، وتحدى البرامج الدولية. وبينما يتجه البعض إلى اقتناص الفرص وتكثيف الجهود فى المجال المهني، فإن البعض الآخر يفلح فى متابعة أهدافهن دون تقديم تنازلات لا داعى لها. وأعنى بذلك أن الناشطات المحليات تتوافر لديهن القدرة على العمل ويمكنهن انتقاء البرامج العامة وتطويرها لتناسب وأهدافهن المحلية.

قضية التنوع

كشف تحليلي لفهم الناشطات المصريات للحركة النسائية المصرية (الفصل الثانى) تنوعاً فى المواقف والآراء تعكس تعدد الاتجاهات المعاصرة. كما أنني استكشفت عدة مستويات من استقلال الجمعيات النسائية واعتمادها على الدولة. وقد أضاف التنوع فى "نقاط الدخول" للأنشطة النسائية، وهو ما اتضح فى سير حياة

الناشطات التي قدمتها في الفصل الثالث، بعداً حياتياً للتحليل العام للمسارات التاريخية والسياسية.

كما يمثل مفهوم التنوع محوراً تحليلياً يتصل بفهم الناشطات المعاصرات للعلمانية والأساليب التي تبدو بها في نشاطهن السياسي (الفصل الرابع). وقد تطلعت إلى تحدى التصورات التي لا تميز ما بين الناشطات العلمانيات، وخاصة على ضوء التحليلات التي تقدم ظلالاً متعددة للاتجاهات الإسلامية في مصر المعاصرة. وقد أصبح مصطلح "العلمانية" في الثقافة السياسية المعاصرة، فضلاً عن الكثير من التحليلات الأكاديمية، يشير إلى فئة هامشية، كما أنه يُستخدم غالباً في مجال تجاهل الهموم، والمصالح، والأهداف الحقيقية لمن يوصفوا بالعلمانيين. وقد أكدت أن التصنيف تحت مسمى "العلمانية" يخفي وراءه مجموعة من الاتجاهات والمواقف السياسية التي لا يمكن ضمها تحت فئة متجانسة واحدة. ويصدق ذلك بصفة خاصة في سياق تزايد استخدام مصطلح "العلمانية" فيه لوصف غير الإسلاميين، الأمر الذي يؤدي إلى تشيؤ انقسام يتلاعب به الإسلاميون أنفسهم بمهارة.

وفي الفصل الخامس قدمت دراسة مفصلة عن الخلافات الهامة بين الناشطات من ناحية أهدافهن وتطلعاتهن، والأساليب التي يتبعنها لتحويل هذه الأهداف والتطلعات إلى مشروعات وحملات محددة. وعلى مستوى الأهداف المعلنة رسمياً لاحظت تشابهاً كبيراً بين الجماعات المختلفة التي أخضعتها للتحليل. غير أن تحليلاتي للأهداف الأكثر تحديداً والأولويات التي تضعها هذه الجماعات كشف اختلافات كبيرة. فقد أبدت السيدات اللاتي قابلتهن آراءً مختلفة بدءاً من تعريفهن لمصطلح السياسة نفسه (والذي لا يتساوى في كثير من الأحيان مع الأنشطة النسائية بل يرتبط بالاقتصاد السياسي وحده) ومروراً بمفهومهن عن ما تتطلبه الأنشطة النسائية. وقد ذكرن من ضمن الأولويات الكفاح ضد الفقر، ومحو الأمية، ورفع درجة الوعي بالحقوق القانونية، وحملات تعديل القوانين القائمة (مثل قانون الأحوال الشخصية أو قانون الجنسية) وزيادة تمثيل النساء سياسياً. وتترجم هذه الأولويات إلى مشروعات على أرض الواقع، وقد قدمت وصفاً لبعضها في الفصل الخامس، وهي تدل على أشكال المشاركة المتنوعة للأنشطة النسائية.

وقد سلطت الضوء فى مناسبات عديدة خلال كتابى على قيام عدد قليل من الناشطات يتجه للازدياد بتطوير مواقف نسائية تقع خارج الأطر السائدة للحدثة أو نماذج الاعتماد على الغير. وتضم هؤلاء الناشطات أشكال الاضطهاد الخاصة فى محيط الأسرة، وبالتالي يوجهنّ الأنظار للارتباط ما بين "الخاص" و"العام". وقد قدمت اقتراحاً يتفق مع ما أشارت إليه ميرفت حاتم (١٩٩٣) أن هؤلاء السيدات قد يفلحنّ فى إيجاد "خطاب مستقل" جديد يقدم أدوات تحليلية شاملة لتعقيدات موقف النساء ويقترح حلولاً مرضية.

إضفاء الشرعية على الاستراتيجيات

تصدر أقسى الاتهامات وأشرس الهجمات بين الناشطات اللاتى شاركنّ فى مواقف واحدة ثم تفرقت بهنّ السبل بعد ذلك، مثلما يجرى فى سياقات متعددة أخرى. ويتصدر الفساد، والبورجوازية، والميل لتقليد الغرب، والبعد عن القاعدة العريضة قائمة الاتهامات. ومما يؤسف له أن هذا الجدل يودى إلى تنافس كبير حول نماذج "التفكير السليم" ولا يتجه لأى تبادل بناء لإيجاد أرضية أو قاعدة مشتركة للعمل. ومثال ذلك الاتهام بالبعد عن القاعدة العريضة، وهو اتهام يستخدم كسلاح يسهل استخدامه للتهوين من شأن إحدى الناشطات أو إحدى الجماعات. غير أنه لا يعنى بالضرورة أن الجهة التى صدر عنها الاتهام وثيقة الصلة بهذا النوع من النشاط. ولا أعنى بذلك أن الفجوة ما بين الأنشطة النسائية على مستوى الطبقة الوسطى الحضرية وحاجات نساء الطبقات الأدنى ومصالحهنّ لا تجد من يعمل على تخطيها. فالأمر على عكس ذلك تماماً. وهناك بالفعل جماعات وأفراد يبذلون جهوداً كبيرة، وخاصة بعد انعقاد مؤتمريّ الأمم المتحدة فى القاهرة وبكين، للمشاركة النشطة والملموسة فى حل مشكلات النساء الريفيات ومحدودات الدخل وهمومهنّ. غير أن تسلط الأضواء على "الحديث باسم الآخرين"، وعادة ما يكونون من المحرومين، يكشف عن عنصر شعبى قوى فى السياسة المصرية، كما يشير إلى الحاجة الملحة لتبرير المشاركة النسائية السياسية وإضفاء الشرعية عليها.

ويتضح من سياق الحركة النسائية أن خلفية الطبقة الوسطى السائدة للناشطات جعلتهن فريسة سهلة لاتهامات النخبوية التي يصحبها اتهام "الاتجاه لتقليد الغرب". وإذا استثنينا الهموم الإنسانية والسياسية (القائمة في كثير من الأحيان على المفاهيم الاشتراكية المثالية) فإن الشك يساورني في أن التحدث باسم المحرومين وتبني قضاياهم يمثل استراتيجية، وإن لم تكن واعية، لإعلان الانتماء لمصر. فلم تتخلص الحركة النسائية المصرية حتى الآن من إرث النخبوية المرتبط بتاريخ الحركة، ولا تزال ناشطات اليوم يبدین مواقف دفاعية كرد فعل لهذا الإرث. ولعل الناشطات يكتسبن خبرة أكبر في المستقبل عن طريق الإصغاء لتجارب القاعدة العريضة فضلاً عن تجاربهن الخاصة. فربما أدى تسليط الضوء على تجارب النساء مجموعات وفرادى إلى إضفاء الشرعية على أوجه التصدى لأشكال الاضطهاد الخاصة والمشكلات المرتبطة بانتمائهن للطبقة الوسطى. أضف إلى ذلك أن سلوكيات أكثر الناشطات تمتعاً بحقوقهن والتي يبدو معها أنهن لا يعانين أية مشكلات على الإطلاق لا تعدو أن تكون إظهاراً لمشاعر الأمومة تجاه أخواتهن المحرومات. ولن يؤدي هذا الاتجاه لإزاحة القضايا ذات الأولوية، مثل الفقر والتعليم، من محلها، بل أنه سيضيف مستوى شخصي أكبر للوعي، وبالتالي يوسع من قاعدة النشاط ويعمقها.

تشيؤ الثقافة والاختلاف الاستعماري^(١)

وترتبط باتهام الناشطات بالنخبوية اتهامات شائعة أخرى بـ"تقليد الغرب" والبعد عن "تمثيل" الثقافة المصرية. وتلجأ الناشطات لاستراتيجيات مختلفة للرد على هذه المحاولات لاستبعاد آرائهن وعملهن السياسي، فيؤكدن ولاهن لـ"ثقافتهن"، وهن بذلك يستخدمن الخطاب البلاغي الذي يوجهه ضدهن النواثر الإسلامية والوطنية المحافظة، بل ويضيفن التشيؤ على مفهوم الثقافة المصرية الثابتة المتجانسة. ووجه التناقض في هذا المقام يتمثل في أن الناشطات أنفسهن اللاتى يجذبن الأنظار إلى النساء الفقيرات والريفيات بوصفهن يعانين من وضع مختلف ويحتجن لمن يدافع عنهن، يدمجن الطبقات الريفية، والحضرية، والطبقات الأدنى والوسطى تحت مسمى "ثقافتى" عندما يضطرن للدفاع عن أنفسهن أمام من ينتقدهن من الإسلاميين أو الوطنيين المحافظين أو النقاد الغربيين على السواء.

وفى الفصل السادس عبرت عن اقتناعي بأنه على الرغم من شيوع استخدام مصطلح "الثقافة المحلية" فى الخطاب السياسى المصرى، فإن مدى نفع هذا المفهوم وصلاحيته فى حاجة للمراجعة. وقد أعرب العديد من الباحثين فى بلدان أخرى تمر بمرحلة ما بعد الاستعمار، فإن التقاليد والثقافات لا تمثل وحدات ثابتة ومحددة، كما أنها تخضع للتغيير وتتعرض لتأثير اللقاء والتبادل الثقافيين بأى شكل قد يتخذانه. وحتى بدون اللقاء مع ثقافة أخرى فإن صراع القوى وما يصحبه من توتر بين القوى الاجتماعية والسياسية المختلفة كقيل بإحداث تغييرات وتحولات على مر الزمن. فالتقاليد فى أنحاء العالم تتعرض للتعديلات والتحولات بل وإعادة صياغتها لتتناسب والمثل التى يؤمن بها من يحتل موقع السلطة. ويرى عزيز العظمة أن "ما يبدو فى الشرق تحت ستار التقاليد هو فى واقع الأمر خطاب دفاعى أو إصلاحى يتجه للراديكالية لا يتصل بأى حال من الأحوال فى صياغته أو معايير صلاحيته بالتقاليد، فالتقاليد لا تثبت ذاتها، فهى مجرد مصطلحات". (Al-Azmeh, 1993:40). وتفترض لغة "الأصالة"، كما يقول عزيز العظمة، وجود هوية ثقافية، "متشابهة، ومستمرة عبر الزمن، وتضع نفسها فى علاقة تمايز مع موضوعها التاريخى". (Ibid.: 42)

ويكمن سبب آخر لرفض التصوير الجامد لـ "ثقافة أصلية" وقيم لا تتغير فى مقابل "الثقافة الغربية"، وهو سبب يدعو للسخرية، إذ أن هذا الانقسام ابتكره المستعمرون فى المقام الأول لتأكيد الاختلاف بينهم وبين المستعمرين. ولم ينظر المستعمرون إلى هذا "الاختلاف الجوهرى" بوصفه مصدراً للإثراء أو المعرفة، فقد صاغوه ليشيروا به إلى "تفوق ثقافة الغرب" و"بربرية الثقافة المحلية". أى أن هذا التصور كان يمثل الآخر فى وضع أدنى ومختلف كل الاختلاف، ولذا فإنه كما يؤكد بارثا تشاترجى "يحتل مرتبة دنيا لا يرجى ارتقاؤه عنها". (1993:33)

ولم يقتصر التصور الاستعمارى للاختلاف على تشويهه يعتمد على سمو الحضارة الأوروبية المركزية فى مقابل ثقافات الشعوب المستعمرة، بل إنه تضمن تضحيماً للذات يفتقر إلى أى حس سليم. فجرى تقديم الثقافة الغربية بصورة مثالية تلتزم من خلالها بقيم المساواة، والحرية، والإنسانية فى مقابل الممارسات الفعلية لـ "حضارة الغربية". وتقول الناشطة النسائية أوما نارايان فى هذا المقام "إن رؤية الذات لم يعكس صفوها

انخراط القوى الغربية فى تجارة العبيد والاستعمار، أو إنها قد قاومت منح الحقوق السياسية والمدنية لعدد كبير من الرعايا الغربيين بما فى ذلك النساء". (1997:15).

وقد احتلت مفاهيم النوع، وخاصة القيم والممارسات المتصلة بالنساء، محل الصدارة فى تأكيد الاختلاف الجوهري للمستعمرين وتفوقهم. فخلال الكفاح من أجل الاستقلال، وفى أعقاب رحيل المستعمر، استمر الخطاب البلاغى والسياسات الوطنية فى تسليط الضوء على الاختلافات فى القيم والأعراف الثقافية، وخاصة تلك المرتبطة بالنساء. وقد قدم بارثا تشاترجى (Chatterjee, 1993) رأياً مؤداه أن الاتجاه الوطنى الهندي ميّز بين المجال "الخارجى" أو المادى للدولة، والمجال "الداخلى" أو الروحى، وهو رأى يذكرنا بالسياق المصرى. ويقول تشاترجى،

إن النواحي "الروحية" أو "الداخلية" للثقافة، مثل اللغة أو الدين أو مفردات الحياة الخاصة أو الأسرية قامت بالطبع على الاختلاف بين ثقافة المستعمر وثقافة المستعمر. فبقدر مشاركة الحركة الوطنية فى الكفاح ضد القوى الاستعمارية فى المجال الخارجى للسياسة، بقدر ما أصرت على استعراض سمات اختلافها الثقافى "الجوهري" حتى تبقى المستعمر بعيداً عن المجال الداخلى للحياة الوطنية وتعلن سيادتها عليه. غير أن المجال الخارجى للدولة، وهو المجال الذى يفترض "ماديته" فى القانون، والاقتصاد، وسياسة الدولة، أعلنت الحركة الوطنية حرباً شعواء لمحو آثار الاختلاف الاستعماري. فالاختلاف فى هذا المجال لا يوجد ما يبرره. وفى هذا المجال الخارجى بدا وكأن الحركة الوطنية تؤكد دعاوى عالمية نظام القوى الحديث. (Ibid.: 26)

وقد التزم المصلحون والنخبة فى الحركة الوطنية المصرية فى عهد ما بعد الاستعمار بمفاهيم الحداثة الغربية فى سياق المشكلات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى تنتمى للمجال "الخارجى". وقد ضمّنوا مطالبهم حق النساء فى التصويت، وحقهن فى التعليم والعمل. بينما حافظوا على الاختلاف الجوهري عن الثقافة الغربية فيما يتصل بالمجال "الداخلى" للمجتمع، مثل القيم والأعراف المرتبطة بأدوار النساء وسلوكياتهن اللائقة، وواجباتهن وحقوقهن داخل البيت والأسرة.

ولذلك فلا عجب أن تشارك الناشطات المصريات فى تشيؤ الاختلاف الثقافى الجوهري، إذ أن احتمال توجيه الاتهام بالخيانة قائم ضد من يبدو تواطؤه مع القوى الاستعمارية السابقة أو الإمبريالية الحالية. ولا شك أن الشعور بالتهديد المستمر من "الثقافة الغربية" ومشاعر الاستنكار تجاهها تقوم على أساس من أرض الواقع إذا تستمر المناورات السياسية فى تشكيلها لمصر فى عهد ما بعد الاستعمار. غير أن من الأجدى للناشطات المصريات على المدى الطويل أن يعلن أن ما يميزهن داخل النسيج الوطنى وخارجه لا يتمثل فى درجة "الأصالة الثقافية" وإنما يتمثل فى تحليلاتهن ومناهجهن السياسية، وقيمهن الأخلاقية، ورؤاهن المستقبلية.

وتشترك الكثير من الناشطات فى أرجاء العالم فى تحمل عبء التجربة الاستعمارية والصراع الدائر مع الإمبريالية، ومع ذلك فهن يتصدى للمفهوم الجوهري للثقافة لأنه يهمل تعقيدات سياقهن الثقافى وحركته. وتقدم الناشطة الهندية أوما نارايان المسألة على هذا النحو البليغ،

إننا فى حاجة للابتعاد عن صورة السياقين الوطنى والثقافى التى تتمثل فى غرفتين مغلقتين، لا يطرأ عليهما تغيير، ويمتد بداخلهما فضاء متجانس، ويسكنهما "أهل الأصالة" الذين يلبسون لباساً واحداً، ويشتركون فى وصف مُتَّسِقٍ لقيمهم ومؤسستهم. فالسياق الوطنى والثقافى لدول العالم الثالث يموج بالقدر نفسه من التعددية، والاختلافات، والتغيرات التى يموج بها نظيراتها فى الغرب. وينخر العالم الثالث وكذا الغرب فى كثير من الأحيان بأراء ترفع من شأن "الثقافة" و"القيم" الخاصة بكل منهما، بينما تسلب هذه "الثقافة" وتلك "القيم" رعايا كثيرين، بما فيهم النساء، من حقوقهم وتهمُّش مصالحهم واهتماماتهم. (1997:33)

وترى أوما نارايان أن ناشطات العالم الثالث لا يمكن وصفهن بالوقوف "خارج" نطاق الوطن والثقافة لأنهن قد ألفن بوجه عام الممارسات، والمؤسسات، والسياسات التى يوجهن لها النقد، ويتأثرن بها. كما أنهن مواطنات نشطات يساهم كفاعلهن السياسى وحملاتهن فى كثير من الأحيان فى رفع درجة الوعى والاهتمام بالقضايا التى تهتم النساء. (Ibid.) وتقدم نارايان صياغة أراها مخرجاً ممكناً ومعقولاً من الحيرة التى تواجه الناشطات فى الكثير من البلدان التى تمر بعهد ما بعد الاستعمار،

إننى أرى التصدى لكافة المحاولات لإسقاط آراء الناشطات النسائيات فى دول العالم الثالث وسياساتهن بدعوى "تقليدهن للغرب" ويكمن جانب من التصدى فى جذب الانتباه للطبيعة الانتقائية للمصطلح وكيفية استخدامه لتحقيق أغراض خاصة، ويتعلق جانب آخر بتأكيد أن كفاحن يضرب بجنوره فى تجاربنا المستمدة من "ثقافاتنا"، و"تمثل" واقعنا المتغير والمعقد بما لا يقل عن كفاح زملائنا الذين لا يشاركوننا الرأى. وتحتاج ناشطات العالم الثالث حاجة ماسة لجذب الانتباه لحقيقة التغيير فى السياق الذى يعايشونه ، حتى لا نواجه بافتقاد برامجنا للشرعية بدعوى "التقاليد الثابتة". (Ibid. :30-1)

ويتضمن هذا المنهج الذى تقترحه أوما نارايان، خلخلة الخطاب البلاغى الوطنى والإسلامى، وكذلك الدعاوى التى تنسب للغرب التفوق الأخلاقى والثقافى. ومثلما فشل الخطاب البلاغى الاستعمارى حول القيم الثقافية فى مجال السياسات والممارسات، فإن الحكومات الأوروبية والأمريكية المعاصرة لا يمكن وصفها بالالتزام الكامل تجاه قضايا النوع. وإننا نجد أن النشاط النسائى قد جرى تهميشه والنظر إليه على أساس أنه معاد لروح المجتمع فى أكثر من سياق غربى.^(٦)

وقد اتضح الاستخدام الانتقائى لدعوى "تقليد الغرب" فى تحليلى لصورة "الغرب" والدراسات الغربية فى الفصل الأول، حيث قدمت رأى فى قيام المثقفين المصريين عبر التاريخ بعملية انتقاء طوعوا من خلالها ورفضوا الآراء الغربية حول الدولة الوطنية. وقد صار واضحاً بالنسبة لى أن عملية الانتقاء لا تزال تشكل الخطاب السياسى المصرى وخطابه البلاغى حتى اليوم. وإننا لا نجد هذه العملية واضحة لدى القوى الإسلامية والوطنية المحافظة فى مصر المعاصرة فحسب، وإنما نجدها بقدر أقل بين الناشطات اللاتى يظهرن قدرًا كبيراً من الانتقائية فيما يتصل بالمشروعية الثقافية لنضال النساء من أجل المساواة والتحرر.

وبالتالى فإننا نجد أن عملية تحويل النقاط المرجعية التى استمرت من عهد الاتصال المبكرة بالمستعمر إلى نقاط داخلية وطبيعية لدى الناشطات تضع حدوداً لأفاق الخطاب وقاعدة العمل الخاصة بهن. غير أن هناك قلة من السيدات يتزايد عددها بدأن فى خلخلة الانقسام الذى يعتمد على "الاختلاف الاستعمارى" بشجاعة وإصرار، وذلك

بأن وضعن قضايا النساء في المجال "الداخلي" أو "الخاص" للمجتمع (مثل قضية العنف ضد المرأة)، وبالإشارة أيضاً إلى الآليات التي جرى من خلالها تطويع جوانب من الحداثة الغربية ورفض جوانب أخرى وإدانتها. وبالتالي، فإنَّ الجدل حول الحداثة وما يرتبط بها من خطاب التحديث والاعتماد على الغير يمثل نقطة انطلاق أخرى لدراسة الأنشطة النسائية في مصر.

الحداثة: هل هي الطريق إلى التحرر؟

ووجهت فكرة اتخاذ التحديث كإطار لتحقيق التقدم والتحرر بالنقد من زوايا مختلفة. فالعديد من الدراسات النقدية التي تنتمي لمنهج ما بعد الحداثة أشارت إلى النواحي اللاإنسانية التي اتسمت بها مشروعات التحديث والتي يعد الاستعمار أحدها. وقد بذلت جهود قيِّمة ومنظمة ترتبط بالمحاولة لكشف الفظائع والانتهاكات التي تمت باسم التحديث وتستهدف خلخلة الخطاب العالمي والدراسات التي تتمحور حول أوروبا. ويبدو نقد الحداثة في مصر في إطار إسلامي في الأساس يُقدم على أساس أنه البديل الصالح الأوحيد لخطايا الحداثة.

ولا تشارك الناشطات المصريات إلى حد كبير في المناقشات التي تدور حول ما تتضمنه الحداثة من معانٍ. وبالنسبة لغالبيةنَّ، وحتى هؤلاء اللاتي يعبرنَّ عن انتقادهنَّ لـ"تقليد الغرب"، فإنَّ عملية التحديث يجرى قبولها على أساس أنَّها الخلفية الضمنية لتحقيق المساواة. فعلى سبيل المثال، يُنظر إلى التعليم، والاستقلال الاقتصادي، والأسرة الصغيرة، كأوجه للحياة الحديثة التي تساعد في تحسين وضع النساء. وبالتالي فإنَّني أرى في هذا المقام خطأً موازياً للرأي الذي قدمته عن "الاختلاف الثقافي" بحيث يجرى اللجوء إلى ما هو "حديث" في صلته بالمجال "الخارجي" أو "العام" من الحياة الاجتماعية، بينما تُستخدم "التقاليد" لشرح موقف النساء في المجال "الداخلي" أو "الخاص" من المجتمع، كما هو الوضع في الأسرة على سبيل المثال.

غير أن هناك سيدات يعبرن عن شكوكهن تجاه مفهوم الحداثة برمته. وقد أشرن إلى الأساليب التي لجأ إليها دعاة التحديث المحليين لفرض كافة الخطابات الشمولية والمهيمنة على النساء والأقليات. وفي معظم الحالات يساور هؤلاء السيدات الشعور بخيبة الأمل في الأطر الشمولية مثل الماركسية، والأساليب التي جرى بها تهميش أصواتهن لصالح "الحقائق الكبرى". ويقوم نقدهن للخطاب المهيمن الذي لا يسمح بزوايا أخرى للرؤية على رفضهن لوجهة النظر الذكورية التي تتمتع بكافة الحقوق وتحتل مكانة العرف. كما أنهن يرفضن أيضاً الانقسام ما بين الحديث والتقليدي لما يرونه من تشويبه لأنماط التقاليد والتغيير والابتكار المعقدة والتطورات السياسية التي ترتبط بها هذه الأنماط.

وهناك شعور بالوقوف على أرض تفتقد للثبات ينتاب من يشارك في مناقشة حول الحداثة وعلاقتها بالغرب. وتتعلق القضية في هذا المقام بالعلاقة ما بين التحديث والتفريب. فهل هناك ما يربط بين هاتين العمليتين برباط لا ينفصم، أم هل ينبغي تحليلهما بوصفهما حالتين منفصلتين؟ وبعبارة أخرى، هل يتسم التاريخ الحديث بعولة النظام الغربي (Al-Azmeh, 1993:39)، أم هل يمكننا أن نتناول بالنقاش مظاهر الحداثة المحلية (Abu-Lughod, 1998b; Miller (ed.), 1995; Sayyid, 1997). وإنني أرى أن الإجابة تكمن في موقع ما يتوسط هذين الرؤيتين المتنافستين، فلا نجدها في أي منهما لأن هذه القضية تتسم بالتعقيد والغموض.

وإنني أرى ضرورة التمييز ما بين أسلوب ظهور بعض الأفكار والقيم المعينة في بادئ الأمر، مثل تلك المرتبطة بالتنوير الأوروبي، والأسلوب الذي تطورت به تلك الأفكار والقيم وأعلنت به عن نفسها. وفي هذا المقام أود أن أعيد ما قدمته من رأي لسامي زبيدة (Zubaida 1994) الذي ينفي عن التنوير ومفاهيم الليبرالية، والعقلانية، والديموقراطية و حقوق الإنسان أية صلة جوهرية بالغرب. وبعبارة أخرى فإن هذه المفاهيم وإن جرت صياغتها كأسس ومبادئ للثقافة الغربية، فإنها قد تطورت عبر صراعات دموية ومريرة على مر الزمن. أضف إلى ذلك أن المنطل العلي المرتبطة بالتنوير والحداثة في إجمالها لم تكن متسقة مع الممارسات والسياسات الفعلية للحضارة الغربية.

وقد حصلت القوى الغربية فى الماضى على القدرة الاقتصادية والعسكرية والسياسية لفرض رؤاها وممارساتها، وربما على نفس المستوى من الأهمية فرض الاعتقاد الراسخ بأن قيمها، وأفكارها، وممارساتها تمثل زاوية الرؤية الوحيدة. وقد جرى تصوير الآخرين من منطلق قريبهم من أو بعدهم عن هذه "الثقافة النموذجية". كما أن سيطرة الولايات المتحدة على القوى الاقتصادية، والعسكرية، والسياسية بعد انتهاء الحرب الباردة تجعل العالم يبدو أحادى القطب أكثر من ذى قبل. غير أنه على الرغم من التهديد الذى يتضمنه هذا الوجود، فإن "الغرب" قد فقد دعواه باحتكار الحداثة. فقد سرت فى العالم حركات تخطت الحدود الوطنية وتوسعت فى نقل رأس المال والبشر، وانطلقت فى خط موازٍ للانتقادات الداخلية لرؤى الغرب عن الحداثة والمركزية الأوروبية. ويتعين على الخرائط المعاصرة أن تأخذ فى الاعتبار عمليات الإزاحة، ومجتمعات الشتات، وتعدد الثقافات حيث تميح الحدود على نحو متزايد.^(٣)

فإذا ما أبطنا التفكير فى الثقافات باعتبارها "غرفاً مغلقة"، كما تدعونا أوما نارايان بأسلوبها البليغ، فقد يصبح من السهل علينا تصور "حداثة متنقلة" فى حالة تحول وتغير دائم. ويقوم على هذا المفهوم الكثير من الكتابات التى تستكشف "مواطن الحداثة المحلية" فى سياقات تمتد إلى البرازيل (Rabinow, 1992)، وترينيداد (Miller, 1994)، والكاميرون (Rowlands, 1995)، وروسيا (Humphrey, 1995) على سبيل المثال. وقد تتواجد أشكال متعددة للحداثة فى حدود الشعب الواحد، كما توضح دراسة ليلى أبو لغد لمقاصد المسلسلات التليفزيونية الأمريكية والمصرية ومحتواها وتلقيها فى مصر (الفصل الأول). ويقدم عملها الدليل على وجود "حداثة الفقر" فى ريف مصر وبين الطبقات الدنيا من المصريين، وهى حداثة تختلف على نحو حاسم عن حداثة الطبقة الوسطى بالحضر، والنخبة المهنية فى العاصمة. وتسير نتائج بحثى بين الناشطات المصريات فى خط موازٍ مع النتائج التى توصلت إليها ليلى أبو لغد حيث أظهرت تلك النتائج أن الاتجاه للحداثة أو التقاليد يرتبط إلى حد كبير بأنماط الاستهلاك ورغبات المستهلك. ويذهب بعض المؤلفين من أمثال دانيال ميللر Daniel Miller إلى أن "شرط الاستهلاك" يمثل مصطلحاً محتملاً لمشكلات الحداثة الكبيرة. (Miller (ed.), 1995:2)^(٤)

ويمضى دمج الحداثة والغرب فى خط موازٍ لمعادلة مضللة أخرى ألا وهى مساواة العلمانية بالغرب. وفى الفصل الرابع تعرضت بالنقد للصياغات الفكرية الاستشراقية، والأوروبية المركزية، التى تقدم صورة للمجتمعات المسلمة على أساس من تميزها الجوهرى عن المجتمعات الغربية فيما يتصل بعلاقتها بالعلمانية، وذلك لأسباب تتعلق بالاختلاف الجوهرى بين الإسلام والمسيحية. وقد أوضحت أن هذا الموقف يتجاهل التطورات التاريخية للعلمانية وسياقها السياسى كما أنه يسقط الظواهر المتعددة والمتغيرة داخل المجتمعات الغربية (التى تسودها المسيحية غير أنها لا تشملها كلها) والمجتمعات المسلمة. وقد عبرت عن وجهة نظرى فيما إذا كانت المسيحية أم الإسلام أكثر توافقاً مع العلمانية بالإشارة إلى أن هذه القضية متشعبة فى مواقف استشراقية واستعمارية وأوروبية مركزية، وأنها تعمل على تشيؤ جوهر الدين بينما يجرى تجاهل الواقع الاجتماعى، والسياسى، والتاريخى. أضف إلى ذلك أن تسليط الضوء على الحركة الإسلامية كبديل للحداثة الغربية يتجاهل استمرار الحركات الدينية وبعثها من جديد فى العالمين المسيحى واليهودى.

السياسة دون تصورات جوهرية

تتذبذب معظم كتابات ما بعد الاستعمار ما بين محاولة تأكيد النقاط العامة التى تربط بين ثقافة المستعمرين والمستعمرين، والاحتفاء بالاختلاف بينهما والرفع من شأنه. وقد احتل الجدل بين نقاط الاختلاف والتشابه محل الصدارة فى الكتابات النسوية المعاصرة، حيث وجه النقد للفئة الأحادية التى يُشار إليها بـ"المرأة" والمرتبطة بالطبقة الوسطى فى الغرب وجرى تفكيكها. وعلى ضوء الاعتراف بوجود اختلافات هامة بين النساء (من حيث العرق، والطبقة، والانتماء الدينى، والتوجه الجنسى) فإن الناشطات النسائيات وجدنَّ أنهنَّ فى حاجة لإعادة صياغة موضوع سياساتهنَّ. وقد صاغت دنيز كانديوتى (Kandiyoti 1995:19-20) هذه القضية، وهى ترى أن هناك وجهاً للتناقض قامت فيه الأعمال النقدية للحداثة، من منطلق ما بعد الحداثة وما بعد الاستعمار والاتجاه النسائى، إلى إيجاد مناهج تتسم بالتعقيد لدراسة الاختلاف الثقافى والدواعى

القانونية والأخلاقية للدفاع عن حقوق النساء من خلال تحدى الخطاب العالمى. وقد أصبح التحدى القائم لاستيعاب التنوع أمراً صعباً للغاية على ضوء التقاء نقد ما بعد الحداثة للعالمية بالنضال فى فترة ما بعد الاستعمار لتحقيق "الأصالة".

ولا مفر إذن من وجود خط فاصل لمن يشعر بالالتزام بسياسة المقاومة، والتحرر، والاستقلال، بينما يرفض فى الوقت ذاته المفاهيم الجوهرية للثقافة، والهوية، وموضوع التحرر. ولا يمكن حل هذا الصراع بسهولة، بل أنه يمثل أحد أكبر التحديات لمفكرى ما بعد الاستعمار والاتجاه النسائى المعاصرين. غير أن هناك استراتيجيات متعددة لتخفيف حدة التوتر وتخطى الهوة بين المحاولات التى تبدو متناقضة. ولعل نقطة البداية تتمثل فى إعادة التفكير فى مفهوم "الاختلاف"، بحيث يتم فصل هذا المفهوم عن نمط التصورات الجوهرية والحدود التى اتسمت بها مفهوم "الاختلاف الاستعماري". وفى سياق الاتجاه النسائى لدى "البيض" ولدى "السود"، ترى أفثار براه Avtar Brah على سبيل المثال أنه لا ينبغى النظر إلى "البيض" و"السود" كفتتين متعارضتين ثابتتين الجوهر، بل "كمجالين طارئين للجدل فى إطار ممارسات خطابية ومادية". (1996:95) وهى تشير إلى الارتباط بين علامات "الاختلاف" مثل النوع، والطبقة، والعرق، والتوجه الجنسى، وتؤكد على أهمية الانتباه للعلاقات المتشابكة بين الأشكال المتنوعة للاختلافات الاجتماعية. (Ibid.: 95-6)

وقد أعدت أيريس يونج Iris Young دراسة تتبع منهج الفصل ما بين الاختلاف والتصورات الجوهرية نشرتها فى كتابها (1990) *Justice and the Politics of Difference* (العدالة وسياسة الاختلاف). وعلى الرغم من أنها تتناول تحديداً مفهوم تعدد الثقافات، والفردية، والحياة المجتمعية، فإن صياغتها الفكرية للاختلاف قد تفيد فى الجدل الذى يدور فى مجال منهجى ما بعد الاستعمار والاتجاه النسائى، وهى ترى أن

الاختلاف لا يعنى الآخر، وال ضد وحده، بل يعنى الخصوصية، والتنوع، والبعد عن التجانس. ويحدد الاختلاف علاقات تشابه ومغايرة لا يمكن اختزالها فى هويات تتعايش مع بعضها البعض أو فى آخر لا يمكن التداخل معه. فالاختلاف لم يعد يعنى حياة الجماعات خارج حدود بعضها البعض. وإذا قلنا أنه يوجد اختلاف بين جماعتين، فإن ذلك لا يعنى عدم وجود تداخل فى تجاربهما، أو أنه لا يوجد عامل مشترك بين الجماعتين. (Young, 1990:169-71)

ويمكن تطبيق منهج أيريس يونج في "الاختلاف" في أحد مستوياته على تحليلي لانعدام التجانس بين الجماعات والناشطات المصريات. فذلك المنهج يسمح بالاعتراف بالخصوصيات والتنوع داخل الحركة النسائية العلمانية، كما أنه يعطي مساحة لأرضية مشتركة تقام عليها سياسة تضامنية. وعلى مستوى آخر فإن تلك الصياغة الفكرية للاختلاف يمكن ترجمتها لتصف آليات الانفصال، والتفاعل، والانتقال بين الثقافات وخلالها. وفي الوقت ذاته، فإن الثقافة المصرية لا تزال على اتصالها بالثقافات الغربية وهي تقوم بتطويع انتقائي لبعض قيمها وممارساتها. ولا شك أن الثقافة الغربية والثقافة المصرية لا يشكلان وحدة ذات تجانس داخلي.

ولا يقتصر اختلاف تجارب النساء والثقافات المعينة التي استقرت فيها هذه التجارب على الاتصالات عبر الثقافات، بل يقع الاختلاف في حدود المجتمع الواحد. فعلى سبيل المثال، يوجد بمصر تجارب وظروف اجتماعية مختلفة تميز سيدات الطبقة الوسطى المتعلمة عن السيدات اللاتي ينتمين لطبقات أقل حظاً. وعلى الرغم من الاختلاف الكبير في الظروف الاجتماعية فإن أفراد المجموعتين يشتركان في بعض أشكال اضطهاد النوع، مثل خضوعهن لقانون الأحوال الشخصية. وبالمثل، وربما كانت هناك تجارب مشابهة ونقاط التقاء بين المصريات والنساء الغربيات التي تؤدي إلى تداخل القضايا التي يتناولنها. وعلى سبيل المثال، فإن السيدات المصريات قد يتعرضن أو لا يتعرضن لدرجة العنف نفسها التي ترتبط بالاغتصاب وضرب الزوجات في الغرب. غير أن السيدات المصريات يتعرضن لمظاهر عنف مختلفة مثل الضرب، والختان، والتحرش اللفظي والجسدي.

ولا يقدم دفاعي المرتبط بالاختلاف ضد التصور الجوهري حلاً كاملاً لمحاولة الوقوف على أرض ثابتة أثناء محاولة هزها. فآية إعادة لصياغة الاختلاف، على الرغم من كونها مبشرة ومصححة للأوضاع، لا تساعد في واقع الأمر على محو "الاختلاف" إذ أنه يدخل في تشكيل عدد كبير من المظالم ومظاهر عدم المساواة القائمة في أرجاء العالم. ولا شك أن عدم الاعتراف بوجود علاقات غير متساوية بين الشعوب، والجنسين، والطبقات يؤدي إلى "خدمة المضطهد" ويؤدي إلى قيام "اتجاه مثالي سابق لأوانه". (Eagleton, 1990:23-4) وبالتالي فإن الالتزام السياسي بمقاومة مظاهر عدم

المساواة يستدعى قيام التزام نقدي ببعض أشكال رواية العناصر الجوهرية. وقد يوفر مفهوم "التصورات الجوهرية الاستراتيجية" الذي قدمته جايتري سبيفاك Gayatri Spivak إطاراً مؤقتاً يمكن للصراعات السياسية أن تصاغ وتحارب من خلاله. ويرى مور-جيلبرت Moore-Gilbert أن أحد مزايا الاحتماء الاستراتيجي بالتصورات الجوهرية يكمن في أنها "تقدم إمكانية عقد تحالفات في "حرب المواقع" بأسلوب لا تُقدّم الخصوصية الثقافية على فعله". (1997:202)

إن الالتزام بـ"التصورات الجوهرية الاستراتيجية" يجنبنا الوقوع في فخ المفاهيم السائدة لـ"الاختلاف الجوهري" فحسب، إذا ما استخدمت استخداماً واعياً لأنها تمثل مجرد وسيلة سياسية وليس "حقيقة مطلقة". ويمكن للتحالفات السياسية بين الناشطات العلمانيات في مصر أن تركز على الالتزام الاستراتيجي بأهم النقاط، وهذه النقاط لا تقتصر على كونهن نساء مصريات، وإنما تمتد لمواقعهم الخاصة التي يساندن على أساسها العلمانية والعدالة الاجتماعية. وقد يشكل تصنيفهن كـ"ناشطات العالم الثالث" أيضاً، تحت ظروف معينة، وسيلة استراتيجية لصياغة التحالفات، والتصدي لقدرة الناشطات الغربيات على وضع البرامج. وحتى مفهوم "الهوية النسوية" يمكن أن يستدعى في سياقات خاصة حيث يمكن قيام التحالفات الاستراتيجية مع الناشطات الغربيات. غير أنه بغض النظر عن "ملجأ التصورات الجوهرية" الذي جرى اختياره فإن الهدف النهائي لا يجب أن يغيب عن الأنظار، ويتمثل ذلك الهدف في تغيير القيم، والخطابات، والممارسات التي تشير من خلالها علامات الاختلاف لعلامات عدم المساواة.

الهوامش

- (١) استعرت هذا المصطلح من بارثا تشاترجي Partha Chatterjee الذي ابتكره وضمه كتابه *The Nation and Its Fragments: Colonial and Postcolonial Histories* (الشعب وشظاياه: تواريخ الاستعمار وما بعده)
- (٢) أنظر Kaplan (1992) لمراجعة أمثلة عن الادعاءات التي توجّه ضد الناشطات الأوروبيات في مجتمعاتهن.
- (٣) يقدم براه (1996) Brah مدخلاً مبتكراً وكاشفاً لموضوع "الاختلاف" ومفاهيم الثقافة، والهوية، والشعب، في سياق زيادة حركة انتقال الشعوب ومجتمعات الشتات.
- (٤) في إشارة منه ليورجن هابرماس Jürgen Habermas يذكر ميللر أن: كى يكون المرء مستهلكاً فإن ذلك يعنى الوعي بأنه يعيش خلال صور وأشياء ليست من صنعه (Habermas, quoted in Miller (ed.), 1995; my italics) كما أن أشكال الاستهلاك تصبح مهمة من حيث التنوع بين الشعوب والثقافات في عهد ما بعد الاستعمار.

المحتويات

7 مقدمة
31 الفصل الأول : مواجهة إطارات المفاهيم
75 الفصل الثاني : وضع الحركة النسائية المصرية فى سياقها
121 الفصل الثالث : الذات وتعاقب الأجيال
181 الفصل الرابع : العلمانية
209 الفصل الخامس : من الأقوال إلى الأفعال
255 الفصل السادس : مرآة الثقافة السياسية فى عصر
295 الخاتمة : الوقوف بين المتغيرات

المشروع القومي للترجمة

المشروع القومي للترجمة مشروع تنمية ثقافية بالدرجة الأولى ، ينطلق من الإيجابيات التي حققتها مشروعات الترجمة التي سبقته في مصر والعالم العربي ويسعى إلى الإضافة بما يفتح الأفق على وعود المستقبل، معتمداً المبادئ التالية :

١- الخروج من أسر المركزية الأوروبية وهيمنة اللغتين الإنجليزية والفرنسية .

٢- التوازن بين المعارف الإنسانية في المجالات العلمية والفنية والفكرية والإبداعية .

٣- الانحياز إلى كل ما يؤسس لأفكار التقدم وحضور العلم وإشاعة العقلانية والتشجيع على التجريب .

٤- ترجمة الأصول المعرفية التي أصبحت أقرب إلى الإطار المرجعي في الثقافة الإنسانية المعاصرة، جنباً إلى جنب المنجزات الجديدة التي تضع القارئ في القلب من حركة الإبداع والفكر العالميين .

٥- العمل على إعداد جيل جديد من المترجمين المتخصصين عن طريق ورش العمل بالتنسيق مع لجنة الترجمة بالمجلس الأعلى للثقافة .

٦- الاستعانة بكل الخبرات العربية وتنسيق الجهود مع المؤسسات المعنية بالترجمة .

المشروع القومي للترجمة

ت : أحمد درويش	جون كوين	١ - اللغة العليا (طبعة ثانية)
ت : أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهو باننيكار	٢ - الوثنية والإسلام
ت : شوقي جلال	جورج جيمس	٣ - التراث المسروق
ت : أحمد الحضري	انجا كاريتنكوفا	٤ - كيف تتم كتابة السيناريو
ت : محمد علاء الدين منصور	إسماعيل فصيح	٥ - ثريا في غيبوبة
ت : سعد مصلوح / وفاء كامل فايد	ميلكا إفيتش	٦ - اتجاهات البحث اللساني
ت : يوسف الأنطكي	لوسيان غولدمان	٧ - العلوم الإنسانية والفلسفة
ت : مصطفى ماهر	ماكس فريش	٨ - مشعلو الحرائق
ت : محمود محمد عاشور	أندروس، جودي	٩ - التغيرات البيئية
ت : محمد معصم وعبد الجليل الأزدي وعمر حلي	جيرار جينيت	١٠ - خطاب الحكاية
ت : هناء عبد الفتاح	فيسوفا شيمبوريسكا	١١ - مختارات
ت : أحمد محمود	ديفيد براونستون وأيرين فرانك	١٢ - طريق الحرير
ت : عبد الوهاب علوب	روبرتسن سميث	١٣ - ديانة الساميين
ت : حسن المودن	جان بيلمان نويل	١٤ - التحليل النفسي والأدب
ت : أشرف رفيق عفيفي	إدوارد لويس سميث	١٥ - الحركات الفنية
ت : بإشراف / أحمد عثمان	مارتن برنال	١٦ - أثنية السودان
ت : محمد مصطفى بدوي	فيليب لاركين	١٧ - مختارات
ت : طلعت شاهين	مختارات	١٨ - الشعر النسائي في أمريكا اللاتينية
ت : نعيم عطية	جورج سفيريس	١٩ - الأعمال الشعرية الكاملة
ت: يمني طريف الخولي / بدوي عبد الفتاح	ج. ج. كراوثر	٢٠ - قصة العلم
ت : ماجدة المعناني	صمد بهرنجي	٢١ - خوذة وألف خوذة
ت : سيد أحمد علي الناصري	جون أنتيس	٢٢ - مذكرات رحالة عن المصريين
ت : سعيد توفيق	هانز جيورج جادامر	٢٣ - تجلي الجميل
ت : بكر عباس	باتريك بارندر	٢٤ - ظلال المستقبل
ت : إبراهيم الدسوقي شتا	مولانا جلال الدين الرومي	٢٥ - مثنوي
ت : أحمد محمد حسين هيكل	محمد حسين هيكل	٢٦ - دين مصر العام
ت : نخبه	مقالات	٢٧ - التنوع البشري الخلاق
ت : منى أبو سنه	جون لوك	٢٨ - رسالة في التسامح
ت : بدر الديب	جيمس ب. كارس	٢٩ - الموت والوجود
ت : أحمد فؤاد بليغ	ك. مادهو باننيكار	٣٠ - الوثنية والإسلام (ط٢)
ت : عبد الستار الحلوجي / عبد الوهاب علوب	جان سوفاجيه - كلود كاين	٣١ - مصادر دراسة التاريخ الإسلامي
ت : مصطفى إبراهيم فهمي	ديفيد روس	٣٢ - الانقراض
ت : أحمد فؤاد بليغ	أ. ج. هوبكنز	٣٣ - التاريخ الاقتصادي لإفريقيا الغربية
ت : حصه إبراهيم المنيف	روجر ألن	٣٤ - الرواية العربية
ت : خليل كلفت	بول ، ب. ديكسون	٣٥ - الأسطورة والحداثة

٣٦ - نظريات السرد الحديثة	والاس مارتن	ت : حياة جاسم محمد
٣٧ - واحة سيوة وموسيقاها	بريجيت شيفر	ت : جمال عبد الرحيم
٣٨ - نقد الحدأة	ألن تورين	ت : أنور مغيث
٣٩ - الإغريق والحسد	بيتر والكوت	ت : منيرة كروان
٤٠ - قصائد حب	آن سكستون	ت : محمد عيد إبراهيم
٤١ - ما بعد المركزية الأوربية	بيتر جران	ت : عاطف أحمد / إبراهيم قنص / محمود ماجد
٤٢ - عالم ماك	بنجامين بارير	ت : أحمد محمود
٤٣ - اللهب المزدوج	أوكتايفيو پات	ت : المهدي أخريف
٤٤ - بعد عدة أصياف	ألدوس هكسلي	ت : مارلين تادرس
٤٥ - التراث المغرور	روبرت ج دنيا - جون ف أ فاين	ت : أحمد محمود
٤٦ - عشرون قصيدة حب	بابلو نيرودا	ت : محمود السيد على
٤٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (١)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٤٨ - حضارة مصر الفرعونية	فرانسوا دوما	ت : ماهر جويجاتي
٤٩ - الإسلام في البلقان	ه . ت . نوري	ت : عبد الوهاب علوب
٥٠ - ألف ليلة وليلة أو القول الأسير	جمال الدين بن الشيخ	ت : محمد يرادة وعثمانى الميولد ويوسف الأظكى
٥١ - مسار الرواية الإسبانية الأمريكية	داريو بيانويبا وخ . م بينياليستي	ت : محمد أبو العطا
٥٢ - العلاج النفسى التدميمي	بيتر . ن . نوفاليس وستيفن . ج . روجسيفيتز وروجر بيل	ت : لطفى فطيم وعادل دمرداش
٥٣ - الدراما والتعليم	أ . ف . ألنجتون	ت : مرسى سعد الدين
٥٤ - المفهوم الإغريقي للمسرح	ج . مايكل والتون	ت : محسن مصيلحي
٥٥ - ما وراء العلم	جون بولكنجهوم	ت : على يوسف على
٥٦ - الأعمال الشعرية الكاملة (١)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود على مكى
٥٧ - الأعمال الشعرية الكاملة (٢)	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمود السيد ، ماهر البطوطى
٥٨ - مسرحيتان	فديريكو غرسية لوركا	ت : محمد أبو العطا
٥٩ - المحبرة	كارلوس مونييث	ت : السيد السيد سهيم
٦٠ - التصميم والشكل	جوهانز ايتين	ت : صبرى محمد عبد الفنى
٦١ - موسوعة علم الإنسان	شارلوت سيمور - سميث	مراجعة وإشراف : محمد الجوهري
٦٢ - لذة النص	رولان بارت	ت : محمد خير البقاعى .
٦٣ - تاريخ النقد الأدبي الحديث (٢)	رينيه ويليك	ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
٦٤ - برتراند راسل (سيرة حياة)	ألان وود	ت : رمسيس عوض .
٦٥ - فى مدح الكسل ومقالات أخرى	برتراند راسل	ت : رمسيس عوض .
٦٦ - خمس مسرحيات أندلسية	أنطونيو جالا	ت : عبد اللطيف عبد الحليم
٦٧ - مختارات	فرناندو بيسوا	ت : المهدي أخريف
٦٨ - نتاشا العجوز وقصص أخرى	فالنتين راسيوتين	ت : أشرف الصباغ
٦٩ - العالم الإسلامى فى أوائل القرن العشرين	عبد الرشيد إبراهيم	ت : أحمد فؤاد متولى وهويدا محمد فهمى
٧٠ - ثقافة وحضارة أمريكا اللاتينية	أوخينيو تشانج رودريجت	ت : عبد الحميد غلاب وأحمد حشاد
٧١ - السيدة لا تصلح إلا للرمى	داريو فو	ت : حسين محمود

- ٧٢ - السياسي العجوز
٧٣ - نقد استجابة القارئ
٧٤ - صلاح الدين والمماليك في مصر
٧٥ - فن التراجم والسير الذاتية
٧٦ - چاك لاكان وإغواء التحليل النفسي
٧٧ - تاريخ النقد الأدبي الحديث ج ٣
٧٨ - العولمة: النخارية الاجتماعية والثقافة الكونية
٧٩ - شعرية التأليف
٨٠ - بوشكين عند «نافورة الدموع»
٨١ - الجماعات المتخيلة
٨٢ - مسرح ميغيل
٨٣ - مختارات
٨٤ - موسوعة الأدب والنقد
٨٥ - منصور الحلاج (مسرحية)
٨٦ - طول الليل
٨٧ - نون والقلم
٨٨ - الابتلاء بالغرب
٨٩ - الطريق الثالث
٩٠ - رسم السيف (قصص)
٩١ - المسرح والتجريب بين النظرية والتطبيق
٩٢ - أساليب ومضامين المسرح الإسباني المعاصر
٩٣ - محدثات العولمة
٩٤ - الحب الأول والصحة
٩٥ - مختارات من المسرح الإسباني
٩٦ - ثلاث زنبقات ووردة
٩٧ - هوية فرنسا (مج ١)
٩٨ - الهم الإنساني والابتزاز الصهيوني
٩٩ - تاريخ السينما العالمية
١٠٠ - مساعلة العولمة
١٠١ - النص الروائي (تقنيات ومناهج)
١٠٢ - السياسة والتسامح
١٠٣ - قبر ابن عربي يليه آباء
١٠٤ - أوبرا ماهوجنى
١٠٥ - مدخل إلى النص الجامع
١٠٦ - الأدب الأندلسي
١٠٧ - مررة الفدائي في الشعر الأمريكي المعاصر
- ت . س . إليوت
چين . ب . توميكنز
ل . ا . سيمينوفا
أندريه موروا
مجموعة من الكتاب
رينيه ويليك
رونالد روبرتسون
بوريس أوسبنسكى
ألكسندر بوشكين
بندكت أندرسن
ميغيل دى أونامونو
غوتفريد بن
مجموعة من الكتاب
صلاح زكى أقطاى
جمال مير صادقى
جلال آل أحمد
جلال آل أحمد
أنتونى جينز
نخبة من كتاب أمريكا اللاتينية
باربر الاسوستكا
كارلوس ميغل
مايك فيذرستون وسكوت لاش
صمويل بيكيت
أنطونيو بوپرو بايخو
قصص مختارة
فرنان برودل
نماذج ومقالات
ديفيد روبنسون
بول هيرست وجراهام توميسون
بيرنار فاليط
عبد الكريم الخطيبى
عبد الوهاب المؤيد
برتوات بريشت
چيرارچينيت
د . ماريا خيسوس روبييرامتى
نخبة
- ت : فؤاد مجلى
ت : حسن ناظم وعلى حاكم
ت : حسن بيومى
ت : أحمد درويش
ت : عبد المقصود عبد الكريم
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : أحمد محمود ونورا أمين
ت : سعيد الغانمى وناصر حلاوى
ت : مكارم الغمرى
ت : محمد طارق الشرقاوى
ت : محمود السيد على
ت : خالد المعالى
ت : عبد الحميد شبيحة
ت : عبد الرازق بركات
ت : أحمد فتحى يوسف شتا
ت : ماجدة العنانى
ت : إبراهيم الدسوقى شتا
ت : أحمد زايد ومحمد محيى الدين
ت : محمد إبراهيم مبروك
ت : محمد هناء عبد الفتاح
ت : نادية جمال الدين
ت : عبد الوهاب علوب
ت : فوزية العشماوى
ت : سرى محمد محمد عبد اللطيف
ت : إدوار الخراط
ت : بشير السباعى
ت : أشرف الصباغ
ت : إبراهيم قنديل
ت : إبراهيم فتحى
ت : رشيد بنحو
ت : عز الدين الكتانى الإدريسى
ت : محمد بنيس
ت : عبد الغفار مكاوى
ت : عبد العزيز شبيب
ت : أشرف على دعور
ت : محمد عبد الله الجعيدى

- ١٠٨ - ثلاث دراسات عن الشعر الأثلسي مجموعة من النقاد
١٠٩ - حروب المياه چون بولوك وعادل درويش
١١٠ - النساء في العالم النامي حسنة بيجوم
١١١ - المرأة والجريمة فرانسيس هيندسون
١١٢ - الاحتجاج الهادئ أرلين علوى ماكليود
١١٣ - راية التمرد سادى پلانث
١١٤ - مسرحيًا حصاد كرنجى وسكان المستنقع وول شوينكا
١١٥ - غرفة تخص المرء وحده فرجينيا وواف
١١٦ - امرأة مختلفة (درية شفيق) سينثيا نلسون
١١٧ - المرأة والجنوسة فى الإسلام لىلى أحمد
١١٨ - النهضة النسائية فى مصر بث بارون
١١٩ - النساء والأسرة وقوانين الطلاق أميرة الأزهرى سنيل
١٢٠ - الحركة النسائية والتطور فى الشرق الأوسط لىلى أبو لغد
١٢١ - الدليل الصغير فى كتابة المرأة العربية فاطمة موسى
١٢٢ - نظام العبودية القويم ونموذج الإنسان جوزيف فوجت
١٢٣ - الإمبراطورية العثمانية وعلاقتها النوبية نيل الكسندر وفنادولينا
١٢٤ - الفجر الكاذب چون جراى
١٢٥ - التحليل الموسيقى سيدريك ثورپ ديفى
١٢٦ - فعل القراءة قولفانج إيسر
١٢٧ - إرهاب صفاء فتحى
١٢٨ - الأدب المقارن سوزان باسنيت
١٢٩ - الرواية الاسبانية المعاصرة ماريا دولورس أسيس جاروته
١٣٠ - الشرق يصعد ثانية أندريه جوند فرانك
١٣١ - مصر القنينة (التاريخ الاجتماعى) مجموعة من المؤلفين
١٣٢ - ثقافة العولة مايك فيذرستون
١٣٣ - الخوف من المرايا طارق على
١٣٤ - تشريح حضارة بارى ج. كيمب
١٣٥ - المختار من نقد ت. س. إلبوت (ثلاثة أجزاء) ت. س. إلبوت
١٣٦ - فلاحو الباشا كينيث كونو
١٣٧ - منكرات ضابط فى الحملة الفرنسية جوزيف ماري مواريه
١٣٨ - عالم التليفزيون بين الجمال والعنف إيفالينا تارونى
١٣٩ - پارسيقال ريشارد فاچنر
١٤٠ - حيث تلتقى الأنهار هيرت ميسن
١٤١ - اثنتا عشرة مسرحية يونانية مجموعة من المؤلفين
١٤٢ - الإسكندرية : تاريخ ودليل أ. م. فورستر
١٤٣ - قضيا التطير فى البحث الاجتماعى ديريك لايدار
١٤٤ - صاحبة اللوكاندة كارلو جولونى
- ت : محمود على مكى
ت : هاشم أحمد محمد
ت : منى قطان
ت : ريهام حسين إبراهيم
ت : إكرام يوسف
ت : أحمد حسان
ت : نسيم مجلى
ت : سمىة رمضان
ت : نهاد أحمد سالم
ت : منى إبراهيم ، وهالة كمال
ت : ليس النقاش
ت : بإشراف/ رؤوف عباس
ت : نخبة من المترجمين
ت : محمد الجندى ، وإيزابيل كمال
ت : منيرة كروان
ت : أنور محمد إبراهيم
ت : أحمد فؤاد بلبع
ت : سمحه الخولى
ت : عبد الوهاب علوب
ت : بشير السباعى
ت : أميرة حسن نويرة
ت : محمد أبو العطا وآخرون
ت : شوقى جلال
ت : لويس بقطر
ت : عبد الوهاب علوب
ت : طلعت الشايب
ت : أحمد محمود
ت : ماهر شفيق فريد
ت : سحر توفيق
ت : كاميليا صبحى
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : مصطفى ماهر
ت : أمل الجبورى
ت : نعيم عطية
ت : حسن بيومى
ت : عدلى السمرى
ت : سلامة محمد سليمان

- ١٤٥ - موت أرتيميو كروث كارلوس فويتنتس
١٤٦ - الورقة الحمراء ميغيل دي ليبس
١٤٧ - خطبة الإدانة الطويلة تانكريد دورست
١٤٨ - القصة القصيرة (النظرية والتقنية) إنريكي أندرسون إمبرت
١٤٩ - النظرية الشعرية عند إليوت وألونيس عاطف فضول
١٥٠ - التجربة الإغريقية روبرت ج. إيتمان
١٥١ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ١) فرنان برودل
١٥٢ - عدالة الهنود وقصص أخرى نخبة من الكتاب
١٥٣ - غرام الفراعة فيولين فاتويك
١٥٤ - مدرسة فرانكفورت فيل سليتر
١٥٥ - الشعر الأمريكي المعاصر نخبة من الشعراء
١٥٦ - المدارس الجمالية الكبرى جي أنبال وآلان وأوديت فيرمو
١٥٧ - خسرو وشيرين النظامى الكنجوى
١٥٨ - هوية فرنسا (مج ٢ ، ج ٢) فرنان برودل
١٥٩ - الإيديولوجية ديفيد هوكس
١٦٠ - آلة الطبيعة بول إيرايش
١٦١ - من المسرح الإسباني اليخاندرو كاسونا وأنطونيو جالا
١٦٢ - تاريخ الكنيسة يوحنا الأسويى
١٦٣ - موسوعة علم الاجتماع ج ١ جوردون مارشال
١٦٤ - شامبوليون (حياة من نور) جان لاكوثير
١٦٥ - حكايات الثلج أ. ن أفانا سيفا
١٦٦ - العلاقات بين المتدينين واللمانين في إسرائيل يشعياهو ليفمان
١٦٧ - في عالم طاغور رابندرانات طاغور
١٦٨ - دراسات في الأدب والثقافة مجموعة من المؤلفين
١٦٩ - إبداعات أدبية مجموعة من المبدعين
١٧٠ - الطريق ميغيل دلبيس
١٧١ - وضع حد فرانك بيجو
١٧٢ - حجر الشمس مختارات
١٧٣ - معنى الجمال ولتر ت. ستيس
١٧٤ - صناعة الثقافة السوداء ايليس كاشمور
١٧٥ - التلفزيون في الحياة اليومية لورينزو فيلشس
١٧٦ - نحو مفهوم للاقتصاديات البيئية توم تيتنبرج
١٧٧ - أنطون تشيخوف هنرى تروايا
١٧٨ - مختارات من الشعر اليوناني الحديث نخبة من الشعراء
١٧٩ - حكايات أيسوب أيسوب
١٨٠ - قصة جاويد إسماعيل فصيح
١٨١ - النقد الأدبي الأمريكي فنسنت . ب . ليتش
- ت : أحمد حسان
ت : على عبد الرؤوف البمبى
ت : عبد الغفار مكاوى
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : أسامة إسبر
ت : منيرة كروان
ت : بشير السباعى
ت : محمد محمد الخطابى
ت : فاطمة عبد الله محمود
ت : خليل كلفت
ت : أحمد مرسى
ت : مى التمساني
ت : عبد العزيز بقوش
ت : بشير السباعى
ت : إبراهيم فتحى
ت : حسين بيومى
ت : زيدان عبد الحليم زيدان
ت : صلاح عبد العزيز محبوب
ت : بإشراف : محمد الجوهري
ت : نبيل سعد
ت : سهير المصادفة
ت : محمد محمود أبو غدير
ت : شكرى محمد عياد
ت : شكرى محمد عياد
ت : شكرى محمد عياد
ت : بسام ياسين رشيد
ت : هدى حسين
ت : محمد محمد الخطابى
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : أحمد محمود
ت : وجيه سمعان عبد المسيح
ت : جلال المينا
ت : حصه إبراهيم منيف
ت : محمد حمدى إبراهيم
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : سليم عبدالأمير حمدان
ت : محمد يحيى

- ١٨٢ - العنف والغبوة و . ب . بيتس
١٨٣ - جان كوكو على شاشة السينما رينيه چيلسون
١٨٤ - القاهرة . . حالة لا تتام هانز إيندورفر
١٨٥ - أسفار العهد القديم توماس تومسن
١٨٦ - معجم مصطلحات هيجل ميخائيل أنوود
١٨٧ - الأرضة يَزْرَجْ علوى
١٨٨ - موت الأدب الفين كرنان
١٨٩ - العمى والبصيرة پول دى مان
١٩٠ - محاورات كونفوشيوس كونفوشيوس
١٩١ - الكلام وأسما الحاج أبو بكر إمام
١٩٢ - سياحتنا إبراهيم بيك زين العابدين المراغى
١٩٣ - عامل المنجم بيتر أبراهامز
١٩٤ - مختارات من النقد الأجلو-أمريكى مجموعة من النقاد
١٩٥ - شتاء ٨٤ إسماعيل فصيح
١٩٦ - المهلة الأخيرة فالنتين راسبوتين
١٩٧ - الفاروق شمس العلماء شبلى النعمانى
١٩٨ - الاتصال الجماهيرى إدوين إمري وآخرون
١٩٩ - تاريخ يهود مصر فى الفترة العثمانية يعقوب لاندوى
٢٠٠ - ضحايا التنمية جيرمى سيبروك
٢٠١ - الجانب الدينى للفلسفة جوزايا رويس
٢٠٢ - تاريخ النقد الألبى الحديث جء رينيه ويليك
٢٠٣ - الشعر والشاعرية أطاف حسين حالى
٢٠٤ - تاريخ نقد العهد القديم زلمان شاناز
٢٠٥ - الجينات والشعوب واللغات لويجى لوقا كافالى - سفورزا
٢٠٦ - الهبولة تصنع علماً جديداً جيمس جلايك
٢٠٧ - ليل إفريقي رامون خوتاسنديز
٢٠٨ - شخصية العربي فى المسرح الإسرائيلى دان أوريان
٢٠٩ - السرمد والمسرح مجموعة من المؤلفين
٢١٠ - مثنويات حكيم سنائى سنائى الغزنوى
٢١١ - فردينان دوسوسير جوناثان كلر
٢١٢ - قصص الأمير مرزبان مرزبان بن رستم بن شروين
٢١٣ - مصر منذ قدم نابليون حتى رحيل عبد الناصر ريمون فلاور
٢١٤ - قواعد جديدة للمنهج فى علم الاجتماع أنتونى جيدنز
٢١٥ - سياحت نامه إبراهيم بيك جء زين العابدين المراغى
٢١٦ - جوانب أخرى من حياتهم مجموعة من المؤلفين
٢١٧ - مسرحيتان طليعتان صمويل بيكيت
٢١٨ - رايولا خوليو كورتازان
- ت : ياسين طه حافظ
ت : فتحى العشرى
ت : دسوقى سعيد
ت : عبد الوهاب علوب
ت : إمام عبد الفتاح إمام
ت : علاء منصور
ت : بدر الديب
ت : سعيد الغانمى
ت : محسن سيد فرجاني
ت : مصطفى حجازى السيد
ت : محمود سلامة علاوى
ت : محمد عبد الواحد محمد
ت : ماهر شفيق فريد
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : أشرف الصباغ
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : إبراهيم سلامة إبراهيم
ت : جمال أحمد الرفاعى وأحمد عبد اللطيف حماد
ت : فخرى لبيب
ت : أحمد الأنصارى
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : أحمد محمود هويدى
ت : أحمد مستجير
ت : على يوسف على
ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف
ت : محمد أحمد صالح
ت : أشرف الصباغ
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : محمود حمدي عبد الفنى
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : سيد أحمد على الناصرى
ت : محمد محمود محى الدين
ت : محمود سلامة علاوى
ت : أشرف الصباغ
ت : نادية البنهاوى
ت : على إبراهيم على منونى

ت : طلعت الشايب	كانزو ايشجورو	٢١٩ - بقايا اليوم
ت : على يوسف على	بارى باركر	٢٢٠ - الهيولية فى الكون
ت : رفعت سلام	جريجورى جوزدانيس	٢٢١ - شعرية كفاى
ت : نسيم مجلى	رونالد جراى	٢٢٢ - فرانز كافكا
ت : السيد محمد نفاى	بول فيراپنر	٢٢٣ - العلم فى مجتمع حر
ت : منى عبد الظاهر إبراهيم السيد	برانكا ماجاس	٢٢٤ - دمار يوغسلافيا
ت : السيد عبد الظاهر عبد الله	جابرييل جارثيا ماركت	٢٢٥ - حكاية فريق
ت : طاهر محمد على البربرى	ديفيد هريت لورانس	٢٢٦ - أرض المساء وقصائد أخرى
ت : السيد عبد الظاهر عبد الله	موسى مارديا ديف بوركى	٢٢٧ - المسرح الإسباني فى القرن السابع عشر
ت : ماري تيريز عبد المسيح وخالد حسن	جانيت وولف	٢٢٨ - علم الجمالية وعلم اجتماع الفن
ت : أمير إبراهيم العمري	نورمان كيماي	٢٢٩ - مازق البطل الوحيد
ت : مصطفى إبراهيم فهمى	فرانسواز جاكوب	٢٣٠ - عن الذباب والفتران والبشر
ت : جمال أحمد عبد الرحمن	خايمي سالوم بيدال	٢٣١ - الدرافيل
ت : مصطفى إبراهيم فهمى	توم ستينز	٢٣٢ - ما بعد المعلومات
ت : طلعت الشايب	أرثر هيرمان	٢٣٣ - فكرة الاضمحلال
ت : فؤاد محمد عكود	ج. سبنسر تريمنجهام	٢٣٤ - الإسلام فى السودان
ت : إبراهيم الدسوقي شتا	جلال الدين الرومى	٢٣٥ - ديوان شمس تبريزى ج ١
ت : أحمد الطيب	ميشيل تود	٢٣٦ - الولاية
ت : عنايات حسين طلعت	روين فيدين	٢٣٧ - مصر أرض الوادى
ت : ياسر محمد جاد الله وعربى منبولى أحمد	الانكتاد	٢٣٨ - العولة والتحرير
ت : نادية سليمان حافظ وإيهاب صلاح فايق	جيلارافر - رايوخ	٢٣٩ - العربى فى الأدب الإسرائيلى
ت : صلاح عبد العزيز محمود	كامى حافظ	٢٤٠ - الإسلام والغرب وإمكانية الحوار
ت : ابتسام عبد الله سعيد	ك. م كويتز	٢٤١ - فى انتظار البرابرة
ت : هبرى محمد حسن عبد النبى	وليام إمبسون	٢٤٢ - سبعة أنماط من الغموض
ت : مجموعة من المترجمين	ليفى بروفنسال	٢٤٣ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ١
ت : نادية جمال الدين محمد	لاورا إسكييل	٢٤٤ - الغليان
ت : توفيق على منصور	إيزابييتا أديس	٢٤٥ - نساء مقاتلات
ت : على إبراهيم على منوفى	جابرييل جرثيا ماركت	٢٤٦ - قصص مختارة
ت : محمد الشرقاوى	ولتر أرمبرست	٢٤٧ - الثقافة الجماهيرية والحدائق فى مصر
ت : عبد اللطيف عبد الحلیم	أنطونيو جالا	٢٤٨ - حقول عدن الخضراء
ت : رفعت سلام	دراجو شتامبوك	٢٤٩ - لغة التمزق
ت : ماجدة أباطة	دومنيك فينك	٢٥٠ - علم اجتماع العلوم
ت : بإشراف : محمد الجوهري	جوردون مارشال	٢٥١ - موسوعة علم الاجتماع ج ٢
ت : على بدران	مارجو بدران	٢٥٢ - رائدات الحركة النسوية المصرية
ت : حسن بيومى	ل. أ. سيمينوفا	٢٥٣ - تاريخ مصر الفاطمية
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ديف روبنسون وجودى جروفز	٢٥٤ - الفلسفة
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ديف روبنسون وجودى جروفز	٢٥٥ - أفلاطون

ت : إمام عبد الفتاح إمام	ديف روبنسون وجودي جروفز	٢٥٦ - ديكرات
ت : محمود سيد أحمد	وليم كلى رايت	٢٥٧ - تاريخ الفلسفة الحديثة
ت : عبادة كُحيلة	سير أنجوس فريزر	٢٥٨ - الفجر
ت : قاروجان كازانچيان	نخبة	٢٥٩ - مختارات من الشعر الأرمني
ت بإشراف : محمد الجوهري	جوردون مارشال	٢٦٠ - موسوعة علم الاجتماع ج٢
ت : إمام عبد الفتاح إمام	زكى نجيب محمود	٢٦١ - رحلة في فكر زكى نجيب محمود
ت : محمد أبو العطا عبد الرؤوف	إدوارد مندوتا	٢٦٢ - مدينة المعجزات
ت : على يوسف على	جون جرين	٢٦٣ - الكشف عن حافة الزمن
ت : لويس عوض	هوراس / شلى	٢٦٤ - إبداعات شعرية مترجمة
ت : لويس عوض	أوسكار وايلد وصموئيل جونسون	٢٦٥ - روايات مترجمة
ت : عادل عبد المنعم سويلم	جلال آل أحمد	٢٦٦ - مدير المدرسة
ت : بدر الدين عرودى	ميلان كونديرا	٢٦٧ - فن الرواية
ت : إبراهيم الدسوقي شتا	جلال الدين الرومى	٢٦٨ - ديوان شمس تبريزى ج٢
ت : صبرى محمد حسن	وليم جيفور بالجريف	٢٦٩ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج١
ت : صبرى محمد حسن	وليم جيفور بالجريف	٢٧٠ - وسط الجزيرة العربية وشرقها ج٢
ت : شوقى جلال	توماس سى ، باترسون	٢٧١ - الحضارة الغربية
ت : إبراهيم سلامة	س، س، والترز	٢٧٢ - الأديرة الأثرية فى مصر
ت : عنان الشهاوى	جوان آر. لوك	٢٧٣ - الاستعمار والثورة فى الشرق الأوسط
ت : محمود على مكى	روماو جلاجوس	٢٧٤ - السيدة بربارا
ت : ماهر شفيق فريد	أقلام مختلفة	٢٧٥ - س، س، إريت شامر، وناقد، وكاتب مسرحياً
ت : عبد القادر التلمسانى	فرانك جوتيران	٢٧٦ - فنون السينما
ت : أحمد فوزى	بريان فورد	٢٧٧ - الجينات : الصراع من أجل الحياة
ت : ظريف عبد الله	إسحق عظيموف	٢٧٨ - البدايات
ت : طلعت الشايب	فرانسيس ستونر سوندرز	٢٧٩ - الحرب الباردة الثقافية
ت : سمير عبد الحميد	بريم شند وآخرون	٢٨٠ - من الأدب الهندى الحديث والمعاصر
ت : جلال الحفناوى	مولانا عبد الحليم شرر الكهنوى	٢٨١ - الفردوس الأعلى
ت : سمير حنا صادق	لويس وايبرت	٢٨٢ - طبيعة العلم غير الطبيعية
ت : على البمبى	خوان روافو	٢٨٣ - السهل يحترق
ت : أحمد عتمان	يوريبيدس	٢٨٤ - هرقل مجنوناً
ت : سمير عبد الحميد	حسن نظامى	٢٨٥ - رحلة الخواجة حسن نظامى
ت : محمود سلامة علاوى	زين العابدين المراغى	٢٨٦ - رحلة إبراهيم بك ج٢
ت : محمد يحيى وآخرون	أنتونى كينج	٢٨٧ - الثقافة والعولة والنظام العالمى
ت : ماهر البطوطى	ديفيد لودج	٢٨٨ - الفن الروائى
ت : محمد نور الدين	أبو نجم أحمد بن قوص	٢٨٩ - ديوان منجوهري الدامغانى
ت : أحمد زكريا إبراهيم	جورج موان	٢٩٠ - علم اللغة والترجمة
ت : السيد عبد الظاهر	فرانشيسكو رويس رامون	٢٩١ - المسرح الإيبانى فى القرن العشرين ج١
ت : السيد عبد الظاهر	فرانشيسكو رويس رامون	٢٩٢ - المسرح الإيبانى فى القرن العشرين ج٢

ت : نخبة من المترجمين	روجر آلان	٢٩٣ - مقدمة للأدب العربي
ت : رجاء ياقوت صالح	بوالو	٢٩٤ - فن الشعر
ت : بدر الدين حب الله الديب	جوزيف كامبل	٢٩٥ - سلطان الأسطورة
ت : محمد مصطفى يدوي	وايم شكسبير	٢٩٦ - مكبث
ت : ماجدة محمد أنور	ديونيسيوس ثراكس - يوسف الأهواني	٢٩٧ - فن النحويين اليونانية والسوريانية
ت : مصطفى حجازي السيد	أبو بكر تافوايليوه	٢٩٨ - مأساة العبيد
ت : هاشم أحمد فؤاد	جين ل. ماركس	٢٩٩ - ثورة التكنولوجيا الحيوية
ت : جمال الجزيري وبهاء جاهين	لويس عوض	٣٠٠ - أسطورة برومئوس مج١
ت : جمال الجزيري ومحمد الجندي	لويس عوض	٣٠١ - أسطورة برومئوس مج٢
ت : إمام عبد الفتاح إمام	جون هيتون وجودي جروفز	٣٠٢ - فنجنشتين
ت : إمام عبد الفتاح إمام	جين هوب وبورن فان لون	٣٠٣ - بوذا
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ريوس	٣٠٤ - ماركس
ت : صلاح عبد الصبور	كروزيو مالابارته	٣٠٥ - الجلد
ت : نبيل سعد	جان - فرانسوا ليوتار	٣٠٦ - الحماسة - النقد الكانطي للتاريخ
ت : محمود محمد أحمد	ديفيد باينيو	٣٠٧ - الشعور
ت : ممدوح عبد المنعم أحمد	ستيف جونز	٣٠٨ - علم الوراثة
ت : جمال الجزيري	انجوس چيلاتي	٣٠٩ - الذهن والمخ
ت : محيي الدين محمد حسن	ناجي هيد	٣١٠ - يونج
ت : فاطمة إسماعيل	كوانجود	٣١١ - مقال في المنهج الفلسفي
ت : أسعد حليم	وليم دي بويرز	٣١٢ - روح الشعب الأسود
ت : عبد الله الجعدي	خاير بيان	٣١٣ - أمثال فلسطينية
ت : هويدا السباعي	جينس مينيك	٣١٤ - الفن كعدم
ت : كاميليا صبحي	ميشيل بروندينو	٣١٥ - جرامشي في العالم العربي
ت : نسيم مجلى	أ. ف. ستون	٣١٦ - محاكمة سقراط
ت : أشرف الصباغ	شير لايموفا - زنيكين	٣١٧ - بلاغذ
ت : أشرف الصباغ	نخبة	٣١٨ - الأدب الروسي في السنوات العشر الأخيرة
ت : حسام نايل	جايتز ياسييفاك وكريستوفر نوريس	٣١٩ - صور دريدا
ت : محمد علاء الدين منصور	مؤلف مجهول	٣٢٠ - لمعة السراج لخصرة التاج
ت : نخبة من المترجمين	ليفى بروفنسال	٣٢١ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج٢
ت : خالد مفلح حمزة	دبليو. إيوجين كلينباور	٣٢٢ - وجهات نظر حيية في تاريخ الفن الغربي
ت : هانم سليمان	تراث يوناني قديم	٣٢٣ - فن الساتورا
ت : محمود سلامة علاوي	أشرف أسدي	٣٢٤ - اللعب بالنار
ت : كرستين يوسف	فيليب بوسان	٣٢٥ - عالم الآثار
ت : حسن صقر	جورجين هابرماس	٣٢٦ - المعرفة والمصلحة
ت : توفيق على منصور	نخبة	٣٢٧ - مختارات شعرية مترجمة
ت : عبد العزيز بقوش	نور الدين عبد الرحمن بن أحمد	٣٢٨ - يوسف وزليخة
ت : محمد عيد إبراهيم	تد هيوز	٣٢٩ - رسائل عيد الميلاد

- ٢٣٠ - كل شيء عن التمثيل الصامت مارفن شبرد
٢٣١ - عندما جاء السردين ستيفن جراي
٢٣٢ - رحلة شهر العسل وقصص أخرى نخبة
٢٣٣ - الإسلام في بريطانيا نبيل مطر
٢٣٤ - لقطات من المستقبل آرثر س. كلارك
٢٣٥ - عصر الشك ناتالي ساروت
٢٣٦ - متون الأهرام نصوص قديمة
٢٣٧ - فلسفة الولاء جوزايا رويس
٢٣٨ - نظرات حائرة وقصص أخرى من الهند نخبة
٢٣٩ - تاريخ الأدب في إيران ج٢ على أصغر حكمت
٢٤٠ - اضطراب في الشرق الأوسط بيرش بيربيروجلو
٢٤١ - قصائد من رلكه راينر ماريا رلكه
٢٤٢ - سلمان وأبسال نور الدين عبد الرحمن بن أحمد
٢٤٣ - العالم البرجوازي الزائل نادين جورديمر
٢٤٤ - الموت في الشمس بيتر بلانجوه
٢٤٥ - الركض خلف الزمن بونه ندائى
٢٤٦ - سحر مصر رشاد رشدى
٢٤٧ - الصبية الطائشون جان كوكتو
٢٤٨ - التصوف الأولون في الأدب التركي جا محمد فؤاد كوبريلى
٢٤٩ - دليل القارئ إلى الثقافة الجادة آرثر والدرون وآخرين
٢٥٠ - بانوراما الحياة السياحية أقلام مختلفة
٢٥١ - مبادئ المنطق جوزايا رويس
٢٥٢ - قصائد من كفافيس قسطنطين كفافيس
٢٥٣ - الفن الإسلامى في الأندلس (هندسية) باسيليو بابون مالدونالد
٢٥٤ - الفن الإسلامى في الأندلس (نباتية) باسيليو بابون مالدونالد
٢٥٥ - التيارات السياسية في إيران حجت مرتضى
٢٥٦ - الميراث المر بول سالم
٢٥٧ - متون هيرميس نصوص قديمة
٢٥٨ - أمثال الهوسا العامية نخبة
٢٥٩ - محاورات بارمنيدس أفلاطون
٢٦٠ - أنثروبولوجيا اللغة أندريه جاكوب ونويلا باركان
٢٦١ - التصحر : التهديد والمجابهة آلان جرينجر
٢٦٢ - تلميذ باينبرج هاينرش شبورال
٢٦٣ - حركات التحرر الأفريقى ريتشارد جيبسون
٢٦٤ - حادثة شكسبير إسماعيل سراج الدين
٢٦٥ - سأم باريس شارل بوداير
٢٦٦ - نساء يركضن مع الذئاب كلاريسا بنكولا
- ت : سامى صلاح
ت : سامية دياب
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : بكر عباس
ت : مصطفى فهمى
ت : فتحى العشرى
ت : حسن صابر
ت : أحمد الأنصارى
ت : جلال السعيد الحفناوى
ت : محمد علاء الدين منصور
ت : فخرى لبيب
ت : حسن حلمى
ت : عبد العزيز بقوش
ت : سمير عبد ربه
ت : سمير عبد ربه
ت : يوسف عبد الفتاح فرج
ت : جمال الجزيرى
ت : بكر الطلو
ت : عبد الله أحمد إبراهيم
ت : أحمد عمر شاهين
ت : عطية شحاتة
ت : أحمد الأنصارى
ت : نعيم عطية
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : على إبراهيم على منوفى
ت : محمود سلامة علاوى
ت : بدر الرفاعى
ت : عمر الفاروق عمر
ت : مصطفى حجازى السيد
ت : حبيب الشارونى
ت : ليلى الشربيني
ت : عاطف معتمد وآمال شاور
ت : سيد أحمد فتح الله
ت : صبرى محمد حسن
ت : نجلاء أبو عجاج
ت : محمد أحمد حمد
ت : مصطفى محمود محمد

ت : البراق عبد الهادي رضا	نخبة	٣٦٧ - القلم الجريء
ت : عابد خزندار	جيرالد برنس	٣٦٨ - المصطلح السردي
ت : فوزية العشماوي	فوزية العشماوي	٣٦٩ - المرأة في أدب نجيب محفوظ
ت : فاطمة عبد الله محمود	كليلا لويت	٣٧٠ - الفن والحياة في مصر الفرعونية
ت : عبد الله أحمد إبراهيم	محمد فؤاد كوبريلي	٣٧١ - التصوف الأوان في الأدب التركي ج٢
ت : وحيد السعيد عبد الحميد	وانغ مينغ	٣٧٢ - عاش الشباب
ت : علي إبراهيم علي منوفي	أمبرتو إيكي	٣٧٣ - كيف تعد رسالة دكتوراه
ت : حمادة إبراهيم	أندرية شديد	٣٧٤ - اليوم السادس
ت : خالد أبو اليزيد	ميلان كونديرا	٣٧٥ - الخلود
ت : إنبوار الخراط	نخبة	٣٧٦ - الغضب وأحلام السنين
ت : محمد علاء الدين منصور	علي أصغر حكمت	٣٧٧ - تاريخ الأدب في إيران ج٤
ت : يوسف عبد الفتاح فرج	محمد إقبال	٣٧٨ - المسافر
ت : جمال عبد الرحمن	سنيل باث	٣٧٩ - ملك في الحديقة
ت : شيرين عبد السلام	جونتر جراس	٣٨٠ - حديث عن الخسارة
ت : رانيا إبراهيم يوسف	ر. ل. تراسك	٣٨١ - أساسيات اللغة
ت : أحمد محمد نادي	بهاء الدين محمد إسفنديار	٣٨٢ - تاريخ طبرستان
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم	محمد إقبال	٣٨٣ - هدية الحجاز
ت : إيزابيل كمال	سوزان إنجيل	٣٨٤ - القصص التي يحكيها الأطفال
ت : يوسف عبد الفتاح فرج	محمد علي بهزادراد	٣٨٥ - مشتري العشق
ت : ريهام حسين إبراهيم	جانيت تود	٣٨٦ - نفاغاً عن التاريخ الأنبي النسوي
ت : بهاء جاهين	چون دن	٣٨٧ - أغنيات وسوناتات
ت : محمد علاء الدين منصور	سعدى الشيرازي	٣٨٨ - مواعظ سعدى الشيرازي
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم	نخبة	٣٨٩ - من الأدب الباكستاني المعاصر
ت : عثمان مصطفى عثمان	نخبة	٣٩٠ - الأرشيفات والمدن الكبرى
ت : منى الدروبي	مايف بينشي	٣٩١ - العاقلة الليكية
ت : عبد اللطيف عبد الحلیم	فرناندو دي لاجرانخا	٣٩٢ - مقامات ورسائل أندلسية
ت : نخبة	ندوة لويس ماسينيون	٣٩٣ - في قلب الشرق
ت : هاشم أحمد محمد	بول ديفيز	٣٩٤ - القوى الأربع الأساسية في الكون
ت : سليم حمدان	إسماعيل فصیح	٣٩٥ - الام سياوش
ت : محمود سلامة علاوي	تقي نجاري راد	٣٩٦ - السافاك
ت : إمام عبد الفتاح إمام	لورانس جين	٣٩٧ - نيتشه
ت : إمام عبد الفتاح إمام	فيليب تودي	٣٩٨ - سارتر
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ديفيد ميروفتس	٣٩٩ - كامى
ت : باهر الجوهري	مشياثيل إنده	٤٠٠ - مومو
ت : معدوح عبد المنعم	زيادون ساردر	٤٠١ - الرياضيات
ت : معدوح عبد المنعم	ج . ب . ماك أيفوى	٤٠٢ - هوكنج
ت : عماد حسن بكر	تودور شتورم	٤٠٣ - رية المطر والملابس تصنع الناس

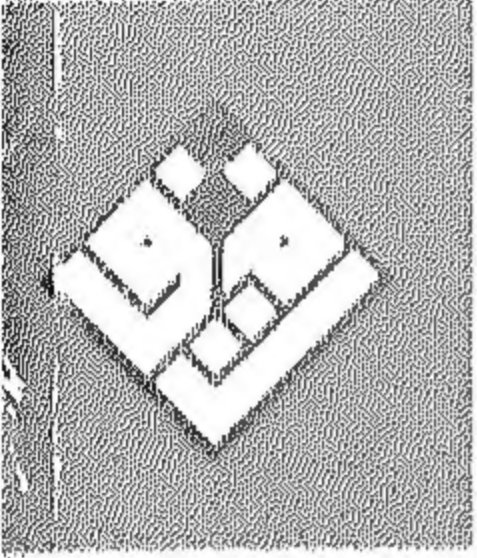
ت : ظبية خميس	ديفيد إبرام	٤٠٤ - تعويذة الحسى
ت : حمادة إبراهيم	أندريه جيد	٤٠٥ - إيزابيل
ت : جمال أحمد عبد الرحمن	مانويلا مانتاناريس	٤٠٦ - المستعربون الإسبان فى القرن ١٩
ت : طلعت شاهين	أقلام مختلفة	٤٠٧ - الألب الإسبانى المعاصر بقلم كتبه
ت : عنان الشهاوى	جوان فوشركنج	٤٠٨ - معجم تاريخ مصر
ت : إلهامى عمارة	برتراند راسل	٤٠٩ - انتصار السعادة
ت : الزواوى بغورة	كارل بوبر	٤١٠ - خلاصة القرن
ت : أحمد مستجير	جينيغر أكرمان	٤١١ - همس من الماضى
ت : نخبة	ليفى بروفنسال	٤١٢ - تاريخ إسبانيا الإسلامية ج ٢
ت : محمد البخارى	ناظم حكمت	٤١٣ - أغنيات المنفى
ت : أمل الصبان	باسكال كازانوفنا	٤١٤ - الجمهورية العالمية للكاداب
ت : أحمد كامل عبد الرحيم	فريدريش دورنيماث	٤١٥ - صورة كوكب
ت : مصطفى بدوى	أ. أ. رتشاردن	٤١٦ - مبادئ النقد الأدبى والعلم والشعر
ت : مجاهد عبد المنعم مجاهد	رينيه ويليك	٤١٧ - تاريخ النقد الأدبى الحديث ج ٥
ت : عبد الرحمن الشيخ	جين هاثواى	٤١٨ - سياسات الزمر الحاكمة فى مصر العثمانية
ت : نسيم مجلى	جون ماريو	٤١٩ - العصر الذهبى للإسكندرية
ت : الطيب بن رجب	فولتير	٤٢٠ - مكرو ميچاس
ت : أشرف محمد كيلانى	روى متحدة	٤٢١ - الولاء والقيادة فى المجتمع الإسلامى
ت : عبد الله عبد الرازق إبراهيم	نخبة	٤٢٢ - رحلة لاستكشاف أفريقيا ج ١
ت : وحيد النقاش	نخبة	٤٢٣ - إسراءات الرجل الطيف
ت : محمد علاء الدين منصور	نور الدين عبد الرحمن الجامى	٤٢٤ - لوائح الحق ولوامع العشق
ت : محمود سلامة علاوى	محمود طلوعى	٤٢٥ - من طاووس حتى فرح
ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب	نخبة	٤٢٦ - الغلايش واصم أخرى من أفغانستان
ت : ثريا شلبى	باى إنكلان	٤٢٧ - بانديراس الطاغية
ت : محمد أمان صافى	محمد هوتك	٤٢٨ - الخزانة الخفية
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ليود سبنسر وأندرزجى كروز	٤٢٩ - هيجل
ت : إمام عبد الفتاح إمام	كرستوفر وائت وأندرزجى كليموفسكى	٤٣٠ - كانط
ت : إمام عبد الفتاح إمام	كريس هيروكس وزوران جفتيك	٤٣١ - فوكو
ت : إمام عبد الفتاح إمام	باتريك كبرى وأوسكار زاريت	٤٣٢ - ماكياڤلى
ت : حمدى الجابرى	ديفيد نوريس وكارل فلنت	٤٣٣ - جويس
ت : عصام حجازى	بونكان هيث وچودن بورهام	٤٣٤ - الرمانسية
ت : ناجى رشوان	نيكولاس زديبرج	٤٣٥ - توجهات ما بعد الحدائة
ت : إمام عبد الفتاح إمام	فريدريك كوبلستون	٤٣٦ - تاريخ الفلسفة (مج ١)
ت : جلال السعيد الحفناوى	شميلى النعمانى	٤٣٧ - رحالة هندى فى بلاد الشرق
ت : عايدة سيف الدولة	إيمان ضياء الدين بيروس	٤٣٨ - بطلات وضحايا
ت : محمد علاء الدين منصور وعبد الحفيظ يعقوب	صدر الدين عينى	٤٣٩ - موت المرابى
ت : محمد الشرقاوى	كرستن بروسناد	٤٤٠ - قواعد اللهجات العربية

ت : فخرى لييب	أروندهاتي روى	٤٤١ - رب الأشياء الصغيرة
ت : ماهر جويجاتي	فوزية أسعد	٤٤٢ - حتشبسوت (المرأة الفرعونية)
ت : محمد الشرقاوي	كيس نرستينغ	٤٤٣ - اللغة العربية
ت : صالح علماتي	لاوريت سيجورنه	٤٤٤ - أمريكا اللاتينية : الثقافات القيمة
ت : محمد محمد يونس	پرويز نائل خانلري	٤٤٥ - حول وزن الشعر
ت : أحمد محمود	ألكسندر كوكيرن وجيفري سانت كلير	٤٤٦ - التحالف الأسود
ت : ممدوح عبد المنعم	ج. پ. ماك ايفوي	٤٤٧ - نظرية الكم
ت : ممدوح عبد المنعم	ديلان ايفانز - أوسكار زاريت	٤٤٨ - علم نفس التطور
ت : جمال الجزيري	مجموعة	٤٤٩ - الحركة النسائية
ت : جمال الجزيري	صوفيا فوكا - ريبكارايت	٤٥٠ - ما بعد الحركة النسائية
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ريتشارد أوزبورن / بورن فان لون	٤٥١ - الفلسفة الشرقية
ت : محي الدين مزيد	ريتشارد إيجنانزي / أوسكار زاريت	٤٥٢ - لينين والثورة الروسية
ت : خليوم طوسون وفؤاد الدهان	جان لوك أرنو	٤٥٣ - القاهرة : إقامة مدينة حديثة
ت : سوزان خليل	رينيه بريڊال	٤٥٤ - خمسون عاماً من السينما الفرنسية
ت : محمود سيد أحمد	فردريك كوبلستون	٤٥٥ - تاريخ الفلسفة الحديثة (مج ٥)
ت : هويدا عزت محمد	مريم جعفرى	٤٥٦ - لا تنسنى
ت : إمام عبد الفتاح إمام	سوزان مولر اوكين	٤٥٧ - النساء في الفكر السياسي الغربي
ت : جمال عبد الرحمن	خوليو كارو باروخا	٤٥٨ - الموريسكيون الأندلسيون
ت : جلال البنا	توم تينتبرج	٤٥٩ - مفهوم لاقتصاديات الموارد الطبيعية
ت : إمام عبد الفتاح إمام	ستوارت هود - ليتزا جانستز	٤٦٠ - الفاشية والنازية
ت : إمام عبد الفتاح إمام	داريان ليدر - جودي جروفز	٤٦١ - لكان
ت : عبد الرشيد الصادق محمودى	عبد الرشيد الصادق محمودى	٤٦٢ - مله حسين من الأزهر إلى السوريين
ت : كمال السيد	ويليام بلوم	٤٦٣ - الدولة المارقة
ت : حصة منيف	ميكائيل بارنتي	٤٦٤ - ديمقراطية القلة
ت : جمال الرفاعي	لويس جنزيرج	٤٦٥ - قصص اليهود
ت : فاطمة محمود	فيولين فانويك	٤٦٦ - حكايات حب ويطولات فرعونية
ت : ربيع وهبة	ستيفين ديلى	٤٦٧ - التفكير السياسي
ت : أحمد الأنصاري	جوزايا رويس	٤٦٨ - روح الفلسفة الحديثة
ت : مجدى عبد الرازق	نصوص حبشية قديمة	٤٦٩ - جلال الملوك
ت : محمد السيد الننة	نخبة	٤٧٠ - الأراضى والجودة البيئية
ت : عبد الله الرازق إبراهيم	نخبة	٤٧١ - رحلة لاستكشاف أفريقيا ج ٢
ت : سليمان العطار	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	٤٧٢ - دون كيخوتي (القسم الأول)
ت : سليمان العطار	ميجيل دى ثريانتس سابيدرا	٤٧٣ - دون كيخوتي (القسم الثانى)
ت : سهام عبد السلام	بام موريس	٤٧٤ - الأدب والنسوية
ت : عادل هلال عتاني	فرجينيا دانيلسون	٤٧٥ - صوت مصر : أم كلثوم
ت : سحر توفيق	ماريلين بوث	٤٧٦ - أرض الحبايب بعيدة : بيم تونسى
ت : أشرف كيلانى	هيلدا هوخام	٤٧٧ - تاريخ الصين

ت : عبد العزيز حمدي	ليوشيه شنچ واى شى دونج	٤٧٨ - الصين والولايات المتحدة
ت : عبد العزيز حمدي	لاوشه	٤٧٩ - المقهى (مسرحية صينية)
ت : عبد العزيز حمدي	كو مو روا	٤٨٠ - تساي ون جى (مسرحية صينية)
ت : رضوان السيد	روى متحدة	٤٨١ - عبادة النبي
ت : فاطمة محمود	روبير جاك تيبو	٤٨٢ - مرسومة الاساطير والرموز الفرعونية
ت : أحمد الشامى	سارة چامبل	٤٨٣ - النسوية وما بعد النسوية
ت : رشيد بنحدو	هانسن روبييرت يابوس	٤٨٤ - جمالية التلقى
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم	نذير أحمد الدهلوى	٤٨٥ - التوبة (رواية)
ت : عبد الحلیم عبد الغنى رجب	يان أسمن	٤٨٦ - الذاكرة الحضارية
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم	رفيع الدين المراد أبادى	٤٨٧ - الرحلة الهندية إلى الجزيرة العربية
ت : سمير عبد الحميد إبراهيم	نخبة	٤٨٨ - الحب الذى كان وقصائد أخرى
ت : محمود رجب	هُسْرُل	٤٨٩ - هُسْرُل : الفلسفة علماً دقيقاً
ت : عبد الوهاب علوب	محمد قدرى	٤٩٠ - أسفار البيغاء
ت : سمير عبد ربه	نخبة	٤٩١ - نصوص قصصية من روائع الأدب الأفريقى
ت : محمد رفعت عواد	جى فارجيت	٤٩٢ - محمد على مؤسس مصر الحديثة
ت : محمد صالح الضالع	هارولد بالمر	٤٩٣ - خطابات إلى طالب الصوتيات
ت : شريف الصيفى	نصوص مصرية قديمة	٤٩٤ - كتاب الموتى (الخروج فى النهار)
ت : حسن عبد ربه المصرى	إدوارد تيفان	٤٩٥ - اللوى
ت : مجموعة من المترجمين	إكوادو بانولى	٤٩٦ - الحكم والسياسة فى أفريقيا
ت : مصطفى رياض	نادية العلى	٤٩٧ - العلمانية والنوع والنزعة فى الشرق الأوسط

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

رقم الإيداع ١٧٥٨٧ / ٢٠٠٢



تستكشف نادية العلى فى هذا الكتاب الأهمية الأنثروبولوجية والسياسية لأنشطة النساء ذوات الاتجاه العلمانى، وذلك بتسليط الضوء على الحركة النسائية فى مصر الحديثة، وهى فى بحثها تتصدى للصور النمطية للنساء العرب بوصفهن ضحايا سلبيات، وتوضح كيف يناضلن من أجل الحصول على حقوقهن ويتصدّين للقوى المحافظة، وتقيم المؤلفة حجتها على أساس من مقابلات أجرتها مع ثمانين سيدة أمدتها بنظرات ثاقبة فى تاريخ الحركة النسائية المصرية، وأهداف الجماعات النسائية والناشطات وأولوياتهن، وتأثير الدولة المصرية والدوائر الإسلامية على الأنشطة النسائية بوجه عام. وتحدد المؤلفة - من خلال هذا المنهج - أحد أهم موضوعات كتابها، ألا وهو إعادة صياغة العلمانية فى الشرق الأوسط والعالم الإسلامى، ويتمثل إسهام آخر للكتاب فى تحديه للتفسيرات السائدة التى تروج للانقسام ما بين «الغرب» و«الشرق»، وفى هذا المقام، تحاول الباحثة أن تتخطى مفاهيم الثقافة بوصفها وحدة محددة، وأن تعترف بالتعقيدات واللقاءات المثمرة بين الثقافات. وخلال الكتاب، تعالج المؤلفة التوازن بين المادة الفكرية والمادة التجريبية بمهارة، كما تقوم بوضع عملها فى إطار الجدل النظرى القائم فى دراسات الشرق الأوسط، وبحوث ما بعد الاستعمار. وعلى الرغم من أن بعض الأفكار تتسم بالتعقيد فإن أسلوبها السلس الجذاب يجعل الفهم ميسوراً.

**لوحة الغلاف للفنانة نحية حلیم
تصميم الغلاف امین الصیرفى**